

المكتبة الفلسفية

المشكلة الفلسفية

في القرن السابع الهجري

دراسة في فكر العلامة ابن المطهر الحلي ورجال عصره

تأليف الدكتور

صالح مهدي هاشم

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الثانية

2014 / 1435 هـ

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

٢٥٩٣٦٢٧٧ / فاكس: ٢٥٩٣٨٤١١ - ٢٥٩٢٢٦٢٠

E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

٢٠٠٥/٨١٠٠	رقم الايداع
977-341 - 205-9	الترقيم الدولي I.S.B.N

المقدمة

يرى الباحث - من خلال جملة أسباب تجمعت لديه سواء منها التي كانت على ساحات المسائل السياسية والعسكرية عامة، أم التي كانت على ساحات الفكر العربي الإسلامي خاصة- إن القرن السابع الهجري كان من أخطر القرون التي شهدتها الأمة، بل كان من أصعبها أحداثاً، أخطرها أهدافاً وأسوأها نتائج وتبعات ...

كان القرن السابع الهجري نقطة تحول نحو الهاوية، التي لما نزل قائمة، لم تستفق الشعوب من صدمتها، ومما لحق بعدها من كوارث متعاقبة، نعيشها حتى الساعة ، بل وكان من ذيولها الأمر الذي نرى .

حاولت الخلافة بمؤسساتها كافة، ما استطاعت، وبما وسعها الجهد، من التحرر من ضغوط المحتلين، والارتقاء بالأمة من الكبوة إلى النهوض . وقد آتت هذه الجهود أكلها عصر الخليفة الناصر لدين الله "ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م" وبددت بعد موته مباشرة ...

ومن هنا تأتي أهمية اختيار الدراسة في أحداث هذا القرن، وهي وان اتخذت منحىً فكرياً في غلاف فلسفي، ولكنها في صميم الاختصاص { دراسة تاريخية } تعالج مسائل هذا القرن التاريخية من وجهة نظر مفكره ومتكلميه وفلاسفته ...

في الدراسة أفكار مثلت جملة خطابات، وضمت مجموعة مفاهيم، وتناولت عدة مصطلحات واطلعت على الكثير من المناهج، و أقرت الجميل من الحلول . تناولناها بحرص، بدون عقد، بدون طرح مسبق ، وبذهن مفتوح .

هدفنا معرفة الحق، وإن كانت معرفة الحق مسألة نسبية، نسلط الضوء على المنابع، ونستقري التراث بمحبة، ونعامل مع الأحداث بقدر الإمكان والممكن والمتاح، في زمن منفلت، سرق في عتمته الكتاب، واحترقت في نيرانه المكتبات ...

ليس في نيتنا أبدا التحزب لوجهة نظر على حساب الأخرى، أو الانتصار لرأي دون الآخر ... القرن السابع الهجري - كما قلنا - من أخطر المراحل التي مرت بالأمّة، تشابكت به الأمور المتضادة، وازدوجت في جوانبه المخاطر العظام ...

ولكن الدراسة مع التراث باعتباره ملكا للجميع وما كان فيه من صراع أو حوار، ينبغي أن يوظف لصالح هذا التراث بالصيغة التي تخدم الأمّة ... طريقنا هادف ومحدد، لم نمارس النقد من أجل تقديم رأي على آخر، أو الانتصار لفكر دون غيره، بل من أجل الإشارة إلى الحي المشرق من ذلك التراث، والدلالة إلى الميت المتخشب، دون التعرض للذوات من السلف الصالح { رضي الله عنهم } أو غمز أي منهم، بل نترك ذلك إلى حكم الوثائق، وما ضمت بين ثناياها دون تدخل ...

شعارنا " العقول الكبيرة تناقش المبادئ" ...

الأمر الآخر الذي تلمسته الدراسة، وصار واضحا بين يديها : إن المخاطر والتحديات التي واجهت الأمّة العربية الإسلامية في القرن السابع الهجري، هي نفسها تواجه الأمّة الآن - بصيغة أو بأخرى - وإن اتخذت أشكالا وأنماطا متعددة، بها حاجة إلى مزيد من التدقيق لاستنباط العبر، وتلمس الطريق ... الغزو والاحتلال الذي مارسه المغول وعلى الخصوص خلال الفترة من { ٦١٦-٦٥٦ هـ / ١٢١٩-١٢٥٨م } ، عاد من جديد يهدد الأمّة، يعيث بثوابتها، بحجة وبدونها ...

الذي اتّلع الصدر، و أزال الغم، أن القتل والغزاة المغول عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م سرعان ما انقلبوا على أنفسهم، بعد أن بدت لهم سوءاتهم، فكفروا عن ذنوبهم وغسلوا أدران بؤس أعمالهم، حين دخل نور الإسلام إلى قلوبهم، يوم وعوا الطريق، فسلكوا أرحبه، ويوم عادوا إلى العقول، فتلمسوا الحقائق ...

فصاروا من دعاة الإسلام ومن حماة، وكان لهم الفضل في نشره في ديارهم ...

أما المحتلون هذه الأيام، فما زال نور الإسلام بعيداً عنهم ... والله في خلقه شؤون

جاء نطاق البحث في هذه الدراسة من مقدمة وثمانى فصول، وعززت الدراسة في نهايتها بخاتمة لخصت النتائج، وأشارت إلى المهم من الأحداث وأوصت بما وجدته نافعا .

مقدمة البحث تناولت ثلاثة أمور .

أولها: تحديد أهداف الدراسة، وبيان أهمية اختيار الموضوع .

وكان الأمر الآخر: في نطاق الدراسة، وفي أبعاد أحداثها، وكما تشير إلى مجمل موضوعاتها...

وانتهت بالتعريف بأهم مصادرها، وما رجعت إليه من مراجع ، ومقدار ما استفاد كل فصل من فصولها من تجارب السلف الصالح، وغيرهم من الباحثين في المضامين التي تناولتها الدراسة ...

عاقدين العزم على أن لا يكون الباحث هنا مقلداً أو توكلياً أو ناسخاً مجترأً

...

كان الفصل الأول تحت عنوان (الدولة العربية الإسلامية، دراسة في التاريخ السياسي)، درسنا فيه ((الخلافة العباسية، عصر الخليفة الناصر لدين الله" ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)) .

فأثبتنا : أن عصر هذا الخليفة كان عصر نهوض ، وطدت فيه الدولة العباسية استقلالها وأمنت به الرعية، واستقرت به الأحوال المعاشية، في زمن اتصف بالفوضى والاضطراب، سواء في شرقي الأمة حيث قبائل المغول، أم في غربيها حيث حملات الصليبيين وحروبهم .

ووجدت الدراسة أن عسكرة الشعب ونظام الفتوة والكشافة وتدريب الشباب وزجه في جهاز البريد على وفق ضوابط، أحسن الخليفة الناصر إعدادها، كان ضماناً لدفع الكثير من الشرور...

ودرسنا في الفصل الثاني ، الأمر في عصر حل فيه جهاز البريد، وتكرر قاداته لمبدأ عسكرة الشعب، وعاب نظام الفتوة، واستخلف رجلاً قال في أول يوم خلافته : (من فتح دكاناً بعد العصر كيف يكسب)، فضاع الخليفة وضاعت آلامه معه، رغم شهور حكمه التسعة.

ثم جاء من بعده قوم لا يفقهون ما كان يفقهه الخليفة الناصر، فمال ميزان الأمة نحو الكبوة والسقوط...

وتصدى الفصل الثالث لدراسة الغزو المغولي للعراق، و تفصيلات حملات هولاكو ودخوله بغداد، وإسقاطه الدولة العباسية، حتى جاءت معركة (عين جالوت) فأوقفت إلى حد ما النزيف الحاصل. مات على أثرها هولاكو بالسكتة... ودرسنا في ثنايا البحث حال الأمة، وتطور المعارك بين تيار الإسلاميين وتيار أعدائهم حتى نهاية القرن السابع...

ثم توقفت الدراسة قليلاً عند بعض الأحداث وسجلت فيها مواقف قد تكون مخالفة لآراء سابقة منها: ((القبة المخروطية للست زبيدة))، و ((المدرسة المستعصمية)) ونحو ذلك من أحداث ضمها هذا القرن

وكان الفصل الرابع في (علم الكلام) وما تميز به في القرن السابع الهجري وعززناه بدراسة شخصيات مختارة، ممن برز في هذا العلم، مثل فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) و سديد الدين بن عزيزة (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) و الشيخ الأمدي (٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م) وأنهيينا اختيار النماذج من متكلمي هذا القرن بالشيخ عبد الرحمن الأيجي (ت ٧٥٣ هـ / ١٣٥٧ م) .

وكان الفصل الخامس في تفصيل مميزات (علم أصول الفقه) في القرن السابع الهجري فوجدنا العلماء قد فصلوا القول في العبادات، و جمدوا القول في

المعاملات إلا ما يخدم الحكام، وأوقفوا نهائيا القول في أصول فقه السياسة تحت حد السيف .

واخترنا من رموز هذا العلم في ذلك العصر كلاً من الشيخ ميثم البحراني (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م) و الشيخ المحقق الحلي (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) والشيخ ابن تيمية (ت ٧٢٨ / ١٣٢٨ م) ...

وكان الفصل السادس، في ((الفلسفة العربية الإسلامية))، بما هي فلسفة عربية إسلامية دون غيرها من الفلسفات، فعددها ثالث القواعد للمشهد الفكري في القرن السابع الهجري، الذي تكاملت تحت خيمته الممتدة كل الفعاليات والأطيان التي رفعت بإيجابية ملحوظة راية الحوار الحضاري، وفتحت جميع النوافذ على رياح الثقافات في زمانها من دون أن تسمح لهذه الرياح زحزحة البيوت عن أماكنها ...

وقد وجدت الدراسة في القرن السابع الهجري أنه قد برز فيه العشرات من الفلاسفة العرب المسلمين، كل منهم يستحق الوقوف عنده ودراسة فلسفته، غير أن الدراسة اختارت اثنين منهم لا باعتبارهم هم الأحسن أو الأجود، ولكنهما كانا يمثلان طريقين مختلفين في السلوك والطرح والانتماء، هما الشيخ نصير الدين الطوسي وعز الدولة ابن كمونة .

وكان الفصل السابع في علم التصوف العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري، فقد وجدت الدراسة أن في هذا القرن من تاريخ الأمة كان ثمرة كاملة لجميع المراحل التاريخية السابقة عليه، بما اكتنزت فعالياته من تراكم حضاري، وما أضافت من زخم ثقافي، ازدهر التصوف فيه بصيغ لم تعرف من قبل، وتميز بأمور عمقت من جذوره، سواء منها التي كانت بالشكل العام للتصوف مثل المجاهدة والكشف والكرامات والشطح، أم فيما تميز في مضمونه ولعل منها تعايش السلطة مع التصوف، ومنحه الصفة الشرعية، أم في صيرورته "فلسفي المخبر صوفي المظهر". أم في كونه قد انفتح على العقل أكثر مما سبق ونحو

ذلك، أم في آثاره الاجتماعية التي كانت واضحة في القرن السابع، وقد اخترنا بعضاً من أعلامه : منهم الشيخ عمر السهروردي (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) أنموذجاً للتصوف الرسمي، والشيخ عمر بن الفارض (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م) في نظرية (الحب الإلهي)، و الشيخ محيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) في فلسفة (وحدة الوجود) .

وكان الفصل الثامن في العلامة ابن المطهر الحلي و في إضمامة من فكره، وقبس من كتبه، ظهر من خلالها براعة أساتذة ذلك العصر، وكثرة مصادره . وكتبه وتوفرها في مكتبات خاصة وعامة . وقد تفرع هذا الفصل الى مباحث : درسنا في المبحث الأول: ابن المطهر الحلي متكلماً، ملتحصين فيه أفكار الحلي، مستوحاة من كتبه المطبوعة .

وكذا الحال نفسه في المبحث الثاني، الذي درسنا فيه (المنطق في فكر ابن المطهر الحلي)، بقلمه وأسلوبه، كل ما كان ذلك ممكناً لكي يأتي البحث حياً . وفعلنا هذا نفسه أيضاً في المبحث الثالث عند دراسة (أصالة الفلسفة الطبيعية في فكر الحلي)، واخترنا آراءه في (الجزء الذي لا يتجزأ)، وفي (الحركة)، وفي (المكان)، وفي (الزمان)، ونحو ذلك من مواقف الفلسفة الطبيعية عند الحلي، ومن ثم الإشارة إلى أصالتها وتميزها عن فكر الفلاسفة في القرون التي سبقت القرن السابع الهجري، ناقلين فكر الحلي بألفاظه وأسلوبه وهيكلته ومعالجته .

وكان المبحث الرابع في (أصالة فلسفة الإلهيات في فكر ابن المطهر الحلي) وموقفه في بعض طروحات الفلاسفة الذين سبقوه وعلى الخصوص وجهة نظره في مسألة قدم العالم وأزليته.

ودرس المبحث الخامس: ابن المطهر الحلي صوفياً، ولقد لحقته كرامات الصوفية وإن لم يلبس خرقتهم، ونسبت له أفعال خارقة، مع انه سفه أقوال الصوفية في "الاتحاد والحلول ووحدة الوجود"، ونحوها، مثل تساهلهم في الواجبات

الشرعية، أو الرقص في الشوارع، أو الغناء في المحافل ... وهي أفعال وجدها الحلي بعيدة عن أساليب التصوف الحقة .

وأنهينا الدراسة كما قلنا بخاتمة، لخصت النتائج وأشارت إلى المهم من الأحداث، وأوصت بما وجدته نافعا من التوصيات .

مؤكدین هنا أن القرن السابع الهجري فيه من الأحداث ما أذهلت الأمة، وعلى الباحثين الرجوع إلى موضوعاته لاستنباط العبر وتلمس الطريق، كي لا تقع ثانية في إشكالاته ...

التعريف بأهم مصادر الكتاب وموارده والبحث فيها

تتوعدت مصادر البحث وموارده في هذه الدراسة، بتنوع أسلوب البحث فيها، وتعدد موضوعاتها، فهي في فصولها الأول والثاني والثالث : دراسة في التاريخ السياسي للدولة العباسية من الخليفة الناصر حتى سقوط الدولة وقيام المغول واحتلالهم العراق .

وفي الفصول من الرابع حتى السابع: تلونت بتلون الفكر الفلسفي في القرن السابع الذي تناولته ... علم الكلام، علم أصول الفقه، الفلسفة العربية الإسلامية، علم التصوف، وهذه مجتمعة الأصول المؤسسة للفكر العربي الإسلامي ... وفي ضوء ذلك اختلفت مصادر وموارد الدراسة باختلاف موضوعات الفصول والمباحث.

في الفصل الأول: كانت كتب التاريخ الرئيسة هي المصدر والمورد المعول عليه، وكان البعض من المؤلفين شهودا عيانا لكثير من الحوادث التي عالجتها الدراسة .

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) في كتابه (الكامل في التاريخ)

وكتاب سبط بن الجوزي ((٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) (مرآة الزمان ...)) .

وكتاب ابن كثير ((٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) (البداية والنهاية)) ، وكتاب

((تاريخ ابن خلدون)) ((٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)) ، وكتاب ((تاريخ السيوطي

(ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، كانت مادة أساسية للمبحث الأول من الفصل الأول،
وتأتي بعدها بدرجة أقل : كتاب الروضتين لابن شامه (٦٦٥ هـ / ١٢٢٧ م
)، وكتاب ابن واصل، مفرج الكروب، ومختصر تاريخ ابن العبري (٦٨٥ هـ /
١٢٨٦ م) وكتاب ((دول الإسلام)) للذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)،
وكتاب احمد بن إبراهيم الحنبلي (قوت القلوب في مناقب بني ايوب)،
ونحوها . . .

واعتمدت في هذا البحث على كتب التراجم والرجال وفي المقدمة منها
(رفيات الأعيان ...) لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٦ م) وكتاب
الوافي بالوفيات، للصفدي (ت ٧٤٦ / ٣٤٥ م) وكتاب (قواث الوفيات) لابن
شاکر الأکبي (٧٦٤ / ٣٦٢ م)، والى حد ما كتاب طبقات الشافعية للسبكي (٧٧١
/ ١٣٦٩ م).

ورجعنا إلى كتاب (البلدان) لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ / ١٢٢٨ م)،
وكتاب "مراصد الإطلاع" لعيد الحق البغدادي (٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) .
وكان الفصل الثاني : عيالا على كتاب (الحوادث الجامعة) وكتاب (
الفخري) في الآداب السلطانية للسيد ابن الطقطقي (٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م)، مع
جميع المصادر التي اعتمدنا عليها في المبحث الأول . . .

وهكذا كان الفصل الثالث : الذي كان عيالا على كتاب الوزير رشيد الدين
فضل الله (٧١٨ هـ / ١٣١٨ م)، "جامع التواريخ".

ولا يعني هذا أن الباحث قد غرض الطرف عن الكتب الرئيسة لعلم التاريخ
العربي الاسلامي ونعني بها اصلا، كتب البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) أو
كتاب تاريخ اليعقوبي (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) أو موسوعة الطبري (٣١٠ هـ /
٩٢٢ م)، (تاريخ الرسل الملوك ..) أو كتاب المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)
(مروج الذهب ..) . لقد غطت هذه الأصول معظم الأمور المهمة في الدراسة .

أما الفصل الرابع : فهو وإن اعتمد في موارده ومصادره على كتب مؤرخي الفكر الفلسفي في ذلك العصر، وكذلك كتب العلماء الذين اختارتهم الدراسة . لم يجعل المصادر الرئيسية التي أشرنا إليها، وراء ظهره، بل كانت مورداً أساسياً أيضاً، إلى جانب كتب المفكرين والعلماء في القرن السابع ..

عند دراسة "علم الكلام" مثل: نستحضر كتب راود الفكر كافة، ونستظهر منها الفكر السائد في القرن السابع، ومن ثم نقارن ما يستحق المقارنة بين كتاب علم الكلام الأخرى، مثال ذلك: شرح الإشارات والتبسيطات لكل من الشيخ فخر الدين الرازي والشيخ نصير الدين الطوسي، أو كتاب (المحصل) للرازي (وتلخيص المحصل) للطوسي، ونقارن إذا استوجب الأمر مع كتاب الآمدي (غاية المرام في علم الكلام)، وكتاب الآيجي (المواقف)، وقد نستعرض ما يمكن استعراضه من كتب الكلام وغير تلك..

ونفعل الشيء نفسه عند دراستنا "لعلم أصول الفقه"، وأعلامه الذين اخترناهم للدراسة في الفصل الخامس، عندها يكون الأساس كتبهم المطبوعة والمتوفرة بين أيدينا .

وهكذا الأمر في الفصل السادس عند دراستنا "الفلسفة العربية الإسلامية"، فقد كانت مراجعنا في دراسة الطوسي، من خلال كتبه التي شرحها ابن المطهر الحلي وفي الصف الأول منها : (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) ونحوها .

وفي دراستنا لعز الدولة ابن كمونه، كتابه (الجديد في الحكمة)

وغيره...

وإذا ما وصلنا بدراستنا للتصوف موضوع الفصل السابع: فقد كانت كتب أعلامه متوفرة حاضرة بين يدي الباحث، سواء منها (عوارف المعارف) للشيخ عمر السهروردي . أم ديوان شعر ابن الفارض . أم كتب ابن عربي التي كانت موارد سهلة ميسرة، ومنها

(فصوص الحكم)، و (الفتوحات المكية) بين أيدينا، وقريبة منا ..

وفي الفصل الثامن والأخير: درسنا فكر العلامة ابن المطهر الحلي مؤلف كتاب "الأسرار الخفية في العلوم العقلية"، وهو علامة فارقة في فكر القرن السابع الهجري ...

فكانت مصادرنا هي ذات الكتاب وما وصلنا من كتب العلامة الحلي العقلية التي جاوزت العشرين كتابا .

وقد حضر بين أيدينا كتاب (نهاية المرام في علم الكلام) وكتاب (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) أو كتابه (إحقاق الحق ونهج المصدق) أو كتابه (أنوار الملوك في شرح الياقوت) و (الباب الحادي عشر) وحتى كتابه (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) وغيرها، دونت في جريدة المصادر .. أما المراجع العربية، فقد كانت قريبة من الرسالة، وموضع تقديرها، وأخص بالذكر منها كتاب الدكتور جعفر خصباك: (العراق في عهد المغول)، فقد كان بين أيدينا عند كتابة الفصل الأول، وكانت كتب الدكتور كامل مصطفى الشبيبي وعلى الخصوص منها (الفكر الشيعي والنزعات الصوفية) وكتاب الدكتور حسام الألوسي (دراسات في الفكر ...) وكتاب الدكتور محمد عابد الجابري (بنية العقل العربي)، خير موارد لتحديث أفكار ابن المطهر الحلي، والعمل في ضوء مستجداتها ...

أما مراجع المستشرقين وما ترجم منها إلى العربية، فقد كانت بين يدي الباحث في دراسة الفكر الفلسفي في القرن السابع، واستفاد منها كثيرا، ورد بما استطاع على المتجنيين من مصنفاتها، وأشار إلى المنصفين منهم ...

كانت مكتبة الشيخ الجليل حسين علي محفوظ بنواذرها وكنوزها، خير معين في زمن انغلقت به المكتبات العامة ... ولا أنسى منظره المعبر وهو يحمل لي كتبه من رفوف المكتبة العالية، وبقامته المنحنية التي تكاد تلامس الأرض من ثقل ما حمل ...

أما مكتبة الأستاذ الدكتور حسن مجيد العبيدي الجديدة الغرس، القديمة الفكر، فكانت لي خير معين، أنستني محنة مكتبتنا العامة .

وجدت : الدكتور العبيدي - ومن أول يوم - قامة مديدة، يسندني، يخفف آلام مرضي، يقوّم عثراتي، لم يَنَلْ منه التعب ساعة واحدة، ولم يمل مراجعاتي في أي وقت، أثناء الليل كان هذا . أم أطراف النهار، ولولا هاتان المكتبتان لما تمكنت من إنجاز ما أنجزته ...

الشكر والثناء لهما، والله سبحانه خير من يجزي عباده الصالحين .

أما من يستحق الشكر والثناء بعد هذين القميتين، فهم من حفظ مكتبتي، وكانوا لها حراساً، يدفعون عنها البلاء، يفقهون ما بها، ويحددون مكان النافع منها لأطروحتي، كانوا عيوناً لي يوم كَلَّ النظر، وأطباء يمرضونني يوم تكالب عليّ مرضٌ لا يرجى شفاؤه، يتحملون آلام قبلي، والأوجاع أكثر مني، أخص بالذكر منهم : أم مفيد زوجتي، صديقتي، حمال همي، شريكة آلامي، هي مريضة أكثر مني، لأنني أعاني....

ولدي مفيد الذي تركته ينوء بالحمل وحده...

ابنتي ضحى وشروق عيني التي ابصر بهما، وبدي التي أعمل بهما، يوم عز عليّ العمل بالحاسوب.

وفق الله الجميع بالخير

الباحث



الفصل الأول

الدولة العربية الإسلامية / دراسة في التاريخ
السياسي

الخلافة العباسية من الكبوة إلى النهوض

عصر الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ / ١١٧٨ م -
٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)

الفصل الأول

الخلافة العباسية من الكبوة الى النهوض

(الخليفة الناصر لدين الله^(١) (٥٧٥-٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م)^(٢))

أمتد عصر الخليفة الناصر لدين الله إلى ما يقارب الربع من القرن السابع الهجري موضوع بحث هذه الرسالة، والباحث عندما يتصدى لدراسة أحداث هذه الفترة قد يؤسس لاشكالية دراسة ظروف تأليف كتاب (الأسرار الخفية في العلوم

(١) أبو العباس أحمد ابن الخليفة المستضيئ بأمر الله ، ولد عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٧ م ، بويع
نه بالخلافة بعد موت أبيه عام ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م وتوفي عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م /
بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة ، ولم يل الخلافة : خليفة أطول مدة منه ، سواء كان من
أسلافه أم ممن جاء بعده ... وهو الخليفة الرابع والثلاثون من خلفاء دولة بني العباس ،
ولم تستمر الدولة بعده إلا أربعا وثلاثين سنة ، حكم فيها ثلاثة خلفاء من بعده هم ولده
الظاهر بأمر الله ، وحفيده المستنصر بالله ، وأبن حفيده الخليفة الشهيد المستعصم بالله ...
لمزيد من التفاصيل التاريخية : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ١٠ ص ٢٥٥ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦ ،
ابن الأثير ، الكامل ج ٩ ص ١٠٨ - ١٨١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية / ج ١٣ ص
١٠٦ في بعد سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣٥ ، ابن العبري ، تاريخ
مختصر الدولة ، ص ٢٣٧ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٢ وكتابه دولة
الإسلام ، حوادث ٦٢٢ هـ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤٨ فما بعد ...

(٢) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١١٥٣ م) ، ((المنتظم في
تاريخ الملوك والأمم)) المطبوع في بغداد ابتداء من الجزء الخامس ، ١٩٩١ ، ج ١٠
ص ٢٢٣ ، ص ٢٥٥ ص ٢٥٦ .

ابن الأثير ، عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
الكامل في التاريخ

ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكثاني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) رحلة ابن
جبير ، بيروت ، دار صادر ، بلا تاريخ .

ابن طقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا ، ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) ، الفخري في الآداب
ب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٢ فما بعد .

العقلية) ، و حياة مؤلفه ، وهو أمر ضروري لاستخلاص النتائج ، والإحاطة بموضوع الرسالة ...

كان عصر الخليفة الناصر لدين الله عصر نهوض ((وطدت فيه الدولة العباسية استقلالها ، وأمنت فيه الرعية من كل خوف ، فرتعت في طمأنينة مستدامة ، وعدل شامل ، وحرية واسعة، وعيش رغيد ،^(١) كما أكد الدكتور مصطفى جواد في دراسته لهذا العصر ...^(٢)

ويقول ابن جبير في رحلته عن الرعية في ذلك العصر، وقد شاهد الخليفة الناصر عيانا ، قد أستسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له ،^(٣) ابن الطقطقي محمد بن طباطبا- وهو قريب عهد بالأحداث(٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) يصرح ان الناصر لدين الله ، كان فاضل السيرة، بصيراً بالأمور ، مقداماً ذكياً ، وان كان قد غمز بأنه شديد الإعجاب بالذهب ، قوي الرغبة في تملكه، وانه ملأ بركة بالذهب ظل ينميها بشراة..

ومع هذا ((كان يفاوض العلماء مفاوضة خبير ، ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير.. طالبت مدته وصفا له الملك واحب مباشرة أحوال الرغبة بنفسه ، حتى كان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم))^(٤).

(١) د. مصطفى جواد ، مقدمة (كتاب نساء الخلفاء ..) دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب. بلا تاريخ .

(٢) (عصر الخليفة الناصر لدين الله) ، رسالة مقدمة لجامعة السوربون.

(٣) ابن جبير ، محمد بن احمد الكناي الأندلسي ، (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) ، الرحلة .

(٤) ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا ، (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، (بيروت ١٩٦٦)، ص ٣٢٢ .

أما ابن الأثير فهو يشكك في نزاهة هذا الخليفة ، وله رأي فيه مخالف ، و أنهمة بالتآمر ضد المسلمين ، وأنه كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً متعسفاً ، اكثر عليهم الجواسيس . (١)

في حين أن علاء الدين عطا ملك الجويني ، مؤرخ التتر ووكيلهم على بغداد اكثر من عشرين عاماً (من ٦٥٧ الى ٦٨١ هـ) ، كان يغمز الخليفة الناصر أيضاً بقوله انه كان يبعث بوفوده ورسائله إلى خانات القر خطاي يدعوهم الى محاربة الإدارة الخوارزمية (٢) ..

وتأسيساً على ذلك لم يرى باحث معاصر الخليفة الناصر من الإسهام مع الخلفاء الثلاثة الآخرين الذين جاءوا بعد الخليفة الناصر وهم ابنه وحفيده وابن حفيده من إغفال الخطر المغولي وتمكين هؤلاء الغزاة من دخول بغداد وإسقاط الدولة العباسية . (٣)

ولكن الباحث و على الرغم من كل ذلك ، وجد أن الخليفة الناصر لـدين الله كان رجل دولة قديراً ناجحاً يتسم بالدبلوماسية والدهاء ، شجاعاً جسوراً (٤) يحب المغامرة بعد أن يعيها ، يدرك مسؤولياته الى جانب ثقافته وحصافته ومعرفته بأمور الدين والدنيا ، الأمر الذي مكنه من أن يمارس صلاحياته على أحسن وجه (٥)

في زمن أنتصف بالفوضى والاضطراب سواء في شرق الدولة حيث قبائل المغول المتوحشة في ضجيجها المستمر على حافة الحدود للدولة العربية

(١) ابن الطقطقي ، الفخري ص ٣٢٢ ، حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٣٧

(٢) الجويني ، علاء الدين عطا ملك ، (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، (تاريخ جهانكشاي) .

(٣) خصباك ، د جعفر حسين ، العراق في عهد المغول الياقانيين ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١٤٢ .

(٤) الذهبي ، (أعلام النبلاء) ج ٢٣ ص ١٩٩ السيوطي ، المصدر السابق ص ٤٤٨

(٥) الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢٣ ص ١٩٥ ، الذهبي ، دولة الإسلام ، حوادث عام ٦٥٦

الإسلامية أم غربها مع الصليبيين في حروبهم . تمكن هذا الخليفة الفذ بما لديه من مواهب أن يوحد صفوف الأمة ، ويعزز من مكانتها ، وينهي النفوذ السلجوقي ويهدم دار السلطنة ^(١) ويعيد للولايات الإسلامية المتنافرة الوئام والألفة ، ويجمع الجيش على أحسن حال ، وينفق عليه الأموال ^(٢) ويجهزه بأحسن ما في عصره من وسائل عسكرية، ويعزز الثقة فيما بين قادته ويزيد من أرزاق جنده ، ويضاعف مكافآتهم ، ويكرم عوائلهم حال غيابهم ويمد يد العون إلى نسائهم وأولادهم بما يكفل كرامتهم ، فكان عهده حافلا بالأمجاد ساد فيه الأمن والسلام ، وانتشرت في ربوعه الرفاهية والازدهار . . .

الفتوة وعسكرة الشعب

كان الخليفة الناصر من المتحمسين لنظام الفتوة والكشافة وتدريب الشباب ((ولبس لباس الفتوة والبسه القادة ، وتفتى له خلق كثيرون من شرق الأرض و غربها)) ^(٣).

وهذا النظام بصيغته الشبابية ، وبفكره العسكري وإتجاهه الديني الملتزم ، معروف قبل الخليفة الناصر ، ويبدو أن فكرته جاءت من قوله تعالى ((أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)) ^(٤)، ومن المؤرخين من يرجعه إلى الحديث النبوي الشريف ((لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي)) ، ومن المؤرخين من حاول ربط حركة العيارين بالفتوة ونظامها .

(١) ابن الطقطقي ، الفخري ص ٣٢٢ ، حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٣٣٧ .

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٩ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ ، ٦٠ / الذهبي المصدر السابق / ج ٢٣ ص ١٩٣ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٥ وكتابه دولة الإسلام ، حوادث ٦٢٢ هـ

(٣) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٣٢٢

(٤) سورة الكهف آية ١٣ .

وهي نظرة لا تخلو من مبالغة على أحسن الوجوه ، للاختلاف الجوهرى بين الحركتين ، فالفتوة حركة شبابية عسكرية دينية منظمة وملتزمة ، هدفها الدفاع عن دولة الإسلام ونشر مبادئ الدين الحنيف ، وتلك حركة رعاع في كثير من جوانبها ، وغالبا ما توصف باللصوصية والنهب والسلب ، وقتل الأبرياء لمجرد كونهم أغنياء ... وقولنا هذا لايلغي أراء اخرى خلاف ذلك .^(١)

لا بأس أن يكون الخليفة الناصر وقبله الخليفة المهدي بن المنصور (١٥٨ هـ - ١٦٩ هـ)^(٢) ، قد حاولا إصلاح هذه الجماعات وترشيدها وتغيير جوهرها ، فهما لو أقلحا لكانا من أشد المصلحين الاجتماعيين . . .

ولهذا ولأهمية نظام الفتوة - أو ما يعرف اليوم بعسكرة الشعب - فقد ألزم الخليفة الناصر لدين الله جميع حكام الولايات والمعتمدين والوكلاء والمسؤولين في العاصمة بغداد و الأقاليم على اتخاذ ذلك شعارا وسنة والزمهم لبس سراويل الفتوة وملابس الكشافة ، وتزيين صدورهم بالإشارات الدالة عليها والموسومة بها ، والزم هؤلاء أولادهم وحاشيتهم وكل القادرين على حمل السلاح من اتباعهم الانخراط في كتائب الفتوة وتنظيمات الكشافة ، وكان من أبرز القادة الذين شاركوا الخليفة الناصر في نظام الفتوة بكل فعالياتها التي ابتكرها الملك العادل محمد بن أيوب أخ صلاح الدين الأيوبي (ت ٦١٥ هـ - / ١٢١٧ م) وقد لبس هو وحاشيته (سراويل الفتوة)^(٣) ولبسها كذلك الملك الظاهر غازي بن يوسف بن

(١) فصل القول في امر العيارين والشطار، النجار، محمد رجب، حركة العيارين والشطار في التراث العربي، الكويت، عالم المعرفة . . .

(٢) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) الحنبلي / أحمد بن إبراهيم ، (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق د. ناظم رشيد ، بغداد ١٩٧٨ / ص ٢٢٦ قال : في سنة ٦٠٤ هـ أرسل الخليفة الناصر التثريف للملك العادل محمد بن أيوب بيد الصوفي الجليل الشيخ عمر السهروردي ، فبالغ الملك العادل في إكرامه ص ٢١٨

أيوب صاحب حلب (ت ٦١٣ هـ / ١٢١٥ م) ^(١) وكلاهما كانا من قادة بريد الناصر وعيونه ومدده وأمداده في الحروب الصليبية التي توجت بتحرير القدس وطرده الصليبيين منها عام ٥٨٨ هـ - / ١١٩٠ م ، بعد أن دنست أكثر من تسعين عاما ^(٢) . . .

ومن عيون الخليفة وقادة بريده شهاب الدين الغزنوي ، وصاحب كيش ، وألاتابك سعد صاحب شيراز ، ^(٣) وهؤلاء عيونه ومدده وأمداده في الشرق حيث المغول البرابرة ، وما خلفه محمد خوارزم شاه من متاعب للدولة ^(٤) وهذا لا ريب غاية في الإدارة ونهاية في الشجاعة ، وعنوان كبير لتوحيد صفوف الأمة ، وشهادة على ما يتميز به الخليفة الناصر من ولاء قادة الولايات الإسلامية شرقها وغربها . وأنه مركز هذا التنظيم المحكم ورمز لوحده . . .

فكانت هذه التنظيمات معينا مكن من استقطاب الكفاءات الشابة وزجها في جهاز البريد المتين وتنظيم المعلومات الى درجة قيل فيها عن الخليفة الناصر (كأنه يشاهد جميع البلاد وما جاورها بعيون مفتوحة وبدفعة واحدة) ^(٥) . . .

(١) المصدر السابق / ص ٢٥٤ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٥٧٩ ، ابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧١ قال: لقيت في هذا البلد (مكة) من يلبس سراويل الفتيان ولا يستحي في ذلك الرحمان، ولا يعرف شروط السنن والفرائض.

(٢) يعد اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ يوما مرجعا يوم احتل الصليبيون القدس وأستحلوا حرمتها وقتلوا الآلاف من أهلها : أبن الأثير ، الكامل / ج ٨ ص ١٨٩ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزواهر ج ١ ص ١٤٩

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ص ١٩٤ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج ٦ ص ٣٦٢ ، السيوطي / تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨

(٤) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ١٩٣ فما بعد

(٥) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٥ / في رسالة بعثها بها ابن عربي (١٢٣٨ / ١٢٤٠) ، وهو في مكة المكرمة الى شيخه ووليه عبد العزيز المهدي ، وهو في تونس ، تعرف برسالة (روح القدس) ، مؤرخة في ربيع الأول عام (١٢٠٢ / ١٢٠٠ م) ، قال: لقيت في هذا البلد (مكة) من يلبس سراويل الفتيان، ولا يستحي في ذلك الرحمان... هم هكذا الصوفية، يحبون القعود...

جهاز البريد

يتكون جهاز البريد ^(١) زمن الخليفة الناصر لدين الله من ثلاثة أقسام رئيسة هي:-

١_ ديوان البريد وأصحابه ومن هم في منازلهم وأجهزته .

٢_ فعاليات كتائب الطلاع والكشافة وأهل الفتوة .

٣_ الكتاب والسفراء والمعتمدون والموفدون ومن هم بصفاتهم ،

تتمحور هذه النشاطات الثلاثة حول نواة تنظم فعالياتهما وتتسق معلوماتها ...

الأول من هذه الأقسام وهو ديوان البريد ، جهاز قديم معروف منذ زمن قديم ، غير أن الخليفة الناصر لدين الله ، ومنذ الأيام الأولى لخلافته ، وجد في هذه الوسيلة الضمانة لحفظ أمن الدولة وكشف مؤامرات أعدائها ومتابعة مناوئها ، ولذا أولاه أهمية استثنائية ، وتمكن من أن ينظم أموره ، ويعيد رسم خرائط مساراته ، ودروبه ومسالكه ، وبناء منازل البريد بما يكفل أدائها الصحيح ومدها بالعدد والمستلزمات من خيول وبغال ونحوها ، أو العمل لصيانة بيوتهم ورفع الأذى والمعوقات عن طريقه ، وتحديد المسافات بين كل مركز وآخر ، وتأمين الحماية اللازمة للعاملين عليه ، ذلك غير رفده بالعناصر المخلصة ، لان هذا العمل ، كما يقول قدامه بن جعفر ((إنما يحتاج الى الثقة المتحفظ ... وهو أما أن يكون ثقة في نفسه، كأن يكون أميراً أو ابن أمير أو من بيت الامراء ، أو ثقة عند الخليفة القائم بالأمر في وقته))^(٢)

(١) قدامه بن جعفر ، أبو الفرج البغدادي ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق د. محمد حسين

الزبيدي ، بغداد ١٩٨٧ ص ٧٧ - ١٢٩

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ - ٧٨ ، د. مصطفى جواد ، الفتوة والفتيان قديماً . مجلة لغة

العرب ص ٢٤١ - ٢٤٩

ومن المعروف أن واجبات هذا الديوان لم تقتصر على إيصال الكتب والمراسلات والأخبار تباعا الى المسؤولين والخليفة بالتحديد ، أو تنظيم خرائط الطريق وبناء الجسور على الانهار العميقة وتحديد المسافات المناسبة بين منزل ومنزل ، والتعمق في علمي الطرق والجغرافية حسب ، بل تتعداه الى أبعد من ذلك بكثير فمن واجبات صاحب البريد الرئيسة : إطلاع الخليفة على جميع الإحداث المهمة وكأن الخليفة يعيشها وفي صميمها، ومده بصيغة متتالية بمعلومات وافية عن أحوال الرقعة الجغرافية التي فيها صاحب البريد، وان يجعل الخليفة على اتصال دائم وصلة وثيقة بسير الأحداث وحالة المجتمع المعاشية والصحية والأمنية، وتصرفات السلطات القائمة ونحو ذلك من امور مهمة.

اما الثاني من هذه الأقسام (الطليعة)، كما تسمى في كتب التاريخ او كتائب الطلائع وفتيان الكشافة ، فكانت مهامها عسكرية متعددة وخطرة في كثير من الأحيان ، تجدهم في كل مكان من العسكر ، في القلب ، في اليمين ، في اليسار. في أثناء الحروب يتقدمون الجيش عند المسير ، يلبسون الدروع اللامعة، والخوذ الفولاذية والرماح المربوط بأسنتها إعلاما ملونة للتمييز ، وفي بعضها باقات من ريش النعام ، زيادة في الرهبة ، والآخر من هؤلاء : يعد الخرائط ويستكشف ارض المعركة ويحدد مساراتها ويشير الى السالك من شعابها ، ويحدد الأهداف ، وينبه الى مكامن الخطر ، ويصنع الكمائن وينصب الفخاخ، بالإضافة الى تجميع الأخبار ، وإيصال المعلومات وتبليغ الأوامر ... (١)

وقد ابتكر الخليفة الناصر لهذه الكتائب مجالات عمل متعددة ، ووسائل جديدة ونماذج مختلفة ، كان في المقدمة منها استعمال الحمام الزاجل استعمالا علميا متقنا ، فاهتم بأنساب الحمام وتحسين نسله وتوفير الجيد من أنواعه ، ولذا ظهرت في زمانه جماعة من مربّي هذا الحمام ، فكان منهم من يعرفون

(١) ابن المعمار البغدادي ، كتاب الفتوة ، تحقيق د. مصطفى جواد . بغداد ١٩٦٠ ، ص ٢٤١

بأصحاب الحمام ومشايخ أصحاب الحمام، وبألقاب منها الطيوري والبراج ونحو ذلك من وظائف ^(١) تعنتي بتربية الحمام ومتابعة مراسلاته، والحفاظ على سرية ما تحمله هذه الطيور من أخبار و أسرار في طيات أجنحتها...

ولأن هذا الصنف من الرجال هم جزء مهم من سرايا الجيش وأقسامه ، فقد أهتم الخليفة بالطلّاع كثيرا ، فكان كثيرا ما يشرف بنفسه على دورات تدريبهم وتعليمهم وسائل العمل ، اكتساب الخير ، لاسيما تلك التي تساعد الدولة على التحذير والإنذار المبكر التي يذكرها المؤرخون ويعددون أسبابها. ^(٢)

فكما ترأس الخليفة الناصر تنظيمات الفتوة وكتائب الشباب لتوحيدها ، ترأس أيضا تنظيمات الرماة بحسب أحكام الفتوة ، فكان جميع الرماة يرمون باسمه، ويعترفون برئاسته ^(٣)

قال ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ((ومنع الناصر لدين الله الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك)) ^(٤) وجدد الخليفة الناصر لدين الله رمي الطيور بالبندق عن قوس الجلاهق ^(٥) وحدد أصول الرمي بهذه القوس . وعده من كمالات الفتوة و أفانين

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ... ج ١٠ ص ٢٠٣ - ٢٠٦ ، ومن الطيوريين والبراجيين ممن وصل الى رتبة عالية ، منهم المحدث علي ابن الطيوري ، وكان منهم عبد الغني ابن لدرنوسي الذي كان في مبدأ أمره في جملة البراجيين في دار الخلافة عهد الخليفة المستعصم بالله وصار مقربا من الخليفة ((يرأس به الوزير ويشاوره في الأمور ، ويعمل برأيه)) وتوسط بين الخليفة وقائد جيشه ، الدويدار ، الصغير ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٣٦-٤٥٩ ، ٢٣٦ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ١٨٢ حوادث ٦٢٢

(٣) د. مصطفى جواد ، في التراث العربي ، ج ١ ص ٢٢٠

(٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ص ١٨١ فما بعد

(٥) الجلاهق : هو قطعة كروية من الطين مجفف أو رصاص ترمى بها الطير ، وهي فارسية ، وعربيا البندق ، ومن البندق ، كما يقول الدكتور مصطفى جواد ، اشتقت البندقية على طريقة النسبة ، في التراث العربي ، ج ١ ص ٢١٩ .

الشجاعة والقوة^(١) وهو من أول مستلزمات العمل في البريد الذي حرص الخليفة أن يكون في مستوى الأحداث... .

ومن الرياضة، التي كان يمارسها فريق من هؤلاء الفتيان ورجال الطلائع والكشافة ، رياضة قتل السباع ، وصيد الوحوش الضارية ، وهو واحد من الفعاليات التي شجع عليها الخليفة الناصر لدين الله ، ومارسها بنفسه في مواسم مخصوصة واستمرت بعده لسنين طوال ، فقد وجد الخليفة هذه الرياضة من كمالات الفتوة ، و أفانين الشجاعة ومستلزمات القوة وقسوة القلب ،...كان يجتمع لممارسة هذا الفن من فنون الرياضة والقوة البدنية ((من كل محلة (جوقة)^(٢) بين أيديهم اللعابة بالدفوف والزمور ، والمغاني وسائر الملاهي ...

أركبوا شخصا على ثور جعلوه أميرا ، وشهروا بين يديه السيوف الكبيرة، وجعلوا خلفه الأسلحة ، يحاول هذا الأمير أن يعبر عن ذلك المشهد بألفاظ تضحك رعيته مرة وتحفزهم على ما هم ساعون من أجله مرة أخرى...^(٣)

أما المعتمدون والموقودون والسفراء ، وهم القسم الثالث والمهم في فن جهاز البريد على عهد الخليفة الناصر لدين الله ، فهو أيضا من ضروب هذا الفن المعروفة أفردت لها المظان مساحات واسعة لسرد إخباره ، وبيان كفاءة القائمين بأعماله .

يذكر أن الخليفة الناصر لدين الله أراد أن يستكشف عسكرا لاحد خصومه، فارسل قاصدا فشوه هذا وجهه وتجانن، وبدا بثيابه الرثة الممزقة

(١) د. مصطفى جواد ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢١

(٢) جوقة : الجوق ، بمعنى القوم ارتفعت أصواتهم واختلطت، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط ، ط ١٩٨٥ ، ج ١، ص ١٥٣ ، وعند محقق الحوادث الجامعة : لفظة فارسية (جوخ) وتعني الجماعة ، ص ٢٠٣ هامش ٥ ،

(٣) الحوادث الجامعة : ص ٢٠٢ - ٢٠٣

وحماقاته وبلاته ، وكأنه قد جن من زمن بعيد ، ودخل المعسكر على أنه أضاع حماره ، يتهم الحمار مرة ، والجند مرة أخرى ، فسخروا منه وضحكوا وتردد بينهم أربعين يوما ، ثم رجع الى بغداد ، يفيض بالمعلومات المطلوبة . قال : القوم مائة وتسعون الفا يزيدون الفا أو ينقصون .^(١)

كان أمثال هذا المجاهد مبثوثين في سائر الإطراف ((يطالعون الخليفة بجزئيات الأمور وكمياتها))^(٢) يقول أبين الطقطقي : ((كان كل واحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه (الخليفة الناصر) ويحذره ، بحيث كأنه يطالع عليه في داره ، وكثرت جواسيسه ، وأصحاب أخباره عند السلاطين ، وفي أطراف البلاد ، وله في ذلك قصص غريبة))^(٣) وهناك أخبار مذهلة عن إخلاص ، أولئك الفتية من رجال المهمات الصعبة ، رجال البريد ... وتفانيهم في خدمة بلادهم وأمتهم ، كانت على أشدها تعبيراً وحماسة على عهد الخليفة الناصر لدين الله ، حتى قال عنه الذهبي بانهماش ملحوظ : ((لا يخفى عليه شيء من أمور رعيته أصحاب أخباره ، يعني الفتوة رجال البريد ، في كل بلد ، ويردق القول برهبة) أظنه مخدوما من الجن) ، ولم يقبل منه ذلك محقق كتابه (سير أعلام النبلاء) وللمحقق الحق في قوله ((هو تفسير ساذج غبي)) ولكن هذا لا يقلل من أهمية القول : أن الخليفة الناصر لدين الله كان يتمتع بطاقات خارقة وإدراك فوق حسي ، أو ما يعرف اليوم بقوي (الساي كما) : وهي القدرة على الاتصال بعقول أخرى لأشخاص آخرين من دون وسيط أو وسيلة فيزيائية مما عرفه الناس حتى الآن^(٤) ويحاول علماء الفيزياء المحدثون إيجاد التفسير العلمي لتلك الظواهر بغرض

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٦

(٢) الفخري ... ص ٣٢٢

(٣) الفخري ... ص ٣٢٢

(٤) في السنين الأولى من هذا القرن بدأت الدراسة التجريبية بالاعتماد على نتائج علوم عدة مقرونة باستكشاف شواهد ونصوص وأحداث وظواهر ذات قوى فوق حسية ، وقدرات نفسية فوق حركية ، هذه الدراسات والتجارب سماها الدكتور علي الوردي عام ١٩٥٢ (علم الخوارق) وسماها الغرب (علم الباراسايكولوجي) ...

وجود جسيمات أولية ذرية ذات بعد جسمي نفسي في عقول البشر تقوم بالبحث والإرسال، وكذلك بالتلقي^(١).

وهذا الموضوع الشائك تصدى له العلماء منذ إين سينا^(٢).

وحتى الآن الهدف منه فصل هذه الظواهر الخارقة عن دعاوى الأشباح والجن والسحر وربطها بالعلم والتجارب والمختبرات^(٣)...

وقولنا هذا لا يقلل من أهمية عمل أولئك الجنود المتصفين شباب الفتوة والكشافة الذين أختارهم لإنجاز مهامهم وإيصال المعلومة النافعة على أحسن وجه. والمهم بعد هذا كله وجد الخليفة الناصر لدين الله أن عليه أولاً وعلى فتوته من أصحاب البريد والطلائع والموفدين ومن هم في حكمهم الإمام بأبحاث الأقدمين في معرفة صفة الأرض وما فيها من الممالك والمسالك ، ومعرفة الأقاليم السبعة وهيئاتها وصفاتها ، ومعرفة الكور والإقليم والاسنان والطسوج والسكك والمصر والآباد والألوية والبلد والبلدة والبليدة والمدينة والناحية والصقع والطرف والبقعة والموضع^(٤)...

(١) جان بري ، الباراسايكولوجية الجديدة ... غدا ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٢٣

(٢) يقول إين سينا في النمط العاشر من كتابه (الإشارات والسنهيات) : في أسرار الآيات

(إذا بلغك أن عارضا حدث عن غيب فأصاب متقدما ببشري أو نذير فصدق ، فلا

يتعسرن عليك الإيمان به ، فان لذلك في مذاهب الطبيعة أسبابا معلومة ، فقد تجد الى سببه

سبيلا) ج ٣ ص ١٩٨ ، ويورد إين سينا أمورا أخرى تعد من الخوارق ولا يجدها

خوارق ، لان أسبابها أن كانت الان أسرارا فهي غير ذلك غدا ...

(٣) الوردي ، علي ، (خوارق اللاشعور ، بغداد ١٩٥٢ ص ١٢١ وكتابه من وحي الثمانين

(الخارقية) نشر سلام الشماع بغداد ١٩٩٦ ، ص ٣٢ - ٣٥ ، الالوسي ، حسام ، الفلسفة

والباراسايكولوجي ، جريدة الجامعة ١٨/٣/١٩٨٩ ص ٣ .

(٤) محفوظ ، د. حسين علي، البريد في التراث ، كراس صادر عن وزارة التعليم العالي/مركز

احياء التراث في ، ١٠/٥ / ١٩٨٨ ص ٢ فما بعد

وليس هذا فقط ، بل على هؤلاء الجند المثقفين من أصحاب البريد معرفة المسافة والمساحة والمقادير والمقاييس وتحقيق الشعرة والشعيرة ، والإصبع والشبر ، والذراع والباع والقدم والخطوة والمرحلة والمنزل والميل والفرسخ ... وعلى صاحب البريد أيضا معرفة منازل مكة وطرق الحج والمسالك والطرق بين الأمكنة والبلدان ، وتحديد نهايات الأماكن ، هذا بالإضافة الى تنظيمات البريد وترتيبه ومصطلحاته وقواعده وأصوله وتعاليمه .^(١)

جعل الخليفة الناصر لدين الله لصاحب البريد سلطة فوق السلطات في الرقعة الجغرافية المسؤول عنها ، وكان إذا تولى أحد الولاة والقضاة والحكام في أي إقليم قد يصير الى هذا الحاكم الإشراف على كل الشؤون - الدينية والسياسية والعسكرية والمالية - إلا البريد ، فانه لا يذكر في أمر التكليف أصلا ، واتصال صاحب البريد بالخليفة شخصيا ومباشرة من غير أن يطلع عليها أحد في طريقها اليه ، وأن يتم ذلك بالسرعة المستطاعة ، حتى أصبحت كلمة (بريد) مرادفة لكلمة (سريع) وإلا ما فائدة جمع الإخبار إن لم تبلغ الى الخليفة ، أو بلغت متأخرة أو أطلع عليها أحد قبله ... ؟

لقد امتزجت ، وبجدارة مواهب الخليفة الناصر لدين الله وقدرته مع نشاطات القائمين على فن الاتصالات في زمانه (فملأ القلوب هيبة وخيفة حتى كان يرهبه أهل الهند وأهل مصر فأحيا هيبة الخلافة)^(٢).

ينقل الذهبي عن الموفق عبد اللطيف قوله (لقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والأكابر إذا جرى ذكره خفضوا أصواتهم إجلالا له) ، وينقل الذهبي أيضا عن ابن النجار (دانت للناصر السلاطين ودخل تحت طاعته

(١) مقدمة ابن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق د. محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ ، الباب الحادي عشر ص ٧٧ - ١٢٩

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٥ .

المخالفون وذلت له العتاة ، و انقهر بسيفه البغاة، وملك ما لم يملكه غيره وخطب له بالأندلس وبالصين) وكان أسد بني العباس تتصدع لهيبته الجبال).^(١)

من صفائر الأمور مثلا يشكل الخليفة الناصر من خلال جهازه هذا حدثا مهما ، يقذف الرعب في صدور أعدائه ، فتشيع هيئته في الناس . . .

ويذكر عن جماعة من الفقهاء من أهل سمرقند قَدَمُوا الى بغداد في طريقهم الى الديار المقدسة . فقال واحد منهم وهو من سمرقند : لا يَقدِر الخليفة أن يأخذ منه فرسه . ويبدو أن هذه الفرس كانت تتميز بمواصفات خاصة . فلما عرف الناصر بذلك وهو في بغداد ، أمر بعض العمال أن يتعرض لهذا الرجل ويأخذ فرسه منه، ويهرب في زحمة شوارع بغداد ، ففعل ، فجاء الرجل يستغيث ولا يغاث، فلما رجعوا من الحج خلع عليهم جميعا الا صاحب الفرس المسروقة، ثم بعد حين خلع عليه أيضا وقدمت له فرسه ذاتها وعليها سرج مذهب ، وقيل له لم يأخذ فرسك الخليفة ، وإنما أخذها عامل من عامة الناس وصارحوه بما قاله في سمرقند فغشى عليه وذهبت تلك الحادثة مثلا في ذاكرته وذاكرة الناس ، يتحدثون بها في سمرقند وما جاورها عن علم الغيب لدى الخليفة .^(٢)

وأثناء مرة رسول من خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم عمل الرسول كثيرا في سبيل الحفاظ على سريتها ، وعند وصوله بغداد قيل للرسول ارجع فقد عرفنا ما في رسالتك وما جئت به ، وكاشفوه بما احتوت الرسالة وهي ما تزال مختومة ، فرجع الى صاحبه وهو يصر أن الخليفة الناصر(مخدوم من الجن) وأن له مراسلين من الجن يتابعون له ما يجري في بلاطات الأمراء .^(٣) يقول المرحوم الدكتور علي الوردي : (لقد أكتشف علم، ولكن هذه القدرات كانت في الماضي وما تزال حتى الآن يفسرها العوام بأنها من أفاعيل

(١) أيضا ، ص ١٩٨

(٢) أيضا ، ص ١٩٦-١٩٧

(٣) أيضا ، ج ٢٣ ص ١٩٦

لجن أو السحر أو ما شابه ... ان هناك أفرادا قليلين يملكون قسطا كبيرا من حدى تلك القدرات . أو أكثر من واحدة منها وهم إذا تمكنوا من اكتشافها في أنفسهم في الوقت المناسب كان بمقدورهم أن يستثمروها في حياتهم العملية لينفعوا بذلك أنفسهم ومجتمعهم) (١) فكانت تلك الحوادث وأمثالها حديثا للناس عن خوارق الخليفة الناصر اكتشفها في نفسه مبكرا ، وكبرت وتعاظمت فأنتفع بها نفع مجتمعه ...

ورد بغداد مرة تاجر من دمياط ببضائع ثمينة مهربة ، فسألوا عنها فأخفاها ، فأعطي علامات عن عددها وألوانها وأصنافها فزاد إنكاره ، ف قيل له كواحدة من الدلالات وعلامة من العلامات أنه مراقب منذ خروجه من دمياط حتى وصل بغداد أنك نقت على (فلان) التركي فأخذته الى ساحل بحر دمياط وقتلته ودفنته هناك ... فبهت ثم أعترف.(٢) . . .

مع هذا لا يقبل الخليفة كل ما يصل إليه من أخبار ... ذكر أن رجلا ببغداد عمل دعوة وقام بغسل يده قبل أضيافه ، فعلم الخليفة هذا برقعة كتبها أحد الحاضرين فعلق عليها الناصر بقوله (سوء أدب من صاحب الدار وفضول من كاتب المطالعة) . . . (٣)

أن فن الاتصالات الذي أتقنه الخليفة الناصر ، أتخذة أداة فعالة من أدوات الحرب النفسية ، تقذف الرعب في قلوب أعدائه ، فحسبوا له آلف حساب : كانت هذه فيما أرى مددا وعمقا لنجاح خطط صلاح الدين الأيوبي وأخيه الملك العادل في حروبهما مع الصليبية ، وهي كذلك أوقفت ولو الى حين ، عردة القبائل التترية المتوحشة ، فقد استثمر هذا الرعب مرة ، عندما حاول المغول مهاجمة إطراف الدولة عام ٦١٨هـ / ١٢٢٠م حيث وصلت الأخبار بتقدم المغول من مراغة في

(١)الوردي ، من وحي الثمانين ، ص ٣٠

(٢)الذهبي ، المصدر السابق ، ص ١٩٨

(٣)أيضا ، ص ٢٠٠

أذربيجان ولكنهم أسرعوا في الانسحاب ظنا منهم ان قوات الخليفة الناصر في آثرهم ^(١) . وثلا تلك الحادثة ، فترة من الهدوء دامت أكثر من عشر سنوات عندما عاود المغول الكرة وبعد وفاة الخليفة الناصر يزمن ...

ولم يل الخلافة بعد الناصر من يستثمر هذا التخطيط العالي لأدارة الدولة ويمضي به قدما ، فكان ما كان بعد موت هذا الخليفة المحنك .

وقد اختلف المؤرخون في تقييمهم لموقف الخليفة الناصر من الدولة الأيوبية وحروبها مع الصليبيين بنحو خاص ، ومن مواقفه من الدولة الخوارزمية أو الولايات الأخرى على الطرف الآخر شرق دولة الإسلام ، فمنهم من قذف التهم جزافا في وجه القائد صلاح الدين الأيوبي وجعله على غير وفاق مع الخليفة الناصر لأنه (رفض قدوم جيش الخليفة لقتال الصليبيين والقضاء عليهم وأعتقد أنه سيصبح واليا من ولاية الخليفة تابعا له) ^(٢) وهذا قول لا نقره شواهد التاريخ وهو سيئ النية معروف المقاصد ...

ومنهم من وصف تلك المواقف بأنها(تدعوا الى الرثاء فهو لم يساهم فيها ولم يساندها بل لم يقدر خطورتها) ^(٣) وآخرون يذكرون ان الخليفة الناصر لدين الله رفض طلبا لصلاح الدين الأيوبي بالمساعدة ، وأنه لم يبادر الى تقديم العون والمدد ...

ومن المؤرخين من يتهم الخليفة الناصر بالتواطؤ مع المغول وتحريضهم على انتهاك الدولة الخوارزمية ...

وتلك أقوال متسوعة قد حملت أكثر مما يجب وهي تتناقض مع ما يؤكد المؤرخون وعلى الخصوص الذهبي والسيوطي ، وقد تصدى لتفنيد هذه التهم بأدلة

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٣٣٧- ٣٣٨ ، الحوادث الجامعة ، ص ٩٩

(٢) أنظر صحيفة (القدس) العدد ١٨٣٩ بتاريخ ٢٤ / ايار / ١٩٩٥

(٣) القزاز ، محمد صالح داود ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ، النجف ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ فما بعدها .

لا يرتقي إليها الشك المرحوم الدكتور مصطفى جواد في رسالته للدكتوراه ،التي تقدم بها الى جامعة السوربون في باريس عن الخليفة الناصر لدين الله .^(١)
وخلاصة القول : ان من ابرز استراتيجيات الخليفة الناصر في إدارة الدولة اعتماده المطلق على فن البريد وجهازه الذي طوره بنحو مذهل، وحصنه بأساليب سبق بها زمانه ، فكرس له كل جهد ممكن و أولاه جل اهتمام يقدر عليه ،ورفده بعدد كبير من خيرة تنظيمات جيشه ومقاتليه ...

هذا الجهاز الاستخباري المخبراتي ، لم يكن يدركه في ذلك الزمان الا من كان قد ملك عقلا استراتيجيا عملاقا ، انتبه إليه المخططون الاستراتيجيون في عصرنا الذي نعيش وما كان بعيدا عن هنري بوزان ، وفوكوياما ، أو صموئيل هنتغتون وهم الذين مكنت دراساتهم المعروفة من سيطرة القطب الواحد دون معارك حربية كالتى شهدناها في الحرب العالمية الثانية ...

بعد ان وجده فعلا في شن الحروب النفسية التي تهدف الى تحطيم الأعداء وقتلهم من داخل نفوسهم ،والدخول إليهم في بيوتهم وبلاطاتهم ، وأقصى نقطة في عقر دارهم ...

مذا الخليفة الناصر لدين الله جهازه ذلك بالرجال الأكفاء ووزع مهامه على الولاة المبرزين النقاة ، كان منهم ،على سبيل المثال، الملك العادل صلاح الدين الأيوبي، مسؤولا عن فن البريد في المنطقة الجغرافية التي فيها، وكان الظهير القوي والصديق الشخصي للخليفة الناصر وكذلك الحال بالنسبة للولايات الأخرى من شرق الدولة ، وغربها ...

جعل من الحرب النفسية الهدف الأساس في جميع فعاليات جهاز البريد والاتصالات الى أمرين رئيسيين : الأول : إبراز مواطن القوة والمنعة في جيشه

(١)أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ص ١٩٢ فما بعد و (دول الاسلام) حوادث عام ٦٢٢ هـ وأيضا د. حسين امين (العراق في العصر السلجوقي) بغداد ١٩٦٥ ص

وتجسيم الإمكانات، التي قد يربطها بعض الأحيان بالغيب ، وتأطيرها بتسخير قوى قاهرة خارج نطاق البشر ...

والآخر : إبراز ضعف الجيوش المعادية وتفكيكها وكونها سهلة المنال أمام عيون الخليفة وصحبه ، وأنها غير قادرة على الوقوف بوجه القوة الضاربة للجيوش الإسلامية ، وكان من مهام هذا الجهاز وكوادره أيضا إدامة الزخم والاستمرار في الهجوم الدائم الذي وجده خير أداة للدفاع ، وكذلك معرفة العدو من الداخل ، دقائقه وصغائره بالإضافة الى أموره الكثيرة، وبث الرعب في النفوس وإشاعة الإرهاب وخلق الإشاعات والأراجيف في صفوف العدو وسرد الحكايات والقصص التي تتسفه : فعالياته والتمكن من تفريق البنى التحتية للجيوش المعادية وسلخها من قياداتها والتهديد بالجيش المقاتل القوي الفتاك الذي لا يقهر قبل ممارسة الحرب الفعلية لخلق حالة عدم الرضا وعدم الثقة في نفوس أصحاب القرار والعمل على التشكيك بقدراتهم وصولا الى زرع الخوف الدائم في قلوب القادة قبل القاعدة ...

وهكذا مكن هذا الجهاز المتطور الخليفة الناصر لدين الله من ان يكون مددا لحروب صلاح الدين الأيوبي وسببا في انتصاراته ، وهي نفسها ألجأت التتار الى الانزواء والانكفاء خوفا من التدمير ... أستمروا هذا حتى قبيل هجوم المغول وأسقاط الدولة العباسية ... وهو ما سنشرحه لاحقا ...

الفصل الثاني

الدولة العربية الإسلامية من النهوض الى الكبوّة والسقوط

الفصل الثاني

الدولة العربية الإسلامية

من النهوض الى الكبوة والسقوط

يؤكد الباحث هنا قبل الدخول في شرح أسباب الكبوة وسقوط الدولة العباسية وقيام الدولة الايلخانية^(١) على أنقاضها : ان الخليفة الناصر لدين الله غير مسؤول تماما عن النكسة والكبوة والسقوط بل كان العكس صحيحا، فقد عمل لبناء جيش جديد على أسس عصرية لم يعهدها الحكام قبله، بعد أن سبر غور

(١) الايلخانية أسرة مغولية استوطنت بلاد فارس في القرنين السابع والثامن الهجريين ،الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، تمكنوا من تأسيس دولة امتدت من نهر جيحون إلى المحيط الهندي ، ومن نهر السند الى نهر الفرات مع جزء كبير من آسيا الصغرى وبعض أقاليم القوقاز ، حتى استطاعت الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان بيرس إيقاف زحفهم نحو مصر وكسر شوكتهم وتشتت جيوشهم في المعركة الخالدة (معركة عين جالوت) ٥٠٠

التتر لا يتقيدون بدين من الأديان وان كان منهم البوذي والوثني والمسيحي ٥٠٠ ليس لهم ثقافة الشعوب التي اضطهدها، هم بالأصل بدو رحل وحد بينهم جدهم جنكيز خان (ت ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م)، كان ظالما غاشما ، يقتل الحرث ويبيد النسل ومن الأعمال الوحشية لجنكيز خان في خراسان وما حدث فيها من الخراب التي فصلها شاهد عيان هرب منها بعد ان اشرف على الموت مرات ، ياقوت الحموي المؤرخ الجغرافي الأديب المعروف (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) قال عن خراب خراسان: ((حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت في العضد ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتتخب لب الجليد، وتسود القلب و تذهل اللب)) وكانت هذه المدينة قبل جنكيز خان (بلادا مونقة الإرجاء رائقة الإنحاء ، تغنت أطيارها ، فتمايلت طربا أشجارها ، وبكت أنهارها ، فتضاحكت إزهارها .. (جاءت رسالة ياقوت الحموي هذه في كتاب : ابن خلكان ، وفيات الأعيان) ج ٦٥ ص ١٣٤ - ١٣٩ . حكم العراق من الايلخانيين تسعة سلاطين: أولهم هولاكو (٦٥٦ - ٦٦٣هـ) = (١٢٥٨ ، ١٢٦٥ م) ، آخر، سلاطينهم ابو سعيد بن الجاي تو خدابنداد (٧١٦ - ٧٣٦هـ) = (١٣١٦م-١٣٣٥م) ٥٠٠٠

فصل تاريخهم : رشيد الدين فضلا الله الهمداني (٧١٨ هـ ، ١٣١٨ م) جامع التواريخ ، تاريخ المغول الايلخانيين ، مراجعة د: يحيى الخشاب ، القاهرة بلا تاريخ ٥٠

المشكلات التي تحيط بالأمّة، وعمق تلك المشكلات وامتدادها على رقعة جغرافية ممتدة على كل الجهات ..

أقام الخليفة الناصر وطوال سبع و أربعين سنة من خلافته حكما مستقرا كان فيه (من أفاضل الخلفاء وأعيانهم)^(١)، التزم أساليب جديدة في الحرب والدفاع عن الأمّة لم يسبقه إليها أحد، ولم تخطر على بال سلطان آخر، يوم اتخذ من جهاز البريد ورجالة المدربين أداة فعالة من أدوات الحرب النفسية، قلنا : إنها كانت تَقْذِف الرعب في قلوب الأعداء، القادة منهم قبل الاتّباع، وقد أشار إلى هذه الحقيقة القائد صلاح الدين الأيوبي نفسه في رسالة طويلة كتبها العماد الأصفهاني يبشر الخليفة الناصر بالانتصار ويخبره باندحار الصليبيين وتحريض القدس عام (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، ويجعل من أسباب هذا النصر هو ذلك الرعب الذي تملك الصليبيين من جيوش الإسلام، وتغلغل رجال البريد والطلائع في صفوف الأعداء وعلى أرضهم، عبر عنها (بقوله : مبعوث رعيه

(الخليفة) إلى الأعداء خيلا إلى المراقب - وخيالا إلى المراقَد)^(٢) فأمر نجاح الحرب الدعائية والنفسية كان واضحا في هذا النص ...

وتحدث القائد صلاح الدين بهذه الرسالة أيضا متفاخرا، بعد أن كتب الله له النصر وحرر بيت المقدس قال : (مر الخادم "ويعني نفسه خادم الخليفة" على

(١) ابن طقطقي (المصدر السابق) ص ٣٢٣

(٢) الحنبلي، احمد بن إبراهيم ، (ت ٧٨٦ هـ / ١٤٧١ م) ، شفاء القلوب في مناقب بني

أيوب ، تحقيق د. ناظم رشيد ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٠ ، ابن خلكان ، المصدر

السابق ، ج ٧ ص ١٨٠ ، القلقشندي ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ ، ١٤١٨ م) ،

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٩٧٨ ،

ج ٨ ، ص ٢٨٢ .

البلاد بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا . الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالية هي وعزائم أوليائها (١)...

واستمر المد المتعاطم في الدعاية وبث الرعب والحرب النفسية في دحر الأعداء وقتلهم من الداخل، بعد وفاة الخليفة الناصر مدة طويلة، كانت تلاحظ حتى قبيل الهجوم التتري على بغداد، فقد قال هو لأكو معنفا قائدا من قواد جيشه (انك لم تفعل شيئا سوى انك رحت تخوف القوات المغولية ، بالمبالغة فيما عليه الخليفة من قوة و عظمة) (٢)، وكان هذا القائد قد اخضع بغفلة من الزمن العديد من أقاليم الدولة العربية الإسلامية الممتدة (ما بين باب الري حتى حدود الروم والشام ماعدا بغداد) (٣) لانه كان يرى الموت الزوام على أبوابها...

وعلى هذا ليس صحيحا القول : أن الخليفة الناصر لدين الله قد اكتفى في مساهمته في معارك تحرير القدس بإرساله حملين من النفط ومجموعة من التراسي والرماح وعدداً من الزرايين والنفاطيين ليسهموا في المعركة، بل انه كرس جل فعاليات رجال البريد، وأصحاب المهمات الخاصة والوفود ورجال الفتوة لدعم المعركة بصيغة او باخرى ...

وكانت وفوده تحمل رسائله الخاصة تحت الأمراء والسلاطين القريبين من الأحداث على وجه التحديد، للمساهمة في تحرير القدس ...

يقول ابن الأثير (فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة) كانت عساكر مجاهد الدين يرتقش من سنجار تقاتل على ميسرة جيش صلاح الدين وكانت عساكر الموصل بقيادة الأمير علاء الدين شاه بن

(١) ابن خلكان، المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٧٣ ، الحنبلي ، المصدر السابق، ص ١٤٥،

القلقشندي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٢ - ٢٨٥، ج ٦ ص ٥٠٠ ...

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٠

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١

أتبك عز الدين مسعود صاحب الموصل، قد أخذت مكانها في وسط المعركة
... هذه العساكر جاءت بأحسن ما لديها من الأبطال والمعدات وبأحسن ما تملك
من قاذفات النفط والحارقات ومجموعة كثيرة من التراس والرماح (من كل
جنس احكمه وأقومه وأجوده)^(١) ..

و فضلا عن ذلك ثمن الخليفة الناصر لدين الله كل جهود القائد صلاح الدين
الأيوبي ضد الإفرنج ، وكان يرسل إليه بهذه المناسبات الخلع والهدايا
والتشريفات تقديرا لجهوده ... وكان من جملة ما أرسل الخليفة إلى قائده صلاح
الدين : لوحا منقوشا هو في حقيقته تحفة فنية .. أشارت إلى الفتح العظيم
وتمنت قيادة صلاح الدين في تحقيق النصر . علقها صلاح الدين على باب المسجد
الأقصى^(٢) . هذا لا يعني إن صلاح الدين الأيوبي لم يطمع ببغداد وحكمها ،
وعلى الخصوص بعد أن فرغ من فتح الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة
واليمن وحضر موت ، واستقر حكمه في دمشق وحمص وحماء وبلبك والساحل
وحران وألرها والرقعة ، وتمكن من نصيبين وديار بكر ، وميا فارقين ، وأمد وشهر
زور ، وخطب له على المنابر من همدان إلى الفرات .. حتى صارت

(١) لمزيد من هذه التفاصيل: ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٠٢

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت- ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) ، مفرج
الكروب في دولة بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال ، مصر ١٩٥٣ ، ج ٢، ص ٣٠٧
ابن شداد ، أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢ هـ ، ١٢٣٤ م)

- النوارد السلطانية و المحاسن اليوسفي ، تحقيق جمال الدين الشيال ص ١١٠
- لعماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) الفتح
القسى في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٣٢.

- الحنبلي ، احمد بن إبراهيم، المصدر السابق ، ص ١١٨ فما بعد

(٢) الحنبلي ، احمد بن إبراهيم ، المصدر السابق ، ص ١٤٦

إمبراطورية صلاح الدين من الفرات إلى حضرموت ومن المغرب إلى أفريقيا^(١)... ينقل ابن كثير: إن صلاح الدين الأيوبي أسر أخاه الملك العادل (أنه بعدما يفرغ من الإفرنج يسير هو إلى الروم، ويبعث أخاه إلى بغداد، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعا إلى بلاد أذربيجان بلاد العجم فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها)^(٢)...

والخليفة الناصر لدين الله ما كان غافلا عن هذا أبدا فلعل أخا صلاح الدين، الملك العادل نفسه قد أوصل الخبر إلى الخليفة فقد كان الملك العادل مقدما لدى الخليفة، وقائدا من قواد الفتوة البارزين وشرب كأسها، وهو عضو مرموق في جهاد البريد الذي طوره الخليفة الناصر ، وكان صلاح الدين بدوره يدرك جيدا هذا الموقف ^(٣) ولكنها الأيام وأمور السياسة... الأيوبيون بعد صلاح الدين لعل

(١) لمزيد من تاريخ الامارات الايوبية: العماد الاصفهاني ، القمع السعي جزء واحد .

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ كله... .

- ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن ، الروضتين في إخبار الدولتين النورية والصلاحية جزء واحد.

- ابن شداد ، ابو المحاسن ، النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية ، جزء واحد .

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في دولة بني أيوب جزء واحد.

- ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء ١٣ .

- الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، جزء واحد.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٥ فما بعد ، و ذكر ابن الاثير هذه القصة ولكنه

اغفل عن ذكر دخوله بغداد، بالرغم من انه عدد مشاريعه بعد الافرنج بالصيغة التي

ذكر ابن كثير : الكامل ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٢٥ .

(٣) منها : ١- من يهرب من سلطات الخليفة والتجأ الى السلطان، الجأ ..

٢- مشاركة الخليفة في اللقب.

٣- مفاخرة صلاح الدين بفتحته القدس وكأن الخليفة لابد له بذلك ،

١- وقد حرر القاضي الفاضل رسالة الى الخليفة في جواب هذه الاتهامات واضعاً لها

التفسيرات وواصفاً له العلل، وقال القاضي في آخر الرسالة: ((المحافضة توجب

المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح اولى من اتساعه

وفرقة))، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ١٥١-١٥٢ .

من سوء طالع المسلمين بل و(لقصر النظر)^(١)، لم يضع السلطان صلاح الدين الأيوبي قبل وفاته نظاماً خاصاً بولاية العهد، يكفل استمرار إمبراطوريته وديمومة حكمه من بعده، الأمر الذي تشظت بعده الدولة إلى عدة إمارات، كل أمير من أبناء صلاح الدين وإخوانه و أبناء أخوته، استقل بمدينته التي كان يحكمها، أو التي أقطعها إياه صلاح الدين في وقته، ولربما كانت الغلبة لأخيه الملك العادل و أبنائه، بحكم قربهم من الخليفة الناصر وتحالفهم معه، فقد اخذ الخليفة بيد صديقه القديم ومكنه من دمشق، وأرسل إليه التشریف صحبت الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً،^(٢) مكن الملك العادل أن يخلع أبناء أخيه صلاح الدين، واحداً بعد الآخر، حتى استطاع أن يجعل الجانب الأكبر من مملكة أخيه تحت سلطانه^(٣).

ومع هذا لم يتمكن في المحصلة النهائية أي فريق من ورثة صلاح الدين الأيوبي من بناء دولة قوية تحفظ بانتصارات البطل صلاح الدين، ويجعل من دولته قوة تأخذ براية العرب والإسلام إلى حيث رقيها ودحر أعدائها، الأمر الذي مكن الصليبيين أن يتوحدوا ويضرموا حرباً صليبية رابعة... وخامسة... وسادسة... وسابعة... إلى ما شاء الله، لا لشيء... إلا لجمع الأموال الحرام وقهر الشعوب المسالمة... بدوافع سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها من دوافع لا إنسانية لا تقف عند حد^(٤)...

(١) سيد امير علي، مختصر تاريخ العرب، بيروت ١٩٦١ ص ٣٢٥.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤٢ : حوادث ٥٩٩ هـ - الحنبلي، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل، بيكر، سى، ايج، الأيوبيون، دار المعارف الإسلامية، ج ٥٤، ص ٤٣٩-٤٤٣.

(٤) العابد، صالح، (الحروب الصليبية دوافعها وبواعثها)، مجلة المورد البغدادية، مجلد ١٦، بغداد ١٩٨٧، ص ٥ فما بعد.

الجميلي، رشيد عبد الله، محاضرات في الفكر السياسي العربي، معهد التاريخ العربي للدراسات العليا، بغداد / ٢٠٠٣، ص ٦، فما بعد.

وعلى هذا ظلت الإمارات الأيوبية على تدهورها وانكماشها، فتمكن الصليبيون من احتلال الساحل العربي وتأسيس إمارات متناثرة مرة أخرى من بيروت حتى دمياط، هذا الأمر كان سببا في موت الملك العادل يوم اخذ الإفرنج برج السلسلة (وكان حصنا منيعاً، وهو قفل بلاد مصر) ^(١) قذف الملك العادل (على صدره أسفاً، ومرض مرض الموت) ^(٢)، وكان ذلك في ٧ جمادى الأولى عام ٦١٥هـ / المصادف ٢١ - اب - ١٢٢٨ .

وتعاقب على الإمارات الأيوبية المتناثرة أمراء ضعاف وإن كان فيهم من حاول بعث أمجاد جده ولكن دون جدوى...

استمر الصليبيون في حربهم بلا هوادة و دونما توقف ولم تلق حربهم تلك مقاومة عنيفة كالتى كانت على عهد صلاح الدين الأيوبي ^(٣)...

كان آخر الأمراء الأيوبيين الأقوياء الملك الصالح أيوب بن محمد الملك العادل مات في شعبان عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م ، وهو في خضم حروبه، سواء منها مع الإفرنج ومع بعض من أهله (ولم يكن له ولد حاضر لان ولده توران شاه كان في حصن كيفا وولده عمر مات في حبس الشام وولده الخليل توفي صغيراً) ^(٤) ولم يوص لأحد :

(١) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣ ، ص ٧٩ فما بعد، حوادث ٦١٥هـ ، ابن الأثير ،

المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٢٦ ، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٢) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٧٩-٨٠ .

(٣) سيد امير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٢٥ فما بعد .

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ١٣٢٠ ص ١٧٨ فما بعد، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص

(فاخفت جاريته أم ابنه خليل المدعوة شجرة الدر موته) ^(١) حتى تمكن الأمراء من استدعاء ابنه توران شاه . . .

(فلما أقدم عليهم ملكوه وبايعوه جميعاً) ^(٢)، ثم قتلوه بعد شهر أو أكثر بقليل بأمر من عز الدين أيبك التركماني، و ملكوا أم خليل شجر الدر، التي ((تزوجت بالمعز وكانت الخطبة والسكة لها يدعى لها على المنابر أيام الجمع بمصر واعملها وكذلك تضرب السكة باسمها (أم خليل) والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها) ^(٣) . . .

وكانت هذه السيدة على رأي بعضهم : (على جانب عظيم من الحنكة والشجاعة) ^(٤)، وقد لقيت نفسها (بالمستعصمية، أي خادمة الخليفة المستعصم كما لقبها بالصالحة نسبة إلى زوجها الملك الصالح) ^(٥) ١٠٠٠ لا أن أمر تملك امرأة لم يرق للخليفة المستعصم، فبعث برسالة إلى أمراء مصر، عارضاً عليهم فيها إرسال رجل يتولى الحكم أن كانت (قد عدمت عندكم) ^(٦) . . . ولذا (اجتمعت الأمراء وقالوا : لا بد من سلطان . . . فسلطوا المعز أيبك عام ٦٤٨ هـ /

(١) ابن كثير ، المصدر السابق، ج ١٣ ، ص ١٧٧، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢) المصدر السابق ج ١٣، ص ١٧٨ ، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٤٢٦ - ٤٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١٣، ص ١٧٩ ، الحوادث ، الجامع ، ص ٢٩١ ، حوادث عام ٦٤٨ .

(٤) فصل الامر ، سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٢٨ - ٣٣٩ .

(٥) جاء في الكتاب المعروف بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب لابن الفوطي : كان الخطباء يقولون على المنابر : (واحفظ الليم الجهة الصالحة ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين أم خليل، المستعصمية، صاحبة الملك الصالح أمير المؤمنين) . الكتاب من تحقيق الدكتور بشار عواد والدكتور عماد عبد السلام رؤوف، دار المغرب الإسلامي، ١٩٩٧، ص ٢٩٢ . . .

(٦) فوزي ، فاروق عمر ، تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الإسلامية، بغداد للتاريخ ، ص ٣٥٦ .

١٢٥٠ م ٠٠ فخرج عن طاعته جماعة، فقالوا: لا بد من شخص من بني أيوب^(١)..

فولوا الأشراف موسى بن يوسف بن محمد من أحفاد الملك العادل (فودي بالقاهرة ان البلاد للخليفة المستعصم لان المعز ابيك نائبه بها) ٠٠٠٠^(٢) وفي عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م استقل المعز بالسلطنة، وابطل الأشراف منها بالكلية، و بعث به الى عماته القطيبات^(٣)...

وكان الملك الأشراف موسى (آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر) وصار الحكم فيها بعدهم للمماليك ٠٠٠ وبقيت بعض المدن الشامية بيد الأيوبيين ثم سقطت الواحدة تلو الأخرى على يد التتر المغول فتعاون بعض منهم مع المحتلين الجدد ٠٠٠

سقوط الإمارة الخوارزمية

يؤكد الباحث، هنا، مرة ثانية: ان الخليفة الناصر لدين الله لم يكن البادئ في تفويض الإمارة الخوارزمية، بل كان الخليفة القاعدة، التي ارتكزت عليها هذه الإمارة، ومكن أمراءها من توسيع ملكهم وامتداد سلطانهم^(٤)..

(١) ابن كثير ، المصدر السابق، ج١٣ ص ١٧٨، الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥٠.

(٢) يقول ابن كثير ((تملك الملك عز الدين التركماني بعد بني أيوب . وهذه اول دولة الاتراك) ج١٣ ، ص ١٧٨.

(٣) وهي نسبة الى قطب الدين احمد بن الملك العادل الكبير الذي توفي ايام اخيه الكامل ، والتطبيقات هن شقيقات قطب الدين احمد... الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ، مجلد ٣٣ ص ٤٥٠

(٤) (اتسع ملكه وعظم محله واطاعه العالم بأسره، ولم يملك بعد السلجوقية احد ملكه، فإنه ملك من حد العراق الى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان، ومرجان، وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وفعل بالخطا الافاعيل العظيمة، وملك بلادهم) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج٩، ص ٣٣٤.

ال خليفة الناصر لدين الله كان اليد الطولى التي مكنت الخوارزميين من القضاء على آخر سلاطين السلاجقة طغرل الثاني عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م ،^(١) وبناء إمارة خوارزم الجديدة على أنقاض الإمارة السلجوقية ..

ولذا من حق الباحث ان يجد تفسيراً لموقف المؤرخ الكبير ابن الاثير في كتابه الكامل الذي القى اللوم على الخليفة الناصر لدين الله في تفويض الإمارة الخوارزمية، وانه

(كان قبيح السمعة في رعيّة ظالما فخرّب في ايامه العراق)^(٢) ...

وليس لنا من تفسير لهذا، الا القول: ان ابن الاثير في احكامه تلك كان قريبا من اعداء الخليفة امراء الموصل، ولعله ايضا كان يرغب في كسب ود بعض خصوم الخليفة في الشام ...

وكلامنا ينسحب بالكامل على التعليل الذي أورده المؤرخ ابو الفدا الملك المؤيد صاحب حماة في كتابة (المختصر في تاريخ البشر) الذي وجد السبب ايضا (ما كان بين الناصر وبين الخوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق)^(٣) ...

ولا يقبل الباحث ايضا غمز المؤرخ ابن خلدون وقوله (ان الخليفة اطمع التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتنة)^(٤) . ليس هذا فقط بل

(١) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ ، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٩ د. حسين امين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ١٧٩ ، القزاق ، د. محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ، النجف ١٩٧١ ، ص ٣١٢ .

(٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٦١ .

(٣) ابو الفدا ، اسماعيل بن علي الشافعي ، (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) المختصر في تاريخ البشر ، ج ٢ ، ص ١٤٢ فما بعد .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) التاريخ المعروف (المتبدا والخبر في تاريخ العرب والبريد ..) بدون تاريخ / ١٩٨٨ ج ٣ ، ص ٦٦٠ .

ان ابن خلدون كان قد قداستهجن نظام الفتوة الناصري وجعل شان (لبس سراويل الفتوة شان العيارين من اهل بغداد)^(١) . انه قول متسرع ما كان ينبغي ان يصدر عن مؤرخ فيلسوف كإبن خلدون ...

لقد تأمر الأمير خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش (٥٩٦هـ - ٦١٧هـ) / (١١٩٩م - ١٢٤٩م) على الخلافة العباسية جهارا عيانا وعلى الخصوص بعد ان رفض الخليفة الناصر الخطبة باسمه في بغداد كما كان للسلاجقة ، ومن اجل ان يطفىء الخليفة الفتنة بعث بالشيخ شهاب الدين عمر السهروردي نيابة عنه ليثني هذا الامير عن طلبه ، ولكنه اسمع الشيخ السهروري كلاما وقحا ما كان يليق بهذا الشيخ الصوفي الكبير^(٢) .. وسرعان ما جهز خوارزم شاه جيشا كبيرا سار الى بغداد قاصدا استئصال الاسرة العباسية (فأبتلى في روابي (اسد اباد) بالتلج والعواصف)^(٣) اهلك الحيوانات (وعفن ايدي الرجال وارجلهم)^(٤) فهلك اكثر جنده وعاد خائبا خاسرا^(٥) ..

وفدت على خوارزم شاه على ما يروي ابن خلدون^(٦) ارسل جنكيز خان (يسألونة المودعة والآن للتجار من الجانبين في التردد في متاجرهم ، وكان في خطابه اطراء للسلطان بانه مثل اعز اولاده) ، وعلى هذا سير جنكيز خان من طرفه تجارا ومعهم شيئا من البضائع الثمينة (ليشتروا بئمنها ثيابا للكسوة) فلما ورد

(١) ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٥٦ - ٦٦٠ .

(٢) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ ، ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٥ ص ١٢٨ ، حمدي ، حافظ احمد ، الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩ ، ص ١٢٥ - ١٣٠ .

(٣) الهمداني ، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٥ ، .. ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٥ ص ١٢٨ - ١٣٢ .

(٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٣٢ .

(٥) الهمداني ، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .

هؤلاء التجار، اعترضهم نائب الامير على اطراف الامارة (وارسل الى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من اموال ٠٠ فبعث اليه خوارزم شاه يامر بقتلهم واخذ ما معهم من اموال ٠٠ ولما علم جنكيزخان بهذا، ارسل اليه من يقول له: (من المعهود من الملوك ان التجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم، وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسة، ثم ان هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك فان كان امرا امرت به طالبنا بدمائهم، والا فانت تتكره وتقتص من نائبك) ^(١) فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيزخان (امر بضرب عنقه) ٠٠ ^(٢) ويضيف ابن الاثير على هذا بقوله وامر بخلق لحى الجماعة الذين كانوا معه فكان السبب في ظهور التتر الى بلاد الاسلام عام ٦١٦هـ / ١٢١٩م. ^(٣)

اظهر خوارزم شاه بعمله هذا انه اكثر بداوة وتعسفا من السفاح جنكيزخان نفسه وان فعلته تلك كانت عنوانا من عناوين (العدوان على الانسانية وخرقا للياقة الدولية) ^(٤) ..

وفي جعبة ابن الاثير الكثير من الاقوال عن هذا الحادث ولكنه كان يتحرج في ذكرها، وما كان يرغب في ان تظهر (في بطون الكتب) ، وقال مموها :
فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر ^(٥)
لعله اشارة الى تهور هذا الامير في ادق الامور السياسية...

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩ ص ٣٣٠-٣٣١ : ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣ ص ١٣٩.

(٢) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٣٩.

(٣) الكامل من التاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٣١.

(٤) سيد امير علي ، المختصر في تاريخ العرب ، ص ٣٤١.

(٥) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٣٠-٣٣١.

توجس خوارزم شاه من امره المتسرع ذاك، وخاف من عاقبته، اذ لم يدرك حجم عدوه فارسل بعد فوات الاوان جواسيسه الى جنكيز خان ينظر ما هو ؟ وكم مقدار ما معه؟^(١)، فعاد القوم بأخبار لا تسره، فندم على فعلته هولاء ساعة ندم، عندها ارتبكت خططة واهتزت نفسه^(٢)...

ثم ازفت الحرب... ينقل ابن الاثير، وهو المؤرخ المعاصر، فيقول: (واقبتلوا قتالا لم يسمع به ، فبقوا ثلاثة ايام بلياليها، فقتل من الطائفتين مالا يعد، ولم يتهزم احد منهم حتى ان الفارس منهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل راجلا بالسكاكين، وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرتة)^(٣).

ثم انتهت الحرب بهزيمة الخوارزم شاه وهربه الى جيحون ومنها الى نيسابور والى بسطام ثم الى الري ومنها الى مازندران من (دون ان يفكر في الوقوف والتصدي الى الفرق التي ارسلها جنكيز خان لمطاردته) ،^(٤) ثم استمر في هروبه (لا يدري اين يذهب وهلك في بعض جزائر البحر)^(٥) (بحر الخزر)

(١) ابن الاثير، المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٣٠ فما بعد، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١٣ ص ١٣ فما بعد الجويني ، عطاء ملك ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٤ فما بعد، ابن خلدون، المصدر السابق ، ج ٥، ص ١٣٢.

(٢) الجميلي ، د. رشيد عبد الله، حملة هولاكو على العراق، مجلة المورد ، ج ٨، العدد ٤ / ١٩٧٩، ص ٦٠ فما بعد. خصباك د. جعفر حسين ، المرجع السابق ، ص ٥، ١٣٣٤، ١٣، د. مصطفى جواد ، في التراث العربي، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٨ ، ٤٣٩، سيد امير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٤٠-٣٤١، حمدي ، حافظ احمد ، المرجع السابق ، ص ١٢٧.

(٣) ابن الاثير ، المصدر السابق، ج ٩ ، ص ٣٢٢.

(٤) الجميلي ، د. رشيد عبد الله ، حملة هولاكو على العراق ، ص ٦١.

(٥) ابن كثير ، المصدر السابق، ج ١٣ ، ص ١٤ ، حوادث عام ٦١٧هـ، يقول ياقوت الحموي وقد شهد المعركة : (ومن العجب العجائب ان سلطانهم المالك، هان عليه ترك تلك الممالك، وطلق اذ رأي غير شئ ظنه رجلاً بل رجال) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٦، ص ١٣٥ .

عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م بعد ان مكن التتر من قتل (الرجال والنساء والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة)^(١)

وخلاصة الأمر:

(ان البداية من خوارزم شاه)^(٢)، عند قتله التجار التتر، (فاساء التدبير)^(٣)، (ولم يكن فعله فعلا جيدا)^(٤)، (ولسوء سياسته وكثرة عداوته)^(٥) حرك المغول على العالم الإسلامي، (ارتكب عملا وحشيا عرض العالم الإسلامي الى وحشية حولت آسيا الغربية في خلال بضعة سنين الى مقبرة واسعة)،^(٦) انه حاكم مستبد كان متسرعاً في قراراته^(٧) . . . صحيح ان الإمارة الخوارزمية التي قامت على أنقاض الإمارة السلجوقية كانت أقوى إمارة إسلامية في الجهة الشرقية، وهي سد عظيم كان يمكن ان يمنع دخول التتر بلاد الاسلام، (لأنها مثل السد الذي بيننا بين ياجوج وماجوج)^(٨) على رأي الملك الأشرف صاحب دمشق عندما اخبر بانهيار الإمارة الخوارزمية

ولكن الأمير علاء الدين محمد وابنه الأمير جلال الدين منكوبرتي (٦٢٢ هـ - ٦٢٨ هـ) (١٢٢٥م - ١٢٣٠م) أضاعوا إمارتهم، وحطموا السد العظيم الذي كان يحمي الدول الإسلامية المترامية الأطراف، فرقوا وحدة الأمة و

(١) المصدر السابق ، ج١٣، ص ١٣٩.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٠٠ ، ج١٣، ص ١٣٩-١٤٠.

(٣) المصدر السابق ، ج١٣ ، ص ١٣٩.

(٤) المصدر السابق ، ج١٣ ، ص ٨٣ ، ٩٨.

(٥) د. مصطفى جواد ، من التراث العربي ، ص ٢٨.

(٦) سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٤١.

(٧) خصباك ، المرجع السابق ، ص ٥ ، حافظ حمدي ، المرجع السابق ، ص ١٢٩.

(٨) سبط ابن الجوزي ، ابو المظفر يوسف ابن عبد الله البغدادي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) مرآة

الزمان وتاريخ ٠٠٠ ، حيدرآباد / ١٩٥١ ، ج ٨ قسم ٢ ص ٦٧١.

أضاعوا الموارد الكبيرة، شتتوا القوة العسكرية المدرية، وبعثروا الثروة المالية الطائلة، وقتلوا كل الكفاءات من قادة وأمرء وملوك ممن كان يستطيع الوقوف أمام تيار الغزو المغولي المدمر، بسبب طغمة من العسكر^(١) لا تعرف إلا الامارة والسيطرة... .

كان بإمكان جلال الدين منكوبرتي ان يعي تلك الدروس التي مرت به وبأبيه خاصة، وان يتوحد في جبهة عريضة لمحاربة الطغاة قاتلي الشيوخ والأطفال من المغول، (ولكنه بدلا من ذلك اظهر أفعالا ناقصة تدل على قلة عقل)^(٢) صار عدوا لجمع الأمراء والسلاطين من حوله، ينهب ويقتل^(٣) يخلق المشكلات للخلافة ببغداد،... .

في عام ٦٢٢هـ - ١٢٢٥ م (وصل بلاد خوزستان العراق وحاصر مدينة تستر وفيها عامل الخليفة، وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وانحدر بعضهم الى البصرة ونهبوا هناك وردهم شحنة البصرة ووصلوا بعقوبة)^(٤) ولم يبق لهم الا مسير يوم عن بغداد، وظلت جيوشه تجوس خلال العراقيين العربي والا عجمي، تخرب البلاد وتنهب الاموال)^(٥)... .

ثم والأمر الغريب هنا وفي آخر أيام جلال الدين أرسل إليه الخليفة المستنصر بالله عام ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م وفدا عالي المستوى يضم ابن الدامغاني والشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الشيوخ والأمير فلك الدين محمد بن سنقر الطويل،

(١) خصباك ، المرجع السابق ، ص ٨.

(٢) أبن كثير ،المصدر السابق ، ج ١٣ ص ٢٨ .

(٣) خصباك ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٥٥، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨، قسم

٢ ص ٦٣٥ فما بعد ، حمدي ، حافظ احمد، المرجع السابق ، ص ٣٧١ ، خصباك،

المرجع السابق، ص ٥ ، ٦ ، ١٥ .

(٥) خصباك ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(مع رسول كان قد وصل منه وهو يومئذ على) (أخلاق) محاصرها لها وتنفذ له معهم تشریفات وكرام ولباس الفتوة (١) ، ووصل الوفد أوائل عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م ((وكان اجتماعهم به ظاهر (خلاق) ، وهو نازل عليها محاصر لها ، فخلعوا عليه والبسوه سراويل الفتوة)) (٢) .

وبعد أيام من ذلك وصل رسول من جلال الدين برسالة الى الخليفة مضمونها شكر الأنعام عليه، والأخبار بفتح (أخلاق) وملكها (٣) . . .

هذا الأمر سيكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن بيضة الإسلام لو كانت (مدينة أخلاق) وثنية و أهلها من المغول الوثنيين، لكن هذه المدينة و أهلها كانوا في ذمة الاسلام ،وأمانة من إماراته، وهي قصبة أرمينية الوسطى ، (٤) يحكمها صاحب الروم كيفباز بن كيخيسروب بن قليج بن ارسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر و سيواس وغير ذلك من بلاد الروم ، وهذه القصبات من اشهر مدن الأناضول ومن اعظم مدن الإسلام بالروم، (٥) الأمر الذي شجع هذا الأمير الموتور ان يضع السيف في رقاب أهل خلاق المسلمين ويفعل في شيوخهم ونسائهم وأطفالهم ما لم يفعله التتر المغول . (٦)

ويروي ابن طقطقى في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية) قصة غريبة عن الأمير جلال الدين فيقول: لما هرب من المغول تبعوه فكان اذا رحل عن بلدة نزلوها بعده، وإذا أصبح في مكان امسوا هم في المكان، يريدون قصده وهو مع

(١) الحواث الجامعة ، ص ٢٠ - ٢١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ن ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٢١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١

(٤) البغدادي ، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) ، مرصد الاطلاع

على أسماء الامكنة والباق ، ج ١ ، دار المعرفة، بيروت ١٩٥٤ ص ٤٧٦

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ١٢٦ ، وص ١٢٧ . هامش ١

(٦) خصباك ، المرجع السابق ، ص ٦ ، حمدي ، حافظ ، دولة خوارم، ص ١٣٢

ذلك مواصل لشرب الخمر عاكف الى الدف والزمر لا ينام الا سكرانا ولا يصبح
 الا مخمورا نشوانا، وعسكره كل يوم يقل وامره في كل يوم يزيد اضطرابا ... (١)
 ولم يلبث طويلا حتى وقع صريعا بيد أحد الاكراد (٢) ...
 هذا الرجل وأبوه من أوائل المسؤولين في تحريك الأعداء لقهر الأمة، نعم :
 صدق الدكتور مصطفى جواد يوم قال : - لو لا نزق سلطان خوارزم لنجا العلم
 الإسلامي من طوفان المغول وطغيانهم ومجازرهم البشرية وعدوانهم وغيثهم
 وفسادهم - الا ان ذلك السلطان الأحمق جنى بخروجه على خليفة المسلمين وعلى
 نفسه ومملكته والعالم الإسلامي (٣).

(١) ابن الطقطقي ، المصدر السابق ، ص ٤٥

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ابن العربي ، المصدر
 السابق، ص ٢٤٧ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ج ٥ ص ١٥١ ، القزاز ، الحياة
 السياسية في العراق .. ص ٥١

(٣) في التراث العربي ، ج ١ ص ٢٦

خلافة الظاهر بأمر الله^(١) ((٦٢٢هـ / ١٢٢٥م - ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م))

لم يستمر في الحكم غير تسعة أشهر ((لم يجر فيها ما يسطر))^(٢) سوى انه اقر
القي وزير أبيه على وزارته ولم يستوزر غيره^(٣)

ولما سئل الخليفة عن مشاريعه قال: من فتح دكانا بعد العصر كيف يكسب^(٤) .
والباحث لا يرى ان الخليفة محق في كلامه هذا فقد سحب والده مبكرا وصار
ولي العهد سبع عشرة سنة قبل ان يصرفه عن هذا المنصب بعد ان حاول أبوه
ان يقذف به في صميم الأحداث ويجعل منه قائدا من قادة البريد والطلائع والفتوة
وجيش الاسلام...

يبدو ان الخليفة الناصر لدين الله فشل في هذه المهمة وليس له من ذنب في
ذلك...

(١) ابو نصر محمد بن احمد الخليفة الناصر لدين الله بن الحسن الخليفة المستضيئ بأمر الله بن
يوسف الخليفة المستجد بالله ، ولد عام ٥٧١ هـ / ١٢٧٥ م ، نودي له وليا للعهد أول مرة
عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، تم عزله الخليفة عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م ، عن ولاية العهد ، بعد
ان خطب له سبع عشر سنة ، وولى العهد بدلا عنه أخوه الأصغر الأمير ابو الحسن علي ،
الذي مات بعد حين عام ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، ولما لم يكن للخليفة ولد آخر ، عاد الأمر ثانية
الى أبي نصر محمد وليا للعهد.. ولما توفي الخليفة الناصر لدين الله ببيع لابنه عام
٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، وبعد تسعة أشهر فقط من خلافته انتقل الى رحمة الله عام ٦٢٣ هـ /
١٢٢٦ م . أهم المصادر لسيرته : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٣٦١ ، سبط
ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ق ٢ ، ص ٦٤٢ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ،
ص ٢٤٢ ، ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٣٢٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص
٤٣ فما بعد . الذهبي ، المختصر ، ج ١ ص ١٩ فما بعد ، ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٣
ص ٦٦٠ ، الملك الأشرف القيساني ، العسجد المسيوك ، ج ١ ص ٤١٢ - ٤١٧ ،
السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٥٨ - ٤٦٠ .

(٢) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٣٢٩

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨

الخليفة الناصر لدين الله استراتيجي في تفكيره، يربط كل الأحداث وجزئياتها في مشروعه الكبير ذلك . . . ونعني به الدفاع عن بيضة الإسلام ، والذود عن حياض الدولة العباسية، بعيدا عن وصاية اعدائها، ذلك مع عدم التقصير في الواجبات الاجتماعية والشؤون الداخلية وحياة المواطنين، ضمن جهاز ضخم، هو جهاز البريد والطلائع والفتوة، هذا الجهاز الذي تمكن ان يزرع له الاتباع في قصور الملوك والسلاطين، ويجد السند في بيوت القادة والمتنفذين، يربع شارع العدو، ويفل سلاح الفرسان . . .

الباحث وهو يدرس الخليفة الناصر وجده يعيش هاجس هذا الجهاز ليل نهار، يعاونه قادة أخيار صارت لهم على مر الزمن الخبرات المتراكمة ، والقدرات المتعاضمة على حماية الدولة من كل سوء، مكنوا الخليفة ان يرى العالم من حوله وبمجملة مرة واحدة . . . (١)

حتى باتت الناس تحكي عنه أشياء غريبة أذهلت الخاص والعام، منهم على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ الكبير ابن كثير نفسه، يروى عنه أشياء : (من ذلك انه كان يقول للرسول الواقعة عليه فعلتم في مكان كذا، وكذا وفعلتم في الموضع كذا ، كيت وكيت حتى ظن بعض الناس او أكثرهم انه كان يكشف او ان جنيا يأتيه بذلك . . .) (٢)

وبالتأكيد ما كان الخليفة الناصر يكشف، وما كان يتعامل مع الجن، بل كان يتعامل مع زمرة من الشباب الصالحين ومن طلائع الإسلام، ورجال المهمات الصعبة، رجال أفضا سهر على تدريبهم الليلي، وأعطاهم جل وقته وعقله، والمرجح ان ولي عهده الظاهر ما كانت له تلك القدرات وما كان له الاستعداد لاستيعاب هذا المشروع الكبير الفعال الذي جعل بين يدي الخليفة أخبار الامم، ومنع إخباره عن الأعداء، وقلما يتمكن جاسوس من ان يخترق جهازه الأمني

(١) الذهبي ، الاعلام ... ج ٢٣ ص ١٩٥

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٠٧

ذاك، وتلك الأمور كان قد استوعبها أخو الطاهر الأصغر الأمير أبو الحسن علي أكثر من الطاهر، الأمر الذي مال إليه الخليفة، واضطره إلى إقالة ولي عهده وتنصيب أخيه الأصغر . ودليلنا على ما نقول حكاية ابن الأثير في تاريخه : كان من عادة الناصر أن يرفع إليه حراس الدروب في كل صباح بما كان عندهم في المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة، فلما ولي الطاهر أمر بتبديل ذلك كله وقال : أي فائدة في كشف أحوال الناس وهتك أستارهم ، فقبل له : أن ترك ذلك يفسد الرعية فقال : نحن ندعو الله أن يصلحهم ^(١) وهذه وجهة نظر قاصرة ولا ريب في حساب سياسات الدول .

سوء طالع الأمة أن يموت شابا الأمير علي، الذي دربه أبوه على أعمال استراتيجية واطلعه على دقائق جهازه الضخم، ليتولى أمر العرب والمسلمين رجل عاجز يفتح دكانه عصرا ليسهم في غروب شمس الأمة

لو كان الخليفة الطاهر بأمر الله رجل دولة محنكا خبرته الأيام ، وعركته السنون الطوال ولما لعهد خليفة (كان من اكبر ساسة العالم وأذكىاء الدنيا وأبطال العالمين وكان فخرا للعرب المسلمين) كما وجده الدكتور مصطفى جواد

أقول: لو أنالظاهر كان غير ما كان : لتسلم الحكم من جارية أبيه في السنين الثلاثة الأخيرة من حكم الخليفة الناصر الذي بقى فيها (عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إيصارا خفيفا) ^(٢) ولما ترك الأمر لمحظية أبيه، الست شمائل شجرة الدر التركية ، وجعلها تستمر في أن تكتب لأبيه وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره ، ^(٣) ولما ملئ الخليفة على ولده،

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٠٧-١٠٨

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٣٦٠ - ٣٦١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ،

ج ١٣ ص ٦١-٦٠ ، ابن خلدون ، ج ٣ ص ٦٥٧-٦٦٠ ، الملك الأشرف الغساني ، المسجد

المسبوك . . ج ١ ص ٤١٤

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ١٢٦

وليس عليها أوامره ونواهيه وأجوبة رسائله، باعتباره ولي العهد، لو كان هذا الخليفة كما ينقل ابن الأثير لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله،^(١) لتمكن ان يحافظ على ببيعة الإسلام، كما حافظ عليها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، الذي قاتل بالسيف كما قاتل بالقلم من اجل ان يسود شعار الإسلام الخالد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وأول هذه الواجبات ان يأخذ الخبرة من أبيه في تسييس إدارة الدولة، ودفع الأعداء المتربصين بها في الشرق وفي الغرب...

ولو كان الخليفة الظاهر بأمر الله كما وصفه ابن الأثير، وردده مؤرخون بعده: بأنه كان من خيرة خلفاء بني العباس سيرة، رد على الناس ما اغتصبه منهم أبوه من الأموال وخفف الضرائب عنهم، بأبطاله المكوس، وأعادته الخراج القديم، وإفاضة العدل، و ألغى مراقبة الناس، وأخرج المعتقلين من السجون، فصلحت بذلك أحوال الناس ورخصت الأسعار^(٢)...

أقول: لو كان الخليفة الظاهر كما وصف ابن الأثير، لوازن بين السياستين الخارجية والداخلية. لا ان يراعى السياسة الداخلية على حساب السياسة الخارجية، فيكسر شوكة النظام السابق ويقف من عضد رجال البريد... من اجل هذا كله يجد الباحث: ان الخليفة الظاهر بأمر الله أحد المسؤولين عن سقوط الدولة العباسية، مثل مسؤولية ابنه وحفيده، وليس الخليفة الناصر لدين الله، هؤلاء الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا بعد الناصر هم الذين مكنوا التتر الغزاة من الدولة وأسهموا في مقدمة المسؤولين في انهيار أركان الدولة بعد ان استهانوا بأعدائهم، وأضاعوا خيوط رجال البريد، وأبطلوا فعالياته وشتتوا فتیان الطلائع.....

(١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٦٠ ، الذهبي ، المختصر ج ١ ص ١٩ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٤٢ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٣

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٣

ال خليفة المستنصر بالله: (١) (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ، ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م)

ال خليفة العباسي ما قبل الأخير كان جميل السيرة عادلا في الرعية مكرما للعلماء ((انشأ المدارس والربط والمساجد والجوامع))^(٢)، والمدرسة المستنصرية اشهر من ان تعرف^(٣) ...

(١) ابو جعفر المنصور بن محمد الخليفة الظاهر بأمر الله بن أحمد الخليفة الناصر لدين الله ، ولد في عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٦ م ، بويغ له بالخلافة في رجب ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م وتوفي في جمادي الآخرة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، فكانت خلافته ست عشرة سنة وسبعة شهور وعمره يومئذ اثنتان وخمسون سنة واربعة اشهر .. فصل سيرته : الحوادث الجامعة ، ص ١٨٥ فما بعد . ابن طقطقي . الفخري ، ص ٣٣٠-٣٣٢ ، ابن كثير . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٣ فما بعد . ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول .. سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ص ٦٤٤ فما بعد . الملك الاشرف الغساني ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك ، ج ٢ ص ٤١٨ فما بعد . ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٣ ص ٦٥٧ فما بعد . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ٤٦٠-٤٦٤

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ١٨٦

(٣) كان الشروع في بناء المستنصرية عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، وبعد اكثر من ست سنوات تكامل بناؤها في ٥ رجب عام ٦٣١ هـ ، تولى عمارتها استاذ الدار مؤيد الدين ابن العلقمي ، ونقل اليها من المركبات الشريفة ، والكتب النفيسة ما حمله مائة وستون حمالا ، تدرس فيها المذاهب الفقهية الاربعة ، والخليفة المستنصر كان اول من ابتكر فكرة جمع المذاهب الفقهية الاربعة في بناية واحدة ، على ما قرره الدكتور ناجي معروف الذي وجد ايضا ان اخبار هذه المدرسة انقطعت عام ١٠٤٨ / ١٦٣٨ م ، وان مكتبتها زالت عن الوجود بعد غزو تيمور لتك لبغداد عام ٧٩٥ / ١٣٩٢ م ، أو سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ... ويقول السيد ابن عنبه في كتابه ((عمدة الطالب)) : ((كان المستنصر قد اودع خزانة المستنصرية ، ثمانين ألف مجلد على ما قيل : والظاهر انه لم يبق الآن شيء والله الباقي)) ص ١٨٢ ، فصل هذا الأمر ناجي معروف ، في كتابه (تاريخ علماء المستنصرية) في مجلدين ودراسات عدة في مجلة الأعلام العراقية ، المجلد السادس / شباط / ١٩٦٥ ص ٢٣ . الحوادث الجامعة ، ص ٨٠-٨٢

(كانت أيامه طيبة والدنيا في زمانه ساكنة والخيرات دارة والإعمال عامرة) (١) وهذا له أسبابه: منها ما ورثه المستنصر بالله من أموال طائلة من جده الخليفة الناصر لدين الله، ومنها رجوع جنكيز خان الى بلاده منذ عام ٦٢٠ هـ - ١٢٢٣ م، بعد ان احرق الأمانة الخوارزمية وجعل مدنها يبابا ٠٠ ومات في بلاده عام ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م ومنها: ان البلاد كانت أول سني خلافة المستنصر بعيدة عن ساحات الحروب التي كانت وقودها إمارات على إطراف الدولة العربية الإسلامية ٠ وهذا الهدوء والرخاء على كل حال هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، فسرعان ما عاد التتر للإجهاز على آخر ما تبقى من السور العظيم الذي كان يمنع المغول من العاصمة العباسية بغداد، ونعني به الأمانة الخوارزمية بعد ان نهزم عنه حماته عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م، (٢) فصارت مدنها بعدها بلاقع خاوية على عروشها، لينكشف عند ذلك ظهر الجيوش العربية الإسلامية أمام التتر ٠٠٠ الامير خوارزم شاه محمد بن تكش وابنه جلال الدين منكوبرتي ما كانا يدركان عمق الخطر المغولي ومقدار الجيوش التي تحيط بهم ٠ وجاء بعدهم خليفة للمسلمين ليس عاجزا غير مدرك للأخطار المحيطة بالامة حسب، بل حطم دولة الناصر لدين الله، و أجهز على أدواته الضخمة الذي كان يدفع البلاء عن الامة، ونعني به (جهاز البريد و الفتوة والطلائع) وهو الجهاز الذي دخل بيوت الأعداء، وقرأ الأحداث قبل وقوعها.

ثم جاء الخليفة المستنصر بالله، وان كان اكثر من أبيه معرفة ودراية، الا انه هو الآخر لم يتمكن من تعميق الفهم والادراك، و العمل على تعميمه على كل مستويات الامة، وعلى الخصوص منهم الأمراء وقادة الجيش، الأمر الذي زلزل الأمور سوء ٠٠٠

(١) ابن الطقطقي، الفخري، ص ٣٣٠

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٠٣

وفي هذا الوقت كان الأمر في عساكر الخليفة المستنصر بالله وأجناده وقواده الى شرف الدين إقبال الشرايبي الى آخر أيام الخليفة ، ^(١) وقد اختلف المؤرخون في الشرايبي ، منهم من وجد حال الملك منتظما لصائب رأيه ((فلما توفي اختلفت الأحوال بعده)) ^(٢) في حين قال غيره ان الشرايبي تأمر على الإسلام ، واتفق مع الدويدار ^(٣) في إقامة الخليفة المستعصم بعد موت أبيه المستنصر ، لئنه وضعف رأيه ، ليكون لهما الأمر ، في حين كان للمستنصر اخ يقال له الخفاجي فيه شهامة زائدة ، قال : لئن وليت لأعبرن بالعسكر بحر جيحون واخذ البلاد من أيدي التتر واستأصلهم ٠٠) ^(٤)

وهكذا مضى الجميع من ، دون إدراك حقيقي للخطر المحدق بالامة ٠٠٠

(١) الحوادث الجامعة ، ص ١٨٧

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٦

(٣) هو علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير ، كان قد بنى دارا له على شاطئ دجلة استحسنها المستعصم (فطلبها منه) فلم يسمح له بها ، فلما توفي سنة خمسين وست مئة أخذها ، الحوادث الجامعة ص ٣٠٨ - ٣١٠ ولعل هذا من ادلة ضعف الخليفة وقلة هيئته بين من هم دونه بالرتبة ٠٠٠

اما الدويدار الصغير فهو مجاهد الدين ابو الميامين ابيك المستنصري ، الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥

(٤) نقل ذلك عن جمال الدين ابن واصل الحموي ، محمد بن سالم ، (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧ م) في كتابه الموسوم ((تاريخ الواصلين في اخبار الخلفاء والملوك والسلطين)) ، الهامش ١ من الحوادث الجامعة ص ١٨٩ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤٦١ ، د. مصطفى جواد ، التراث العربي ، ص ٣٠١

ال خليفة المستعصم بالله^(١) (٦٤٠ هـ ١٢٤٢ م - ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م):

لما توفي الخليفة المستنصر بالله أبقى القائد العسكري إقبال الشرايبي أمر موته سرا، و أرسل من يستدعي ابنه ابا احمد عبد الله من مسكنه في التاج، من باب سرية أيضا كانت تقضي الى غرفته في ظهر داره، فلما حضر سلم عليه الشرايبي بأمره المؤمنين(وأجلسه على سدة الخلافة)^(٢) ٠٠٠ ثم عرف الوزير نصير الدين ابن الناقد بالأمر، كما اسر أستاذ الدار مؤيد الدين ابن العلقمي، فاحضروا عمه أبا الفتوح حبيب حيث بايعه واحضروا بعد عمه عشرة من أولاد الخلفاء فبايعوه، كما بايعه أعمامه والوزير وأستاذ الدار وغيرهم من أصحاب المراكز المتقدمة...^(٣)

كتم موت الخليفة المستنصر بالله من صباح يوم الجمعة، فصلاة الجمعة حتى ليلة السبت، بعد تعيين الأمراء لحراسة البلد ٠٠ وصدرت الأوامر بمنع التجول وهو: (ان لا يركب أحد ولا يخرج من داره)^(٤)، فاصبح الناس يوم السبت فوجدوا

(١) هو ابو احمد عبد الله بن ابي جعفر المنصور الخليفة المستنصر بالله بن ابي نصر محمد الخليفة الظاهر بالله بن ابي العباس احمد الخليفة الناصر لدين الله ، ولد عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، وبويع له بالخلافة عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م، وقتل شهيداً يوم نكبة بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وكان عمره يوم استشهاده سبعا واربعين سنة ، قتله التتار القساة الجناة، غلاظ القلوب والاكباد، وقتلوا جميع أهله واتباعه.

فصل ترجمته ، ابن كثير ، البداية النهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٣ فما بعد ، ابن العبري ، التاريخ ص ٢٤٨ الحوادث الجامعة، ص ١٨٨ فما بعد، ابن طقطقي ، الفخري ، ص ٣٣٣ . الملك الاشرف ، المسجد المسبوك ، ص ٦٢٤ ، ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٦٠ فما بعد، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ رقم ٢، السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤-٤٥٦ .

(٢) الحوادث الجامعة، ص ١٨٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٨-١٨٩.

أبواب دار الخلافة مغلقة، وأمر عبد اللطيف الواعظ ان يشعر الناس بوفاة الخليفة وجلس ولده المستعصم بالله ٠٠٠

كل هذه السرية رجحت صحة الرأي الآخر، (الرأي المؤامرة)، ودفعت بعض الباحثين الى القول: (لا يشك متتبع لسيرة هذه الطريقة في إخفاء وفاة المستعصم ومبايعة المستعصم بهذه السرية والهيئة، إنما أريد بها تولية هذا الضعيف)^(١) ٠٠٠

ومن سوء طالع الأمة ان يخلف حكم الناصر لدين الله القوي الحازم، (رجل كان مستضعف الراي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الامور ٠٠٠)^(٢) ذلك في مناخ عاصف يضرب سفينة الأمة من كل صوب (حتى ضاقت الأحوال على المستعصم)^(٣) ومر المسلمون بأقصى محنة يمكن ان يسجلها التاريخ، ليس فقط من الناحية العسكرية، بل السياسية والحضارية ما زالت آثارها باقية ٠٠٠

ومن سوء طالع الأمة أيضا، تفاقم المحن والحوادث الكونية، والآفات الزراعية والكوارث الزلازل المدمرة، وتعدد الفيضانات غير الاعتيادية، مع غفلة من إصلاحها في سني خلافة المستعصم الأخيرة على الأقل ٠٠٠ هذا غير تكاثر الفتن الداخلية والمعارك الأهلية وحصول الفتنة الكبرى في الكرخ، والفتنة بين الوزير ابن العلقمي والدويدار الصغير، والفتنة بين محلي أبي حنيفة والرصافة، وكثرة فساد العبارين وسلبهم للناس ونهب أموالهم، ونحو ذلك كثيرا، هذا غير ما يجري في غرب الامة من عودة الإفرنج واحتلالهم دمياط وتسلطهم على أهل

(١)الدكتور بشار عواد والدكتور عماد عبد السلام، محققاً كتاب (الحوادث الجامعة، هامش ١ ، ص ١٨٩).

(٢)ابن طقطقي ، الفخري ، ص ٣٣٣.

(٣)ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٣ ص ٦٦٢

مصر والشام،^(١) والأهم من هذا: كان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم واسقط أكثرهم من دساتير ديوان الغرض، فألّت أحوالهم الى سؤال الناس وبذل وجوهم في الطلب في الأسواق والجوامع^(٢) وغير هذا كثير والخليفة يقضي أكثر زمانه بسماع الأغاني والتفرج على المساخره،^(٣) حتى كان الغناء في عهده (مزدحماً لا تشتهر هذا الخليفة به وولعة به)^(٤)
ينقل ابن شاعر الكتبي^(٥) والعهد عليه: ان الخليفة المستعصم بعث الى صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ يطلب منه جماعة من مغني الموصل ، في الوقت نفسه الذي كان المغول يطالبون هذا بارسال معدات للحرب، من منجنيقات و آلات حصار ونحوها، الامر الذي دفع صاحب الموصل الى القول : (انظروا الى المطلوبين وابكوا على الإسلام و أهله) ... وعلى هذا وصف الملك الاشرف الغساني الخليفة المستعصم بأنه كان (خلياً من الرأي، واهتم من حوله بالاقطاعات والمكاسب، و أهمل النظر في المصالح الكلية)^(٦) ووجه السيوطي بانه: (لم يكن يقضاً حازماً عالي الهمة كأبيه ووجهه)^(٧)

كان الخليفة المستعصم لضعفه قد أحاط نفسه بشرزمة من الناس (كلهم جهال من ارذل الناس)^(٨) ولا استثنى منهم أحداً كما استثنى ابن طقطقى الوزير

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٤٧

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٥٠ ، ابن طقطقى ، الفخري ، ص ٣٣٥ .

(٣) ابن الطقطقى ، افخري ، ص ٣٢٣ .

(٤) د. مصطفى جواد ، في التراث العربي ، ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٥) قوات الوفيات ، ج ١، ص ٢٤٠ ، خصباك ، المرجع السابق ، ص ١٧ ، فاروق عمر

فخري ، تاريخ العراق ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ٣٦١ .

(٦) المسجد المسبوك ... ، ج ٢، ص ٦٢٤ .

(٧) تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦٥ .

(٨) ابن طقطقى ، الفخري ، ص ٣٢٤ .

مؤيد الدين ابن العلقمي لأنه على وفق رأيه : (كان مكفوف اليد مردود القول ،
يتربص العزل والقبض صباح مساء)^(١) . لا لأنني وجدت بن العلقمي شيعياً
والدويدار الصغير سنياً - وقانا الله تعالى شر الطائفية والهم آراءنا وتقاريرنا
الصواب و لقول الحق - ولكن الباحث وجد أفكار هذين المسؤولين الكبيرين في
حسم المعركة ، والتصدي للمغول في غاية السذاجة ، وفي نهاية السوء ، الامر الذي
مكن المغول من قهر الأمة واطمع الاثني في ملك العراق ...

كان الوزير ابن العلقمي يجد الحل السلمي هو الأجدى والأمنع في دفع بلاء التتار
عن الأمة . وكان يوصي الخليفة ان ينحني أمام العاصفة ريثما ينجلي الموقف ،
وكان قد مر على الدولة امور مشابهة لمثل هذه العاصفة مثل البويهيين
والسلاجقة ...

وهو رأي خطأ للغاية ظاهره منه الرحمة وباطنه فيه العذاب ...

وكان رأي العسكريين بعد موت إقبال الشرابي / ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، وعلى رأسهم
ذلك الوقت عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م الدويدار الصغير مجاهد الدين أبيك الذي
تجمعت حوله المماليك الأتراك: ان الأجدى كي تأخذ الأمة طريق الامان هو
الطريق العسكري وذلك أمر تفتقر اليه الدولة ، منذ قادة الفتح والتحرير العظام ...
ولكنه رأي خطأ ايضاً . في ظل نظام مفكك تناوب على قيادة جيشه رجال لم
يدركوا امر المغول ، ولم يرسل أي منهم عينا يستكشف العدو ، و يحدد مقادير
قوته ، ويحسب أعداد جيشه ، وأساليبه ويدرس خططه ، كما كان الامر زمن رجال
البريد الناصري وطلائعه ورجال فتوته ، بل كان جل همهم بناء القصور وامتلاك
الإقطاعيات والمماليك والجواري والتحزب بعضهم ضد بعض .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

الحل السلمي :

كون الحل السلمي مع التتار هو الأجدى ، أمر كان قد استقر في فكر ومنهج مؤيد الدين محمد ابن العلقمي منذ ان كان أستاذ الدار زمن الخليفة المستنصر بالله ، ثم بعد ذلك، استمر معه عندما صار وزيراً لابنه الخليفة المستعصم بالله بعد موت الوزير ابن الناقد (عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ م)^(١)، يومها كانت العلاقة طبيعية بين دار الوزارة والعسكر، يوم كان على رأسها وقت ذلك إقبال الشرابي، لم يعكر صفوها شيء حتى مات الشرابي عام (٦٥٣ هـج - ١٢٥٥ م)^(٢) فوجدنا عندها الخلاف على أشده، وعلى الخصوص مع قائد الجيش مجاهد الدين أبيك الدوبدار الصغير ومن حوله في المعسكر^(٣)...

وملخص الحل السلمي الذي اقترحه الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم بالله هو: ان يبذل المال (لهولاكو) ومقداره الف حمل من نفائس الأموال، والفا من نجائب الابل والفا من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وإرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الأكفاء الدهاة مع تقديم الاعتذار الى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه)^(٤) ، وهذا دليل على ان الوزير لم يدرك مخاطر المغول وكونهم (لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم والريح في اكفهم)^(٥) وانهم لا يلتزمون بعقد ولا سلام... قد ساوى الوزير بين المغول والبويهيين والسلاجقة الذين غزوا بغداد وصاروا فيها حكاما، تقرا باسمهم الخطبة، وتحمل أسماءهم

(١) الحوادث الجامعة، ص ٢٢٢، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ت ٢ ص ٧٤٨ ،
الذهبي ، الاعلام ج ٢٣ ص ١٠٨ .

(٢) الحوادث الجامعة، ص ٣٢٤ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء، ج ٢٣ ص ٣٧٠ ، السيوطي ،
تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٦ .

(٤) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج ١، ص ٢٧٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

السكة، وتحمل شعاراتهم، لا مجال للمقارنة بين المغول وحكم الدولة بغيرهم من الغزاة، كون البويهيين والسلاجقة من المسلمين يدافعون عن بيضة الاسلام... على كل حال وكيفما كان الامر، التتار قوم لا حضارة لهم، ولا دين يجمعهم، ولا مصلحة لهم في قيام دولة عربية إسلامية قوية كما هو الامر عند غيرهم ...

ومن هنا جاء الخطأ القاتل لدى الوزير ...

لو قرأ الوزير بن العلقمي جيذا رسالة تولي بن جنكيز خان التي أرسلها الى الخليفة وملوك الإسلام وأمرائه، يدعوهم الى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم، وتهديم جميع القلاع وردم كل الخنادق حول مؤسساتهم، ليس هذا فقط، بل وقع ابن جنكيز خان كتابه ذاك بعنوان (ملك الشرق والغرب نائب رب السماء ملك الملوك)^(١)...

أقول: لو أعاد السيد الوزير النظر في هذا المسألة مرة أخرى لوجد (ان خضوع خليفة المسلمين لفاتح وتي كان أمرا مستحيل القبول)^(٢).

الوزير ابن العلقمي :

الباحث وهو يكتب ينشد الحق الذي يعتقده، بعيدا عن كل الخلفيات، ان هذا الرأي الذي قال به الوزير ابن العلقمي كان رأيا شخصيا بعيدا عن منطق المؤامرة، أملت عليه جملة ظروف، ودفعته اليه عدة أسباب، قد نجهل بعضها، لم يتمكن الوزير بصيغة او بأخرى إقناع جميع الأطراف الفاعلة في الدولة... وتأسيسا على هذا لم يكن الوزير قد خان امته، ولم يفرط بشعبه، والدليل على ذلك ما وجده الملك الأشرف الغساني: ان الوزير كان قد كابد شدة، وتغيرت أحواله، ولم يظن ان التتار يبذلون السيف مطلقا، فأنه راح تحت السيف الرافضة والسنة وأمم لا يحصون^(٣)..

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حوادث عام ٦٣٨ ، ج ١٢ ، ص ١٩٨ .

(٢) خصباك ، العراق في عهد المغول ... ، ص ١٨ .

(٣) الملك الأشرف الغساني العسجد المسبوك ... ، ص ٦٤١ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٦٤ -

في ضوء ذلك لم يتمكن المؤرخون على الرغم من الهوس عند بعضهم، من إثبات خيانة هذا الرجل لامته بالدليل الملموس، بل كانت تداعيات قرار سياسي قاتل وغير متوازن، جعلت الشيخ السيوطي يصف أبن العلقمي بأنه (اهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد)^(١) وقال غيره مثل هذا.

ليس خافيا ان الوزير ابن العلقمي (كان قد صرف النظر عن الحرب تماما، ولم يكن ليكثرث عندما فارق عام ٦٥٠ - ١٢٥٢ م الكثير من جند بغداد لانقطاع أرزاقهم، ثم لحقوا ببلاد الشام)^(٢).

العلقمي صرف الصوفي الواعظ الشيخ محمد بن دايه، الذي وصل ملهوفاً من مدينة تستر وهو يستجد قادة المسلمين ليرسلوا معه عسكرياً لقتال التتار^(٣)، وغير ذلك من أمور كثيرة مماثلة أتفق هو والخليفة على ردها.

الحل العسكري :

اجتمع عند الوزير بن العلقمي أمراء الجيش وكبار القادة ووجوه الجند، مثل (سليمان شاه بن برجم، وفتح الدين بن كره و مجاهد الدين الدودار الصغير (وأطلقوا ألسنتهم بقذح الخليفة وطعنه، قائلين : انه صديق المطربين والمساخرة، وعدو الجيوش والجنود وأنا أمراء بعنا ما ادخرناه في عهد والده)^(٤)، وطالبوا بالعون والمساعدة ليتمكن قادة الجيش من الاستعداد لقتال التتار (فاولى بالفتى ان يقتل في حومة الوغى في عزة وشرف)^(٥).

اتفق سليمان شاه مع الوزير ابن العلقمي على رفع هذا الكلام الى الخليفة المستعصم بالله،

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء .. ص ٤٦٥.

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٠٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٤.

(٤) الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله، ج ١ ، ص ٧٧٥.

(٥) المصدر السابق ، ج ١، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

فاجاب الخليفة: ان كلام سليمان شاه له الأثر في النفس المنهكة فاستعرض الجند حسب تقريره ،لأغنيهم بالدرهم و الدينار، وسلم أمرهم الى سليمان شاه لتحقيق خطته^(١)...

ولم يتمكن الخليفة او وزيره ابن العلقمي من الإيفاء بوعودهم، فبأس الجميع من إصلاح الجيش ٠٠(ولربما كان بخل الخليفة وتردده في الأنفاق على جيشه سببا في تفرق جنوده عنه)^(٢)٠٠٠٠

في ضوء هذه الأحداث وجد ابن الأثير في تاريخه: ان جيوش الخلافة في بغداد كانت زمن الوزير ابن العلقمي: (في غاية القلة ،ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، فقراء حتى استعطى كثير منهم في الأسواق. وأبواب المساجد)^(٣)،بعد ان أسقطت الدولة عطاياهم فوقعت الفتن بين الناس وضافت الأحوال عليهم فكان ذلك كله دليلا على هدم الدولة، وذهاب الملك عن أهلها)).^(٤)

في ذلك الوقت العاصف، نسب الى مجاهد الدين أبيك الدويدار الصغير (انه يدبر في خلع الخليفة المستعصم والمبايعة الى ولده الكبير)٠٠^(٥) وقد نسب القول في هذا الاتهام الى كل من محمد ابن علاء الدين الدويدار الكبير)، والوزير ابن العلقمي، فاستوحش الجميع واستتفر، وكل جمع عسكرة، وشهر سيفه٠٠٠ هذه الحادثة وأمثالها زادت من تفاقم محنة الجيش، ونالت منه، واستنزفته، واشتد به الضعف والخور٠٠٠

(١)رشيد الدين فضل الله ، تاريخ المغول ، ج ١ ، ص ٢٧٤.

(٢)خصبائك ، المرجع السابق ، ص ١٧-١٨.

(٣)البداية والنهاية ، ج ١٣، ص ٢٣٤.

(٤)ابن خلدون، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٦٥٧.

(٥)الحوادث الجامعة، ص ٣٣٦.

ولم تنته هذه الفتنة الا بعد ان سقط في أتونها العشرات من القتلى بين اهل بغداد^(١)

وعند تقديم الوزير اقتراحه في الحل السلمي، ببذل المال لهولاكو، أرسل الدويدار الصغير وجمع من أمراء العسكر رسالة الى الخليفة قالوا فيها : (ان الوزير دبر هذه الحيلة لمصلحته الخاصة لكي يتقرب زلفى الى هولاكو ويلقي بنا نحن الجنود في البلاء والمحنة) . . . (٢)

فمن الذي كان صادقاً من الجانبين ؟ صاحب الحل السلمي الذي لم يدرك الخطر المغولي وأساليبه الوحشية وعدم التزامه بالعهود والمواثيق؟ أم صاحب الجيش المفكك الذي لم يملك خطة لمواجهة عدوه؟ وليس له دراية بفنون القتال، وأساليب التتار في المناورة، وما كان لديه المدد والآستاد سواء كان من جيرانه المسلمين ام قائده الأعلى خليفة المسلمين ليتمكن من كسب الحرب، نعم كان مدعياً لم يستعد للحرب مع عدو يملك القوة من دون ان يملك الاخلاق . ؟

خلاصة الأمر:

لم تكن إدارة الحكم منذ الخليفة الظاهر بأمر الله الذي نعى نفسه مبكراً، ومات بعد تسعة اشهر من خلافته، وكذلك ما كان ابنه المستنصر بالله غير مصانع ومهادن للتتار، مثله مثل قائد جيشه إقبال الشرايبي المفتون ببناء العمارة على حساب قضايا أهم، وكان السبب الرئيس في صنع خليفة مستضعف، وكذلك التحالف مع أستاذ الدار ومن ثم صار وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي ، الذي قتلت الإحداث والفتن نفسه من الداخل قبل ان يفعل النافع، (فصار مكفوف اليد يتربص العزل والقبض)^(٣)، يقابل كفيه على غير هدى، هؤلاء الى جانب القادة الصغار الذين جاءوا بعد الشرايبي، قليلو الخبرة في الحرب وخططها،

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٣٣٣.

لم يدركوا حقيقة الكارثة التي باتت تهدد الأمة وتسعى الى سحقها تدريجياً منذ عام ٦١٦هـ ، ١٢١٨م، فكانوا جميعاً على رأي جماعة من الباحثين المحدثين^(١): جهالاً في وضع الخطط العسكرية في أخرج فترة من تاريخ الاسرة العباسية خاصة ، وتاريخ الامة العربية الاسلامية عامة ، لم يستوعبوا ما حولهم من احداث جسام، باتت على الابواب، تحرق الامارات العامرة، وتسحق حضارتها الممتدة...

كانوا مفتونين بأطماع الدنيا دون الآخرة، مشغولين بإثارة الفتن والمعارك فيما بين الاخوة، يكتفون بمقاومة الغزاة المغول أيام الشدة بإرسال المتطوعين من الاطراف، ويراسلون الأمراء من حولهم للنجدة، سرعان ما يختفي هذا الأجراء الآتي مع ابتعاد الخطر، فيعودون الى المهادنة والمصانعة واسترضاء العدو بوسائل بعيدة من سجايا العربي المسلم. ثم تعاظمت البلوى في آخر سني الخليفة الشهيد المستعصم بالله يوم اشتدت الحرب النفسية، وتوالت الازاجيف المغرضة، عن وصول عسكر المغول ((فلم تحرك من الخليفة عرقاً، ولا نبه منه همة ، ولا احدث عنده نهماً))^(٢)، بل كان على النقيض ((من التفريط والاهمال، ولم

(١) منهم على سبيل العرض لا الحصر : سيد امير علي ، مختصر تأريخ العرب ، ص ٣٤٤ فما بعد .

- الدوري ، د. عبد العزيز: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد : ١٩٤٥ .
 - الفزاز ، د. محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير، النجف ١٩٧٧، ص ٥٠، فما بعد .
 - خصباءك ، د. جعفر ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ، بغداد ١٩٦٨، ص ٢ فما بعد .
 - فهمد ، د. بدري محمد ، العراق في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد ١٩٨٧ .
 - الجميلي، د. رشيد عبد الله ، حملة هولاكو على بغداد ، مجلة المورد ، ج ٨، العدد ٤ لسنة ١٩٧٩، ص ٦٠ فما بعد

(٢) ابن طقطقي : الفخري .. ص ٢٣٣ .

يتصور حقيقة الحال))^(١). واستمرت غفلة الخليفة تتعمق ، واستعداد المغول لشن الحرب يتضاعف، وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي على ما يقرر ابن الطقطقي : ((يعرف حقيقة الحال في ذلك، ويكاتبه بالتحذير والتنبية، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد، وهو لا يزداد الا غفولاً، و كان خواصه يوهمونه انه ليس في هذا كبير خطر ، ولا هناك محذوراً ، وان الوزير إنما يعظم هذا لينفق سوقه، ولتبرز اليه الأموال يجند بها العساكر فيقطع منها النفقة))^(٢) وفي مثل هذا الرأي ينقل صاحب الحوادث الجامعة بيتين من الشعر قال بعضهم سمع ابن العلقمي ينشدهما من شعره يقول:

كيف يُرجى الصلاح من أمر قوم ضيعوا الحزم فيه أي ضياع

فمطاع الكلام غير سديد وسديد المقال غير مطاع^(٣)

وقال مؤرخون آخرون خلاف ذلك: كان أولهم أبو شامة (ت ٦٦٥هـ، ١٢٦٢ م) في كتابه الذيل على الروضتين ، ومضى على خطأهما مؤرخون منهم : ابن كثير^(٤)، والسبكي^(٥)، والذهبي^(٦)، وابن شاعر الكتبي^(٧)، وابن خلدون^(٨)، والمقرئزي^(٩)، والسيوطي: الذين وجدوا ان الوزير ابن العلقمي ، و على

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) الحوادث الجامعة : ص ٣٥٢

(٤) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٤.

(٥) طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١١٠.

(٦) دولة الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٨.

(٧) فوات الوفيات ج ٢ ، ص ٣١٣.

(٨) التاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٦٢.

(٩) المقرئزي ، تنقي الدين (ت ٨٤٥هـ ، ١٤٤١م) السلوك لمعرفة الملوك . تحقيق . مصطفى

زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٦.

الخصوص بعد فتنة الكرخ عام ٦٥٤هـ ، ١٢٥٦م^(١) أثربص بالدولة، واسقط الجند ، يموه بانه يدافع التتار بما يوفر من أرزاقهم في الدولة ، والحقيقة انه يكتب لهولاكو يستحثه لقصد بغداد ، ويهون عليه أمرهم.. ومع هذا كان اغلييه هؤلاء المؤرخين يجد في صفات الوزير ابن العلقمي : انه كان رجلاً فاضلاً صالحاً عفيفاً قارئاً للقرآن . (٢).

الباحث يرى ان دراسة الدكتور جعفر خصباك في كتابه (العراق في عهد المغول)، كانت من الدراسات الجادة في هذا الموضوع ٠٠٠ وتأسيساً على ذلك كله، لم يكن الخليفة الشهيد المستعصم بالله الوحيد الذي يتحمل مسؤولية سقوط الدولة العباسية، بل كان قبله جده الخليفة الظاهر، وأبوه الخليفة المستنصر، وجميع من حوله، وأجهزة حكومته، وقادة جيشه الذين تساوت مسؤولياتهم في الإهمال والتقصير وسوء الإدارة وعدم الاستعداد للحرب وإدراك العدو طيلة سنوات عديدة. ..

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣١ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٤٧.

الفصل الثالث

الغزو المغولي للعراق

((٦٥٦هـ - ١٢٥٧م - ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م))

الفصل الثالث

الغزو المغولي للعراق

((٦٥٦هـ - / ١٢٥٧ م - ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م))

في عام ٦٤٩ هـ / ١٢٤١ م اجتمع أمراء المغول وكبار القوم فيهم ، في عاصمة ملكهم قراقورم ، وقرروا جلوس منكوخان على العرش ، وكان من أول أعمال هذا الرجل إرسال الجيوش الى الأطراف والحدود .

كان بايجونويان على رأس جيش ، سار نحو إيران ، فلما وصلها كانت باكورة أعماله إرسال رسول الى منكوخان يشكو فيها قلاع الإسماعيلية و (خليفة بغداد) في ضوئها استقر رأي الخان على أن يعهد كل طرف من أطراف العالم المترامي الأطراف الى واحد من أخوته ، وكان من حصة أخيه هولاكو فتح غرب إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، ثم شكل فرقة مخصوصة من أبنائه وإخوانه وأبناء إخوانه والتميزين من أقاربه ليكونوا بمنزلة حرس خاص لهولاكو ومرافقين له في حملته^(١). ثم أرسل المرشدين لتعليم الطريق الذي سوف تمر به حملة هولاكو من عاصمتهم حتى نهر جيحون ، وأحضر من أمانة "الخطا" ألف أجير من المدربين على استعمال أدوات القتال والمجانيق وزراقات النفط ورماة السهام ، ثم اعتبر جميع المزارع والمراعي على جانبي الطريق مناطق محرمة على غير جيش الحملة ، ثم كلف فرقة أخرى بإقامة الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجاري الأنهار السريعة ...^(٢)

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٣٢ -

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٣-٢٣٥

بعدها تقدم الخان من أخيه هولاكو قائلاً انك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغي أن تسير في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر ... من يعصيك فأغرقه في الذل والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به ، وأبدأ بإقليم قهرستان في خراسان ، فحرب القلاع والحصون ... (١)

فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه الى العراق وأزل من طريقك اللور والأكراد ...

وإذا بادر (خليفة بغداد) بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى ، فألقه بالآخرين من الهالكين ... (٢)

وفي شهر ذي الحجة سنة خمسين وستمائة قصد هولاكو معسكره ، وبدأ الاستعداد العالي لإنجاح حملته وإرسال العيون والربايا والطلائع وفرق مختارة من جيشه الى ديار الإسلام حتى وصلت هذه المجاميع في هذه السنة ٦٥٠ هـ / ١٢٤٢ م الى أهل الجبال ، وأوقعوا بالأكراد وغيرهم وقتلوا وأسروا ونهبوا ((٣)).

وسارت طائفة أخرى من طلائع جيش هولاكو المتقدمة في هذه السنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م حتى بلغوا خراسان وألحوا وقتلوا ونهبوا الأموال (فكتب أبى الصلايا والي أربل إلى بغداد وبذلك) (٤) ...

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التاريخ ، ج ١ ص ٢٣٧

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٣٠٤

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥

وفي خريف سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣ م ، غادر هولالكو ثكنات جيشه، وتوجه قاصدا إيران ^(١)، وحين مضى شوطا في ذلك الطريق ، بادر الأمراء والولاة في تلك الإساق بإقامة الولائم والاحتفالات ، وتقديم الهدايا بالمناسبة، وإظهار فروض الطاعة، خوفا وهلعا من بطش جيوش هذا الوثني المتوحش ٠٠٠ أقام هولالكو على طول الطريق في المصايف والمشاتي ، يلهو ويلعب منصرفا إلى الشراب والموبيقات . ^(٢)

وظل حتى سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤ م ، يسوس تلك الجهات من مقره المتنقل هذا ... ^(٣)

وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥ م ، سار هولالكو نحو سمرقند ، وهناك أقام له مسعود بيك أمير تلك الديار ((خيمة منسوجة بالذهب أمضى فيها ما يقرب من أربعين يوما وهو منصرف للشراب ، رحل بعدها من هناك ولم يتوقف إلا في حدود (كيش))) ^(٤) حيث نقطة تجمع جيوش التتر، ومن هذا المقر أرسل هولالكو عدة رسائل إلى الملوك والولاة في إيران يطالبهم بالتعاون مع جيوشه لتحطيم قلاع الإسماعيلية ، وبعبسه لا يقبل منهم أي عذر ، ^(٥) فتقدم إليه القوم مسرعين من كل تلك الأطراف مليون طلباته ^(٦) ...

(١) المصدر السابق ، ص ٣١١ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ج ١ ص ٢٣٧ -

(٢) رشيد الدين ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٩

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٨

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٩

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٠

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤١

بعدها عبر هولاكو نهر جيحون بجيشه ، وأنعم على أولئك الذين قدموا له الخدمات ، وتوجه على الفور نحو قلاع الإسماعيلية ...

تخريب قلاع الإسماعيلية

في حقيقة الأمر أن جيوش المغول لم تترك قلاع الإسماعيلية من دون حروب ، وعلى الخصوص في ربيع الأول من عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣ م ، يوم تمكن عشرة آلاف من فرسان المغول ومثلهم من المشاة من محاصرة قلعة (كرده كوه) وقلعة (مهرين) ومدينة (شاه) وقتلوا عددا من سكانها وقتلوا راجعين^(١) وقصد مغول آخرون مناطق عدة للإسماعيلية عاثوا فيها فسادا واهلكوا الحرث والنسل^(٢) وفي العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م تجمع عسكر المغول حول قائدهم في ضواحي مدينة طوس ، حيث أمر هولاكو بالهجوم الموحد على قلاع الإسماعيلية ، وبعد معارك ضاربة وحصار مدمر سقطت قلاع الإسماعيلية الواحدة بعد الأخرى : كان آخر تلك الحصون قلعة (الموت) الأخرى التي صعد إليها هولاكو فاندesh لعظمة ذلك الجبل المنيع...^(٣)

من جملة من كان في هذه القلعة نصير الدين الطوسي الذي كان في خدمة علاء الدين محمد بن الحسن الإسماعيلي، فحضر بين يدي هولاكو ، ولما أختبره وتأكد من إخلاصه صار مستشارا له ، ومضى معه في حملته على بغداد...^(٤)

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٤٣

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩

(٣) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٤

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٠

هولاكو في همدان

وحينما فرغ التتار من قتل الناس في حصون الإسماعيلية وهدم قلاعهم توجه هولاكو في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧ م من ضواحي قزوين في طريقه الى همدان ، فنزل في (خانة آباد) (التي هي عبارة عن مرعى من كردستان ، وصار يشتغل بترتيب الجيش وتجهيزه)^(١) ، وفي العاشر من رمضان من هذه السنة ، أرسل هولاكو رسولا الى الخليفة المستعصم يتهدده ويتوعدده ، مذكرا إياه بصلف ظاهر ، أن باب بغداد لم يكن مغلقا في وجه من يريد الدخول إليها فكيف يغلق في وجهه ،^(٢) في إشارة خبيثة الى ما فعله البويهيون والسلاجقة ، وقال هولاكو في آخر رسالته ((فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لأبنه ، ويحضر لمقابلتنا ، وإذا لم يرد الحضور ، فليرسل كلا من الوزير وسليمان شاه والدویدار ، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبا أن نكن له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته ، أما إذا لم يصغ الى النصيح ، وأثر الخلاف والجدل فليعبئ الجند ، وليعين ساحة القتال ، فأننا متأهبون لمحاربته...^(٣)

وبعد تبلغ الخليفة المستعصم بمضمون الرسالة ، أرسل وفدا يرأسه شرف الدين ابن الجوزي وكان رجلا فصيحاً قوياً الحجة ، وحمله جوابا على رسالة هولاكو جاء فيها ((أيها الشاب الحدث المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطا ومتغبا على جميع العالم مغترا بيومين من الإقبال ، متوهما أن أمره قضاء مبرم ورزء محكم^(٤))) ...

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٦١

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٧

(٣) جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٦٨ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٩

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن
الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط
وجنود لي ... غير أنني لا أريد الحقد والخصام، ولا أشتري ضرر الناس
وإيذائهم... وأنتي مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت
مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فأسلك طريق
الود وعد إلى خراسان ...

ولكن الأمر كان قد أعده المغول سلفا ، و تلك المراسلات كانت جانباً من
الحرب النفسية ، أظهرت ضعف الدولة العباسية ، وأبانت خلاف ما كان يعتقد
هولاكو البربري من القوة والمنعة التي كان قد أشاعها جنود الخليفة الناصر
وعيون الخفية ورجال بريده المدسوسين في أعلى قيادات المغول وغيرهم من
أمراء ذلك الزمان... وعاد رسل الخليفة برسالة من هولاكو . كانت أشد من
سابقتها، جاء فيها ((أنن فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال ، فأني متوجه
إلى بغداد بجيش كامل والجراد)) (١).٠٠٠ والتجأ الخليفة المستعصم بالله ثانية
إلى وزيره، فأجابه بالحل السلمي الذي أشرنا إليها من قبل ، والذي رفضه أمراء
العسكر ((مما أثار سخط ذلك الوثني المتوحش فزحف على عاصمة العباسيين
بجيش جرار)) (٢) ، ما كان الخليفة مستعدا لمقاومة مثله ، لأن المستعصم بالله
كان يظن خطأ أن الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوف يسارعون إلى
نجدته ((متناسيا الظروف السيئة التي كانت تحيط بهؤلاء في هذه الفترة)) (١).٠٠٠

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج١ ص ٢٦٨ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٩ -

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٣) القزاز ، د. محمد صالح ، الحياة السياسية ، ص ٣١٣ ، خصبك ، العراق في عهد

المغول ، ص ص ٤٩-٥٣ ، الجميلي ، د. رشيد ، حملة هولاكو على بغداد ، ص ٦٢

وأعاد الخليفة الكرة مرة أخرى بوفد يحمل هدية صغيرة الى هولاءكو معززة برسالة على يد القاضي بدر الدين دزيكي أكد فيها : أن كل ملك قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة))^(١) وعدد أسماء الغزاة من قبله وقال الخليفة في ختام رسالته : (فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين ، فأحذر عين السوء من الزمان الغادر^(٢))) ولكن هولاءكو أشهد غضبه وعاد رسل الخليفة بتهديد أشد... وبعد أن فشلت المراسلات المتبادلة بين الخليفة المستعصم بالله والقائد البربري قرر هذا الأخير المضي في زحفه نحو بغداد السلام ..

في حقيقة الأمر، كما أسلفنا ((لم تكن هذه الرسائل ألا مسألة شكلية، لان خطة هولاءكو كانت مرسومة ومقررا لها سلفا أن تنتهي الحملة في مصر))^(٣)

معركة بغداد

كان هولاءكو قد نزل وجيشه أواخر عام ٦٥٥هـ / ١٣٥٧ م على شواطئ نهر حلوان^(٣) بعد أن غادر همدان متوجها لغزو بغداد وقد وضع خطة للأطباق على

-
- (١) القزاز، د. محمد صالح ، الحياة السياسية ، ص ٣١٣ ، خصباك ، العراق في عهد المغول، ص ص ٤٩-٥٣ ، الجميلي ، د. رشيد ، حملة هولاءكو على بغداد ، ص ٦٢.
- (٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١، ص ٢٨٤ فما بعد ، ابن العبري الطيب، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٩ فما بعد.
- (٣) الدوري ، د. عبد العزيز ، العصور العباسية المتتافرة ، ص ٢٤٢ ، فوزي ، د. فاروق عمر ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ ، قهد ، د. بدري محمد ، العراق في العصور العباسية ، القاهرة ص ١٩٠ فما بعد
- (٤) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٥ الحوادث الجامعة، ص ٣٥٤-

عاصمة الرشيد من جميع جهاتها ، وفي محرم سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م عبر قسم
من جيشه

(نهر دجلة عن طريق دجيل ووصلوا نواحي نهر عيسى ليحيط جيش التتر
بالمدينة من جهتها الغربية ، وتولى هولاكو نفسه الالتفاف على الجزء الشرقي
من المدينة ، وأطبق آخرون من قادته على جهات المدينة الأخرى الشمالية منها
والجنوبية .

ويقف الباحث عند هذا الحد من معركة بغداد فهي معروفة مشهورة تثير القرف
في النفوس ..

ما الذي يكتب في مثل نكبة بغداد ؟، عن معركة دامت أربعين سنة
من ٦١٦هـ - ٦٥٦هـ من دون أن يعي دراستها المتخصصون ، ويدفع بلاءها
المسؤولون ... ما الذي يكتب الباحث عن ألدويدار الصغير قائد جيش الخليفة
الذي دخل المعركة من دون خطة واضحة ، ومن دون أدراك مسبق لقوة العدو ،
وبلا فهم لخبطه وأساليبه ...

دخل المعركة بحرص ملحوظ وإخلاص لا غبار عليه ، ولكن ليس هذا هو
المطلوب من قائد الجيش وحسب ، فهناك أمور وأمور . هذا الرجل يتحمل وزر
المسؤولية مضاعفة ، وبذمته دماء القتلى ، وقهر الشيوخ، وموت الأطفال ،
وسبي النساء . كان يسعى للانتصار ولكن أولاً على عدوه وزير الخليفة ، وقد
أخطأ الهدف وتسبب في المحنة ، مثله مثل أخوان له في نكبة بغداد الأخيرة في
نيسان ٢٠٠٣ م والحديث ذو شجون ، يطول ويطول ... يكتب الباحث عن
الوزير الذي قتلت مواهبه ، وسحقت خطته ، أهدافاً خارج الصدد ، لا تمت
للمشكلة بصلة ، فصار مقتول النفس من داخل النفس، ذليلاً يترقب الحبس أو
العزل أو الموت ساعة بعد أخرى ، في موقف شديد المخاطر كثير البلاء ، به

حاجة غير مسبوقة للوحدة والتقارب والتكاتف .. أ يكتب الباحث عن خليفة للمسلمين مستضعف ، صيره إقبال الشرابي ليخلو له الجو ويعمل كيما يريد من دون أدراك لمقدار المخاطر التي تحيط بالامة ؟...

هولاكو على أرض الشام

كان أمير حلب يظهر الطاعة والميل الى هولاكو جهارا تارة وخفاء تارة أخرى، لذلك أتهمه أمراء الشام بالمروق وخيانة الأمة وحاولوا القضاء عليه، ولكنه هرب الى معسكر الأعداء المغول^(١)، مثله مثل صاحبه بدر الدين لؤلؤ^(٢)...

وفي رمضان من عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م شرع جيش هولاكو في مهاجمة حلب وغيرها من مدن الشام/ قتلوا هؤلاء مهمة الإدلاء للجيش المغولية، والمساهمة أحيانا معها في المعارك ...

وكانت البداية الزحف على مضارب الأكراد ((فقتل المغول كل شخص وجدوه منهم^(٣))) حتى بلغوا ديار بكر وميافارقين وأمد و نصيبين وحران وحصونا متعددة في الجزيرة الفراتية ، التي فتحوها عنوة (فقتلوا ونهبوا^(٤)) وعبروا الفرات (وفجأة حاصروا حلب) ، التي أبى أهلها الخضوع والتسليم فاشتبكوا مع الغزاة ((في قتال عنيف مدة أسبوع^(٥)) على الرغم من مساعدة أمراء أرمينية وإنطاكية للمغول ، وأخيرا فتحت المدينة من ناحية باب العراق في

(١) رشيد الدين فضل الله ،جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٠٥

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٦ .

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٦-٣٠٧ ، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٢ .

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٦ .

ذي الحجة عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، بعد أن أئخذ أهل حلب جراح المغول وعلى الخصوص القادة منهم ...

قبل أن يتمكن هؤلاء من المدينة ثم وعلى عادة الوحوش ((أباح المغول القتل والسلب سبعة أيام وقتل خلق كثير^(١))... وصمدت قلعة حلب صمود الإبطال وأستمر أهلها يحاربون الغزاة مدة

(اربعين يوما^(٢)) فكانت المجانيق والسهام من دون رحمة وأهلها صامدون ، ولم يتمكن الغزاة منهم ألا بحيلة، كمثل الحيل التي أعتاد عليها مثل هؤلاء المتوحشين ، منذ خروجهم من أهلهم وحتى يوم بغداد وقتلهم الخليفة الشهيد

وهولاكو، كما هو معروف ، يعطي الموائيق ويبرم الاتفاقيات ثم يخون ...

يبدأ هولاكو مؤامراته تلك بالمفاوضات المكثفة ثم يتعهد بحفظ الذمة وإعطاء الأمان على الأموال والأنفس ثم ينكث بوعده.

بعد ان نزل أهل قلعة حلب من قلعتهم،(لم يسلّموا بناء على عهده وأيمانه^(٣))، بل استعمل فيهم السيف والتتكيل، وبعد أن تم له الأمر اصدر هولاكو أوامره ((بأن يقتلوا دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم ، ولم ينتج منهم ألا صائغ ارمني^(٤))) ...

وهولاكو، على ما ينقل رشيد الدين فضل الله الهمداني عن بعض قادة مصر ((ليس بالإنسان الذي يطمئن إليه فهو لا يتورع عن حز الرؤوس ، وهو لا يفي

(١) رشيد الدين، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٨.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٨.

بعهده وميثاقه، فإنه قتل الخليفة المستعصم بالله ، وفتك بخوارزم شاه وحسام الدين، وصاحب أريل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق^(١))) ٠٠٠

حين أحس أهل دمشق بفداحة المعارك وعنف القتال ومقدار المجازر التي ارتكبها جيش المغول المتوحش في حلب قصد جمع من أكابر أعيان المدينة وحضروا الى هولاکو ، ومعهم أنواع التحف والهدايا ومفاتيح أبواب المدينة فسلموا مدينتهم ، السماء الى الغزاة من دون مقاومة... وهكذا دخل المغول دمشق عاصمة الأمويين بلا حصار ولا قتال ((وولى هولاکو عليهم جماعة من المغول مع ثلاثة من معاونين العرب وهم علاء الدين ، وجمال الدين القزويني ، والقاضي شمس الدين القومي ، فكانوا يصرفون الأمور في مملكة دمشق^(٢)))...

معركة عين جالوت^(٣)

على عادته في الحرب النفسية أرسل هولاکو من الشام رسولا مغوليا ، وبصحبه أربعين من الاتباع ألي سلطان مصر وكان يومها (الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي^(٤)) فلما وصل رسولا هولاکو ، أحضر الملك المظفر جماعة من قادة الرأي ، ومنهم بقايا جيش جلال الدين خوارزم شاه ممن هزموا في معركة أخلاط ، وسألهم الرأي وعند النقاش وتقدير الأمر قال

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٩.

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٠-٣١٤.

(٣) عين جالوت : بلدة لطيفة بين نابلس وبيسان ، من أعمال فلسطين، اليها انتهى عسكر المغل (المغول)، فلقبهم بها البندرقدار فكسروهم، وكان ذلك انتهاء فتوحهم. البغدادي، مرصد الاطلاع، ج ٢ ص ٩٧٧.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٥.

الملك المظفر قطز ((أن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعا الى القتال ، فأذا ظفرنا فهو المراد ، وألا فلن نكون ملومين أمام الحق ^(١)))....

وقد وجدوا أن أول خطوة بهذا الاتجاه قتل رسول هولاءكو وقطع خط الرجعة، عندها أدرك الملك المظفر سيف الدين قطز أنه قبل القيام بالعمليات العسكرية لابد من الأعداد للمعركة بشيء من الحكمة والقرار الصائب، لان محاربة جيش لم يهزم طيلة أكثر من أربعين سنة مسألة بها حاجة ألي تفكير طويل ،فهي لا تأتي بالعمل الشمولي الفردي ، او الجماعي الارتجالي، بل لابد من لم الشمل و توحيد الصف وبناء الجبهة الداخلية لكي لا يتكرر خطأ الدويدار الصغير الذي كان الحماس والإخلاص وحدهما دليله فلم ينجح في معركته ^(٢)...

وفي الصباح وطد الملك المظفر العزم على الحرب بحكم الضرورة، وتأهب للقتال ،وكانت باكورة تلك الأعمال الهجوم على طلائع المغول في غزة وطردهم من تلك المناطق حتى نهر العاص...

عند ذلك رسم المظفر مسرح المعركة باقتدار عال، واستفاد من كمين هولاءكو الذي نصبه للدويدار في معركة بغداد ، ورتب مكانا أفضل منه وعبأ جيشه في كمين محكم وأعدده خير أعداد ، ثم أعطى الاشارة، وبدأ المعركة بأن ركب هو نفسه وثبت مع نفر قليل من الجند، وقابل جيش المغول وهم (عدة ألوف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس ^(٣))...

وفي تلك القرية الجميلة (عين جالوت)قذف المغول سهامهم وحملوا على جيش الإسلام فتراجع المظفر قطز من ارض المعركة وكأنه المنهزم الذي لحقت

(١) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٢-٣١٤.

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٠-٣١٨.

(٣) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٢-٣١٥.

بجنوده الهزيمة، وما هي إلا ساعة حتى بلغ المغول الى كماشة الكمين ، فانشق عليهم جيش الإسلام من ثلاث جهات فقاتلوهم قتالا مميتا من الفجر حتى منتصف النهار، فأنهار عسكر المغول ولحقت بهم الهزيمة ووقع زعيمهم في الأسر وكبل بالأصفاد والتجأ قسم كبير من جيش المغول الى أجمة من قصب كانت بالقرب من ساحة القتال . فأمر قطز جنوده بان يضرموا فيها النار وأحرقوهم حرقا وطاردوا الجيش المغولي في جميع أنحاء الشام وطهروا الأرض منهم .

وكمثل جزاء سمنار (كان قتل الملك المظفر قطز وهو عائد من كسرة النثر المخدولين ، وهي الكسرة المشهورة على عين الجالوت) بالقرب من بيسان ، وتولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري بانفاق الأمراء عليه ^(١)

في حين يذكر صاحب (الحوادث الجامعة) انه بعد النصر المبين الذي أحرزه هذا القائد المحرر (دخل الملك المظفر قطز دمشق واستولى على الشام جميعه ، وأحكم أموره وقرر قوانينه وعاد الى مصر ، فلما كان بنواحي غزة ونسب البندقدار (بيبرس) في عدة ممالك الصالح أيوب فقتلوه، وأتفق الأمراء على بيبرس فجعلوه سلطانهم ، ولقب الملك الظاهر ^(٢)...

موت هولاكو بالسكته

أراد هولاكو أن يرسل جنوده الى الشام ومصر لينتقم لعسكره، ومقتل قاداته ، ولكن الظروف ساءت، والعائلة الحاكمة تشظت ، بعد وفاة منكوخان... كل يريد الملك له ، استولى هولاكو على اكثر ممالك إيران والعراق ، فوقع الخلاف بين الاخوة واشتدت بينهم الحروب... فأصبح هولاكو بعد ذلك الغرور والهوس

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٤، ص١٥٥.

(٢) الحوادث الجامعة ، ص٣٨٤.

(منكسر الخاطر موزع الضمير لعين السوء التي إصابته^(١)) كما زعم رشيد الدين فضل الله ، ولم يقل انها نتيجة لحمامات الدم التي سفكها ، وترويع الأبرياء الشيوخ والأطفال والنساء والمتعبين من الناس.....

كان هولاءكو يشعر بالمتعة عندما يقتل (الأشراف والأعيان والزهاد والعباد والتجار^(٢)) وبقسوة لا نظير لها ...

في ربيع الأول من عام ٦٣٣ هـ / ١٢٦٤ م ، مات هولاءكو عندما بلغت الأزمة النفسية عنده أشدها .

اباقا خان بن هولاءكو (٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م - ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م)

حينما توفي هولاءكو ، سد المغول طرق عاصمتهم ، (واصدروا الأوامر بالا ينتقل أي مخلوق من مكان إلى آخر^(٣)) ، فأرسلوا في الحال رسولا إلى ابن هولاءكو الأكبر وولي عهده اباقا خان ، وبعد إن حصل الاتفاق بين الأمراء ، اجلسوا اباقا على سرير ملك أبيه في رمضان عام ٦٣٣ هـ / ١٢٦٥ م وكان من جملة القرارات الجديدة في أول عهد هذا السلطان أن ((قلد شمس الدين محمد الجوني منصب الوزارة حسب القاعدة السابقة وولى سونجاق ممالك بغداد وفارس، وجعل نائبه في بغداد علاء الدين عطا ملك الجويني، كما كانت على عهد أبيه ، واختار بعض المدن للمصيف واختار بغداد للمشتي^(٤)، ولكنه لم يصلها غير ثلاث مرات طيلة حكمه...

(١) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج١، ص٣٤٠.

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٨-٣٤٠، الحوادث الجامعة، ص٣٨٤.

(٣) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج٢، ص٩.

(٤) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج٢، ص١٢، الحوادث الجامعة، ص٣٩٩.

الأولى:

كانت في شتاء عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨ م ((قام إلى زمن الربيع)) وأهداه بهذه المناسبة والي بغداد علاء الدين عطا ملك الجويني (التحف والأعراق النفيسة^(١)) .

والثانية :

كانت عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣ م ونزل في قرية المحول ، وأمر بإضافة اقليم تستر و أعمالها الى والي بغداد الجويني، ((ولما انقضى الشتاء عاد إلى مقر حكمه^(٢))) وكانت زيارته.

الثالثة :

عام ٦٨٠هـ / ١٢٨٢ م للإشراف على جيوشه التي أرسلها لأخذ الشام ومصر، ولكن جيوشه هذه انهزمت ولحقت بالمغول خسائر كبيرة (وقتل منهم خلق كثير^(٣))...

وفي طريق عودة السلطان أصيب بمرض فمات في مدينة همذان بعد شهر من وصوله إليها^(٤)...

كان عهد اباقا خان عهد انحلال و ضمور القبضة الحديدية للمغول ، فما ان مات هولاء حتى شمل التمرد أصقاعاً كثيرة من الدولة ، وبلغ التآمر بين أمراء المغول أنفسهم أشده ، ونشبت الحروب بينهم ، فكانت قرية من كرسي

(١) الحوادث الجامعة، ص ٣٨٤.

(٢) الحوادث الجامعة، ص ٤١١.

(٣) الحوادث الجامعة، ص ٤٥٢، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٥

(٤) الحوادث الجامعة، ص ٤٥٣، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٥-٨٦

السلطان نفسه ، كما كانت بعيدة عنه ، وقد حاول اباقا خان قيادة جيوشه بنفسه ولكنه ارتد منكسرا مخذولا في اكثر من مرة ، آخرها في السنة التي مات فيها ، يوم كانت هزيمته أمام الجيوش المصرية ...

كانت الانتصارات في معركة عين جالوت الحاسمة ، قد هزت نفس الإنسان العربي المسلم ، فانقض على المغول في الموصل وماردين وميفارقين وفي غيرها ، مما جعل روح التخاذل والانكسار تنتزع ثوبها عن أهلها وتحل محلها روح الثقة بالنفس والأيمان بالمبادئ والعزيمة والأقدام ، وزالت والى الأبد قوة المغول التي قهرت دولة الإسلام في دار السلام..

وبدأت، هذه المرة، جلية حرب جديدة فكرية بين الإسلام والوثنية ...

السلطان أحمد تكودار بن هولكو^(١) (١٢٨٠هـ / ١٢٨١ - ١٢٨٣هـ / ١٢٨٤م)

في مجلس شورى أمراء المغول أُنفق الكثير منهم على إن يكون احمد تكودار سلطانا بعد أخيه، وكان بعضهم يميل إلى ارغون خليفة لأبيه اباقاخان. فدب الخلافة بين أفراد المجلس ، ولما كان الجيش وصاحب ديوان الممالك الوزير شمس الدين محمد الجويني ، يميلون الى احمد (ودفع ارغون عن التجت)^(٢) . فوجد الامراء ان من مصلحة الجميع المبايعة للسلطان احمد كي لا (يتطرق الخلل إلى شؤون المملكة إذ ما انتظروا وصول بقية الأمراء).^(٣) .

وفي آخر تلك المناقشات ((قطعوا العهود وكتبوا الوثائق كالمعتاد)) ثم اخذ كبير منهم بيد احمد اليمنى، واخذ آخر بيده اليسرى، وأجلساه على العرش ، ((ولما كان

(١) السلطان احمد كان اسمه قبل اسلامه تكودارين هولكو وهو الابن السابع لهولكو ، انتخب سلطانا عام ٦٨٠هـ / ١٢٨٣ م ، وقتل عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م بانقلاب عسكري ، رشيد الدين فضل الله ، ج٢ ص ٨٦ _ ١٢٢ ، الحوادث الجامعة ، ص ٤٥٢ _ ٤٥٤

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٥٣ ، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٩٠ _ ٩٢

(٣) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج٢ ص ٩١

معترفا للإسلام فقد لقب بالسلطان احمد))^(١) بدلا من اسمه السابق تكودار بن هولالكو ...

ومن تلك اللحظة لم يهدأ لارغون بال ، جاء مرة بعد انتهاء مراسيم التنصيب ((مع ألفين أو ثلاثة آلاف فارس ، واخذ يعاتب عمه احمد))^(٢) فاعزه هذا و أكرمه ومنحه (عشرين سبيكة ذهبية)^(٣)، ولكن هذه السبائك لم تشف غليل الأمير المتهور ، فجمع حوله كل عناصر التيار الوثني، وكل الذين لهم^(٤) صلة بآل الجويني الذين وجدهم قادة التيار الإسلامي داخل الدولة الايلخانية ،ومن أسباب تنحيته عن العرش ...

هذا العنف من التيار الوثني دفع السلطان احمد الى تعزيز تيار الإسلام الذي يقوده ، فأشار عليه وزيره شمس الدين محمد الجويني والصوفي الجليل الشيخ عبد الرحمن المستعصمي إن يبعث لهذا الغرض الى مصر والشام قطب الدين الشيرازي وكان من كبار علماء الإسلام يوم ذاك^(٥) ولكن أمراء الإسلام في

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٢

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٣

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٣-٩٤

(٤) الشيبيني ، الشيخ محمد رضا ، مؤرخ العراق ابن الفوطي ... ج ٢ ، بغداد ١٩٥٨ م ، ص ١٤٨ - ١٥٠

(٥) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٩٧ ، لم يكن السلطان احمد بن هولالكو اول مسؤول من المغول اتصل بسلاطين الشام ومصر ، بل سبقه الى ذلك بركة او بركاي بن جوجي خان بن جنكيز خان (ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م) والذي (حكم الولايات والمناطق الواقعة ما بين حدود اريش وجبال الناي) وما حولها ، وجعل عاصمتها (اريش) ونصب نفسه حاميا لحمى الإسلام ، وكان له اخ اسمه محمد هو الابن الحادي عشر لجوجي خان بن جنكيز خان ... واقام بركة بينه وبين السلطان الظاهر بيبرس تحالف لمحاربة هولالكو ، لان هذا الأخير كان يتآمر على ابن عمه بركة ، واتهم اتباع هولالكو بدس السم عمدا الى شخصين من كبار رجال بركة ، فتأزمت العلاقة بينهما ثم نشبت الحرب التي استمرت طيلة حياتهما ، وظلت مستمرة بين أولادهما وأحفادهما . وعندما ضيق على السلطان احمد ابن أخيه ارغون اراد اللجوء الى ديار بركة وطلب مساعدته ، ولكن اعداءه قطعوا عليه الطريق ... لمزيد من التفاصيل : رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، تاريخ هولالكو ، الجزء الأول ص ٣٣٢ فما بعد والجزء الثاني (تاريخ أبناء هولالكو) ص ٣ - ١١٥ ، والجزء الثالث ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاي خان الى تيمور خان ، ط ١ بيروت ١٩٨٣ ، ص ١١٦ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مصر والشام لم يردوا عليه بالإيجاب ، لانهم كانوا يجدون في الدولة الايلخانية القاتل للشيوخ والأطفال و النساء وإسقاط دولة الإسلام في بغداد ، ولم يقدرُوا الأمور الجديدة حق قدرها ...

وفي شتاء ذلك العام وصل ارغون الى بغداد مع عشرة آلاف جندي من القراونة، فقبض على نواب علاء الدين عطا ملك الجويني بحجة إن لوالده ديوناً بذمة الجويني ، حتى انه أخرج ((جثة نجم الدين من القبر وألقى بها في الطريق))^(١) . . .

جاء هذه الأحداث وجد السلطان احمد إن من المناسب مفاتحة أمراء الإسلام في مصر والشام مرة أخرى ، وتقرر إن ينقلها هذه المرة الشيخ عبد الرحمن الصوفي المستعصمي نفسه ، وما إن وصل هذا الشيخ الجليل إلى دمشق ، حتى زجوه في السجن المؤبد ((وبقي في ذلك السجن الى إن مات))^(٢) اشتعلت نار الفتنة بين العم وابن أخيه الأمر الذي استقطب كل منهم اتباعه فتجمع حول السلطان احمد ((اكثر من مائة ألف فارس من صفوة المغول والمسلمين والأرمن والكرج ، مجهزين بالعدة والآلات))^(٣) ، وكان قائد هذا الجمع علي ناق ، وهو رجل مشهود له بالشجاعة والخبرة العسكرية ، وتقابل الجمعان في أكثر من معركة تمكن علي ناق في الأخير أن يقبض على ارغون ويسلمه إلى عمه السلطان احمد ، ولكن هذا اكتفى باعتقاله من دون قتله^(٤) ، على الرغم من نصائح قائد جيشه علي ناق ، مما شجع اتباع ارغوان على التجمع مرة أخرى و قاموا بتدبير مؤامرة أطلقوا خلالها سراح ارغون من السجن وقتل قائد الجيش

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٩٩

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠١ ، الحوادث الجامعة ، ص ٤٧١

(٣) رشيد الدين ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٢

على ناق ، ثم تجمع حولهم جيش كبير توجه نحو السلطان الذي سرعان ما تمكنوا من اسره ثم قتله (١) ... فكان في ذلك انحسار للمد الإسلامي.

وتشظت أفكار الأمراء ومصالحهم بعد قتل السلطان احمد ، ولكن ارغون تمكن من الجميع ، فأخذوا بيديه وأجلسوه على العرش عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤ م ... (٢)

أم رابعة الأميرة شمس الضحى شاهليني الأيوبية

أباح هولاء بغداد لجيشه أربعين يوما نهبا وتخريبا وحرقا ، طالت ناره قبور الأئمة والخلفاء والأولياء والصالحين ، وأمست بعدها نساء الخليفة وذراريه سبايا الغزاة ...

وكان ضمن السبايا الأميرة شمس الضحى شاهليني بنت عبد الخالق بن ملكشاه بن صلاح الدين الأيوبي ، زوجة الشهيد احمد بن الخليفة المستعصم بالله وكان معها في الأسر ابنتها الأميرة رابعة بنت الأمير احمد (٣) هذه المرأة البطلة كان

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢١ ، وفصل هذا الامر : الحوادث الجامعة ، ص ٤٧١ — ٤٨٣

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٦ ، الحوادث الجامعة ، ص ٤٨١ — ٤٨٣

(٣) ويعجب الدكتور مصطفى جواد : كيف نجت هذه الأميرة وابنتها رابعة من القتل ، فقد جاء المغول الى اصنام الخليفة ونسائه وكل الذين كانوا في دار الصحن ودار الشجر في مجمع دار الخلافة - بشارع المبتصر الحالي - فيطلبون واحدا بعد واحد فيخرج بأولاده وجواريه فيحمل الى مقبرة الخلال المعروفة بالخلائي حاليا فيقتلونهم جميعهم عن آخرهم ، ويرجع الدكتور جواد ، ان علاء الدين عطا ملك الجويني سعى في خلاص السيدة شاهليني من القتل ثم تزوجها ، وزوج ابن أخيه شمس الدين هارون بابنتها رابعة ، فني التراث العربي ، ج ١ ص ١٣٥ ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ولا يخفى ما في هذا الخبر من المبالغة في قتل للنساء ، ومثله في المبالغة ما نقله رشيد الدين فضل الله في كتابه جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٩٢ ، قال: صدر الامر بإحصاء نساء الخليفة ، ((فعدوا سبعمئة زوجة وسرية والـف خادمة ، فلما أطلع الخليفة على تعداد نسائه ، تضرع وقال : من علي بأهلي وحرمي اللاتي لم يطلع عليهن الشمس والقمر ، فقال له هولاء : أخذنا مائة من هذه النساء السبعمئة وأترك الباقي) ، فأخرج الخليفة معه مائة امرأة من اقاربه والمحبيات اليه ...))

لها شأن عظيم في حركة المقاومة ضد الغزاة ، وتجميع القوى التي يعثرها الغزو ، وإيقاف المد التدميري الذي رافقه ، تمكنت هذه السيدة الأميرة أولا من السيطرة على البيت الذي أسرها ، وصار جميع من فيه الى جانبها ، وتزوجت من عميده علاء الدين عطا ملك الجويني ، وكيل التتار في العراق وخوزستان ، ووقفت في جعله في صف الإسلام ، يحاول ما استطاع التكفير عن جرائم التتار ، و غسل عار ذنوبهم ، وتطهير بؤس أخطائهم، فما رد لها طلبا قط ، وأنصاع لهذه المرأة الصوفية النقية النقية ، بالصيغة التي فصلها المؤرخون المعاصرون لهما ، والتف حولها شيوخ التصوف البغدادي ، وكانوا وقتها رأس النفيضة ، ومقدمة المقاومة ، انبثق فيهم الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الذي اظهر التصوف والزهد ، وهو بالأصل من أبناء ممالك الخليفة المستعصم بالله ، الذي تمكن من أشياء نفيسة من الجواهر عند النكبة ^(١) وكان من رموز المقاومة أيضا جلال الدين من أبناء مجاهد الدين الدويدار الصغير الذي عانى من اسر المغول ست سنوات ثم أعيد إلى بغداد بمساعدة زوج أم رابعة ، ثم فتك بالمغول بحيلة طريفة وهرب مع جماعته إلى الشام ^(٢) وقد اتهم نتيجة ذلك الجويني بالتواطؤ معه، واعتقل وحمل إلى اذربيجان مقر الدولة للمحاكمة ، ولكنه تخلص من التهمة بوساطة أعوان له هنالك ، ورجع إلى الحكم ثانية في بغداد ^(٣) ... ومن رموز المقاومة أيضا جمال

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٩٦، ٩٥، ٩٧، ١٠١ : ويقول: كانت تربطه بالسلطان أحمد صلة وثيقة بحيث كان يدعوها بأبنتي ، ويشاوره في كثير من الأمر

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ _ ٣٢٩ ، الحوادث الجامعة، ص ٣٨٢

(٣) في سيرة علاء الدين الجويني كل ما يدل على التتار للوثنيين الطغاة من حكام المغول والدفاع عن بيضة الإسلام و أمته المغلوبة على أمرها والسعي لرفع الظلم عنها وقد اتهم خلال مدة حكمه للوثنيين، التي جاوزت العشرين عاما الى اكثر من سبع اتهامات لا يخرج معظمها عن مكاتبة حكام مصر والشام ٥٠٠ فصل هذا الامر : رشيد الدين ، جامع التواريخ، ج ١ ص ٢٤٣، ٨٧، ٨٦ _ ٢٤٥، ج ٢، ص ٩٣ _ ٩٨، الحوادث الجامعة، ص ٣٦٩ فما بعد في رسالة لعطا ملك الجويني يبشر اهل بغداد بالسلطان احمد قوله (ودعاء الدولة القاهرة الايلخانية الاحمدية التي نشرت الوية الشريعة المحمدية ...) ص ٤٥٧

الدين عبد الله ياقوت المستعصي ، الخطاط والأديب والشاعر ، كان من مماليك الخليفة المستعصم بالله الذين تربوا في دار الخلافة ، ومكنته أم رابعة من دار الكتب في المدرسة المستنصرية وصار الخازن فيها ، ومنهم أيضا مجد الدين بن الأثير وهو غير أبي السعادات مجد الدين بن الأثير (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) بل هو من أعوان الجويني وجاء معه وكان من وجهاء بغداد الذين قاموا بأعمال جليلة قتله ارغون (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) في الانقلاب من جملة من ظفر بهم من أعوان الجويني زوج أم رابعة ، وغير هؤلاء كثير ، شكلوا نواة لتنظيم المقاومة بزعامة السيدة أم رابعة الأيوبية ...

تمكن هذا التنظيم (بما تملك زعيمته من نفوذ ، وما لدى الشيخ كمال الدين عبد الرحمن من مواهب) من السلطان نكو دار بن هولاكو ، وحببوا إليه الإسلام ، وسمى نفسه السلطان احمد بن هولاكو، ومكنوه من مراسلة الأمراء المسلمين ، وإيفاد الوفود والسفارات إلى مصر والشام للتشاور ، ولكن انقلابا عاجله فقتله ابن أخيه ارغون ، مع من قتل من أعوان ذلك التيار ...

والمهم أن رابعة وخلال العشرين سنة أو تزيد من عام (٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م) وحتى يوم وفاتها في (٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م) ، تمكنت من إنجاز مهام كثيرة نعل أهمها الحفاظ على سرية قبور الذين قتلوا في نكبة بغداد ، ومنهم آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله وولده الأمير احمد وأخوه الأمير عبد الرحمن ودفنتهم جميعا في تربة واحدة مجاورة لمشهد عبيد الله العلوي في محلة النصبة في الأعظمية ، وشيدت في الموقع مدرسة عظيمة لطلاب العلم ، تكاملت عمارتها سنة (٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م) ، وبنت الى جوارها رباطا للصوفية ، وأوقفتها ثوابا واحتسابا لأرواح شهداء النكبة ... كما تمكنت هذه المرأة المناضلة من ترميم و بناء الكثير من قبور الأئمة والخلفاء العباسيين والأولياء الصالحين ، حتى إن ابن بطوطة الذي زار بغداد عام (٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) ، وجد إن

قبور الخلفاء العباسيين ما تزال قائمة وذكر اثنين و ثلاثين خليفة كتبت أسماؤهم على قبورهم ، منهم المستعصم بالله، وهو أمر مقبول وصحيح ، بطلته أم رابعة الأيوبية ...

وكانت هذه السيدة قد أسهمت ، بإطلاق سراح بعض العباسيين من الأسر وتسفيرهم إلى الشام ...

أنها المدرسة ((المستعصمية)) وليس العصمتية

ذكرها بهذا الاسم (المستعصمية) الدكتور عماد عبد السلام في كتاب ((مدارس بغداد في العصر العباسي)) ولكنه قال : ((هي من المدارس ، الحنبلية القليلة الخبر ببغداد بنيت بأمر من الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ هـ - ٦٥٦ هـ) كما يتضح من ظاهر أسمها))،^(١) وما كان عند الدكتور عماد ما يشير الى موقع هذه المدرسة في خطط بغداد القديمة ، أو الى أي عهد دامت^(٢) ، وهو على حق، لان المدرسة لم تقم زمن الخليفة الشهيد ولم يأمر بها ، بل ان الأدلة كلها التي تملكها الدكتور عماد هي ما ذكره ابن رجب في كتابه (ذيل طبقات الحنابلة ، عند ترجمته لأستاذين من مدرسي (المستعصمية) ، هما :

- ابن كوشيار، أبو احمد شرف الدين داود بن عبد الله^(٣)، ولعله الجيلي، المذكور في كتاب (الحوادث)^(٤).

(١) رؤوف، الدكتور عماد عبد السلام ، مدارس بغداد في العصر العباسي ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٢٠٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣) ابن رجب ، ذيل طبقات الحنابلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ، د. عماد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣-٢٠٤

(٤) الحوادث الجامعة ، ص ٤٠٩

٢_ البايصري البغدادي ، ابو العباس جمال الدين احمد بن علي بن محمد ، الذي قال عنه ابن رجب انه ولد عام ٧٠٧هـ وتوفي في طاعون سنة ٧٥٠ هـ ببغداد بعد رجوعه من الحج . (١)

وذلك نقل صحيح تماما ، بعد ان اندحر التيار الوثني بداية القرن الثامن الهجري ، ذلك التيار الذي ركب موجته السلطان ارغون وأخوه كيخاتو خان ، وخفت سطوته بمجيء السلطان غازان بن ارغون (٦٩٤هـ / ١٢٥٩ م - ٧٠٣هـ / ١٣٠٤ م الذي جعل الإسلام دين الدولة الايلخانية ، و أن كان هذا الأخير مازال يكن العداء لال الجويني وهم قادة التيار الإسلامي زمن أبيه، وهم الذين استأصلهم أبوه جميعا صغارا وكبارا ، و من دون رحمة أو إنسانية في قصص مفجعة (٢)

من حق الدكتور عماد عبد السلام أن يقول :انه لم ير ما يشير الى موقع هذه المدرسة في خطط بغداد القديمة، (٣) لأنه كان معنيا بمدارس بغداد في العصر العباسي من دون غيرها ، وهذه المدرسة قامت بعد هذا العصر ، ولم يأمر ببنائها الخليفة الشهيد المستعصم بالله ،بل أمرت بإنشائها الأميرة شاه لبنى شمس الضحى الأيوبية ، كانت يومها زوجة عطا ملك الجويني صاحب ديوان

(١) ابن رجب ، المصدر السابق ، ج٢ ص٢٤٥ ، د. عماد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص٢٠٤

(٢) قتل الوزير شمس الدين محمد الجويني وابنه صاحب ديوان بغداد شرف الدين هارون الجويني زوج الأميرة رابعة وقتل عطا ملك الجويني صاحب ديوان بغداد ، وقتل من أصحابهم كثيراً أول جلوسه على العرش ، وبعد ست سنوات من قتل هؤلاء ((سأل السلطان عن تخلف من اولاد الوزير الجويني ، فأخبر بهم فأمر بقتلهم، وكان في تبريز منهم مسعود وفرج الله فقتلا ، وكان مسعود قد اعرس منذ ليال ، اما فرج الله فكان صبيا في المكتب ... وكان اخوهم نوروز في الروم فساروا اليه فقتل هنالك)) .الحوادث الجامعة ص ٤٩٩

(٣) د. عماد عبد السلام ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤

بغداد ، وشيدت الى جانبها تربة للخليفة وولديه ، زوجها الأول الأمير احمد وأخيه الأمير عبد الرحمن، بعد ان نقلت جثمان هؤلاء الشهداء بسرية تامة، خوفا من عيون الرقباء في عصر منفلت ، من مقابر هولاء التي لا يعلم بها غير القلة من اتباعه ومنهم زوجها عطا ملك الجويني ، وقد وثق هذا الحدث بدراسة مفصلة قام بها الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، تشكلت في ضوء تلك الدراسة لجنة فنية من الآثار والأوقاف والمتخصصين لاستظهار القبر وتطوير الموضع

...

المشهد مازال قائما في محلة النصبة بالا عظمية ((وهو بناء طولي يضم حجرتين مقببتين ، يفصل بينهما رواق مقبب أيضا ...))^(١)

في عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢ م تكاملت عمارة المدرسة والتربة والرباط الملحق بهما ، وفتحت المدرسة في هذا العام نفسه ((بعد أن أوقفها على الطوائف الأربع)) ورتبت فيها :

١- البصري ، القاضي عز الدين أبو المعز محمد بن جعفر ، مدرس الشافعية .

٢- الكوفي ، عفيف الدين ربيع بن محمد ، مدرس الحنفية وقد عاش الى ما بعد ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ م.

٣- الجيلي ، شرف الدين داود، مدرس الحنابلة ، وقد عاش الى ما بعد ٦٩٠ / ١٢٨٨ م

٤- مجد الدين المعروف بشفير الواعظ . مدرس الشافعية .

(١)الحوادث الجامعة ، هامش ٣ ص ٤٤٦

وصار الناظر في المدرسة شهاب الدين علي بن عبد الله . ولكي تستمر هذه المدرسة والرباط ، ويبقى الاشراف على قبر الخليفة بيد التقاة المقربين ، اوكلت الاشراف عليها الى قاضي قضاة بغداد ، او من يحل محله ويولي هذا المنصب ، وهو اعلى منصب ديني في الاسلام بعد الخليفة ، ولذا وجدنا هذه المدرسة مستمرة بعطائها الى ما بعد القرن الثامن ^(١)...

سميت هذه المدرسة باسم صاحب القبر الذي شيدت والرباط الملحق بها ثواباً لمصاحبه، فهي (المدرسة المستعصمية) وليس (المدرسة العصمية) ، التي قد يكون سماها بهذا الاسم اول من ارخ ذلك كابن الساعي (ت ٦٧٣هـ) أو ابن الكازروني (٦٩٦هـ)، تصحيفا لان اسم (المدرسة المستعصمية) ينسجم مع الحدث الذي شيدت من أجله المدرسة ، وكان هذا اللقب معروفاً يحمله بعض الرجال ، واسم (العصمية) لا يدل على شيء وليس له حدث، فان كانت النسبة الى (عصمت الدين) أو (المعصومة) أو (ذات العصمة)، فان هذه التسمية للنساء البارزات لم تكن شائعة في بغداد ذلك الزمان بل كانت في زمن لاحق ... ولعل سبب التصحيف كان تمويها متعمدا للحفاظ على سرية المكان في زمن شدة العداء للعباسيين ، اما اذا كان غير متعمد فقد جاء به خط يد مهوزة ، ترتجف خائفة بعد ان أقل حكم الخلفاء العباسيين، وساد حكم الغاب أو كاد ...

ومما يلفت النظر في هذه المسألة ان أستاذنا الدكتور مصطفى جواد قال : (انه لم يقف على سبب تسميتها بذلك) ^(٢) مع ان التصحيف كان واضحا، فأوقع في الحفرة التي صنعها العديد من الباحثين الذين جاءوا بعده ...

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٤٠٩-٤١٠

(٢) من التراث العربي ، ج ١ ص ١٣٥

لقد حان الوقت لتتصف هذه المرأة البطلة ام رابعة الأيوبية ، ونكرم ال الجسويني الذين ضحوا في سبيل الإسلام ورفع رأيته ...

قبة أم رابعة الايوبية وحفدتها زبيدة بنت هارون الجويني لا قبة زمرد خاتون

في وسط مقبرة باب الدير الى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي عمارة من ثمانية أضلاع ، بابها في واحد من أضلاعها ، تعلوها قبة مخروطية الشكل من الداخل ومضلعة من الخارج ^(١).. هذه القبة منذ زمن بعيد وحتى اليوم تسمى قبة (الست زبيدة) ، حتى ان بعض الرحالة وجد ما يشير الى هذا الاسم ، وقد ذهب من لا علم له بالتاريخ والخطط الى ان هذه المقبرة تعود الى السيدة زبيدة بنت جعفر بن الخليفة المنصور ، وهي ليست كذلك قطعاً ، بل تعود الى واحدة من أسباطها هي السيدة زبيدة شرف الدين هارون الجويني والي بغداد (قتل سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥ م) من زوجته رابعة بنت الأمير احمد بن الخليفة المستعصم آخر خلفاء الدولة العباسية الذي قتله السفاح هولاء عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) عند غزو بغداد ^(٢)، وكانت المقبرة في الأصل لام رابعة السيدة شمس الضحى شاه لبني بنت عبد الخالق بن ملك شاه بن البطل صلاح الدين الأيوبي التي تزوجها ، أولا الأمير أبو العباس احمد ، وبعد استشهادها صارت زوجة علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق ، وتزوج ابنتها الأميرة رابعة عام (٦٧٠هـ / ١٢٧١ م) ابن اخيه هارون الجويني ^(٣)..

(١) فصل الامر : الأعظمي ، خالد خليل حمودي ، الزخارف الجدارية من آثار بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤-٥٨ العاني ، علاء الدين احمد ، المشاهد ذات القباب المخروطية ، بغداد ١٩٨٧ ، ص ١٠١ فما بعد

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٨١-٢٩٧ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٥٤-٣٦٧ ، ابن الطقطقي ، الفخري في الأدب السلطانية ، ص ٣٣٣-٣٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١ ص ٢٠٥ فما بعد

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٠٨-٤٠٩ ، ص ٤٤٦

الذي جلس على السدة في المدرسة النظامية ببغداد عام (٦٧١ هـ / ١٢٧٢م)^(١).. ومن ثم صار صاحب الديوان وولي العراق بعد عمه ، فولدت له زوجته الأميرة رابعة العباسية ولدين وبناتاً واحدة ، سماهم الأمين والمأمون و زبيدة تيمنا بأجداد زوجته الخليفة الأمين وأخوه الخليفة المأمون وجدتهما السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة الخليفة هارون الرشيد وكان قد تزوج الست زبيدة بنت هارون الجويني وجيه من وجهاء المجتمع وسيد من ساداته ، وعالم من علمائه وهو ابن محاسن : ظهير الدين محمد بن الحسن بن عبد الرحمن . وكانت الست زبيدة بنت هارون كأمها الأميرة رابعة وجدتها ام رابعة من سيدات المجتمع صوفية تقيّة نقيّة ، وعندما انتقلت الى الرفيق الاعلى دفنت في تربة جدتها وأمها وغلب اسمها على القبر والمأذنة منذ ذلك اليوم ...

كانت السيدة شمس الضحى شاه لبني الأيوبية ورعة تقيّة تحب العلماء وتعطف على الصوفية ، تعيش التصوف و حياة الزهد ، وتغدق الأموال على المحتاجين^(٢)، شيدت سرا مقبرة للخليفة الشهيد المستعصم وأبنيه زوجها السابق الأمير احمد وأخيه الأمير عبد الرحمن وغيرهم من شهداء النكسة ، كما ذكرنا سابقا ، ورغبت ان تدفن بعد موتها في ذلك المكان ، ولكن زوجها الآخر علاء الدين الجويني ورغبة منه في تخليد زوجته البطلة هذه دفنها بين أهلها الصوفية تحت قبة لم يشيد مثلها ... ولأن الأمر كان سريا للغاية ، ومحاطا بالمحاذير، في زمن منفلت واحتلال جائر، ظن مؤرخون كثير، ان هذا القبر، حقا، هو قبر للسيدة ام رابعة وليس للخليفة المستعصم وابنيه .

(١)المصدر السابق ، ص ٤٠٤ ، ص ٤١٠

(٢)الحوادث الجامعة، ص ٤١٠ (كانت تحب أهل بغداد وترعى مصالحهم ، وتقوم في حوائجهم وتساعدهم)

والبناء بمجمله يقع ضمن المشهد المعروف بقبر السيد عبد الله العلوي (محلة النصبة في الأعظمية حالياً)، والذي يحتفل عنده أهل الأعظمية وينذرون له النذور ، ولا سيما أيام الأربعاء بعد عيدي الفطر والأضحى وقد سماه ياقوت الحموي (قبر النذور) ^(١) ...

وقد وجد غير واحد من الباحثين ان هذه المقبرة والمدرسة التي بجوارها هما تربة ام رابعة التي دفنت فيها مع ابنتها رابعة ...

وفي ذلك نظر، وفيه خلاف، وبه حاجة الى كشف غموضه ، والتحقق في أمره، والتدقيق في حيثياته ...

فنقول : كان السفاح هو لاکو ، الذي تلطخت يده الأثمتان بدم أهلنا ببغداد وغيرها من الحواضر ، قد دمر المعالم الحضرية والمدنية، وخرب المعابد والمساجد و أراد بعض اتباع هؤلاء من المسلمين، او الذين اعتنقوا الإسلام ، التكفير عن جريمتهم تلك ما استطاعوا، فكان علاء الدين عطا الجويني زوج الأميرة شمس الضحى الأيوبية ام الأميرة رابعة العباسية ، الذي ولي العراق اكثر من (٢١) سنة مثالا لأولئك القادة المغول ، له ولع خاص في بناء العمارة وتشبيد الأضرحة وإقامة المساجد، ولما توفيت زوجته الأميرة شمس الضحى عام (٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م) ، وهي الصوفية الأصلية، لم تدفن في رباطها المعروف في الأعظمية ، بل دفنها زوجها متوسطة بين قبور شيوخ الصوفية وسادة الطريقة ... كان الشيخ معروف عن يمينها والشيخ جنيد وخاله السري السقطي عن شمالها، وقام أخوة شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان

(١)الحوادث الجامعة ، ص٤٦ ، البغدادی،عبد المؤمن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج٣،

الممالك ببناء قبة مخروطية فريدة من نوعها مواساة لأخيه الوالي لفقد زوجته الاميرة وليقر بها عيون ابنتها رابعة زوجة ابنه هارون الجويني^(١) ... و تخليدا لهذه السيدة الصوفية قام زوجها ببناء مئذنة جامع الخلفاء القائمة حتى الآن والمعروفة

(١) اختلف الباحثون في عصرنا في تحديد عائدة هذا القبر والقبة المخروطية وفي ادناه اهم الاراء اول من نسب القبة المخروطية الى السيدة زبيدة ، كان الشيخ نظمي زاده (ت ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣ م) وكان ذلك في كتابه الذي صدر عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨ م ، أي قبل ان يدفن والي بغداد حسن باشا زوجته عائشة عام ١١٣١هـ/ ١٧١٨ م ، داخل هذه القبة ، ويضيف اليها كتابات من عنده، جاء بعدها كمال الدين الصديقي الدمشقي -ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨ م) ، وكان ذلك عند زيارته لبغداد عام ١١٣٩هـ/ ١٧٦٦ م ، ومن ثم جاء بعدها الرحالة الدينماركي كارستن نيبور ، فذكر في كتابه الرحلة (الى روحها الفاتحة هذا قبر المرحومة المغفورة الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس توفيت سنة مائتين وست عشر ٠٠٠

هو نص وضع مؤخرا ولا ريب فلا الاسم كان صحيحا ولا الأسلوب كان من أساليب ذلك الزمان

_ الأستاذ عباس العزاوي في كتابه (العراق بين احتلالين) ص ٥٣٢ ،نسب القبر والقبة الى السيدة زبيدة بنت _ هارون الجويني، ويطرح أدلته بهذا الشأن .

_ السيد محمود شكري الالوسي في كتابه (مساجد بغداد ...) سماها تربة زبيدة وقال لعلها تربة امرأة من بنات الامراء ص ١٢٥ ...

_ المستشرق لسترنج قال فيه (عون ومعين) من احفاد الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)
_ اول من اشار الى ان القبة المخروطية تعود الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله مقال في جريدة البلاد البغدادية بتاريخ ٢٥/تموز/ ١٩٣٥ ، وتبعه بعد حين الدكتور مصطفى جواد فنسبه الى زمرد خاتون في كل ما كتب بهذه المناسبة ، منها : دراسته العمارات الإسلامية العتيقة القائمة ببغداد ، مجلة سومر ، ج ٣ / ١٩٤٧ ، ج ١ ص ٣٨ فما بعد ، التراث العربي ، ص ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٢٩٧

(بمنازة سوق الغزل) عام وفاتها (٦٧٨هـ / ١٢٨٩ م) (١) ، وكذلك جدد مسجد الجنائز الملاصق لصريح الشيخ معروف الكرخي ، وبني خانا ضخما في باب الغربية عند شريعة خان التمر على دجلة ، ثوبا لروحها الطاهرة ، وقد استمر هذا الخان عامرا حيث اتخذته الدولة العثمانية دائرة للطايبو (دفتر دار) ، وهدم في القرن الماضي وشيدت مكانه عمارة (الدفتر دار) (٢) .

وتأسيسا على هذا فان المقبرة والقبّة المخروطية ، التي تعلو عمارتها القريبة من ضريح الشيخ معروف الكرخي ، هي لأمة رابعة الأيوبية ولابتها الأميرة رابعة العباسية وحفيدتها الست زبيدة بنت هارون الجويني ، وان ما نقله أستاذنا الدكتور مصطفى جواد (٣) عن تصريح جماعة من المؤرخين انه لزمرد خاتون زوجة المستضيئ بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة عام (٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) جاء من دون دليل مادي ، وهي إشارات للمؤرخين ما

(١) يذكر صاحب كتاب الحوادث لجامعة: في عام ٦٧٠هـ امر علاء الدين عطا ملك الجويني تجديد عمارة جامع الخلفاء ، فأُنجزت في آخر شعبان ، ثم سقطت في شهر رمضان ، بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ، ص ٢٠٤ ، وفي عام ٦٧٨هـ ، وترحما وثوبا لروح زوجته اعاد عمارة هذه المأذنة، مرة أخرى ، وما زالت باقية بضخامتها حتى اليوم ٠٠٠ كما اتم عمارة مسجد الشيخ معروف الكرخي ، وكان قد خرب كما خربت بغداد بعد فيضان سنة ٦٥٣هـ ، وكان ذلك بأشراف ومتابعة أخيه شمس الدين محمد الجويني الوزير صاحب ديوان المال الذي كان في بغداد سنتها ... ص ٤٤٤ - ٤٤٥

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٤

(٣) المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، مؤرخ ثبت ومحقق يغوص في النص ، عصامي كاد ان يستمر راعيا للغنم لولا لطف الله ، هو علامة فارقة بين الخططين ومؤرخي بغداد ، وكان حدا فاصلا بين من سبقه ومن لحقه قعد في خطط بغداد قواعد جديدة ، كانت على كل المستويات غير مألوفة ولا متعارف عليها ، الغريب انها أقرت على الفور وصارت حقائق من ساعتها . والامور التي اعتادها الناس احترقت وما كانت لدى أصحابها الشجاعة للدفاع عنها ، كان الهوى الرسمي عارما معه ، يتلقف افكاره بهدوء ويسخر لها وسائل الاعلام لتنتشر وتصل الى ابعد النقاط ، هذا الموقف جعل من الدكتور مصطفى جواد مهندسا وأثرنا وخططيا ومؤرخا لا يجارى اعتد بنفسه حد القرف ، تحزب لافكاره حد الدكتاتورية ، وجد كل شيء في الاعلام ميسرا بين يديه . (محاضرتنا : الدكتور مصطفى جواد ، في دراساته (قل ولا تقل) مجلس المخزومي الثقافي ١٩٩٦/٥/٢٥

كانت واضحة ودقيقة بل مجرد نقل لا يخلو من ارتباك^(١) اضطر معه الدكتور مصطفى جواد إلى القول : لم نجد بدا من الأخذ بهذا الرأي حتى نعثر على ما يبين خلافه^(٢) ... نعم أنها مسألة خلافية ، ولكن تواتر قول الأجيال المتعاقبة أنها (للست زبيدة) لا ينهض من فراغ ...

(١) قال ابن الاثير في تاريخه : في ربيع الاخر عام ٥٩٩هـ توفيت زمرد خاتون ، ودفنت في تربتها التي بنتها لنفسها عند قبر معروف الكرخي ، ج ٩ ص ٢٣٨ ، وقال أيضا في وفاة الامير علي بن الخليفة الناصر عام ٦١٢هـ / ١٢١٤ ، مشى جميع الناس بين يدي (الجثمان) الى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي ، ج ٩ ص ٢٩١ ... وقال ابن الساعي في كتابه (نساء الخلفاء) توفيت بنفسه عام ٥٩٨ هـ وحملت الى تربة والده الخليفة الناصر ، المجاورة لمعروف ، ودفنت داخل التربة قبل وفاة صاحبة الثرية ص ١١٤ - ١١٥ ، وقال ابن الساعي أيضا في (المختصر) هذه المرة عند معروف ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩ ، وقال سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان ، وعمرت زمرد خاتون التربة عند قبر معروف الكرخي ، ج ٥ ص ٣٤٣ ، وقال ابن تقي بردي في كتابه (النجوم الزاهرة ...) ، عند قبر معروف الكرخي ، ج ٥ ص ١٨٢ ... وقال ابن كثير : في كتابه البداية والنهاية : جوار قبر معروف الكرخي ، وقال الديبشي في تاريخه ، كما قال الذهبي وقال غيرهما من المؤرخين بمثل ما قال الجميع (عند) ، وهم الاكثر و(جوار) وهم الأقل ، ولكن الجميع لم يصف ما في التربة من أمر متميز (القبة المخروطية) التي لم يبق قبلها مثلها ، وهو أمر يستحق الذكر ، لو كانت هذه القبة المخروطية هي على قبر زمرد خاتون وبنتها في زمانها ... اما السيد محمود شكري الالوسي في كتابه (مساجد بغداد ...) ص ١٢٥ - ١٢٦ ، يفصل مشاهداته تفصيلا فيقول : لما بنى سليمان باشا والي بغداد سور الجانب الغربي عام ١١٩٥ هـ استعملت أنقاض مسجد زبيدة في بناء السور ، ولم يبق اليوم سوى قبر زبيدة من ذلك المسجد ، وعليه قبة مخروطية الشكل من نوادر الفن المعماري ، وهي نحو ميل السهروودي ، وكان تاريخ العمارة داخل المشهد بالحجر ، وقد اقتلعه من أفتلعه ... وينقل احمد سوسة عن بعض المنتبذين ان القبة لزمرد خاتون متابعاً الدكتور مصطفى جواد ، فيضانات بغداد ص ٢٢٢

(٢) في التراث العربي ج ١ ص ٢٩١ فما بعد

ولكنه في الوقت نفسه لا ينفي إن تكون تربة السيدة زمرد خاتون في تلك المنطقة، غير أنها ليست تحت تلك القبة المخروطية، بل اجمع المؤرخون أن مقبرة زمرد خاتون وضرتها بنفشة وحفيدها الأمير علي ابن الخليفة الناصر الذي توفي زمن والده عام ٦١٢هـ/١٢١٤م. هم جميعا عند ضريح الشيخ معروف لا قربه ، والفرق بين ظرف المكان (عند) وظرف المكان (قرب) واضح في حسابات المقابر ، ودليلنا على ذلك المئذنة القائمة حتى اليوم عند ضريح الشيخ الكرخي ، التي بناها الخليفة الناصر لدين الله عند قبر ابنه الذي دفن ولا ريب عند تربة جدته زمرد خاتون، و إلا لكانت المئذنة قد أقيمت هنالك عند القبة المخروطية وهي تبعد ٧٢٠ مترا عن ضريح الشيخ معروف الكرخي ... المئذنة ما زالت قائمة في مكانها وعليها شاهدها عند الضريح لا قربه ...

أرغون بن آياقا خان (٦٨٣هـ/١٢٨٤ - ٦٩٠هـ/١٢٩١م)

كان الشغل الشاغل لأرغون في سياسته العامة ، القضاء على التيار الإسلامي واستئصال قادته ، هذا الأمر دفع ارغون الى الفتك حتى بالطفل وهو بين أقرانه في الكتاب . . . عندها خلا الجو لليهود ومؤامراتهم ، وعلى الخصوص في بغداد ، التي نكبوها مرة أخرى وأحكموا الطوق على بقايا قادة التيار الإسلامي ، فكانت باكورة أعمالهم إلقاء القبض على شرف الدين هارون الجويني صاحب ديوان بغداد ونوابه وكتابه والقضاة وتصفيدهم جميعا بالأغلال وحملهم إلى المدرسة المستعصمية التي صيروها معتقلا لا دارا للعلم ، ثم فتكوا بهم بمجازر مروعة وحمامات دم لا أول لها ولا آخر .

رتب عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤ م مهذب الدولة نصر ابن الماشعيري اليهودي نائبا في ديوان بغداد والمستشار الأول فيه ، اليه يرجع الأمر في كل شيء ، سود وجه نظام الدين بن قاضي البندنجين وأركبه على بهيمة (وشهر في سوق

بغداد^(١)، ثم أدى مالا كثيرا. ((وعوقب معافية عظيمة وقصفت رقبته))^(٢) فمات تحت التعذيب. أما شرف الدين محمد بن بصلا وكيل الديوان، فقد ضرب وطولب بمال كثير ، وعزلوه عن الوكالة بعد أن أدى ألف دينار في عدة دفعات، ورتب عوضه نجم الدين حيدر بن الأيسر المعروف بقلّة أمانته، وهو محكوم سابق بتهمة تزوير العملة^(٣).

وبشدة قسوة هؤلاء وجبروتهم قتل كاتب الجريدة (كاتب تسجيل الأموال)^(٤) نفسه خشية من العقاب ((وكان شابا حسن الصورة))^(٥). ٠٠.

في عهد السلطان ارغون تحقق للجالية اليهودية، وعلى الخصوص لمن كان منهم في بغداد ، عصر متميز ، تمكن سعد الدولة بن الصفي الحكيم اليهودي من ارغون ، وصار أثيرا عنده ((مكشفا لأمر العراقة وعرفه جميع الأحوال))،^(٦) ووشى ببعض القادة من حول السلطان ليخلو له الجو ((فأرتفع بانتهازيته ولباقتة ومقدرته في اصطناع مختلف الأساليب من منزلة متواضعة إلى أعلى منصب في الإمبراطورية بعد الإيلخان نفسه))^(٧) فكان صاحب ديوان الممالك ، وهي أعلى وظيفة في الدولة بعد السلطان ...

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧٣

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٧٣ _ ٧٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٣ ، وهامش

(٤) دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، ترجمة الخيط بغداد ٢٠٠١ ج ٢ ص ١٨٠

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٨٨

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٨٧ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٥٥

(٧) خصباك ، د. جعفر (العراق في عهد المغول ...) ، ص ٢٠١ _ ٢٠٢

ولقد استغل سعد الدولة منصبه هذا ابشع استغلال وتمادى في تحريض ارغون لقتل المزيد من القادة المسلمين^(١)، وقد تجرأ على اتهامهم بتخريب البلاد وانهم ((يحجبون الأموال ولا يرسلون منها إلى السلطان الآ القليل))،^(٢) هذا الادعاء دفع ارغون عام ٦٨٦ / ١٢٨٧ م ان يرسل وزيره اليهودي الى بغداد ((لتصفح أحوال العراق))،^(٣) فحصل من العراقيين بالضرب والعقاب والإهانة أموالاً طائلة ، ثم وصى بجماعة فوكله ارغون بالانتقام منهم وأعادته إلى بغداد ثانية عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ ((طولب ولاية الأعمال والضمنا بما عليهم من البقايا وضيقوا على ذلك، فأدوا أموالاً كثيرة))^(٤)، وأمر بضرب ناظر الكوفة (قباع أملاكه فلم يقدّم بما عليه ، وكان مريضاً فمات من تواتر الضرب والعقاب، وضرب الزين الحظائري عميد بغداد)^(٥)، فأمر ببيع أملاك مجد الدين بن الياس ، فأدى مالا كثيراً تخلف عليه من ضمان الخلة^(٦)... وعاد بكل تلك الأموال لسيده الذي وجده نهما لا يرتوي

((وفي صفر ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م وصل بغداد جماعة من اليهود من أهل تفلس وقد رتبوا ولاية على تركات المسلمين)) ، فأجروا الأمر على خلاف الشرع، مما أثار غضب الناس ونهبت العوام دكاكين اليهود فكفهم الديوان عن ذلك (...))^(٧)

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٥٧

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٨٨ ، رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٠

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٨٧

(٤) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩١

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٦) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٢

(٧) المصدر السابق، ص ٤٩٤

ثم إن الوزير سعد الدولة (رتب في العراق أخاه فخر الدولة ، ايليا بن صفي نائب الوزارة في العراق ، ووسع من صلاحيات مساعده مهذب الدولة نصر بن الماشعيري ، وهو يهودي، كما أسلفنا ، ومنح شمس الدولة بن منتحب الدولة ايلالة فارس ، وعين أخا آخر له اسمه أمين الدولة قائدا عاما في الموصل وماردين وديار بكر كلها ، ووكل مهمة الأشرف على تبريز إلى ابن عمه مهذب الدولة ابن منصور الطيب، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى كل قطر من أقطار الدولة أقاربه أو معارفه وصار الأمراء يطيعونه ويذعنون له، ((وقد أطلق لسانه بالاستهانة بالمسلمين والاستهزاء بهم))^(١) لقد بلغت أعمال سعد الدولة العدائية حدودا لا تطاق ، أثارت حفيظة الأمراء وقادة الجيش ، ولكنهم كتموا غيظهم، فلا قدرة لهم عليه والسلطان مغرم به ، وبمقدار الأموال التي يجيئها له بالحق وبالباطل ، فصار هؤلاء يتحينون له القرص^(٢) ... في عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠ م ((سطر ببغداد محضر كتب فيه الأعيان يتضمن الطعن على سعد الدولة))^(٣)، فعرف سعد الدولة بذلك فعرض الأمر على ارغون ، فحول هذا وزيره بمعاقبة الفاعلين، فتقدم الوزير سعد الدولة ((بصلب جمال الدين ابن الحلوي ضامن تمغات بغداد ، فصلب بباب النوبي وثيابه عليه))^(٤)، ...

كان ارغون حاكما جائرا ظالما جاهلا ، لغباوته وقلة إدراكه كان يستخدم بعض المشعوذين الذين تجمعوا حوله ليصنعوا له إكسير الحياة والدواء الذي يطيل العمر ويخلد الإنسان ، فأخذ من ذلك الدواء لمدة أشهر وهو يحلم بالخلود ،

(١) خصبك ، العراق في العهد المغول ، ص ٢٠٢

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٦١

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٩

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٩٩-٥٠٠

فتقسم جسمه ، ومات عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م على أثر جرعة كبيرة من هذا الدواء (١) . . .

عندما مات ارغون غابت شمس سعد الدولة وأخوته ، فقد القي القبض عليه وعلى أخوته وجميع من يتعلق به ، بعد أن سام الناس الخسف فنال جزاءه . (٢)

كيخاتوخان بن اياقا خان ٦٩٠هـ / ١٢٩١م - ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م

بموت ارغون أنقسم المغول شيعة ، رشحوا للعرش كثيرا من أمرائهم ، حتى استقر أمرهم بالأخير على شخصين هما : أخ السلطان المتوفى كيوخاتوخان وهو الابن الثاني لأياقاخان ، وابن عمه بايدو بن طرغاي بن هولاقو ، ولكن الغلبة كانت لكيوخاتو فنصبوه على عرش المغول (٣) ، واستمر الظلم قائما على المسلمين وان كان هذا لا يتقيد بدين ، ولكنه كان يؤثر النصارى على غيرهم ، الأمر الذي أبقى الخطر قائما على قادة التيار الإسلامي ، وان انحسر تيار سعد الدولة اليهودي (٤)

لم يمض وقت طويل حتى (تغيرت نيات الأمراء في طاعة السلطان كيوخاتو وارسلوا الى بايدو) الذي استجاب لهم عندها اجتمع بعض الأمراء ((فقبضوا على السلطان كيوخاتو وقتلوه (٥) عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥ م)) . . .

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٦٢

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٦١-١٦٢ ، ص ٥٠١-٥٠٣

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٥٠٦-٥٢٣ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص

١٦٢-١٦٥

(٤) بعد قتل سعد الدولة ، أمن الناس على أنفسهم فرجعوا الى ديارهم ومنهم علي ابن عطا ملك

الجويني وكان هاربا ، فأستعاد بعض أملاك أبيه ، الحوادث الجامعة ، ص ٥٠٥

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٥٢١ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ١٦٢

ولما بلغ غازان ما جرى على عمه السلطان كيخاتو اقبل بعساكره وكان في خراسان فتمكن اتباعه من بايدو والقوا القبض عليه وسلموه إلى أصحاب السلطان القتل فقتلوه (١)...

محمود غازان بن ارغون (٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ - ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م)

ورث محمود غازان عن أبيه ارغون جيشا مدربا وقوة ضاربة ، ومركزا مهما في: خراسان قلب الدولة الايلخانية ، ولذا كان على عهد أبيه قائدا مهابا ، وكذلك كان على عهد عمه كيخاتو الحاكم الذي لا يرد له طلب ، سرعان ما تمكن من الأمير بايدو الذي قاد المؤامرة ضد عمه ، وتولى محمود غازان من الحكم دون منازع كما كان يحدث في السابق ...

وجلس على التخت ((ودخل تبريز وصلى في جامعها^(٢))) ، لأنه كان على دين أهل الإسلام ، وأظهر إسلامه عام ٦٩٤/١٢٩٥ م، وجعل الإسلام دين الدولة، وتقدم (يأخذ دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير من النصارى فأنها كانت بأيديهم، بعد نكبة بغداد بأمر من هولاء وأزيل ما بها من التماثيل والخطوط السريانية ، وأمر كذلك باستعادة الرباط الذي باتجاه هذه الدار المعروفة بدار الفلك)) وكان قد جعلها النصارى مدفنا لأكابريهم^(٣)))، ثم صيرها مجلسا للوعظ جلس فيه الشيخ شرف الدين محمد بن عكبرا ، و كان يجتمع عنده خلق كثير (٤) ..

(١) المصدر السابق ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ، رشيد الدين فضل السابق ، ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢

(٢) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦١.

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٥٢٣.

(٤) الحوادث الجامعة ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ ، وفصل أمر استلام غازان: الذهبي . دول الإسلام،

ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣

في عصر المغول قبل غازان لم يعد للأكثرية المسلمة حقوق ، بل كان عليها واجبات حتى تساوى هؤلاء مع الأقلية من أهل الذمة : في عهد السلطان غازان أعيد الحق إلى أهله...

ومن محاسن هذا الرجل ، التي ينبغي أن تذكر : انه في عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٩ م ، توجه إلى الحلة ، وكانت هذه الحاضرة وقتها مدينة للعلم والعلماء ، وفيها حوزة علمية قل نظيرها على مر التاريخ ، ومن مراجعها العظام يوم ذاك العلامة ابن المطهر الحسن بن يوسف الحلي موضوع بحث هذه الرسالة ، وآخرون وعلى الخصوص منهم السادة العلويون آل طاووس ، وهم من الأولياء والسادة أصحاب الكرامات ...

وكانت هذه الزيارة مناسبة للتعرف على أهل هذه المدينة ، والاستماع إلى ما لديهم ومعرفة مشكلاتهم ، فكان أن أمر السلطان بحفر نهر سمي باسمه النهر ألبازاني ...^(١)

وبعد حين من الزمن تغيرت النيات شيئاً فشيئاً وتحول هذا السلطان عن نهجه الذي بدأ فيه حكمه ، وعلى الخصوص عندما أستوزر غازان رجلاً كان من مهاجري اليهود قبل إسلامه هو فضل الله رشيد الدين^(٢) ، كانت لهذا الرجل مواهب سعد الدولة وزير أبيه ارغون وحركات ابن كمونه^(٣) ، فقرب اليهود واستخدمهم على نطاق واسع^(٤) ... تسبب هذا الوزير بقتل نقيب النقباء ، عندما

(١) الحوادث الجامعة . ص ٥٣٨-٥٣٩ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٥٢ ، ويذكر ابن بطوطة ان السلطان محمد خدابندا (٧٠٣هـ/٧١٦هـ) الذي جلس على عرش المغول بعد موت اخيه غازان استوزر غياث الدين محمد رشيد الدين ص ١٥١-١٥٢ .

(٣) الشيباني ، الدكتور كامل ، الفكر الشيعي والنزاعات الصوفية ، بغداد ١٩٦٦ ص ٨١ .

(٤) العزاوي ، عباس ، العراق بين احتلالين ، ج ١ ص ٤٣٨ فما بعد .

حول أحد معابد اليهود ألي جامع وعظ للمسلمين ^(١) ... ومن علائم تحول هذا السلطان أيضا ، انه لم يفصل كما فصل السلطان احمد بن هولاکو عندما أشهر إسلامه وبادر الى إرسال رسائل حسن نية الى الملك المنصور قلاوون يطلب فيها إنهاء حالة التوتر والحرب بين الدولتين وفتح الحدود للتجار والزوار ، فتعاون الملك المنصور معه الى حد بعيد ^(٢)... ولكن في زمن السلطان غازان المسلم أيضا أرسل جيوشه فدخلت دمشق وفعلت في الناس الأفاعيل القبيحة ، مما شاهده المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث ومنهم الذهبي ^(٣) ٠٠ ثم عاد غازان الى الموصل يريد مقر ملكه ولكنه قرر في عام ٧٠٠هـ / ٣٠١ م العودة ((في جيوش تملأ الفضاء لا تحصى كثرة فرقمهم ^(٤))) ولكن الله سبحانه أرسل على جيوش غازان الفيث والسيول وشدة البرد ، فامتعت جيوشه عن الحركة وتلفت خيولهم ، فانسحبوا عائدين الى بلادهم في العام ٦٩٠هـ / ١٢٩١ م ، وصل الى بغداد مظفر الدين علي بن علاء الدين عطا ملك الجويني من زوجته أم رابعة الأيوبية، وكان قد هرب منها لما قتل أخوه المنصور ، والتجأ ألي بعض مشايخ العرب بالسيب ، ثم توجه منهم الى تبريز ، وبعد أن اتصل به قتل سعد الدولة اليهودي الذي كان السبب في تدمير عائلة الجويني ، واطمأن الى حياته المستقرة في بغداد بعد أن مضى على قتل أبيه ثماني سنين ، تذكره السلطان غازان ، فأرسل الى بغداد من يلقي القبض على هذا الرجل ثم يقتله... ومن جملة من قتلهم غازان من قادة الفكر الإسلامي فخر الدين بن نصير الدين الطوسي الذي خدم هو وأبوه الدولة الايلخانية من عصر هولاکو الى أيام غازان ، وهذا على رأي الشيخ محمد رضا الشيباني ((من اكبر الأدلة على أن شر المغول وغدرهم بأصحابهم ورجال دولتهم غير مأمون)) ^(٥)

(١) ابن عنية ، عمدة الطالب في انساب ابي طالب ، ص ٣٣٤ فما بعد.

(٢) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٨٦-١٢٢ ، الحوادث الجامعة ، ص

٤٥٤-٤٥٢

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٥٤٤-٥٤٥.

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٤٥.

(٥) الشيباني ، الشيخ محمد رضا ، ابن الفوطي مؤرخ العراق ، ج ٢ ص ٢١٠

الفصل الرابع

المبحث الاول : علم الكلام

المبحث الثاني : الشيخ فخر الدين الرازي

المبحث الثالث : الشيخ سديد الدين بن محفوظ ابن عزيزة

المبحث الرابع : الشيخ سيف الدين الامدي

المبحث الخامس : القاضي الشيخ عبد الرحمن الايجي

الفصل الرابع

المبحث الأول

علم الكلام

أولاً: - في اصل التسمية

له اسماء عدة، تطورت بتطور موضوعاته وغاياته، سمي اولاً ((علم العقائد)) يوم سمع الامام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) قوما يشبهون الله بخلقه^(١) وسماه الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه (الفقه الاكبر)، ولف تحت هذا الاسم كتاباً^(٢) ...

كما سمي ((اصول الدين)) ، حين كان للفقه (اصول) ، ليعصموا العقائد عن الزلل كما عصم

((علم المنطق)) الفكر من الوقوع في الزلل...

وسمي ((علم الالهيات)) يوم ترجم القوم مصنفات فلاسفة اليونان ...

ثم استقر وغلب عليه اسم (علم الكلام) : وهو العلم الذي ينظر في أعم اشياء وهو الوجود: قديمه ومحدثه ، وفي المحدث جوهره وعرضه ، وفي الجوهر اكان حيوانيا او نباتيا او جمادا^(٣) ونحو ذلك من موضوعات ...

(١) المفيد ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢ م) الارشاد، طهران ، ١٣٧٧ ، ص ٦١.

(٢) ابو حنيفة، النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ / ٧٦٧ م)، كتاب (الفقه الاكبر) ملحق كتاب الشرح، مصر / ١٩٠٥

(٣) ابن المطهر الحلي ، الحسن بن يوسف (ت ٧٢٦ / ١٢٢٦ م) ، نهاية المرام في علم الكلام، تحقيق فاضل العرفان ، قم / ١٤١٩ ، ج ١ ص ١١-١٤

مؤكدین هنا مرة أخرى ^(١): ان تراثنا الفكري العربي الاسلامي بعمامة والفكر الفلسفي في عاصمة الخلافة بغداد بخاصة ، كان قد اعتمد اربعة اسس متبينة ، وركائز ثابتة ، لاستوجبتها مستجدات الصراع العقيدي وقت ذاك واستندعتها الضرورة الملحة لاشباع حاجات الجمع المسلم الذي دخل في دين الاسلام، افواجا افواجا، فكان اول هذه الاسس واكثرها مسؤولية هو ((علم الكلام))الذي انبثق من وهج القران الكريم فتى شابا لم يمر بطفولة ، ولم تدنسه المراهقة ... انفلقت من علم الكلام نفسه الأسس الثلاثة الأخرى ، ونعني بها ((علم أصول الفقه)) و ((علم التصوف)) بما هو علم نظري وليس طقوساً وممارسات عملية. وانفلقت ايضا من علم الكلام نفسه ((الفلسفة العربية الإسلامية)) بما هي فلسفة عربية إسلامية ، وليس فلسفة أخرى .

بالرغم مما اشير الى أن هذه العلوم هي عيال على الفكر الاغريقي ^(٢)، او هي ربيبة الحكمة الهندية، او نحو هذا من فلسفات الشرق ، او هي انتخاب من ديانات سابقة يهودية او مسيحية او صابئية او مجوسية او وثنية او انها تتخذ عناصرها من الاقلوطينية المحدثّة او من الغنوصية ، او غير ذلك من الاتهامات ...^(٣) صحيح ان اغلب هذه المدارس الفكرية المختلفة الوافدة ، كانت قائمة على ساحة الواقع في المجتمع العربي الاسلامي ، سعى السلف الصالح بقوة الى ترجمتها من لغاتها الاصل، وفك اسرارها، ودراستها بعمق مشهود ... ولا عيب في ذلك ، بل هذا يدل على تحضر ذلك المجتمع وسعة تفكيره ، وتسامح دينه ، وحرية ممارساته ، وليس كما يزعمون عيالا على تلك الافكار ...

(١) رسالتنا للماجستير ، الفكر الفلسفي في القرن الثالث ، بغداد ، نيسان ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٣
(٢) دي بور ، تاج، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة د. عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة، ١٩٥٧ ، ص ٥٠-٥١

(٣) جولد تسهير، حنايس ، العقيدة والشرعية في الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى واخرين ط ٢ ، مصر ٩٤٦ ، ص ٢٤

انن ، ولد علم الكلام من وهج القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الرباني الذي احكمت آياته ثم فصلت ، وتضمنت من جملة ما تضمنت اشارات فكرية عقلية ، مركوزة على رواسخ منطقية وفلسفية ، من اجل الدفاع عن الدين الجديد ، في صراع فكري واع مع اهل الوثنية ونحوهم من اهل اللجاج... (١) .

وكانت السنة النبوية المطهرة ، الوعاء الاخر الذي شهد الحجاج والتتظير ، باعتبار السنة الشريفة المطهرة مفسرة لمجمل القرآن ومفصلة لآيات احكامه وشرائعه. (٢) ومنبرا هاديا للدفاع عن الاسلام..

ثم نجد في اقوال الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وخطبهم وعاء آخر لهذا النهج في الدفاع عن الاسلام .. (٣)

ثم اينع الغرس في احضان مفكرين ظلوا يحرسون هذا العلم الشريف.. فنقرأ في طرحهم : اشارات كلامية ، وبراهين فلسفية ، وتلميحات عرفانية... (٤) وكلامنا هذا لا يعني ابدا ان (علم الكلام) مفصول عن مجتمعه وثقافة اهله، ومستوى العلوم في أي من أزمته، سواء في صدر الإسلام أم العصور اللاحقة، فهو ولا ريب وليد مجتمع وثقافة، ومحصلة تراث ممتد الجذور في الحضارة ،

(١) في القرآن الكريم الكثير من هذه الآيات التي تحت على الجدال بالتي هي احسن ، وتدعو الى التدبير واعمال الفكر، والتدبر في القدرة الالهية ((وجادلهم بالتي هي احسن)) سورة النحل آية ١٢٥ ، ((لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا)) سورة الانبياء ، آية ٢٢ ، ((قل هاتوا برهانكم)) البقرة ، آية ١١١ .

(٢) كتب السيرة والتفسير وصحاح السنة الشريفة زاخرة بمثل هذا الجدل والمحااجة والمباهلة ((ياايها النبي انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه ومسجلاً منيراً)) الاحزاب آية ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ((يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم)) النساء آية ١٧٤ .

(٣) قال الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) من خطبة له في التوحيد ((فاعل لا با ضطراب اله ، مقدار لا يجول فكرة ، غني لا باستفادة ، لا تصحبه الاوقات ، ولا ترفده الادوات سبق الاوقات كونه ، والعدم وجوده والابتداء ازله)) بن ابي الجديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١٣ ص ٦٩ .

(٤) كان ظهور الفرق الإسلامية في عصر مبكر حالة صحية ، جاهد كل منهم على وفق معتقده في الدفاع عن الإسلام ، كل في طرحه ثارات عقلية ، وأساليب منطقية وظفها للإقناع والمحاربة ...

متواصل مع مواقف امتنه الفكرية، وهي كما نعلم (ذات جذور طبقية واجتماعية)^(١)

لا يوجد علم مفصول عن الإنسان والمجتمع والطبيعة ، ولا عن الزمان والمكان والقرات ..

"وعلم الكلام" ليس استثناء من هذا... بل هو علم أنساني لم يقتصر على دين الإسلام وحسب ، بل سبقته مدارس عدة : يهودية ومسيحية وغيرها من مدارس الفكر في العالم من أهل الشرائع الماضية سواء التي سبقت الإسلام أم التي استمرت في البحث بهذا العلم الى جانبه ...

ثانياً: في تطور المفهوم:

ما كانت بالسلف الصالح ، في صدر الإسلام ، حاجة لمزيد من التدقيق والتبحر في أي الذكر الحكيم، وهو وعاء "علم الكلام" ، فقد أغناهم عن هذا نور الصحبة،^(٢) إلا ما كان من بعض يهود المدينة، في قضية الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وعلى الخصوص منها مسألة تغير القبلة من المسجد الأقصى بيت الله العتيق الى مكة المكرمة بيت الله الحرام^(٣)، وما كان ايضاً في مسألة مباهلة

(١) الألويسي، د. حسام محي الدين، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، بيروت ١٩٨٠، ص ٤٨

(٢) طاش كبري زاده، عصام الدين احمد (ت ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م) مفتاح السعادة ... ج ٢ ص، قال: (ازال نور الصحبة عنهم ظلمة الشكوك والأوهام ...) وهذا راجع الى صفاء عقائدكم ببركة الصحبة

(٣) اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الأخباري ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ النجف / ١٩٦٤ ص ٣٤-٣٥، الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) ، تاريخ الرسل والملوك، بالافوسيت على طبعة ليدن الأوربية، ج ٣، ص ١٢٧-١٢٨.

نصارى نجران^(١) ، فهي جميعاً أمور صحية لا غبار عليها يستلزمها الزمان والمكان ..

وبعد حين تفلسفت الطروحات وتعدت^(٢) ، يوم توضحت في سقيفة بني ساعدة في المدينة المنورة ، مسألة (الإمامة) و (الخلافة) ، وصارت موضوعاً لجدل استمر طويلاً..^(٣)

ومثل ذلك يوم خرج من صفوف أصحاب الأمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في معركة صفين جماعة تبرأت من فريق المعركة ، وتلمست طريقاً ثالثاً ، وقالت : ((لا حكم إلا لله))^(٤) ..

ثم وجدنا وقتها (المرجئة) يفلسفون (مفهوم الأيمان) ويضعون له حدوداً ميسرة^(٥) .

كان بعض السلف الصالح (رضي الله عنهم) يقدم النقل على العقل ، في حين كان المعتزله ، منذ مؤسس فرقته واصل بن عطاء (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) يجعلون العقل إماماً في عقيدتهم ، وسلطاناً في احكامهم^(٦) ..

(١) قال الله تعالى: ((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين)) آل عمران ، ٣ الآية ٦١ .

(٢) (الالوسي ، د. حسام، دراسات في الفكر الفللسفي الإسلامي ، ص ٤٧ ، فما بعد .

(٣) فصلت هذا الحدث كتب التاريخ الرئيسية منها: اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، الطبري، المصدر السابق، ج ٦ ، ص ١٨٢٠ فما بعد .

(٤) فصل هذا الامر : الشهرستاني ، ابو الفتح عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) ، كتاب الملل والنحل، على هامش كتاب الفصل .. ج ١ ص ١٥٤ فما بعد .

(٥) الشهرستاني المصدر السابق ، ج ١ ص ١٨٦ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٣ فما بعد .

حتى قام الشيخ ابو الحسن الاشعري (ت ٣٢٤ هـ / ٩٣٤ م) الذي بدأ معتزليا ثم انشق ، فجعل النص هو الاساس ، والعقل تابع ياتي بعده ، وهو رأي وسط بين المعتزلة وخصومهم ، او على رأي ابن خلدون :
((متوسط بين الطرق ، ونفي التشبيه ، واثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف) (١) .

ووجد الاشعري ايضا : ان الاختصار على علم الكلام وحده، والفقه وحده ، لا يفيد الدين ، قدر ما يفيد الجمع بينهما . (٢)
ولذا تميز عصره بهذه الوساطة بين العقل والنقل .

بعده مضى القاضي ابو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) ، بعلم الكلام مرحلة ((فوضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وان العرض لا يقوم بالعرض ، وان بطلان الدليل يؤدي ببطلان المدلول) (٣) . وهي جميعا امور فلسفية واضحة ...

وفي نهايات القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين ، بلغ علم الكلام الذروة ، وتصدى لدراسته والكتابة فيه كثيرون ، لعل في مقدمتهم محمد بن محمد ابن النعمان ، الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) في كتابه (أوائل المقالات) ، والشيخ المفيد ((صاحب التصانيف وهي مائتا مصنف) (٤) ، كان بارعا في علم الكلام (٥) ، يناظر فيه اهل كل عقيدة (٦) ...

(١) ابن خلدون، ابو يزيد عبد الرحمن المغربي، مقدمة ابن خلدون، المكتبة التجارية، القاهرة بلا تاريخ، ص ٤٦٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ، د. جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الاشعرية وتطورها ، القاهرة، بلا تاريخ ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٧ - ٣٢١

(٣) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٤٦٥ ، د. جلال محمد ، المرجع السابق ، ص ٣٢

(٤) الذهبي ، الحافظ محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١١ ص ١٥

(٦) ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان ، بيروت ط ٣ ، ١٩٨٦ ، ج ٥ ص ٣٦٨

ثم مضت الفلسفة جنبا الى جنب علم الكلام في القرن الخامس والسادس والسابع ، كل يؤثر في الآخر حتى توغل المتكلمون في مخالطة كتب الفلسفة .
((والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة ، بحيث لا يتميز احد الفنين عن الآخر ...)) .^(١)

ثم صار هذا الامر واضحا تماما في كتب سيف الدين الأمدي (٦٣١ هـ / ٢٣٣ م) ، هذا المتكلم الذي كان لا يقبل الدليل السمعي الا في المسائل السمعية ، المتعلقة بالبعث وما يتصل به ، اما المسائل الإلهية ، فانه يتمسك فيها بالدليل العقلي وحده .

وحرص الأمدي ، الى حد كبير ، على توظيف الأساليب والقواعد المنطقية ، وخط المنطق بالكلام ، وله أسلوبه الواضح في هذا الشأن : يحرص على المقابلة بين وجهتي النظر الفلسفية والكلامية قائلا : هذا على رأي الفلاسفة وذلك على رأي علماء الكلام في الإسلام ...^(٢)

لقد استطاع المتكلمون ، خلال قرون من المعاناة والصراع الفكري ، ان يضعوا عناصر من حوادث الفكر العالمي - وهو على ساحتهم - بين يدي دراساتهم ، فيجعلوا منه أداة إيجابية تخدم أهداف رسالة الأمة ، وتتنصرلها ، ((فكم من نظرية يونانية خلقت خلقا جديدا ، وكم من فكرة فلسفية أعيد تركيبها وتأليفها في صورة جديدة مبتكرة ، تتحد في صورتها العربية ، وصيغتها الإسلامية ، شكلت أداة لتثبت او لتتقض ما لا يمكن تحقيقه من خلال صورتها الأصلية)) .^(٣)

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦٦

(٢) الأمدي ، سيف الدين ، غاية المرام في علم الكلام ، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٩ فما بعد .

(٣) د. عرفان عبد الحميد ، دراسات في الفكر الإسلامي ، ص ١٨٢ - ١٨٣

وهكذا وكنتيجة طبيعية، لتطور الصراع الفكري والعقدي، مع أهل
الحجاج والمحااجة نشأ علم الكلام الإسلامي وتطور (حتى اتخذ صورة فلسفة
صحيحة للدين، تهدف الى وضع أساس عقلي لعقائده الموروثة)
ثم استقر هذا العلم نهائيا على قواعد فلسفية ومفاهيم عقلية وأدوات علمية
كالمنطق والفيزياء

ثم بدأت مع فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م) ، صيغ مقدمة
تحدد العلاقة الجديدة بين الدين والفكر الفلسفي ، وبين الوحي والعقل ، قلما
نجد لها نظيرا في غير دائرة الفكر الفلسفي العربي الاسلامي.^(١)

هذه الظواهر الجديدة صارت واضحة تمام الوضوح في كتاب سيف الدين
الأمدي (غاية المرام في علم الكلام) خاصة ، ثم ظهرت بصيغة اكثر وضوحا
على ايدي علماء القرن السابع والثامن الهجريين، وفي المقدمة منهم الشيخ
نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م) في كتابه (تلخيص المحصل)
(٢) وكتابه تجريد الاعتقاد .^(٣)

ثم تسلم الراية بعد الطوسي تلميذه العلامة ابن المطهر الحلي ، الذي الزم
نفسه في كتبه الكلامية العشرين بقوله: .^(٤) ((نذكر على الاستقصاء ما بلغناه من

(١) د. عرفان عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٨٤

(٢) طبع هذا الكتاب ، غير مرة ، على هامش كتاب المحصل لفخر الدين الرازي ، وهو شرح
واضافة لكتاب محصل الرازي

(٣) قال العلامة الحلي في مقدمة شرحه لكتاب تجريد الاعتقاد ان مؤلفه : ((قد بلغ فيه اقصى
المرام وجمع كل مسائل الكلام على ابلغ نظام ، كما ذكر في خطبته ، وأشار في ديباجته الا
انه اوجز الفاظه في الغاية ، وبلغ في ايراده المعاني الى طرف طرق النهاية ، حتى كل عن
ادراكه المحصلون ، وعجز عن فهم معانيه الطالبون ، فوضعنا هذا الكتاب الموسوم)
كتشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (ص ٢ - ٣

(٤) فصل العلامة الحلي كتبه الكلامية منها او غيرها في كتابه (خلاصة الاقوال) النجف ط

كلام القدماء ونحكم بالأنصاف بين المتكلمين والحكماء))، في ضوء القوانين الكلامية والقواعد الحكمية ... (١)

ثم تابع المسيرة الشيخ القاضي عبد الرحمن الايجي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥) في كتابه ((المواقف في علم الكلام))، الذي قرر بحزم: ان النقل هو الفرع، وان العقل هو الأصل، وان الذي يقدم النقل على العقل يبطل الاصل بالفرع . وهو لا يجوز . (٢)

ثالثاً/ في تحديد علم الكلام ومنزلته:

شرفه : ذكر العلامة ابن المطهر الحلي في بيان شرف علم الكلام وجوه : اولهما : ان شرف العلم تابع لشرف المعلوم ، ولما كان الغرض الاخص من علم الكلام، معرفة واجب الوجود سبحانه وصفاته وكيفية افعاله وتأثيراته ، والبحث عن رسله وأوصيائهم ، وأحوال النفس والمعاد ، فهذه ، ولا ريب، اشرف المطالب ، وعلى الخصوص ان واجب الوجود تعالى اشرف الموجودات، فالعلم به اشرف العلوم ، فعلم الكلام اشرف العلوم ... ثانيها : ان مقدمات علم الكلام قطعية يقينية ، وبها تكون براهينه أوثق من غيره، فيكون هو (العلم الاشرف) .

ثالثها : ان الانسان خليفة الله في الارض ، واول واجبات هذه الخلافة ، معرفة واجب الوجود سبحانه ، وقد تكفل بهذا علم الكلام ، فهو اشرف العلوم . رابعها : السعادة الدنيوية لا يمكن تحصيلها الا بالحكمة العملية ، وذلك انما يحصل رغبة بالثواب وبالرهبة من العقاب ، وهذان انما يستفادان من هذا العلم .

(١) انحلي، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ٥ - ٦

(٢) الايجي ، المواقف ، ص ٣٠ ، ص ٣٩ - ٤٠

خامسها : العلم اما ديني وأما دنيوي ، والثاني غير معتد به عند العقلاء ، لانه يجري مجرى الحرف والصناعات،فان المعول عليه هو الاول لا غيره ، ولذا كان علم الكلام اشرف العلوم ... (١)

واوجز القاضي عبد الرحمن بن احمد الايجي هذه المسألة فقال: ((ان موضوعه (علم الكلام) أعم الامور واعلاها ، وغايته اشرف الغايات واجداها ، دلائله يقينية، يحكم بها صريح العقل، وقد تأيدت بالنقل ، وهي الغاية في الوثاقة ، وهذه هي جهات أشرف العلم ، فهو، إذاً ، أشرف العلوم ...)) (٢)

تعريفه : من اوائل الذين حددوا علم الكلام وعرفوه الفيلسوف الفارابي فقال : ((اما صناعة الكلام فهي ملكة يقتدر بها الانسان على نصره الاراء والافعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزيف كل ما خالفها بالاقاويل (٣))) . وفرق الفارابي بين علمي الكلام والفقه ، فوجد ان علم الفقه يتعلق باستنباط العقائد والشرائع ، اما علم الكلام فهو التكفل بنصرة تلك العقائد والشرائع . ولكن علماء الكلام في القرن السابع - موضوع بحث هذه الورقة - كانوا اكثر تحديدا لهذا العلم ، بعد ان لانت في زمانهم المصطلحات ، وتيسرت المفاهيم . العلامة الحلبي عالج هذه المسألة من خلال تبسطه في الحديث عن موضوع هذا العلم، والعوارض التي تلحقه لذاته او لجزئه ، وكذلك المباديء التي بني عليها العلم وهي اما تصور واما تصديق ، وأيضا مسائله التي هي المطالب المبينة في ذلك العلم ،أي انتساب محمولات تلك المطالب الى موضوعاتها .

(١) الحلبي، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ٦ - ٧ ، الحلبي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص ٢ - ٣ ، الحلبي ، الباب الحادي عشر ، ص ٣ ، الحلبي، نهج الحق وكشف الصدق، ص ٣٦ - ٣٨

(٢) الايجي، المواقف ... ص ٨

(٣) انفارابي، ابو نصر محمد ،(ت ٣٣٩ هـ / ٩٤٩ م) ، إحصاء العلوم ، تحقيق عثمان أمين، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٠٧ - ١٠٨

وبعد ان تمهدت للعلامة الحلي هذه القاعدة قال : ((علم الكلام ينظر فيه في اعم الاشياء وهو الوجود^(١))) .

هذا الوجود ينقسم اولاً الى : قديم ومحدث .

ثم ينقسم المحدث الى جوهر وعرض .

ثم ينقسم العرض الى مشروط بالحياة وغير مشروط .

وينقسم الجوهر الى حيوان ونبات وجماد .

وعلم الكلام بعد هذا يبين اوجه الخلاف في هذا الوجود : ((هل هو بدائي او عرضي^(٢))) .

ثم ينظر في القديم ، على ما يقرر الحلي : فبين عدم تكثره بوجه من الوجوه ، وانه متميز عن الحوادث، بما يجب له من الصفات ، ويمتنع عليه ، ((ويفرق بين الواجب والجائز والممتنع^(٣) ...))

ثم يستمر الحلي يشرح تعريفه لعلم الكلام ، فيؤكد : ان العالم من فضل ذلك القديم، الذي هو واجب الوجود سبحانه، وان ارسال الانبياء من جملة اثاره .
اما القاضي عبد الرحمن بن احمد الايجي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٦ م) فقد فصل تلك المفاهيم التي اوردها العلامة الحلي الذي سبقه الى الحياة ببضع سنين فقال : علم الكلام ((علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه^(٤))) .

اما موضوع علم الكلام على رأي الايجي : انما هو الذي به تتمايز العلوم ، وهو المعلوم من حيث يتعلق به اثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً او بعيداً، وهو ذات الله تعالى، اذ يبحث فيه عن صفاته وافعاله في هذه الدنيا واحكامه

(١) الحلي، نهاية المرام في علم الكلام، ج ١ ص ٦.

(٢) الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام، ج ١، ص ٧.

(٣) الحلي، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦ - ٧

(٤) الايجي، المواقف، ص ٧.

فيها، كحدوث العالم كبعث الرسل ونصب الامام والثواب والعقاب . (١) وفي
الآخرة وفي الحشر .

وعرف ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، وهو من علماء القرن
الثامن علم الكلام بأنه: ((علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية
والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذهب السلف واهل السنة ، وسر
هذه العقائد الايمانية هو التوحيد)) . (٢)

رابعاً: الأبعاد المعرفية للتسمية:

حدد العلامة ابن المطهر الحلي ستة أسباب في علة تسميته بهذا الاسم، (علم
الكلام)

اتفق معه القاضي عبد الرحمن الايجي في بعض منها ، وتفرد الحلي
باخرى غيرها فصلها بالآتي :- قال العلامة الحلي :

١/ العادة قاضية بتسمية البحث في دلائل الصانع تعالى وصفاته وافعاله، الكلام
في الله تعالى وصفاته ، فسمي هذا العلم بذلك (كلاماً) ...

٢/ انكر جماعة من السلف الصالح الكلام فيه ، فاذا سئلوا عن مسائل تتعلق
بالله تعالى وصفاته وافعاله والنبوة والمعاد ، قالوا : نهينا عن (الكلام) في هذا
العلم ، فاشتهر هذا العلم بهذا الاسم ...

٣/ هذا العلم اسبق من غيره في المرتبة ، فـ (الكلام) فيه اسبق من الكلام في
غيره، فكان احق بهذا الاسم ...

٤/ هذا العلم ادق من غيره من العلوم ، ولذا كان المتكلم فيه اكمل الاشخاص
البشرية ، فسمي هذا بـ (الكلام) لظهور قوة التعقل فيه . .

(١) الايجي، المصدر السابق ، ص ٧ - ٨

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٨

٥/ هذا العلم يوقف فيه على مبادئ سائر العلوم ، فالباحث فيه كالمنكلم في غيره
٦/ ان العارفين بالله يتميزون عن غيرهم ، فطالت السنتهم على غيرهم ، فكان
علمهم اولى باسم الكلام . (١)

واوجز القاضي عبد الرحمن الأيجي تسميته (علم الكلام) بأمور فقال :

١/ انما سمي (علم الكلام) : لأنه بأزاء المنطق للفلسفة .

٢/ لأن ابوابه عنونت أولاً بـ "الكلام" في كذا ...

٣/ لأن مسألة (الكلام) هي اشهر اجزائه، حتى كثر فيه التناصر ، فغلب عليه .

٤/ لأن هذا العلم يورث القدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم . (٢)

في رتبة علم الكلام

وجد غير باحث ان علم الكلام (اسبق العلوم وأقدمها) . (٣) وهو أساس العلوم
الدينية ، ((ولا يتم بدونه الخوض في سائرهما ، كأصول الفقه وفروعه فان
الشروع في جميعها يحتاج الى تقديمه)) ، كي لا يكون الباحث بدونه كيان من
غير اساس (٤) .

ونقرا في المقدمة الثانية من كتاب (منتهى المطلب في تحقيق المذهب)
للحلي : ان مرتبة علم أصول الفقه متأخرة عن مرتبة علم الكلام ، لافتقار هذا العلم
الى علم الكلام ، واستغنائه عن علم الفقه ، وذلك لان علم الكلام ((باحث عن كيفية
التكليف ، وهو ولاشك مسبوق بالبحث عن معرفة التكليف المكلف)) . (٥)

لدى التدقيق وجد الباحث ان شخصيات عديدة اشتهرت بالتأليف في هذا

(١) الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ٦ - ١٠

(٢) الأيجي ، المواقف ... ، ص ٨ - ٩

(٣) الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ١٣

(٤) الطوسي ، نصير الدين محمد (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) تلخيص المحصل ، ص ٢٣

(٥) الحلي ، منتهى المطلب في تحديد المذهب ، ايران ، مشهد ، نشر مجمع البحوث الإسلامية

- ١٤١٢ هجرية ، ج ١ ص ٦

الباب من أبرزهم :

- ١/ الشيخ فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م).
 - ٢/ الشيخ سديد الدين بن عزيزة بن محفوظ بن وشاح (٦٣٠ هـ / ١٢٣١ م).
 - ٣/ سيف الدين الامدي (ت ٦٣١ هـ / ١٢٣٢ م).
 - ٤/ القاضي عبد الرحمن بن احمد الايجي (ت ٧٥٣ هـ / ١٣٥٧ م).
- متحدثين عن افكارهم وما تركوه لامتهم في مسائل علم الكلام.

المبحث الثاني

فخر الدين الرازي

من متكلمي القرنين السادس والسابع الهجريين وفلاسفتهما

أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري المعروف بابن الخطيب، الطبرستاني الأصل، (الرازي المولد)، فقيه شافعي، متكلم فيلسوف، أصولي، ^(١) جمع بين قوانين علم الكلام، وبين القواعد النظرية في الفلسفة ^(٢) (فريد عصره، ونسيج وحده)، واسع العلم، حسن التلخيص لآراء الفلاسفة، متين الحجة في طرحه، له القدرة العالية في التمييز بين أقوال الفرق الكلامية وقوانينها، وبين آراء أصحاب المذاهب الفلسفية وقواعدها ^(٣) فاق أهل زمانه في العلوم الأولية والمعقولات، (له التصانيف المعتمدة في فنون عديدة)، ^(٤) في كتابه (المباحث المشرقية) عمل السرازي (على شد الفلسفة إلى علم الكلام وجرها إليه، ^(٥) في حين كان الرازي في كتابه

(١)-ابن خلكان، وفیات الأعيان...، ج ٤ ص ٢٤٨ ٢٢٥ .

-السبكي، طبقات السبكي، ج ٥ ص ٣٣ .

-ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان...، ج ٤ ص ٢٤٦

-الذهبي، شذرات الذهب...، ج ٥ ص ٢١

(٢)-ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٤٨

(٣)-د. عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤١

(٤)-ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٥٠

-ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٣

(٥)-الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي... ط ٦ بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤٩٧ - ٤٩٩، ص

(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) قد عمل على جر علم الكلام إلى الفلسفة، فصارا وجهين لعملة واحدة، تميز بها فكر الرازي خاصة والفكر الفلسفي في القرن السابع عامة. ويبدو إن محاولات دمج نتائج قوانين علم الكلام، التي كانت متمثلة ذلك الزمان بتوحيد أفكار المعتزلة العقلية، ونظريات الأشاعرة الوسيطة بين العقل والنقل، وإلى حد كبيرين علوم التصوف الإسلامي - بما هي علوم القرنين السادس والسابع الهجريين - وجرها مجتمعة إلى القواعد الفلسفية، أو شدد هذه القواعد بتلك الأفكار الكلامية، لتكون فرقة واحدة ذات عقيدة واحدة، هي عقيدة الفلسفة العربية الإسلامية، - بما هي فلسفة عربية إسلامية - واضحة المعالم، ميسرة الفهم، مميزة الحدود، وقد نجحت تلك المحاولات كما هو واضح. ويرجح الباحث إن هذه الأفكار كانت قد راودت الرازي منذ شبابه في أذربيجان، شاطره فيها زميله شهاب الدين يحيى بن حبش المقتول عام (٥٨٧ هـ / ١١٩١ م)، وهو الصوفي الذي أسس الفلسفة الأشراقية.

فكان الرازي أوحده زمانه في العلوم الحكيمة، جامعا للفنون الفلسفية، بارعا في الأصول الفقهية. (١)

فصار هذا التيار، بعدئذ، السمة المميزة لعلوم ذلك العصر . . .

ثم أخذ أبعادا جديدة بعد سنين قليلة، على أيدي سالم بن عزيزة بن محفوظ، وسيف الدين الأمدي، ونصير الدين الطوسي، وكمال الدين ميتم البحراني، ونجم الدين جعفر المحقق الحلي، والعلامة ابن المطهر الحلي، وعبد الرحمن بن أحمد الأيجي وآخرين من متكلمي القرن السابع.

(١) القطني، جمال الدين أبو الحسن علي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) إخبار العلماء بإخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، بلا ص ١٩٠، ألسبكي، طبقات الشافعية، ج ٥ ص ٣٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٢٥٠، ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج ٤ ص

وتأسيسا على ذلك يمكننا التأكيد ، كما أكد غير باحث،^(١) إن الرازي كان قد سجل نقطة تحول في تاريخ العلاقة بين علم الكلام والفلسفة خاصة، والفكر الفلسفي العربي الإسلامي عامة. سواء أكان هذا على مستوى المقدمات أم على مستوى دقيق الكلام أم على مستوى جليله... .

هدفه الواضح تحقيق المصالحة بين علم الكلام والفلسفة ، لا باعتبارهما شيئا واحدا، بل باعتبارهما علمين متجاورين، يكمل أحدهما الآخر، في الموضوع الواحد^(٢) ولا يلغي أي منهما صاحبه، ولا يحل محله... .

قرأ الشيخ فخر الدين الرازي علوم الأوائل وأجادها حتى قيل: انه ((كان يحفظ في عمر مبكر (كتاب الشامل) لإمام الحرمين في علم الكلام))^(٣) حقق علم اصول الفقه، ووقف على تصانيف الفارابي، وتعلمذ على كتب ابن سينا، واستدرك عليه، ورد بعض آرائه، وصحح بعض ما وجده غير قويم... . حتى صار من كبار السنيويين...

الأمر الذي دفع ابن خلكان الى القول: إن كل كتب فخري الدين الرازي كانت ممتعة

((وانتشرت تصانيفه في البلاد، ورزق منها سعادة عظيمة ،فان الناس اشتغلوا بها، ورفضوا كتب المتقدمين، وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه، واتى فيها بما لم يسبق إليه أحد)) .

كان حجة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، يقصده العلماء من البلاد، (وتشد إليه الرحال)^(٤) .

(١) د. حسام الالوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي. ص ٧٢، الجابري، د. محمد

عابد، بنية العقل العربي، ص ٥٠١

(٢) الالوسي، المرجع السابق، ص ٥٠٠ ، ألعابدي، المرجع السابق ص ٥٠٠

(٣) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٤٩ - ٢٥٠

(٤) المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٥١

- للوزير ألقطبي رأي طريف في علم الرازي حين قال: (كان علمه متحفظا من تصانيف المتقدمين والمتأخرين، يعلم ذلك من يقف عليها) (١) . . .
- يمثل الشيخ فخر الدين الرازي وإضرابه من علماء القرن السابع الهجري الوجه المشرق لحال الأمة، حال الازدهار الحضاري، والمد الثقافي، والزاهر بالعديد من العلماء الأعلام.. اجتمعت للرازي على ما يقرر الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات)، خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره:
- ١ . سعة العبارة، و القدرة على الكلام.
 - ٢ . صحة الذهن .
 - ٣ . الإطلاع الذي لا مزيد عليه.
 - ٤ . الحافظة المستوعبة .
 - ٥ . الذاكرة التي تعيه على ما يريده من تقرير الأدلة والبراهين.
- كان أمراء الدويلات القائمة على أطراف الدولة العربية الإسلامية يتجملون بتجميع العلماء والشعراء حولهم، من أجل تقوية مراكزهم ومنافسة أقرانهم، فلأزم الشيخ فخر الدين الرازي السلطان شهاب الدين الغوري صاحب غزنة، فبالغ هذا الأمير في إكرام الرازي والأنعام عليه (وحصل له من جهته مال طائل) (٢) . . .

(١) ألقطبي، المصدر السابق، ص ١٩٠ - ١٩١

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٢٥١ . .

- ألقطبي، إخبار العلماء.. ، ص ١٩١

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء.. ج ٢ ص ٢٣

وعاد الرازي إلى خراسان، واتصل بسلطان إمارة خوارزم شاه، الأمير محمد بن تكش، ونال عنده اسني المراتب، ورفع هذا الأمير من منزلته، واسكنه في دار السلطنة، حتى مات أوائل القرن السابع الهجري (٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م) (١).
صنف الرازي للملك العادل الأيوبي (٦١٥ هـ / ١٢١٩) كتابا سماه (تأسيس التقديس)، (٢) وذكر اسم الملك العادل في خطبته، اعتزازا بهذا الملك وتعظيما، حيث سير الرازي إليه الكتاب صحبة من يعتمد عليه من بلاد خراسان إلى مصر. (٣)

تثميننا لصلابته في حروبه مع الصليبيين دفاعا عن بيضة الإسلام.
أبطل الرازي حجج الكثير من الفرق المناهضة لفكره، وكانت له القدرة على جعل بعض مناوئيه إلى الأخذ بأرائه...
فحقد عليه جماعة ودسوا إليه السم في عيد الفطر الذي مات بسببه عام (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)، وفي قرية مزداخان من مدينة هراة...
يقول ابن خلكان: ((رأيت له وصية أملاها في مرض موته على احد تلاميذه تدل على حسن العقيدة)) (٤).

على عادة علماء عصره كتب الرازي بموسوعية ظاهرة في أكثر العلوم التي يحتاج إليها في ذلك الزمان، ولان القرآن الكريم على ما وجدته الرازي ((اصل العلوم كلها))، ألف كتابه الضخم في التفسير سماه ((مفاتيح الغيب)) جمع فيه الرازي (كل غريب وغريبة)، (٥) وهو كبير جدا شرح سورة الفاتحة

(١) ابن خلكان المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٥٠ ، - ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء... ج ٢ ص ٢٣

(٢) - ويسمى ايضا (اساس التقديس) ، ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ...

- ج ٢ ص ٢٩ ، القفطي ، اخبار العلماء ص ١٩١

(٣) - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٥٠ .

- القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٩١

(٤) (ابن خليكان، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٤٩

لوحدها في مجلد برأسه، تناوله الناس ، منذ عصر مؤلفه وحتى اليوم ، بالدرس والشرح والاختصار والتعليق والنقد . . .

ولكن ابن تيمية لم يرض عنه فقال: (فيه كل شيء إلا التفسير) . . .
و ليس لنا هنا ما نقول الا أن هذا هو رأي الشيخ أبين تيمية ونحن نحترمه . . . ولكن (مفاتيح الغيب) في حقيقة أمره، جزء من خطة الشيخ الرازي في جمع الفكر الفلسفي العربي الإسلامي في عقيدة واحدة، يجمع بها فرق أهل الإسلام كافة . . .

تجمع بين المعتزلة والاشاعرة والإمامية و أهل علوم التصوف ونحوهم من المفكرين، وإذا نالت من النقاش الكثير...

تفسير مفاتيح الغيب، مرجع مهم في بابه، مرفأ كبير لطلابه ورواده...
ألف الرازي على مقرر ابن الساعي: في الفقه والحكمة والأدب ما يزيد على مائتي مصنف، ولكن ابن الساعي لم يذكر اسما واحدا لأي من مصنفات الرازي^(١).

وقد حاول المستشرق الألماني بروكلمان، إحصاء كتب الشيخ فخر الدين الرازي .^(٢) كما حاول ذلك الدكتور على سامي النشار .^(٣)

وكتب الدكتور الأب جورج شحاته فنوا تي دراسة أهداها إلى الدكتور طه حسين، ضمنها جداول بكتب الشيخ الرازي . . .^(٤) غير إن الدكتور محمد صالح

(١) ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ج ٩ ص ٣٠٧

(٢) ابن الساعي ، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٠٧-٣٠٩

(٣) د. على النشار، في مقدمته لكتاب ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي ، ص

٤٣ فما بعد

(٤) فخر الدين الرازي : تمهيد لدراسة حياته ومؤلفاته ، ضمن كتاب ، إلى الدكتور طه حسين

في عيد ميلاده الخمسين ، بإشراف د. عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٩٣

- ٢٣٤ -

الزركان: دون كتباً بمصنفات الرازي مستفيداً من كل المحاولات السابقة، فضلاً عن قيامه باستخراج أسماء كتب الرازي من مؤلفاته نفسها . رتبها على جداول ثلاثة . جدول منها للكتب التي تأكد من عائديتها للشيخ الرازي وضمت ٩٣ عنواناً لكتاب مطبوع أو مخطوط أو مفقود في الوقت الحاضر . . .
ومنها ٥٣ كتاباً في الفكر الفلسفي العربي الإسلامي . . .
وكان الجدول الثاني للكتب المشكوك في عائديتها للشيخ الرازي ضمت ٧٢ موضوعاً لكتاب ، كان منها ٢٧ كتاباً في الفكر الفلسفي العربي الإسلامي .
وكان الجدول الثالث قد ضم أسماء الكتب المنحولة، وتأكد الباحث الزركان أنها لا تمت إلى الرازي بصلة، إلا صلة وهم المفهرسين والمؤرخين . . .
ضمت هذه المجموعة ٢٩ عنواناً لكتاب منها ١٣ كتاباً في الفكر الفلسفي العربي الإسلامي. فكانت أعداد هذه المجموعات الثلاث ١٩٤ عنواناً لكتاب، وهو رقم قريب مما ذكره ابن الساعي لمصنفات الشيخ فخر الدين الرازي (١)

(١) د. محمد صالح الزركان ، فخر الدين الرازي ... ، دار الفكر ، القاهرة ، بلا تاريخ ، ص

المبحث الثالث

سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة

المتوفي سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)

الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة بن وشاح، السوراي^(١) الحلبي^(٢)، ويقال له سالم بن عزيزة، شيخ متكلمي عصره، وفقه اهل الحلة، تخرج فيه إعلام كان لهم شأن عظيم بعد استاذهم.

ومن هؤلاء التلاميذ الكبار رضي الدين علي بن طاووس الحسيني (٥٩١ هـ / ١١٩٥ م - ٦٦٤ هـ / ١٢٦٧ م)، نقيب العلويين ايام هولاء (من جملة العبد الزهاد المستجابي الدعوة). الف كثيرا من الكتب في الادعية دون الفقه لتورعه عن الفتوى.^(٣)

قرأ ابن طاووس كتاب (التبصرة)، على الشيخ سديد الدين سالم بن عزيزة في شبابه، كما قرأ بعض كتاب (المناهج) في علم الكلام عليه أيضا.^(٤)

(١) سورا: موضع في ارض بابل: قال الشاعر:

مما تخيرت التجار ببابل أو ما تعتقه اليهود بسورا

قال صاحب مراصد الاطلاع: وهي مدينة تحت الحلة، لها نهر ينسب اليها، وكورة قريبة من الفرات..

- ابن عبد الحق البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن، (ت ٧٣٩/١٢٣٨م) تحقيق علي محمد البنجاوي، ج ٢ ص ٧٥٣-٧٥٤.

(٢) نسبة الى مدينة الحلة المزيدية.

(٣) الخوانساري، للمصدر السابق، ص ٣٩٤

(٤) الطهراني، الشيخ محسن، الانوار الساطعة في المائة السابعة، تحقيق علي تقي منزوي، بيروت، ١٩٧٢، ص ٧١

ومن هؤلاء التلاميذ الكبار ايضا الشيخ نجم الدين ابي القاسم جعفر بن الحسن الهذلي

(المحقق الحلي)، صاحب كتاب شرائع الاسلام . .

قرأ المحقق الحلي على الشيخ ابن عزيزة كتابه (المناهج) في علم الكلام، وتخرج عليه في هذا الفن، كما أخذ منه شيئا من الفلسفة ويروي الحلي، الحسن بن المطهر تصانيف ابن عزيزة عن ابيه الشيخ سديد الدين يوسف بن علي الحلي ،^(١) وكان الاخير من كبار تلاميذ بن عزيزة ايضا^(٢)

عاش الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ ابن عزيزة في عصر كان الفكر الفلسفي فيه قد تفتحت ابوابه ، وتلاحقت أسبابه، صار واضح السبيل ، قوي الخطوات .

سماه ابن خلدون في مقدمته (فكر المتأخرين) ^(٣) في فرز واضح عن (فكر المتقدمين) ، الذي حد فكرهم بامام الحرمين الجويني (ت ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م) ومن كان قبله . .

ويرجح الباحث ان فكر المتأخرين ، كان على يدي حجة الإسلام الغزالي (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) وقد كان مفكرا فيلسوفا عربيا مسلما حتى في كتابه (المنقذ من الضلال) ابعد كتبه عن التألف .

ثم اخذ راية هذا الفكر الشيخ فخر الدين الرازي - كما اسلفنا - الذي تمكن بجدارة من سحب الفلسفة الى علم الكلام ، ونسج المفاهيم الكلامية في كثير من

(١) العاملي ، أمل الآمل ، ج ٢ ، ص ٢٥٣

(٢) كان الشيخ سديد الدين يوسف ابن المطهر الحلي ، (فقيها ، محققا ومدرسا عظيم الشأن)

وكان ولده الحسن قد نقل اقواله في كثير من كتبه . . .

- ابن داود ، الرجال ، طهران ، ١٩٣٤ ، ص ١٢٠ . . .

- العاملي ، أمل الآمل ، ج ٢ ص ٤٢

(٣) العاملي، المصدر السابق ، ص ٤٦٢ - ٤٦٤

قضايا الفلسفة ، من أجل أن تترسخ (فلسفة عربية إسلامية)) ، مجلو عنها غبار
الاغريق ...

في هذا المناخ الفكري الجديد مضى شيخنا سديد الدين سالم بن محفوظ
بن عزيزه في بيئته الحلة، بزخمها العقائدي ، وبفكرها الإسلامي ...
وهي بلا شك تختلف عن بيئة اذربيجان وخراسان التي ظهر فيها الرازي، وأن
كان كل منهما يكمل بعضه بعضا ، وإن اختلفت المسالك والرؤى، ولكنها في
فكرها العربي المسلم موحدة .

الباحث وعلى الرغم مما بذل من جهود ، لم يتمكن من الاطلاع على أية
قطعة من مخطوطات كتابي الشيخ سديد الدين سالم ، ولكنه وجد ان فكر هذا
الشيخ كان واضحا في فكر تلاميذه وفي مصنفات من جاء بعده، وما كان عليه
المناخ الفكري في مدارس الحلة ومحافلها ...

مصنفات المحقق الحلي الشيخ جعفر، وعلى الخصوص الكلامية والاصولية
منها مشحونة حتى العنق بالمباحث الفكرية التي صارت سمة من سمات المشهد
الثقافي في الحلة ذلك العصر ..

كما وجدناها واضحة ايضا في فكر الشيخ نصير الدين الطوسي وفي فكر
الشيخ كمال الدين ميثم البحراني ، حتى استقرت بصيغها المعروفة في مصنفات
العلامة الحسن بن المطهر الحلي وبكل اختصاصاتها وما أمتازت به ..

كما وجدناها في مصنفات الشيخ المقداد السيوري، وعلى الاخص كتابه (شرح
نهج المسترشدين) الذي نقل من كتاب (المناهج) لابن عزيزه ما يفيد ...

ومما يجدر تسجيله هنا : ان آل محفوظ ، العائلة العلمية ، الكبيرة الموجودة
في بغداد وكربلاء وغيرهما من مدن العراق ، وكذلك الذين هم في الهرمل وجبل
عامل وبيروت في لبنان ، ينحدرون من نسب واحد الى شمس الدين محفوظ بن
وشاح بن محمد ، وهذا النسب وان توافق في بعض اسماء الاحفاد والاجداد ، الا
ان محفوظ جد الاسرة الحالية ، متأخر عن سالم بن محفوظ بن عزيزه بن وشاح

السوراي ، فقد مات الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة، كما عرفنا، عام ٦٣٠ هجرية، في حين توفي محفوظ بن وشاح العاملي، اواخر القرن السابع ، والاخير: عالم وشاعر واديب ، كان معاصرا للشيخ جعفر (المحقق الحلي)، وكان بينهما مراسلات، نظما ونثرا. والمحقق الحلي - كما مر - من تلاميذ الشيخ سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة ٠٠٠

وكل من العائلتين (آل محفوظ) تتحدران الى بيت واحد، والى قبيلة واحدة هي قبيلة بني أسد العربية المعروفة ...

وشيخنا العلامة الأستاذ الدكتور حسين علي محفوظ هو من تلك الشجرة المباركة

...

المبحث الرابع

سيف الدين الامدي

(٦١٣هـ / ١٢٣٤ م)

سيف الدين ابو الحسن^(١) علي بن ابي علي بن محمد بن سالم، التغلبي^(٢) الأمدي^(٣)، الفقيه، الاصولي^(٤)، اشتغل بفنون المعقول، وحفظ منه الكثير^(٥)، كان ماهرا في علم الكلام والجدل والاحاطة بكثير من الافكار الفلسفية، واستخدمها في مباحثاته حتى عمل معجمية فلسفية للألفاظ التي أصطلح عليها الفلاسفة في لغتهم.

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣ ص ٢٩٣

- وكناه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان (ابا القاسم) ج ٨ ص ٦٩١ .

(٢) سماه ابن خلكان (التغلبي) ج ٣ ص ٢٩٣، والارجح ما ذكرنا

□ السبكي، طبقات الشافعية، ج ٥ ص ١٢٩،

□ وقد أتفق المؤرخون على هذا (التغلبي)؛ وخاصة في طبقات الشافعية

(٣) - نسبة الى مدينة آمد، في اعالي الجزيرة شمالي العراق، يحيط بها نهر نجلة، من

اعمال ديار بكر، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١ ص ٢٦١

كان يحكم امد عصر الأمدي حتى وفاته، الامير الممعود ممدود الارتمقي، وهم فرع من

سلاجقة الروم، ظلوا يحكمون آمد . حتى قضى على امارتهم أبى الملك العادل،

الحموي، شفاء القلوب، ص ٣١٣، ص ٣٢٠ .

(٤) كان الأمدي في اول اشتغاله حنبلي المذهب، ثم انتقل الى الشافعي بعد ان صحب الفقيه ابن

فضلان، ذكر ذلك ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣ ص ٢٩٤ . - ابن حجر، لسان

الميزان، ج ٣ ص ١٣٤ .

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٩٣

- السبكي، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٢٩

- سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨ ص ٦٩١

وتمكن من معالجة تلك الالفاظ في كتاباته^(١)، فحصل له من ذلك شيء كثير^(٢)

كان الشيخ سيف الدين الأمدي يمتلك ذاكرة ملهمة، وحافظة نادرة، و

((لم يكن في زمانه احفظ منه لهذه العلوم))^(٣) .

مفكر جدد مذهب ابي الحسن الاشعري ، وقوم اصالته على رأس المائة

السابعة للهجرة ، اصدر العديد من المصنفات الفاخرة ، مضت في ذات المسيرة

التي مهد طريقها الشيخ فخر الدين الرازي .

هدفه سحب الفلسفة الى علم الكلام ، وتجميل علم الكلام بالفاظ فلسفية منحوتة

لها من العربية تركيبها، ومن ارسطو صبره ومجاهداته ، معطرة بعطر القران،

ومتلونة بالوان البيئة العربية...

ادرك مفكرونا منذ الغزالي^(٤) وبصيغة اوضح منذ الرازي وسالم بن عزيزة

والأمدي ونصير الدين الطوسي ، وحتى ابن المطهر الحلي ، من اقطاب المتكلمين

في القرنين السادس والسابع .

ان هناك، حقا، تعارضا بصيغة او بأخرى بين الفلسفة - بما هي فلسفة اهل

الاغريق - وبين علم الكلام الاسلامي، وان المصالحة بينهما غير مجدية، ولذا

ركز معظمهم على التوافق، وليس التوفيق بين الشريعة الاسلامية والفلسفة، كما

جرى ذلك على استحياء في فلسفة الكندي ، وعلى نطاق اوسع في فلسفة ابي

علي ابن سينا، وبصيغة اقل عند الفارابي وابن رشد ، ولكن هذه المحاولة كانت

واضحة في فلسفة سيف الدين الأمدي وقوية في فكر العلامة ابن المطهر الحلي ،

واكثر قوة عند الايجي ...

(١) حسن محمود عبد اللطيف ، مقدمة كتاب الامدي ، غاية المرام ... ص ١٦ - ١٧

(٢) السبكي ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٢٩ .

(٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٣

(٤) سنفضل هذا الامر في المبحث الثالث من هذا الفصل.

وعمل هؤلاء كل بحسب ما املاه عليه زمانه ومكانه ومستوى العلوم في عصره من اجل توليد - ان صح التعبير - ((الفلسفة العربية الاسلامية)) من رحم علم الكلام الاسلامي ...

ومن هنا جاء خلاف اهل هذه (الفلسفة العربية الاسلامية) الطويل مع الفقهاء والمنغلقيين من بعض فرق الكلام ، الذين يرون ان هذه الفلسفة وبإية صيغة كانت هي لقيط منبؤذ جاء من خارج الحدود ..

وهؤلاء ، بلا شك مشدودون الى متاهة الكره للفلسفة من دون معرفة ابعادها واهدافها ..

ومن هنا جاءت كذلك معاناة مفكرينا وفلاسفتنا ، حتى اوصى فخر الدين الرازي : ان يدفن سرا مخافة ان ينبش احد من فرقة الكرامية قبره ويمثل بجثمانه ، وكذا الحال فقد شرد الشيخ سيف الدين الآمدي وتنتقل بين اكثر من حاضرة ليحفظ كرامته ، مع ان اولئك المفكرين - على جلاله قدرهم - كان يجمل خطابهم جدل سفسطائي لا طائل تحته ، لم يكن يهدف الى الانفتاح على الفكر الآخر ، ((وانما التأثير في الخصم وهدم آرائه ومعتقداته ..

وهذا ادى الى تشتيت شمل الامة والملة والحاق الاذى بالشريعة والحكمة))^(١) ولد الآمدي عام (٥٥١هـ / ١١٥٦م) ومات عام (٦٣١ هـ / ١٢٣٤م) وهذا يعني ان الآمدي قد عاصر مدرستين فكريتين اصيلتين ..

فقد عاصر الآمدي الفيلسوف المغربي ابن رشد حوالي نصف قرن ، ثم عاش بعده ، اكثر من ثلاثين عاما .

كما عاصر الآمدي الفيلسوف والمفكر المشرقي الشيخ فخر الدين الرازي اكثر من نصف قرن ، ثم عاش بعده قريبا من ربع قرن .

(١) الجابري ، د. محمد عابد ، مقدمة كتاب ابن رشد ، ((فصل انمقال ...)) ، بيروت

كان الآمدي قريباً من الشيخ الرازي بعيداً عن ابن رشد ، وان كان الآمدي قد رد على الرازي بكتاب جامع اختلف في عنوانه فهو مرة ((المؤاخذ (المآخذ) الجلية في المؤاخذات الجدلية))^(١) ، واخرى ((تلخيص المطالب العالية ونقده او المآخذ على الامام الرازي))^(٢) وتارة بأسم (المآخذ على الرازي)^(٣).

الآمدي في مسقط رأسه :

السيف الآمدي كما يسميه القفطي تحبباً أو اختصاراً ((من اهل آمد ولد بها بعد سنة خمسين وخمسمائة وقرأ على مشايخ بلده ^(٤) ، واكمل مقدمات العلوم وحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، و شيئاً من الفقه، و شيئاً من القراءات والعلوم العربية، كغيره من ابناء عصره ، وكما كان يفعل من يريد ان يتعلم...^(٥)))
 ((ونحن للأسف ، لا نعرف عن حياة الآمدي المبكرة في آمد، ونظنه بعد فتح صلاح الدين الايوبي لآمد سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣ م^(٦) - أوحول ذلك الوقت - انتقل الى بغداد المركز الثقافي العربي))^(٧)

(١) البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ... ، ج ٥ . دار الفكر ، ١٩٨٢ ، ص ٧٠٧

(٢) حسن محمود عبد اللطيف، مقدمة كتاب غاية المرام ...، ص ٥٦

(٣) الاعسم ، د. عبد الامير مقدمة كتاب الآمدي (المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين) ضمن كتاب المصطلح الفلسفي عند العرب، ط ١، مكتبة الفكر العربي، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٠٨.

(٤) القفطي ، اخبار العلماء ، واخبار الحكماء، ص ٢٤٠ - ٢٤١

(٥) حسن محمود عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٧ - ١٠

(٦) الحموي ، شفاء القلوب ... ص ١٠٠ - ١٠٣

(٧) الاعسم ، د. عبد الامير ، المرجع السابق ، ص

الأمدي في بغداد :

عندما وجد الأمدي ان به حاجة لاستكمال دراسته ، وتوسيع معارفه ، ((رحل الى العراق واقام في الطلب ببغداد مدة))،^(١) زمن الخليفة الناصر لدين الله . . . كان وهو شاب يافع ، تغرب يطلب العلم ، ((وصحب ابن بنت المنى المكفوف: أبا الفتح نصر بن فتيان الحنبلي (٥٨٣/١٨٧م) ، وأخذ عنه ، وأجاد عليه الجدل والمناظرة))...^(٢) والى جانب هذا تتلمذ الأمدي على ابن شامل ، وهو علم من اعلام الشريعة والحديث الشريف في بغداد ، وروى عن هذا الشيخ كتاب (غريب الحديث) للقاسم بن سلام^(٣) . .

ثم توسعت معارف الأمدي في بغداد ، بعد ان مكث في عاصمة الاسلام سنين عديدة ، تبلورت فيها شخصيته الفلسفية ، ومنحاه الفكري العقلاني ... وعلى الخصوص بعد ان حط رحاله آخر الامر ، (وصحب الشيخ ابا القاسم بن فضلان ، واشتغل عليه في الخلاف وتميز فيه ...)^(٤)

وكان جمال الدين يحيى بن الفضل ، المعروف بابن فضلان ، حجة في علوم الجدل والمناظرة والاصول والمنطق والفقه والكلام ، ومن مراجع الامة العظام في بغداد^(٥) ... وهذه الجوانب التي تمكن فيها شيخ الأمدي ، اكتسبها

(١) القفطي ، اخبار العلماء ، واخبار الحكماء ، ص ٢٤٠ - ٢٤١

- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٦٣

(٢) القفطي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٤١ .

- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

(٣) العسقلاني ، ابن حجر ، لسان الميزان ... ج ٣ ص ١٣٤ .

- حسن محمود عبد المطلب ، المرجع السابق ، ص ٩

(٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ص ٢٩٣

(د) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢١

التلميذ من شيخه ابن فضلان ، طورها التلميذ بمرور الزمن وغلبت على الأمدي علوم الاصول والكلام والمنطق والمناظرة الى آخر حياته^(١)...

وعندما اراد الأمدي ان يستكمل ثقافته العقلية ويعزز دراساته الفلسفية والمنطقية، ويبدو انه قد افترط وتخطى الحدود المسموحة في زمانه، يوم اتصل باستاذة هذا الفن في دير من اديرة بغداد((واخذ علم الاوائل عن جماعة من نصارى الكرخ ويهودها، وتظاهر بذلك، فجفاه الفقهاء، وتحاملوا عليه، ووقعوا في عقيدته...))^(٢).

مما حمل الأمدي على مغادرة بغداد الى القاهرة مروراً بالشام، وقد صادف في هذه السنة وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م)^(٣) وقد كان هذا السلطان غير ميال للفلسفة واهل المنطق.

وعليه قد يكون هذا سبباً اخر دفع الأمدي للانتقال من بغداد، وشجعه للسفر الى القاهرة...^(٤)

وفي ذي القعدة عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م دخل الأمدي مصر ((ونزل في المدرسة المعروفة بمنازل العز ... وناظر وحاضر واطهر بمصر تصانيفه في علوم الاوائل ، ونقلت عنه ، وقرأها عليه من رغب في شيء من ذلك ، وقريء عليه تصنيفه في اصول الدين واصول الفقه ...))^(٥)

(١) حسن محمود عبد المطلب ، المصدر السابق ، ص ٩ ، الاعسم :د. عبد الامير ، المصطلح الفلسفي .. ص ٩٨ فما بعد .

(٢) القفطي ، المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١

(٣) ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل المهندس، الروضتين ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٧ ص ٣١، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٥٨ ، الحنبلي ، شفاء القلوب .. ص ١٧٩ فما بعد .

(٤) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٩٧ ، ابن خلكان ، المصدر السابق : ج ٧ ص ١١٤

(٥) القفطي ، اخبار العلماء ... ، ص ٢٤١ ، ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٣ .

وفي القاهرة يبدو ان الأمدي قد ودع والى الأبد مرحلة بغداد التعليمية،
مرحلة التلقي من الشيوخ العظام ، فخرج وصار شيخا مرموقا من شيوخ مصر،
واستأذا محنكا للعلوم الكلامية والفلسفية والمنطقية والجدل، ونحو ذلك من علوم،
على مدى ثلاثة وعشرين عاما ...

اشتهر بمصر فضله ((واشتغل عليه الناس وانتفعوا به))^(١) وهو دليل الذكاء
النادر والايمان العميق بأفكاره وبسعة معارفه ..

كان الأمدي رفيع المستوى، عالي المقام، يتضح ذلك من سياق نشاطه
الفكري .. نجده قد استنفذ طاقته كاملة في تحديد موقفه من الفقهاء، الذي تجلى
قويا في كتابه ((الاحكام في اصول الاحكام)) الذي اودع فيه كل عبقريته في
علوم الاصول ، تماما كما كان بالنسبة لعلم الكلام ، عندما السف كتابه (ابكار
الافكار) وفي الفلسفة عندما كتب ((دقائق الحقائق))^(٢)...

وهذه الكتب القمم وشقيقاتها التي تزيد على العشرين ، بدلا من ان
تكون لهذا الرجل صدقة جارية ، ادخلته في محنة ، وشدت اعصابه وكادت ان
تذهب به وتخلق انفاسه ، بعد ان اخذ الحسد والتعصب الاعمى من بعض
أصحاب العقول المنغلقة، مأخذه، فعملوا على تأليب العامة عليه، وحث الحكام
على معاقبته ، يوم نسب هؤلاء الى الأمدي (فساد العقيدة)، وانحلال الطوبى،
والتعطيل، ومذهب الفلاسفة والحكماء ، وكتبوا محضرا يتضمن ذلك ، ووضعوا
فيه خطوطهم بما يستباح به الدم^(٣)...

وهو منه بريء ولاشك ..

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ص ٢٩٣

(٢) الاعسم ، د. عبد الامير ، المصطلح الفلسفي عند العرب ، ص ١٠١

(٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

يقول ابن خلكان: انه بلغه عن رجل منهم فيه عقل ومعرفة ، بعد ان رأى
تحامل القوم، وفساد نيّتهم، وافراط تعصبهم، كتب في المحضر الذي وقعه جماعة
من الفقهاء قبله ،هذا البيت من الشعر كان فيه دفع البلاء عنه :
حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه فالقوم اعداء له وخصوم ^(١)
ولما رأى الأمدي الامر بهذه الخطورة، ((ترك البلاد وخرج مستخفياً))^(٢)
،موليا وجهه شطر الشام هذه المرة ٠٠ فوصلها في عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م
(واستوطن مدينة حماة))^(٣) وقد بلغ من العمر الرابعة والستين ،و كان به حاجة
الى الاستقرار وقضاء شيخوخة هادئة ، وجدها عند الملك المنصور ابي المعالي
محمد بن عمر المظفر (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢١ م) الذي كان (بحب العلماء)،
وفي قصره من العلماء قريب من مائتي عالم من علماء النحو والفقه ونحوهم ،
وكان هذا الامير نفسه مؤلفا للكتب^(٤)
أكرم وفاد الأمدي، وولاه التدريس في المدرسة المنصورية ،وعاش في هدوء
بعيدا عن الحساد ...

وكانت هذه الحقبة من اكثر ايام الأمدي هدوء ، وافضلها استقرارا
وطمأنينة ، وهي، وان كانت قصيرة المدة ، ولكنها كانت حافلة بالانتاج ...
ولما توفي الملك المنصور عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م^(٥) ، توجه الأمدي الى
دمشق، ولما دخلها انعم عليه الملك المعظم بن الملك العادل الايوبي(ت ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م)

(١)المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٤

(٢)المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

(٣)ابن خلكان، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٤

(٤)الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٣٣٨ فما بعد ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٢٩

(٥)الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ابو شامة ، ذيل الروضتين ، ص ١٢٤ ،

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ص ١٢٩

((انعمنا ،واكرامه غاية الاكرام،وولاه التدريس (١٠٠٠))^(١)

يقول ابن ابي اصيبعة : (كنت اجتمعت به ، واشتغلت عليه في كتاب (رموزا لكنوز ،من تصنيفه ، وذلك لمودة أكيدة كانت بينه وبين ابي (١٠٠٠))^(٢) وبالرغم من ان الامدي كان يتمتع بذكاء خارق،و كان من اكثر اهل زمانه معرفة بالعلوم العقلية الحكيمة، وبالقوانين الكلامية، والواجبات الشرعية ، حتى ان ابن ابي اصيبعة وهو شاهد عيان يقول : اذالقى الأمدي درسه ، يتعجب من يستمع اليه من حسن كلامه في المناظرة والبحث، ((ولم يكن احد يماثله في سائر العلوم))^(٣)

ولم يزل على ذلك المقام الرفيع الى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م يوم استولى الملك الكامل على مدينة آمد فاخبر الملك ان امير آمد السابق كان ((قد راسل السيف الامدي في السر))^(٤)،وفأوضه على تولى قضاء آمد ، ولم يخبر الأمدي الملك عن هذه الرسالة السر،أمر الذي انكرالملك عليه سكوته ((فرفعت يده عن المدرسة وتعطل واقام بمنزله شهورا قليلة ومات))^(٥) .

وكانت وفاته ((في رابع صفر يوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين وستمائة ودفن بسفح جبل قاسيون ، وكانت ولادته في سنة احدى وخمسين وخمسمائة)) .
وبهذا يكون الامدي قد عمر ثمانين سنة ...

(١) ابن ابي اصيبعة، موفق الدين، ابو العباس، احمد بن القاسم السعدي (١٢٦٨/٦٦٩م)،عيون

الانباء في طبقات الاطباء، تحقيق د.نزار رضى ،بيروت،ص٦٥٠.

(٢)المصدر السابق ، ص ٦٥٠ - ٦٥١ .

(٣)ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، القفطي ، اخبار العلماء.. ص

٢٤٠.

(٤)القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ ، ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٩٤ ،

وقال : تم عزله عنها لسبب اتهم فيه ، ولم يذكر السبب ..

(٥) القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٤١

ولا يرى الباحث ان هناك سرا غامضا يكمن في محنة الأمدي^(١)، فقد اعتاد الرجل على مثل هذه النكبات والمحن ، وفي هذه المسألة ليس هناك من جريرة غير سكوت الأمدي عن مراسلاته مع امير مدينته (آمد) الامير المسعود الارتقي -

سواء صحت هذه التهمة، ام لفقها خصوم فكر الأمدي في مجتمعه وهم كثر - فان ذلك ممكن الوقوع- لان الحكام الايوبيين ، سلفيون في افكارهم، محافظون في سلوكهم ، ويضمرون الكره الشديد للفكر الفلسفي ، وان قربوا اقطاب هذا الفن من العلماء فهو للتجمل والمباهاة ...
وميل الامدي للفكر الفلسفي ليس سرا ، بل هو متهم بذلك منذ مقتبل العمر، ولم تنته الكوارث والمحن العديدة عن هذا الاعتقاد ...

كشف بمؤلفات الأمدي

الشيخ سيف الدين الأمدي ، فيلسوف متكلم ، (جيد التصنيف)^(٢)، جمع العلوم العقلية في زمانه ، بعد ان استغرق في دراستها سنين في بغداد ، حتى تجرأ فتنلمذ في العلوم الفلسفية على يد اليهود والنصارى ،^(٣) ليقف على اسرار هذه العلوم ، فصار (اوحده زمانه ، وسيد العلماء)^(٤)
صنف في اصول الفقه واصول الدين والفلسفة والمنطق والخلاف ،^(٥) وكان من المجددين للفلسفة العربية الاسلامية على رأس المائة السابعة للهجرة

(١) الاعسم ، د. عبد الامير ، المصطلح الفلسفي ... ص ١٠٢

(٢) ابن ابي اصيبعة ، عيون الابناء ... ص ٦٥٠

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ص ٢٩٣ ، القفطي ، اخبار العلماء .. ص ٢٤٠ - ٢٤١

(٤) ابن ابي اصيبعة ، عيون الابناء ... ص ٦٥٠

(٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ... ج ٣ ص ٢٩٣ ، حسن محمود عبد المطلب ، المرجع

السابق، ص ٧ - ٩ ، الاعسم ، د. عبد الامير - المصطلح الفلسفي ، ص ١٠١

(كل تصانيفه مفيدة)،^(١) مرغوبة من الناس^(٢)، مقروءة من العلماء ، تدرس وتدرس منذ زمان مؤلفها وحتى اليوم ...

آخر من احصى مصنفات الأمدي او كاد ، كان اسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين) ذيل كشف الظنون ، فكانت عنده ٢٣ مصنفًا،^(٣) في حين احصاها ابن ابي اصيبعة، فكانت عنده ١٨ كتابا ، واستشهد ابن خلكان بثمانية منها ، والقفطي بأربعة منها فقط، من دون ان يستغرقوا في احصائها ...

ونفصل في ادناه كشفا بها :-

م	اسم الكتاب كما جاء بكتاب (هدية العارفين)	ابن ابي اصيبعة	ابن خلكان	القفطي	حال الكتاب مطبوع، محفوظ، مفقود
١	الاحكام في اصول الاحكام	-	-	-	له طبعتان في اربعة اجزاء القاهرة ١٩١٤ وطبعة المتبني ١٩٦٧
٢	منتهى السؤل في علم الاصول	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	نشرة مطبعة صبيح بالقاهرة من دون تاريخ
٣	غاية المرام في علوم الكلام	ص ٦٥١	-	-	تحقيق محمود عبد اللطيف القاهرة ١٩٧١

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ... ج ٣ ص ٢٩٤

(٢) القفطي ، اخبار العلماء .. ص ٢٤١

(٣) اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ... ج ٥ ص ٧٠٧

٤	المبين في معاني ^(١) الفاظ الحكماء والمتكلمين	ص ٦٥١	-	-	له طبعتان الاولى نشرت في مجلة (المشرق) ناقصة والاخرى جمعها الدكتور عبد الامير الاعسم
٥	ابكار الافكار في الاصول	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	ص ٢٤١	مخطوط ^(٢)
٦	دقائق الحقائق في الحكمة	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	ص ٢٤١ (٣)	مخطوط ^(٤)
٧	كشف التصويهاة في شرح التنبهاة	ص ٦٥١	-	ص ٢٤١	مخطوط ^(٥)
٨	المواخذ (الماخذ) الحلية في المواخذات الجبلية	ص ٦٥١ ^(٥)	-	ص ٢٤١	مخطوط ^(٦)
٩	النور الباهر في الحكم الزواهر	ص ٦٥١	-	ص ٢٤١ (٧)	مخطوط ^(٨)
١٠	شرح كتاب الجدل للشريف المراغي	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	مخطوط
١١	مناجح القرائح	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	مفقود

(١) منه نسخة محفوظة في معهد المخطوطات بالدار المصرية ، وهناك نسخ اخرى بدار
الكتب المصرية ، محمود حسن عبد المطلب ، المرجع السابق ، ص ١٢ ، الاعسم ،
المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، نقلا عن بروكلمان .

(٢) سماه القفطي (كتاب الحقائق في علم الاوائل) ص ٢٤١

(٣) الاعسم ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٤) منه مخطوطة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة

(٥) سماه ابن أبي اصيبعة ، المواخذات في الخلاف ، وسماه القفطي ((الماخذ ، علي فخر
الدين بن خطيب الراي في شرح الاشارات))

(٦) ذكر له اسماعيل البغدادي ، مخطوطة في دار الكتب العمومية في اسطنبول ..

(٧) اسماء القفطي ((كتاب الباهر في علم الاوائل)) خمسة مجلدات

(٨) الاعسم ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

١٢	رموز الكنوز في الحكمة	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	مفقود
١٣	لباب الالباب في المنطق	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	مفقود
١٤	طريقة في الخلاف	ص ٦٥١	ص ٢٩٤	-	مفقود
١٥	غاية الامل في علم الجدل	ص ٦٥١	-	-	مفقود
١٦	منتهى المسالك في رتب الممالك	ص ٦٥١	-	-	مفقود
١٧	دليل متحد الائتلاف وجاد في جمع مسائل الخلاف	ص ٦٥١	-	-	مفقود
١٨	كتاب الترجيحات في الخلاف	ص ٦٥١	-	-	مفقود
١٩	كتاب التعليقة الصغيرة	ص ٦٥١	-	-	مفقود
٢٠	كتاب التعليقة الكبيرة	ص ٦٥١	-	-	مفقود
٢١	خلاصة الإبريز تذكرة للملك العزيز في العقائد	ص ٦٥١	-	-	مفقود
٢٢	الغرائب كشف العجائب في الاقتراعات الشرطية	ص ٦٥١	-	-	مفقود
٢٣	فرائد الفوائد في الحكمة	ص ٦٥١	-	-	مفقود

وظهر من الجدول اعلاه ان من جملة كتب الأمدي الثلاثة والعشرين لم يطبع منها حتى الان غير اربعة كتب ، وهنال اشارات الى ست مخطوطات، وان باقي كتبه البالغة ثلاثة عشر كتابا مازالت مفقودة حتى الان ، مؤكدين هنا ان الكشف عن هذا الكم من كتب الأمدي المفقودة واجب تراثي، وفيه خدمة للامة وحضارتها .

المبحث الخامس

القاضي عبد الرحمن الأيجي

(٦٨٠هـ/١٢٨١م - ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)

المفكر الإسلامي الكبير القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن ركن الدين^(١) أحمد بن عبد الغفار بن أحمد^(٢) البكري^(٣) الأيجي^(٤) الشيرازي^(٥) ، شيخ العلماء ، قاضي القضاة ، كان من مراجع الأمة الكبار في المعقولات ، محققاً مدققاً^(٦) ، عارفاً بأصول الدين وشيخاً من شيوخ علم الكلام في أعلى صورته في القرن السابع الهجري^(٧) ، عالماً في أصول الفقه ، وشرحه لمختصر ابن

(١) البغدادي ، إسماعيل باشا ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، ٥٠٠ ، دار الفكر ، بيروت ج ٣ ص ٥٦٥ ١٩٨٢ .

(٢) البغدادي ، إسماعيل باشا ، هدية العارفين ٥٠٠ دار الفكر ، بيروت ١٩٨٢ ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٣) من ترجمة لمؤلف كتاب "المواقف في علم الكلام" ، للأيجي ، عالم الكتب ، بيروت بلات ، ص ٢١ .

(٤) نسبة إلى (أيج) بلدة في أقصى بلاد فارس ، كثيرة البساتين ، تجلب منها الفواكه إلى كيش وأهل فارس يسمونها (ألك) ، ابن عبد الحق البغدادي ، مرآة الاطلاع ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥) نسبة إلى شيراز ، وهي قسبة بلاد فارس في وسط بلاده ، ج ٢ ص ٨٢٤ .

(٦) وصف الأيجي مصنفاً أنها تحتوي : ((على نكت هي ينباع التحقيق ، وفقر تهدي إلى مظان التدقيق)) المواقف ، ص ٥ .

(٧) الأيجي مؤسس المدرسة الجديدة لعلم الكلام في القرن السابع ، وسيأتي شرحها .

الحاجب^(١)) لا يتم تعاطيه إلا لمن كان له قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة^(٢) .
الأيجي أستاذ في المعاني والبيان والنحو^(٣) ، مشاركاً في الفقه وعلوم الشريعة ، لم
يأل جهداً في تحرير المطالب وتقريب المذاهب ، (يترك الحجج تتبخر تضاحاً ،
والشبه تتضاءل افتضاحاً)^(٤) ، ناقداً من يجده مزيقاً ، ومنبهاً عمن يراه هداماً .

كان كريم النفس ، نافذ الكلمة ، كثير المال ، لم يشح بالنفقة على طلبته ،
وإكرام الوافدين عليه ، يرتفع بالنسب إلى الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله
عنه)^(٥) .

كثيراً ما يشكو الأيجي أهل زمانه ، الذين اتخذوا علم الكلام ظهيراً ،
(وصار طلبته عند الأكثرين شيئاً فرياً ، ولم يبق منه بين الناس الا القليل)^(٦) .
وعلى العادة أوصى الأيجي من حوله: أن ينهضوا بمهمة ترغيب
الطالبين، وتذليل الصعاب للسالكين ، وتوجيه المبرزين منهم إلى مسالك
المحققين^(٧) .

ولئن كان في شكوى الأيجي من حق ، فهو دليل حب الرجل لهذا العلم
النافع ، وشفقة في ان يتذوق الكثير من الناس حلاوته ٠٠٠ مع أن هذا العلم

(١) ابن الحاجب ، هو جمال الدين أبو عمر عثمان بن عمر (ت ٦٤٦/١٢٤٧م) ، وكتابه
(منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل) ، اختصره وسماه (مختصر المنتهى)
، وسمته الناس (مختصر ابن الحاجب) .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٢ ، ج ٢ ص ١٨٠٣ .

(٣) كتابه (الفوائد الغياثية) نسبة إلى غياث الدين وزير محمد خدابندا ، سلطان التتار ، في
علوم البيان والبديع والمعاني ، كتبه في ضوء القسم الثالث من كتاب " مفاتيح العلوم " .

(٤) الأيجي ، المواقف ، ص ٥ .

(٥) ترجمة المؤلف ضمن كتاب المواقف ، ص ٢١ .

(٦) الأيجي ، المواقف ، ص ٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٦-٧ .

صعب مستصعب لا يقدر عليه إلا القليل القليل ، وهو واجب على الكفاية ، إن قام به أفراد ، سقط عن الجميع ، وإن قام به فرد سقط عن كثير من أهل مدينته .
وممن شكوا منه القاضي عضد الدين الأيجي أيضاً ، كتب هذا العلم التي وقعت بين يديه ، فما وجد فيها (شفاء العليل أو رواء الغليل ، لاسيما والهمم قاصرة ، والرغبات فاترة ، مختصراتها قاصرة عن افادة المرام ، ومطولاتها مع الإسام ، مدهشة للأفهام)^(١) ، أما أصحابها فهم : (كحاطب ليل يجمع ما يجده من كلام القوم فينقله نقلاً ، ولا يستعمل عقلاً)^(٢) .
أما مصنفات الأيجي فلا يجدها كذلك ، فهي في الجملة غير مطولة مملة ، ولا مختصرة مخلة ، بل أودعها كما قال (لب الألباب)^(٣) .

العلوم التي ألف فيها

القاضي عضد الدين الأيجي : آخر المؤسسين للفلسفة العربية الإسلامية ، موسوعي ، إنتاجه غزير ، مركز ، له أثر عميق في جيله والأجيال اللاحقة ، حتى بلغت شروح كتابه (المواقف في علم الكلام) حداً غير مسبوق . . . استهوت كتبه العلماء والباحثون والطلاب الدارسون . . .
كتبه في علم الكلام مصادر في قاعات الدرس ، مازالت ملزمة ، وشغل الباحثين الشاغل ، لهم عليها شروح ومتون وتعليقات حتى اليوم .

(١) الأيجي ، المواقف ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥-٦ .

فلا غرابة إن وجدنا هذا العالم الكبير يحظى من الباحثين في عصرنا
بالعناية التي تتناسب ومنزله .

أولاً : مصنفاة في العلوم العقلية :

أ- علم الكلام :

وهو محور دراساته، ومستودع نظرياته ، عرفه الأيجي بعبارات مفيدة ، نافعه ،
دالة ، فهو عنده : (علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية ، بإيراد الحجج ودفع
الشبه . . .)^(١) .

للأيجي فيه عدة كتب منها :

- ١- كتاب المواقف في علم الكلام ، وسماه إسماعيل باشا البغدادي (المواقف
السلطانية في علم الكلام)^(٢) ، ولعله نسبه إلى مدينة السلطانية عاصمة
السلطان المغولي محمد خدابنده ، وقد سكنها القاضي الأيجي مدة من
الزمن، قريباً من صديقه غياث الدين وزير السلطان . و(كتاب المواقف :
كتاب جليل القدر ، رفيع الشأن ، اعتنى به الفضلاء)^(٣) مطبوع غير مرة ،
سنعود إليه بعد قليل .
- ٢- كتاب جواهر الكلام : وهو متن كالمواقف ، ولكنه أقل من المواقف حجماً ،
وجده البغدادي مختصراً للمواقف^(٤) ، وهو ليس كذلك ، ألف الأيجي هذا
الكتاب ايضاً لصديقه الوزير غياث الدين ، ربما كان أول شروح لهذا
الكتاب عام ١٣٦٨/٧٧٠م ، بعد وفاة المؤلف بقليل ، شرحه علي بن محمد
البخاري^(٥) اوله (الحمد لله الذي علم بالقلم) .

(١) الأيجي ، المصدر السابق ، ص ٧ .

(٢) البغدادي ، هداية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٤ ص ١٨٩١ .

(٤) هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٦١٦ .

٣- كتب العقائد العضدية : وهو مختصر جامع مانع نافع مفيد ، وله : (الحمد لله على نواذره) ويذكر أن هذا الكتاب كان آخر ما كتبه القاضي الأيجي ، فقد كان قد قضى نحبه بعد أيام قليلة من الانتهاء من تأليفه ، وله عدة شروح ، منها شرح جلال الدين الصديقي (ت ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) ، وكان الصديقي قد وصف هذا الكتاب بقوله : (إن العقائد العضدية لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية الا وأنت عليها ، ولم تترك من أمهاتها ومهماتهما مسألة ، إلا وقد صرحت بها ، وأومات إليها)^(١).

وهذه الكتب الثلاثة التي مرت ، مفروغ من صحة نسبتها للقاضي الأيجي ، وشهرتها المقرونة بالتواتر والشياع الصحيح الذي يؤكد هذه النسبة . وقد ذكر البعض كتباً أخرى لم تشاع نسبتها إلى الأيجي بشكل مؤكد منها :

٤- بهجة التوحيد : نسبه الشيخ أشهر زوري في كتابه (تاريخ الحكماء) على ما ينقل حاجي خليفة^(٢) في كشف الظنون إلى القاضي عضد الدين ، ذاكراً أنه ملك يزد ، وأنه كان متخلفاً بأخلاق الحكماء وكرر هذا إسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين^(٣).

٥- عيون الجواهر ، لعله اختصار كتاب الأيجي المعروف (جواهر الكلام) ولم نجد له إشارة بهذا الاسم في (كشف الظنون) ولا في الذيل على كشف الظنون^(٤).

(١) حاجي خليفة ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٤) لم يذكر في مقدمة كتاب (المواقف) ، وليس له من ذكر في شروح المواقف أو مختصراته .

٦- الكواشف البرهانية في شرح المواقف السلطانية : ذكره حاجي خليفة بهذا العنوان دون إضافة أي معلومة ، ولم يذكره البغدادي في ذيله ، ولم نعرف اسماً له ضمن شراح كتاب المواقف^(١) .

٧- شرح المقالة المفردة في صفة الكلام : ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين^(٢) ، ولم يذكرها سواه ، لعله ١٩ (شرح المقالة في الأدوية المفردة)^(٣) .

ح- علم المناظرة :

هو علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المتناظرين ، وهو آله تعصم المتناظرين عن الخطأ والخطب في البحث ، إظهاراً للصواب ، وإلزاماً للخصم ، فهو يخدم العلوم كلها .
وللأجي رسالة في هذا العلم مختصرة من عشرة أسطر فقط ، بين فيها قواعد العلم كلها ، وسماه حاجي خليفة :

آداب العلامة عضد الدين : كان أولها (لك الحمد والمنة)^(٤)

ج- علم التاريخ :

التاريخ علم وفن وذاكرة وتفلسف ، وعلى وفق ذلك ليس بالإمكان أن ندعوه مؤرخاً ذلك الذي لا يكون على مستوى مطلوب من الوعي الشامل بمنطق العلاقة بين الواقعة التاريخية وزمانها ومكانها وطبيعة حدوثها ، وبين نتائج فاعليتها ، وفيما يلحق في تحليلها ، وفيما يقال في تفسيرها ، وفي عين ما هيبتها ، على وفق منهج معتمد .

(١) حاجي خليفة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢١ .

(٢) إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٧٥ .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٧٨٤ ، واصل المقالة ، لعماد الدين الطيب (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) .

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٤١ ، البغدادي ، هدية العارفين ج ٥ ص ٥٢٧ .

ان المؤرخ ليس هو الجامع للوقائع حسب ، بل إن المؤرخ هو الذي يعي علم التاريخ وفنه وذكراته وفلسفته^(١) .

وينسب إلى القاضي الآيجي كتابان في التاريخ .

١٢- أشرف التواريخ : قال حاجي خليفة عنه (هو مختصر من بدء

الخلقة ، وترجمته بالتركية لمصطفى بن أحمد الشاعر المتوفي (سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م)^(٢) .

١٣- زبدة التاريخ في ترجمة أشرف التواريخ : وسماه (إشراق التواريخ)

وهو ترجمة كتاب الآيجي المار ذكره في الفقرة السابقة^(٣) وحسبه إسماعيل باشا البغدادي خطأ من مصنفات الآيجي^(٤) .

د/ علم البيان والبديع :

علم البيان ، هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في

وضوح الدلالة على المقصود ، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض^(٥) .

وأما البديع ، فهو علم يعرف به الحسن في الكلام بعد رعاية المطابقة

لمقتضى الخصام^(٦) .

وللقاضي الآيجي كتاب واحد سماه:

(١) دراستنا ، لماذا فلسفة التاريخ / دراسة مستقبلية ، ضمن كتاب (الفلسفة والإنسان العربي

في القرن الحادي والعشرين ، بغداد ، ص ٢١٧ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ١٠٤ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٥٢ .

(٤) هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٢٣٢ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٩ .

١٤- الفوائد الغيائية في المعاني والبيان : قال عنه : (هذا مختصر يتضمن مقاصد المفتاح سميته الفوائد ، ونسبها الى غياث الدين وزير السلطان محمد خدابندا وهو كتاب مفيد أوله (الحمد لله الذي خلق الانسان والهمه المعاني ، وعلمه البيان ٠٠) وقد حققه جمهرة من العلماء^(١) .

هـ- علم الأصول : وقد وجدته الأيجي : بأنه آلة تعصم الفقه عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة ، كما هو المنطق ، آله تعصم الإنسان من الخطأ والشطط^(٢)

وأدلة الأحكام فيه على قسمين أدلة أصلية هي الاساس : وهي الكتاب والسنة ، وأدلة تبعية أرشدت إليها نصوص الكتاب والسنة ، وهي الإجماع ، واختلف في الرابع ، أهو الراي والقياس ، أم هو العقل^(٣) ؟ ، وللأيجي كتاب واحد في هذا الفن هو :

٨- شرح مختصر ابن الحاجب ، أو شرح أصل كتاب ابن الحاجب (منتهى السؤل والأمل ٠٠٠) للشيخ جمال الدين ابي عمر عثمان المعروف بابن الحاجب المالكي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٦٥م) صنفه اولاً ثم اختصره ، وهو المشهور المتداول (بمختصر المنتهى) او (مختصر ابن الحاجب) ، اعتنى القاضي الأيجي بشرح هذا المختصر (وأفرغه في قالب الكمال ، والبسه حلة الجمال)، فرغ من تأليفه في (٢٦/شعبان/٧٣٤هـ - ١٣٣٣م)^(٤) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٩٩ ، البغدادي ، إسماعيل باشا ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٢) رسالتنا للماجستير ، الفكر الفلسفي في بغداد ، الأصول والأكتباع ، بغداد ، ٢٠٠٢ ص ٧٩ ، ص ٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٨٥٣ .

ت- علم الأخلاق: وهو فرع من فروع الفلسفة العربية الإسلامية ، التي يعتد به ، مثله مثل فرع الفلسفة السياسية وفلسفة تدبير المنزل ، وهو علم بالفضائل ، وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها^(١) . وهو ما ينبغي أن يكون عليه الانسان (خيراً فاضلاً في أخلاقه وصفاته)^(٢) .

وللآجي في هذا العلم كتاب واحد عنوانه:

٩- أخلاق عضد الدين : وهو مختصر في جزء ، لخصه الآجي ، وجعل فيه زبدة ما في المطولات ورتبه على أربع مقالات ، فيه كفاية لمن أراد أن يتذكر .

شرحه تلميذه شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م ، على صيغة (يقال ، أقول ، كما شرحه طاش كبرى زاده (ت ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م) ، وشرحه احمد ابن لطيف المنجم (ت ١١١٣هـ / ١٧٠١م)^(٣) .

ثانياً - مصنفاته في العلوم النقلية

ز- علم التفسير : وهو علم باحث عن معاني آي الذكر الكريم ، بحسب ما تقتضيه مبادئ العلوم العربية من بيان وبديع ونحو وصرف ، وعلى وفق قواعد علم الكلام وأصول الفقه والجدل وغير ذلك من العلوم ، وفروع هذا العلم كثيرة منها : علم القراءات والناسخ و المنسوخ وغيرها .

وللآجي كتاب واحد في هذا الفن لم يذكره حاجي خليفة في كتابه ، واستدرك عليه

إسماعيل باشا في ذيله .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧ .

(٢) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، (٥٠٥هـ / ١١١١م) ، المنقذ من الضلال ، ص ١٣٥

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٢٥ .

١٠- اسم الكتاب (تحقيق التفسير في تكثير التدوير في تفسير القرآن

الكريم^(١) .

علم الوضع:

للقاضي الأيجي رسالة سماها البغدادي في كتابه هدية العارفين (الرسالة العضدية في الوضع^(٢)) ، وذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون (الرسالة العضدية : شرحها الشيخ زروقي شرحين ، وشرحها عصام الدين إبراهيم بن محمد الأسفرائني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م)^(٣) ، وجاء في ترجمة المؤلف في مقدمة كتابه (المواقف) أنه مطبوع ، ولم يتيسر الاطلاع عليه^(٤) .

وقفة عند (المواقف)

يعد كتاب القاضي عضد الدين الأيجي (المواقف في علم الكلام) ، من كتب القرن السابع والثامن الهجريين ، ذات المعالم التي لخصت أفكار زمانه بجدارة ، فهو متن مكتنز بالثوابت الكلامية وبالقواعد الفلسفية ، بتنسيق منطقي مسؤول ، اتخذ من كتابي الشيخ فخر الدين الرازي (المباحث المشرقية) و(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) مضموناً لمحتويات كتابه (المواقف) يشرح ما غمض من متونهما ، ويطور القديم من مفاهيمهما ، في ضوء معطيات القرن السابع الهجري الفكرية .

(١) إسماعيل باشا البغداددي ، إيضاح المكنون ، الذيل على كشف الظنون ، ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٢) ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٣) ج ١ ، ص ٨٧٧-٨٧٨ .

(٤) ص ٢١ .

الآيجي رجل مثقف ، لم يقف عند آراء الفخر الرازي مقلداً أو معتبراً إياه شيئاً مقدساً ، لا يمكن أن ينال منها ، ولا يمكن الاعتراض عليها ، أو أنها لا تخضع للمحيص والنقد ، فهي بلا شك أفكار حية تتعامل مع تقلبات الزمن ، وتطور العلوم ونمو النشاطات العلمية والفكرية والثقافية .

وعلى وفق هذا وبحسب رأي الباحث لم يكن القاضي عضد الدين الآيجي خاصة أو أي من مفكري القرن السابع عامة ، ممن توقف عند أفكار الرازي مقلداً غير محتاط ، بل الجميع مضى على ما مضى عليه الرازي في التطور والتقدم ، على وفق سنة الحياة المتطورة ، وصيغة الأشياء التي لا تثبت على حال .

قرر القاضي عضد الدين الآيجي موضوع علم الكلام في كتابه (المواقف ١٠٠٠) في ستة مواقف ، هي بمثابة فصول الكتاب وموضوعاته الرئيسية ، أخرج من هذه المواقف ، مراصد ، وفرع من تلك المراصد المقاصد ، يتباين عددها بتباين فقرات الموضوع ، ولكن الآيجي لم يستمر في تقسيمه هذا إلى نهاية كتابه ، ينوع التقسيم بحسب ما يجده مناسباً ، أحياناً تتوزع المراصد إلى فصول ، والفصول إلى أنواع والأنواع إلى مقاصد ، وإلى أقسام ثم إلى مقاصد^(١) ، في حين وجدنا العلامة ابن المطهر الحلي يقسم كتابه (الأسرار الخفية) - موضوع بحث هذه الأطروحة - إلى ست مقالات هي بمثابة أبواب أو مواقف ، كمواقف الآيجي ، وهذه المقالات إلى فقرات ومباحث بحسب موضوع الكتاب ، وهذه الفقرات إلى أسرار ، يودع كل سر خلاصة أفكاره في ذلك الفرع من العلم ، ثم يتتالى^(٢) هذا التقسيم بوضوح تام .

(١) الجابري ، د. محمد عابد ، بنية العقل العربي ، ط ٦ ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٥٠٧ .

(٢) العلامة ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، تحقيق د. حسام محي

الدين الألوسي وصالح مهدي هاشم ، منشورات مكتبة المثنى ، بيروت ١٩٧٥ .

نقرأ في الموقف الأول من مواقف كتاب الأيجي : مقدمات علم الكلام ، وجعل منه مراصد ، كان المرصد الأول فيما يجب تقديمه في كل علم ، وفرع هذه المراصد الى مقاصد ، كان المقصد الأول في تعريف علم الكلام ، والمقصد الثاني في موضوع علم الكلام ، والمقصد الثالث في فائدة علم الكلام ، وهكذا آخر المقاصد ، حيث كان آخر المقاصد (المقصد السادس) ، في تسمية علم الكلام .

ثم تتابع المراصد والمقاصد والمذاهب لتستوعب علم الكلام على وفق أساليبه في القرن السابع الهجري ، بعبارة سهلة ممتعة ، لا يمكنك حذف لفظة واحدة ، دون الإخلال بالمعنى ، يقرره عالم مطلع على موضوعه بصيغ تلفت النظر .

الأيجي يقرر مسائل في ثوابت "علم الكلام" ، ومسائل في حقائق "الفلسفة العربية الإسلامية" ، كما هي في زمانه ، ومسائل غيرها في قواعد منطقية ، تتسجم مع ذات الموضوع ، في إطار من التوحد والتنسيق بين هذه العلوم العقلية جميعها ، وهو الأمر الذي توهم فيه ابن خلدون فقال: إن الإمام الغزالي وفخر الدين الرازي ، وجماعة ممن قفوا أثرهم ، واعتمدوا فكرهم بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة ، (والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين ، فحسبوه فيهما واحداً ، من اشتباه المسائل فيها . فالتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يميز أحد الفنين عن الآخر)^(١) .

وليس الأمر كذلك بل إن هذه العلوم مجتمعة : متجاورة ، متحددة ، متداخلة بصيغ لا تخفى على المتخصص ، وهي كذلك من أفراد عائلة واحدة تلتقي بالنسب القريب ، لكل خصوصيته ، تنتوع بالأدوار وتتوحد في الأهداف والمشارب . وهذا ما اكده كتاب الأيجي (المواقف في علم الكلام) .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦٧ .

والأمر الآخر الذي توهم فيه ابن خلدون : حينما ذكر في مقدمته (ينبغي أن يعلم أن هذا العلم ، الذي هو "علم الكلام" ، غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم ، إذ الملحة قد انقضوا)^(١).

والحق أن القضاء على علم راسخ منذ عصر الرسالة ، بدعوى انتهاء موضوعه قول غير سديد ، العلوم متطورة يكمل بعضها بعضاً ، على وفق سنة الحياة ، تنزياً بازياء جديدة ، بين الفينة والأخرى ، محكومة بطبيعة الأشياء ، تليسها الأحداث ثوباً آخر، وتتضو عنها ثوبها القديم ، بمقدار ما كانت عليه الأحوال الاجتماعية والسياسية والعلمية . "وعلم الكلام" هو اساس العلوم العقلية ، ومنه انبثقت وتطورت ، فهو أجدر بالتطور، وأحرى بالاستمرار .

هذه الأفكار غير الدقيقة التي صرح بها ابن خلدون ، منعت الأمة من أن تدخل في عصرها ، وأن تأخذ من العصر ما ينفعها ، ويمضي بها الى حيث الحداثة والمعاصرة ورحابة المستقبل .

والأمر الآخر الذي وجدنا ضرورة الوقوف عنده ، ما ذكره الدكتور محمد عابد الجابري أن كتاب (المواقف) (أشبه ما يكون بمعجم للمصطلحات الفلسفية والكلامية منه إلى كتاب في الفلسفة أو في علم الكلام)^(٢) . وعلى وفق هذا يقرر أن (الشيء الوحيد الذي ينقص هذا الكتاب يتحول إلى (معجم) هو الترتيب الأبجدي ، ذلك لأننا إذا غضضنا الطرف عن بنى علم الكلام التقليدية التي تتوزع مادة الكتاب ، وهي بنية باهتة لا يلحظها إلا من له سابق معرفة بها ، فإننا سنجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من المفاهيم الفلسفية والكلامية ، سلسلة قد فصلت حلقاتها بعضها عن بعض ، فما عاد السابق منها يؤدي إلى اللاحق ، ثم رصفت صفا فوق سطح شكله مضلعا غير منتظم ، هذه المفاهيم تقدم لها تعريفات مختلفة بعضها للمتكلمين ، وبعضها للحكماء ، أي الفلاسفة ، ثم يلي ذلك

(١) المصدر السابق ، ص ٤٦١-٤٦٧ .

(٢) الجابري ، بنية العقل العربية ، ص ٥٠٤ .

في الغالب ردود على وجهات نظر الخصوم^(١) والباحث وجد أن الأمر قد حمل أكثر مما يجب ، وهو تهمة يمكن أن تلتصق بكثير من كتب التراث العلمي العربي الإسلامي ، تأتي جزافاً في كثير من الأحيان ، بحق تراثنا الذي هو الأصل والمنبع . إن كتاب (المواقف في علم الكلام) في حقيقته متن مكتنز، مشحون الى أقصاه، بل وحتى العنق، بالفكر الخالص لعلوم الكلام والأصول والفلسفة العربية الإسلامية والتصوف ، وبآخر مستجداتها التي جاء بها القرن السابع الهجري ، وحملت سماته وميزاته .

كلمة أخيرة :

كان القرن السادس الهجري ، نقطة بارزة في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وعلى الخصوص بعد أن قعد حجة الإسلام الغزالي على راس القرنين الخامس والسادس الهجريين بعض قواعد تلك الفلسفة ، على أسس كان قد مهد لها فلاسفتنا السابقون منذ الكندي ، ذلك من خلال تنسيق العلاقة بين "علم الكلام" و"علم أصول الفقه" و"علم التصوف" بما هو علم دون ممارسات ، والفلسفة العربية الإسلامية ، التي جاءت من رحم "علم الكلام" .

وقولنا هذا على أية حال لا يناقض الرأي الذي يقول : إن علم الكلام الإسلامي ومنذ نشأته يناهض الفلسفة اليونانية التي جاءت بها ترجمات كتب الإغريق بعد الانفتاح الحضاري للأمة في حينه ، وليس في ذلك من عيب . والباحث في هذا الصدد - تابع العشرات من كتب الرد لمفكرينا على فلسفة الاغريق ، او الرد على ممن قصر في مغادرة هذه الفلسفة (من الفلاسفة العرب المسلمين منذ ما قبل الفارابي ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) وحتى ابن رشد (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) من المتأخرين ، فوجد ان هذه الردود ، وعلى الخصوص

(١) الجابري ، د . محمد عابد ، بنية العقل العربي ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

منها في صيغتها العقلية وحاجتها المنطقي ، كانت الجذور التي أنبتت العلوم العقلية للأمة ومنها "الفلسفة العربية الإسلامية" ، المهم المزيد من المزاوجة بين "علم الكلام" والعلوم العقلية الأخرى التي انبتت من رحمها كما أسلفنا ، التي توجتها ردود الغزالي وأفكاره التي تضمنتها كتبه من المقاصد والتهافت وحتى المنقذ من الضلال أبعد كتبه عن الفلسفة^(١) . هذه هي سنة الحياة في التطور ، التي تلمسها أبو الفتوح الشهرستاني في كتبه (الملل والنحل) و (مصارعة الفلاسفة) و (نهاية المرام في علم الكلام) غيرها من كتب العقائد^(٢) ، كل يقدر مستويات العلوم والمعارف في زمانه وتطور مفاهيم الحياة السياسية والاجتماعية التي عاش فيها^(٣) .

(١) الشيباني ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ٢٠٧ .

(٢) قال الغزالي : إنه لا يقف على فساد علم من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي اعلم الناس به ، بل يزيد عليه ، ويطلع ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، المنقذ من الضلال ، ص ٧-٨ .

(٣) الحديث في الفكر كان زاد الناس وجزءا منه ، فاذا ما قام النزاع بين المفكرين في الحياة العامة ، أثر هذا في الحياة ، ومفاصل المجتمع .

الفصل الخامس

المبحث الأول : علم أصول الفقه

المبحث الثاني : المحقق الحلي

المبحث الثالث : الشيخ هيثم البحراني

المبحث الرابع : الشيخ تقي الدين احمد بن تيمية

الفصل الخامس

المبحث الأول

علم أصول الفقه في القرن السابع الهجري

علم أصول الفقه ، علم التشريع ووضع القوانين والأحكام ، قديم يتجدد .
علم اصول الفقه -منذ قام- من العلوم الربانية التي اصطف فيها بحكمة،
الاجتهاد إلى جانب الشرع ، وازدوج في ذاته بسلاسة، العقل والنقل ، (يأخذ من
صفوة الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا
ينلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل
بالتأييد والتسديد) .

هذا العلم الذي يرجع فضل الريادة فيه إلى الإمام محمد بن إدريس
الشافعي (ت ٤٠٤هـ/ ٨١٩م)، حتى عده البعض مؤسساً، من خلال كتابه
المعروف (الرسالة) وكتابه الموسوعة (الأم) ، وهما خير من قعد القواعد لهذا
العلم في زمن مبكر .

جعل الإمام الشافعي الأصول الفقهية لهذا العلم تركز في أربعة أصول
هي على التوالي: كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة وإجماع والقياس .
يؤسس الأصل السابق منها للأصل اللاحق .

(١) الغزالي، المستصفى من علم الاصول ، باعتناء محمد يوسف نجم ، ج ١ ، بيروت ١٩٩٥ ،

التي يقتدر فيها الانسان على أن يستتبط تقدير شيء مما لم يصرح به صاحب الشريعة^(١).

ووجده ابن خلدون (٨٠٨هـ/٤٠٥م) أن علم أصول الفقه (من اعظم العلوم الشرعية أجلها قدراً ، وأكثرها فائدة ، وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتأليف^(٢)).

وقد تعددت الحدود التي حد بها هذا العلم منذ القرن السابع الهجري وحتى اليوم ، بمقدار عدد العلماء الذين صنفوا بهذا العلم .

علم أصول الفقه آلة تعصم الفقه من الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة ، كما هو علم المنطق آلة تعصم الذهن من الخطأ والشطط .

علم أصول الفقه هو : (قواعد تؤهل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية) .

القول هي (قواعد) : قضية تشترك فيها العلوم وجملة المعارف ونحوها من أدوات ، وهنا تكمن عظمة علم "أصول الفقه" ، وسر ديمومته على مر الزمن ، فهذه القواعد تؤهل صاحبها ممارسة النظر الاجتهادي .

ولما كانت هذه القواعد ديناميكية منظورة ، كان اجتهاد عالم الأصول مثلها ، وعملياته في استنباط الاحكام ممهورة بعلامتها ، على وفق معطيات العصر ومستوى العلوم ، وطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها المفكر ، ولا يمكن فك الاشتباك عنها^(٣).

(١) الرسالة للشافعي ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، لها طبعات عدة منها: نشر المكتبة العلمية في بيروت بلا تاريخ .

(٢) رسالتنا للماجستير ، الفكر الفلسفي في بغداد ، الاصول والاتباع ، بغداد ، ص ٢٨

(٣) علي حسب الله ، اصول التشريع الاسلامي ، مصر ، ١٩٦٤ ، ص ٢

وقيل أيضاً في حد هذا العلم وتعريفه بأنه : (العلم بالعناصر المشتركة في عملية استنباط الحكم الشرعي)^(١).

فهو إذن علم يبحث عن العناصر التي تدخل في عمليات استنباط متعددة الأحكام وموضوعات متنوعة ، لا تختص بزمان ، ولا تقف عند مكان ، فهو علم خول حامله المفكر الأصولي التفتيش عن المشكلات التي تعيشها الأمة ، وتسدد الحاجة الى مسائل ما كانت قائمة .

الإسلام ولا ريب دين ودولة ، شريعة للعالمين جميعاً ، للعرب بكل أقطارهم ، وللعاجم بكل ألوانهم ، قانون سماوي ، دائم مستمر حتى قيام الساعة ، حدد معالم شريعته قرآن مجيد ، كلام الله المنزل ، قطعي الثبوت ، تتاوله الناس في المشرق والمغرب ، جامع الكليات ، كامل غير منقوص ، فسرته وجاءت في تفصيله وتبينه السنة النبوية المطهرة ، وتصدى لحمل وبسط أحكامه للبشرية كافة ، علماء مفكرون ، كل في زمانه ، على وفق تطور العلوم والمعارف ، وطبيعة الأشياء ، ونوع الحكم .

بدأ هذا العلم بترسيخ العلاقة بين الانسان وربه - (كتاب العبادات) - وترك تفاصيل امور الدنيا والمعاش واساليب الحكم - (كتاب المعاملات) - لاجتهاد العلماء من المسلمين ومستوى تفكيرهم ، وطبيعة علاقتهم الاجتماعية في عصرهم ، فتحمل المفكر الاسلامي وزراً كبيراً . فما كان في مستوى المسؤولية في عصور عديدة .

بعد ان تفلسفت الطروحات في العصر الراشدي ، خرج من صفوف أصحاب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، في معركة صفين ، جماعة تبرزت من فريقي المعركة ، وتلمست طريقاً ثالثاً .

(١) المصدر ، محمد باقر ، المعالم الجديدة للاصول ، النجف ١٣٨٥ ، ص ٨-١١ .

ثم وجدنا (المرجئة) وقتها يفلسفون (مفهوم الايمان) ، ويضعون له شروطاً ميسرة، ويرجئون أصحاب الكبائر، ويلتمسون للحاكم شرعية ، ما دام يظهر إسلامه .

وجاء بعدهم من وضع يده بيد الحكام ، إلى اخر الشوط ، وكان منهم من كانت له القدرة على الوقوف بوجه الحاكم ، يقول له ما يخدم الدين والدولة ، فمات من مات ليعيش فكره ، وبرز من برز من (وعاظ السلاطين) ، ليعيش ويموت فكره ...

إن شريعة الإسلام لم تكن شريعة دينية ، تنظم العلاقات بين الإنسان وربه فحسب ، بل هي أيضاً شريعة دنيوية تنظم العلاقة بين أفراد المجتمع ... في العصر العباسي وطيلة قرونه الخمسة وتزيد ، مضى أغلب المفكرين على ما مضى عليه علماء أصول الفقه في العصر الأموي إلا ما استلزمته أمور الحياة ، وبما شغل الدولة نفسها من مؤامرات وفتن ، حتى سلموا بغداد أخيراً إلى هولاء ، وهو بدوي ، قد لا يتقيد بدين ، وهو في غفلة عن الثقافة وأمور الفكر ، لا يهمله إلا المحافظة على ملكه الذي أخذه بحد السيف ...

فلم يكن وقت المغول ليتبع للمراقبة والضبط ، كما كان الحكام في الدولة العباسية ، وهذا ما ميز علم أصول الفقه في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وبالتالي مكن علماء ذلك الزمان ، بالتدقيق أكثر فأكثر في كتب علم الأصول الأخرى ، غير (العبادات) مثل (كتاب المعاملات) ، (وكتاب الفقه السياسي) ، فكانوا يكتبون في هذه التفاصيل بصيغ جديدة ...

السلف الصالح (رضي الله عنهم) ومنذ وقت مبكر وضعوا قواعد تفصيلية لعملية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، وكانت هذه القواعد في باين رئيسين .

الباب الأول : سموه (العبادات) ، وهو يتضمن جملة من الكتب منها كتاب الطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من كتب العبادات .

وكان الباب الثاني في (المعاملات) وهو أيضاً يضم جملة من الكتب ، منها كتاب التجارة والزراعة والمساقاة ، والصلح والنكاح والطلاق ، والأطعمة والأشربة ، والإرث والحدود والتعزيرات ونحوها من كتب المعاملات التي تنظم العلاقة الاجتماعية بين الناس .

وهناك فرع آخر قد يلحقه البعض في باب (المعاملات) سموه (علم الفقه السياسي) يضم كتباً منها : الخلافة ، الإمامة ، الإمارة ، الوزارة ، القضاء ، ونحو ذلك من كتب تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

هذه الأبواب مجتمعة قرر الإمام الشافعي : أنها تقع تحت مظلة (علم أصول الفقه) والقائم بواجبات هذا العلم سماه (علم أصول الفقه) أو (الأصول) ، وهو كل شخص له القدرة على معرفة العناصر المشتركة في عملية استنباط الحكم الشرعي دينياً كان أم دنيوياً .

وهذا لا يعني أن العناصر المشتركة لاستنباط الأحكام الشرعية هي واحدة في مضامينها ومحتوياتها وطبائعها وظروفها ، شأنها شأن أخواتها عبر الزمن ، بل هي تختلف باختلاف الزمان والمكان . وتلك هي طبيعة الأشياء وسنة الحياة .

وعليه فإن المشرع المفكر عالم الأصول يحتاج الى استخدام منهجيات زمانه وأدوات معرفية حية جاهزة بين متناول يديه ، وآلية قائمة قريبة منه ، قادر على استخدامها في إصلاح مناهجه ومسك خيوط عناصر عمليته . فهل تمكن عالم الأصول في عمله ؟ .

وهل قدر له أن ينجح بمهامه والقيام بواجبه ؟ .

مسألة بها حاجة إلى تدقيق ليس هنا موضع استقصائها ، نعم نقرأ عبر الزمن فتاوي في قضايا سياسية مازال صداها مدوياً ، لأنها صدرت في حينه بمباركة من السلطان .

إن دفع الأزمات والنوازل الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مازالت تهدد الأمة هدأً ، لا يتصدى لها إلا عالم الأصول الحر ، الفقيه المجتهد ، البعيد النظر ، قوي الاستدلال ، نزيه الارتباط ، له قدرة على التحقيق والتدقيق ، والتعمق في مشاكل الأمة بالفكر الأصيل ، الذي يمكنه من تعييد القواعد الكلية ، وتأسيس الأصول التشريعية للدين والدولة باعتبارهما وحدة لا انفصام لها . وهذا يستلزم أن يعطي لعالم أصول الفقه وأمثاله من أصحاب الفكر النير الحصانة لتلمس مواقع الخلل ومشاكل العصر . . .

فلم يعد من المجدي البحث عن الفرقة الناجية ، فرق الإسلام كلها ناجية بأذن الله ، فهي تتطهر باستمرار بنور القرآن ، ولأن سيوف الأعداء لم تفرق بينها ، فقتلت الجميع عندما أردت .

علم الأصول ومناهجه وأدلته في استنباط الأحكام، والتنظير المنهجي الشامل في مفاهيمه وحديثاته، لا ينبغي أن يستمر بالصيغة التي ذكرنا ، بل لابد أن يغدو اليوم هذا العلم ورواده ، الشغل الشاغل لحركات الإصلاح والتجديد المعاصرين ، وذلك قصد الصدور عن رأي سديد ، في توجيه ما تزخر به حياتنا اليومية من مستجدات ونوازل ومنغصات، هذا غير النهب الاقتصادي والفوضى الاجتماعية ، والتسيب السياسي ، والعبث الفكري، وليس دواء لهذا الداء إلا علماء الأصول ، المشرعون ، الذين مكنتهم الشريعة السمحة بما لديهم من أدلة استنباط أصلية وفرعية دلتهم عليها أصول الإسلام (القرآن والسنة)، من أجل إيجاد الحلول الشافية النافعة التي تعيد للأمة صحتها وعافيتها .

المبحث الثاني

المحقق الحلي

٦٠٢هـ/١٢٠٥م - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م

ومن وجوه علماء أصول الفقه في القرن السابع الهجري ، الشيخ نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد^(١) الهذلي^(٢) من مراجع الأمة العظام ومن رجال الفكر الفلسفي الكبار في القرن السابع الهجري ، قوي الحجة ، حاضر الذهن ، حاد الذكاء^(٣)، له تصانيف حسنة محققة مقروءة ، محررة عذبة^(٤) مازال أثرها خالداً منذ عصر مؤلفها والعصور التي جاءت بعده^(٥) ، عميقة الاثر،

(١) ابن داود ، تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلي (ولد ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ، كتاب الرجال ، طهران ١٩٦٣ ، ص ٨٣ ، وكان من تلاميذ الشيخ المحقق الحلي .
(٢) العاملي ، محمد بن الحسن العاملي (١٠٩٧هـ/١٦٨٦م) ، أمل الأمل في علماء جبل عامل ، طهران ١٩٠٢ ، ج ٢ ص ٤٨-٥٢ ، المامقاني ، الشيخ عبد الله ، تنقيح المقال في احوال الرجال ، المطبعة المرتضوية ، النجف ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ، ج ١ ص ٢١٤-٢١٥
(٣) البحراني ، الشيخ يوسف بن أحمد ، (ت ١١٨٦هـ/١٧٧٢م) ، لؤلؤة البحرين في اجازات وتراجم الرجال ، نشره محمد صادق بحر العلوم ، مطبعة النعمان ، النجف بلا تاريخ ص ٢٢٧ ، العاملي ، أمل الأمل ، ج ٢ ص ٤٩ ، وأجوبة المحقق بخصوص استحباب تياسر المصلي نقلها عديدين .

(٤) ابن داود ، الرجال ، ص ٨٣ ، البحراني ، لؤلؤة البحرين ، ص ٢٢٧-٢٢٩ .
(٥) نذكر على سبيل المثال كتاب المحقق الحلي (المختصر النافع في الفقه) فهو مقرر في الجامع الأزهر بمصر منذ خمسينات القرن الماضي .

نالت الكثير من الشروح المطولات منها والمختصرات^(١)، كتاب (شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام) وغيره يدرس في المحافل والمساجد والمدارس والحوزات ، كمصادر أولية في مواضيعها ، لا يستغني عنها الشيخ الأستاذ ولا الطالب المتقدم ولا التلميذ المبتدئ ، كل يقرأها على وفق منهج مقرر ومراحل معروفة . المحقق الحلي كان استاذاً قديراً ومجتهداً طور مفاهيم الاجتهاد وقعد لها قواعد ، فهو (رجل عظيم الشأن ، جليل القدر ، رفيع المنزلة)^(٢) ، موسوعي الثقافة مثله مثل كبار العلماء في زمانه ، وحاله في الفضل والعلم والنقّة ، والتحقيق والتدقيق يعرفها من درسه .

هذه الشخصية المخلصة لدينها ، وعلوم عصرها ، وخدمه امتهامها لم تحظ من الباحثين المحدثين بعناية تتناسب ومنزلة هذا المفكر الكبير ، ولم نلاحظ من درس آراءه بتوسع وشمول ، ولم نجد من طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا ، من كتب في آراء المحقق الحلي الكلامية ، ولم يتفرغ نشاط من هذا الوسط بتجميع وتنسيق فكره العقلي وفلسفته العربية الإسلامية ، فهذا الرجل العالم ولا شك من المفكرين الذين يستحقون مثل هذه الدراسات .

نتمنى ان يتصدى الأفاضل من طلابنا لدراسة هذا المفكر في جوانبه العلمية العديدة وعلى الخصوص منها أفكاره الكلامية وطروحاته الفلسفية وقواعده المنطقية ، فالباحث في هذه الفنون يطلع على كنز عظيم ، وعلى أفكار جديدة لمرجع أنفق حياته في الاشتغال والبحث ، بعد تبسيط صورته وعرض أفكاره للناس ، سداً للنقص الكبير الذي نجده في مكتبتنا العربية .

(١) فصل الشيخ محسن، مؤلفات المحقق الحلي في كتابه الذريعة الى تصانيف الشيعة، مجلدات

الحرث ش-وم-ون

(٢) (العالمي ، أمل الأمل ، ج ٢ ص ٥٠ .

من رجال التفكير وأئمة الوحدة

حقاً كان المحقق الحلي رجل تقريب بين المدارس الفقهية الإسلامية من أجل وحدة الأمة ، ورفض الخلاف المفتعل بين أبنائها ، فهو والحالة هذه لم يقصر كتاباته على أفكار أهل مدرسته وما يكتبون وإنما اطلع على ما عند المدارس الفكرية الأخرى من جديد نافع ، فيناقشه مناقشة الخبير المطلع باحترام يليق برجال الأمة ، يناقش الرأي المخالف بهدوء وعلمية ، من أجل نشدان الحقيقة وإن اختلفت الأساليب ، وكذا من أجل الوصول إلى الأتم من الآراء في غير تحامل ولا تعسف .

ولذا كان في بحوثه كلها يتسم بالتحقيق وبعد النظر ، بعيداً عن النقل المجرد أو التجميع العشوائي ، لا يقنع بالنظر اليسير ، أو يقول برأي ثم يتصدى له بما يسنده ، بل كان موسوعه علميه ، يطرح الفكرة التي يريد دراستها من وجوه عدة ، ينسب كل أمر لصاحبه ولا يفرط بأفكار العلماء . يذكر أسانيدهم ومراجعهم بكل أمانة غير متعصب وغير متحيز كأبي مؤمن صادق^(١) .

(كيف يرضى المؤمن الصادق الصلة بالله ، أن تخلق الأسباب اختلاقاً لإفساد ما بين الإخوة ، وإقامة علاقتهم على اصطيات الشبه وتجسيم التوافه وإطلاق الدعايات الماكرة ، والتغريير بالسذج والهمل . وهب ذلك يقع فيه امرؤ تعوزه التجربة ، وتنقصه الخبرة ، فكيف تقع فيه أمة ذاقت الويلات من شؤم

(١) القمي : محمد تقي ، مقدمة الطبعة الأولى لكتاب (المختصر النافع) القاهرة ،

١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م ، ص ١٢-١٤ .

الخلاف ، ولم يجد عدوها ثغرة للنفاذ إلى صميمها إلا من هذا الخلل المصطنع عن خطأ أو من تهور^(١) .

هذا هو بعينه فكر المحقق الحلبي وعليه نشأ ، وليس يغض من قيمة هذا الفكر إن وجدنا فيه خلافاً الى جانب العديد من نقاط الوفاق وعلى هذا فإن الخلاف أو الوفاق في هذه المسألة ، كل له دلالاته : (أما الوفاق فيدل على أن الأصول تتحكم ولا يهملها احد ، وأما الخلاف فيدل على أن مجال النظر فيما يصح فيه الاجتهاد يحترم ويقدر)^(٢) .

ومن هذه الزاوية بالذات وجدت لجنة دار التقريب في الجامع الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف المصرية ، ومنذ الخمسينات من القرن الماضي ، القيام بعمل إيجابي يكون حاسماً يسد هذه الفجوة في وحدة الأمة التي صنعتها عوامل ما كانت بصالح الأمة وشريعتها (صنعتها الأوهام)^(٣) وخلقتها الأهواء ، فقررت وزارة الأوقاف المصرية وبشجاعة ملحوظة .

"ضم المذهب الفقهي للشيعية الإمامية إلى فقه المذاهب الأربعة المدروسة في مصر"^(٤) ، وتنفيذاً لهذا القرار الشجاع المسؤول الذي اتخذه سماحة الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصرية الأسبق ، خول بموجبه إدارة الثقافة في وزارته ، واللجنة الثقافية في دار التقريب في الأزهر الشريف لتقديم أبواب العبادات والمعاملات من هذا الفقه الاسلامي الى جمهور المسلمين ، ليس في مصر وحسب ، بل وإلى عموم مسلمي العالم .

(١) الباقوري، الشيخ أحمد حسن ، من كلمة صدر بها الطبعة الأولى من كتاب (المختصر النافع) ص ٥-٧

(٢) القمي/ محمد نقى ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٣) الباقوري ، الشيخ أحمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) الباقوري ، الشيخ أحمد حسن ، مقدمة كتاب (المختصر النافع) ، ص ٦ .

وقد ثمن الشيخ الباقرى هذا العمل ذلك الوقت بقوله: (ليس أحب إلى نفسه من أن يكون هذا العمل فاتحة موقفة لتصفية شاملة تنقي تراثنا الثقافى والتاريخى من إدران علقت به وليست منه)^(١).

وكان الشيخ الباقرى رحمه الله تعالى قد وجد فى قضية السنة والشيعة ، قضية إيمان وعلم معاً (فإذا رأينا أن نحل مشكلاتها على ضوء من صدق الإيمان وسعة العلم فلن تستعصى علينا عقدة ، ولن يقف أمامنا عائق)^(٢).

وانطلاقاً من تلك المفاهيم الصادقة ، والعلاج الناجع لوحدة الأمة ، وجدت اللجنة المكلفة بهذا العمل الكبير أن المحقق الحلى هو رجل التقريب المعروف وإمام وحدة المسلمين الصادق ، فقد اختارت كتابه (المختصر النافع فى فقه الامامية) ليمثل فقه العبادات والمعاملات عند الشيعة الامامية ، وهو من المتون المختصرة ، ولكنه على أيجازه يعطى صورة واضحة لمدرسة فقهية ظلت حية مستمرة تعطى ثمارها كل حين .

هذا وقد قامت لجنة عليا ضمت سماحة الشيخ محمد تقى القمى السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب ، وفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى ، وفضيلة الشيخ عبد الجواد البناء ، وفضيلة الشيخ محمد الغزالى وغيرهم ، بالإشراف على إخراج هذا الكتاب وطبعه بعد تحقيق نصه ومقابلته^(٣) .

العلوم التى كتب بها:

المحقق الحلى قارئ نهم ، عشق الكتاب منذ صغره ، وهبته الله تعالى حافظة قوية ، وذاكرة عجيبة ، وصحة ذهن فريدة ، عززتها القدرة على المحاجة ، وقوة العبارة المسكتة ، والتمكن من الأدلة ، وإحضار البراهين ساعة

(١) الباقرى ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٢) الباقرى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٣) القمى ، الشيخ محمد تقى ، مقدمة كتاب (المختصر النافع) ص ٢٤-٢٥ .

يريد... ولذا كتب في علوم زمانه باقتدار عال ، ولا يرد سائله في أي من مسائل الحياة ، وله بهذا الفن كتب ، سماها (المسائل الغرية وقيل المسائل الغرية)^(١)، والمسألة المصرية^(٢)، والمسألة البغدادية^(٣).

بحسب قدرتنا المتواضعة في الاستقصاء والتقصي ، وفي سنة حرق المكتبات عمداً وبلا ذمة ، وجدنا للمحقق الحلي أربعة عشر كتاباً ، قد ثبت انتسابها إليه ، تناولت في مضامينها علوم ذلك الزمان ، من فقه وأصول فقه وعلم كلام ومنطق، ذكر منها تلميذه ابن داود احد عشر كتاباً فقط ، واعتذر قائلاً (وليس هذا موضع استقصائها)^(٤)، ونحن بدورنا نكرر اعتذار ابن داود ، بعد الذي جرى لمكتباتنا العامة والخاصة في نيسان/٢٠٠٢

علم الفقه:المحقق الحلي شيخ الفقهاء ، كما هو شيخ الأصوليين ، من أوائل المراجع الدينية في الحلة ، فقيه يتميز في تقعيد القواعد للفقه الإمامي ، بعد أن أحجم الكثير من العلماء عن الفتوى ، وممارسة الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية والاجتهاد على وفق ما نعرف في الفقه الإمامي .

استنباط الأحكام الشرعية هو الملون لأفكارهم والمستودع الذي فيه الجديد من فتاويهم، ومع هذا فقد توقف العلماء ، لا ينصرفون عن اجتهادات الشيخ ابي جعفر محمد الطوسي (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) .

(١) ذكرها ابن داود (المسائل الغرية) ص ٨٣ ، وذكرها الشيخ الطهراني (المسائل الغرية) مرة (والمسائل الغرية) اخرى ، الذريعة ، ج ١٥ ص ٢٦٢ ، ج ٢٠ ص ٣٥٧ .

(٢) ذكرها ابن داود في رجاله ، ص ٨٣ .

(٣) لم يذكره ابن داود في رجاله ، وهي أجوبة لمسائل سألها يونس الشامي لأستاذه المحقق ، فأجاب عنها ، وجد الشيخ الطهراني نسخة منها في الخزانة الرضوية ، مع رسالتي (المسائل الغرية) والمسائل المصرية في مجلد واحد ، ج ٢٠ ص ٣٣٤ .

(٤) ابن داود ، الرجال ، ص ٨٣ .

على مدى أكثر من قرن من الزمان جمد الفكر الإمامي ، ولم يجرء احد على الاجتهاد ، حتى كانت ثورة الشيخ محمد بن أحمد بن إدريس العجلي (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م)^(١) ، فأعاد هذا الشيخ إلى فكر الإمامية ومدرستهم الفقهية ضارتها وديناميتها، وأرسى القواعد على خطا الشيخ الطوسي ، ويستمر في طريق جده ، حتى سلم الراية بعد حين الى المحقق الحلي ليستكمل تعبيد طريقها . فكان المحقق الحلي من المعدودين المشهود لهم بالتقدم والسبق في علم الفقه في زمانهم وفيما بعد زمانه ، وكتبه الفقهية التي فصلناها أدناه مصداق على ما نقول .

- ١- كتاب شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام : هو مصدر في فقه الإمامية ، مازال حتى اليوم من أهم مناهج الدرس في الحوزات الدينية ، والمؤسسات العلمية^(٢) .
- ٢- المعتبر في الفقه : كتاب مشهور مكتنز في المباحث الفقهية والأصولية ، مطبوع عدة طبعات .
- ٣- المختصر النافع : كتاب مشحون حتى العنق بالنظريات والفتاوي الخالدة ، يعتمد عليه في فقه العبادات والمعاملات ، يدرس في الحوزات العلمية والمؤسسات التعليمية ومنها الأزهر الشريف .
- ٤- نكت النهاية : وهو تعليقات على حواشي كتاب أبي جعفر محمد الطوسي (النهاية في الفقه) ، له عدة مخطوطات^(٣) .

(١) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٦٥٢ .

(٢) الطهراني ، الذريعة الى تصانيف السنة ، ج ٢١ ، ص ١٨٩ ، ١٦٨ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٠٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٢١ ، ص ٢٠٩ ، البغدادي ، اسماعيل ، الذيل على كشف الظنون ، ج ٤ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

٥- مختصر المراسيم : مختصر في الفقه لم يطبع على حد علمنا ، له عدة مخطوطات^١

٦- المسائل الغرية^٢ .

٧- المسائل المصرية .

٨- المسائل البغدادية ، جميعها مطبوع ضمن كتب وحواشي لعلماء كبار^٣ .

٩- رسالة في القبلة : مطبوعة عدة مرات ضمن كتب عديدة مع شروحيها^٤ .

علم الاصول : نال الشيخ نجم الدين جعفر الحلي ، الأصولي المحقق ، ومستتبط للأحكام مدقق ، وشهرة واسعة في هذا الفن ، وحظي كتاباه (معارج الاصول)^٥ و (نهج الاصول) ومقدمة كتابه (المعتبر في شرح المختصر) ، منذ حياة المحقق وحتى اليوم بعناية كبيرة ، واهتمام بالغ ، وتناول هذه المصنفات الأساتذة بالتدريس والمتابعة ، والطلبة بالدرس والمتابعة ، والباحثون بالشرح والتعليق ، والمتخصصون بالنقد والتجريح ، وقراءة واحدة لكتاب الشيخ الطهراني (الذريعة) يجد هذا الامر هناك مبسوطاً ، وقد أحصى هذا الشيخ تلك المصنفات وتابع مخطوطاتها بصبر جميل ، ودقة ملحوظة^٦ .

اسس المحقق الحلي لكثير من القواعد الأصولية ، ليس هنا موضع استقصائها ، ومن جميل طروحاته في مفهوم الاجتهاد وأصوله ، وجد المحقق

(١) المرجع السابق ج ٢٠ ، ص ٢١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١٥ ، ص ٢٦٢ ، ج ٢٠ ، ص ٣٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٢٤ ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢٤ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٥) مطبوع في طهران عام ١٣١٠ ، في عشرة أبواب ، أوله (احمد الله على سابغ نعمته ، وسائغ عطيته

(٦) الطهراني ، الذريعة... ج ٢٠ ، ص ٢٣ ، ج ٢٤ ، ص ٤٢٦-٤٢٧ .

الحلي أن الحاجة إلى الاجتهاد كانت حاجة تاريخية ، استلزمها ابتعاد الأمة عن عصر التشريع الإلهي ، وانفصالها عن عصر النص الشرعي ، الذي وجده المحقق يبدأ منذ المبعث الشريف مروراً بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وتنتهي بالغيبة الكبرى للإمام المهدي (عجل الله فرجه) حوالي (٣٢٩هـ / ٩٤٠م)^(١) ، والدليل على ذلك كما وجده المحقق الحلي قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إني تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي)^(٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت من الباب)^(٣) .

وهذا لا يعني أن الصحابة ومن كان حول الأئمة (عليهم السلام) / كانوا يجتهدون في بعض أمور احكام شريعتهم ، ولا يترددون في مكاتبة الأئمة في زمانهم إن اشكل عليهم الأمر ، وعلى هذا فإن باب الاجتهاد (كان في زمن النبي مفتوحاً ، بل كان امراً ضرورياً عند من يتدبر)^(٤) .

والمحقق الحلي ، أجاز تعبد الرسول الكريم بالاجتهاد فيما لم يكن لديه فيه شيء ولكنه ذهب إلى عدم وقوعه منه ، وعلى تقدير وقوعه ، فإن المحقق الحلي لا يجوز الخطأ عليه ، لأنه معصوم عن الخطأ عمداً ونسبائاً ، وهنا يسأل المحقق فيقول (هل يجوز أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) متعبداً باستخراج الأحكام الشرعية بالطرق النظرية الشرعية عدا القياس ؟) فيجيب عن هذا (لا نمنع من جوازه ، وإن كنا لا نعلم وقوعه ، وعلى هذا التقدير فهو يجوز أن

(١) المحقق الحلي ، المعتبر في شرح المختصر ، إيران ١٣١٨ ، ص ٦-٤٥ .

(٢) الكليني ، محمد بن يعقوب ، (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) ، الأصول من الكافي ، طهران ١٩٦١

، ج ١ ص ٧٢ ،

(٣) الكليني ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤١ .

(٤) كاشف الغطاء ، الشيخ محمد حسين ، أصل الشيعة وأصولها ، النجف ، ١٩٦٥ ، ص ٧٤

يخطئ في اجتهاده ؟ الحق أنه لا يجوز^(١)، لقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى)^(٢).

علم المنطق: للمحقق الحلي كتاب واحد في علم المنطق ، اختلفت المظان في اسمه ، ذكره ابن داود في كتابه الرجال (كتاب الكهنة في المنطق مجلد واحد)^(٣). غير أن نسخة مصححة من كتاب ابن داود (الرجال ، كان يملكها الشيخ محمد السماوي اسماء (اللهنة في المنطق) ، وفسروا معنى (الكهنة) من الكهانة أي الصناعة ، (واللهنة) بمعنى (ما يفك به الرقيق أو الرقيق)^(٤).

وذكر الشيخ الطهراني أن الشيخ الكنتوري ذكره في كتابه (كشف الحجب)، (كنز المنطق)^(٥)، ولم يعثر على أي من مخطوطات هذا الكتاب حتى اليوم على وفق ما وصلنا.

علم الكلام: والمعروف أن للمحقق الحلي في علم الكلام ، كتاباً ورسالة . الكتاب ذكره ابن داود باسم (المسلك في أصول الدين) أوله (الحمد لله على ما أباح من النعم ، أتاح من القسم) في مكتبة سماحة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي بقم. نسخة منه، اخر الموجود فيها (قال: صلى الله عليه وآله) يا علي أنت و الأئمة من بعدي^(٦). أما بخصوص الرسالة في علم الكلام ، فتوجد

(١) المحقق الحلي ، معارج الأصول ، طهران ١٣١٠ ، ص ١١٧ .

(٢) البقرة ، آية ١١٤ .

(٣) ابن داود ، الرجال ، ص ٨٣ ، المامقاني ، الشيخ عبد الله ، تنقيح المقال ، ج ١ ص ٢١٥

(٤) الطهراني ، الذريعة ، ج ٢١ ، ص ١٦٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج ٢١ ، ص ١٦٨-١٦٩ .

(٦) الطهراني ، المرجع السابق ، ج ٢١ ص ١٦٨ .

منها نسخة واحدة في مكتبة راجه الفيض آبادي ، بالهند ، قرأ الشيخ الطهراني ذلك في الفهرس العام لهذه المكتبة^(١) .

وقد اعلنا استاذنا العلامة الدكتور حسين علي محفوظ ، ان هذه المكتبة قد أغلقت أبوابها وذهب ما فيها دون أن يعرف أحد بمصيرها^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ج ٢١ ص ١٦٩ .

(٢) من إملاءات المحفوظ صباح يوم ٢٠٠٣/١١/٢ .

المبحث الثالث

الشيخ كمال الدين ميثم البحراني

(٦٣٦-٦٩٦هـ/١٢٣٨-١٢٩٦م)

الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني^(١)، من العلماء الفضلاء المدققين^(٢)، كان فيلسوفاً مشهوراً ، ومتكلماً ماهراً ، إلى جانب إحاطته بالعلوم الشرعية والعلوم الحقيقية، والاسرار العرفانية، وذوق صوفي متميز، تمكن ان يجمع في نفسه وبمهارة (العلوم الحكيمة ، والفنون العقلية)^(٣)، في الوقت الذي نسبت له (كرامات باهرة ومآثر زاهرة)^(٤)، فسماه اهل زمانه (العالم الرباني)^(٥).

(١) التستري ، نور الله (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م) ، مجالس المؤمنين ، إيران /١٣٧٥هـ ، ج ١ ص ٢٣٧ ، البحراني ، يوسف بن أحمد (ت ١١٨٦هـ/١٧٧٢م) ، لؤلؤة البحرين في إجازات وتراجم الرجال ، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم ، مطبعة النعمان ، النجف بلا تاريخ ، ص ١٤٣-١٤٨ ، الشيباني ، د. كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٠١-١١٠ ، العرفان ، فاضل ، مقدمة كتاب نهاية المرام ، ص ٦٤ .

(٢) الخوانساري ، محمد باقر ، (ت ١٣١٣هـ/١٨٩٥م) ، روضات الجنات ، في أحوال العلماء والسادات ، ط ٢ ، طهران ١٣٦٧ ، ص ٦٥٢ ، مدرسي ، محمد تقی ، نصير الدين الطوسي ، تعريب علي ألا سدي ، إيران ١٤١٩هـ ، ص ١٥٠-١٥١ .

(٣) البحراني ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ، الخوانساري ، المصدر السابق ٦٥٢ .

(٤) التستري ، المصدر السابق ، ج ٢٣٧ ، الخوانساري ، المصدر السابق ، ص ٦٥٢-٦٥٣ .

(٥) الخوانساري ، المصدر السابق ، ص ٦٥٢ ، والعالم الرباني على رأي ميثم البحراني ، (هو العالم بعلم وهو العارف بالله تعالى) ، ميثم البحراني ، شرح نهج البلاغة ، طهران ١٢٧٦ ، ص ٨٧ .

البحراني حكيم موسوعي ، كان بارعاً في علوم عصره ، أفاد منه صدر الدين محمد الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م) ، في حاشيته " شرح التجريد " ، وبخاصة في مبحث الجواهر و الأعراض ، وقد ذكر ذلك (في المعراج السماوي) ، وفي غيره من مصنفاته^(١) .

(و صدر المتألهين هذا) - كما يسميه المتخصصون - الذي اتخذ من افكار البحراني قواعد ومنطلقات ، فيلسوف مجدد ، قعد القواعد للنزوع الفكري الديني ، في ضوء صورة جديدة صدرت عن روح متفلسفة باحثة^(٢) ، - على راس القرن الحادي عشر الهجري - ، وهذا يعني أن أفكار الشيخ ميثم البحراني استمرت من بعده ، وأخذت طريقها للتطور والخلود .

وعلى وفق ذلك يعد الشيخ كمال الدين ميثم البحراني ، أنموذجاً لمتكلمي القرن السابع الهجري ، ذات الصدور الفلسفي والبعد العقلي ، وهي من أبرز صفات ذلك القرن .

ويشهد على ذلك ما ينقله الخوانساري في كتابه (روضات الجنات)^(٣) عن الشيخ سليمان بن عبد الله البحراني ، في رسالته المسماة (السلاقة البهية في الترجمة الميثمية)^(٤) قوله : (هو العلامة الفيلسوف المحقق ، والحكيم المدقق ،

(١) التستري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧ ، الخوانساري ، المصدر السابق ، ص ٦٥٣ ، مدرس ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) تلميذ محمد باقر الداماد (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) ، صاحب كتاب (الأسفار الأربعة) ، الشيباني ، الفكر الشيعي ، ص ٤١٨ .

(٣) روضات الجنات ، ص ٦٥٢ .

(٤) توهّم السيد محمد نقّي مدرسي ، عندما نسب هذه الرسالة للمتكلم والصوفي الجليل الشيخ جمال الدين علي بن سليمان البحراني (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨) ، وذلك في كتابه عن نصير الدين الطوسي ، ص ١٥٠ ، بل هو أستاذ الشيخ ميثم البحراني وشيخه ، كان وحيد عصره ، وفريد دهره في العلوم العقلية والفلسفية ، صنف كتاب (الإشارات) في الكلام ، وشرحها تلميذ الشيخ ميثم بن علي البحراني ، السيد حسن الصدر : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، ص ٣٩٥ .

مبرز المتكلمين ، وزبدة الفقهاء والمحدثين ، العالم الرباني ، كمال الدين ميثم البحراني ، غواص بحر المعارف ، مقتنص شوارذ الحقائق^(١) .

افكار جديدة للتقريب والوحدة:

رفع الكثير من المفكرين المسلمين الشيعة الأمامية شعار التسامح والاعتدال منذ وقت مبكر ، يرجع إلى الشريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) وأخيه الشريف الرضي اللذين كانا مشهودا لهما بالاعتدال الشديد والتسامح في الفكر ومد الجسور إلي مدارس الفكر الإسلامية الأخرى ، من أجل التقريب ووحدة المسلمين ، ثم كانت الفكرة واضحة في فكر أبي جعفر محمد الطوسي ، وصارت راية عالية على يد المحقق الحلي عضدها ونماها الشيخ كمال الدين ميثم البحراني ، الذي وجده الدكتور كامل مصطفى الشبيبي من رجال القرن السابع الهجري المعتدلين في أفكارهم ، بما لا يتجنب به الخوض في الخلافات ، حتى أنه في تعرضه للخطبة الشفشفقية التي نسب فيها للإمام علي (عليه السلام) أقوال بحق البعض من الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) فحاول ميثم البحراني (أن يجعل الأمر شيئاً هيناً جداً)^(٢) ، مؤكداً إن الصحبة عند الجميع كرامة من كرامات ذلك العصر ، تزيد الصحابي شأناً ورفعة وبهاء وقدسية ، الصحابة ولا شك حفظوا حرمة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، ورعوا حق صحبته وهذا بطبيعة الحال مشروط بالتزام الصحابي (رضي الله عنه) بحرفية القرآن وتطبيق تعاليمه ، والصحابة اعرف الناس بهذا الواجب ، كونهم - وقتذاك - مغمورين بنور الصحبة .

(١) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٦٥٢ .

(٢) الشبيبي ، الفكر الشيعي ، ص ١٠٤ .

ولذا فإن تكفير الصحابة ، بل عامة المسلمين على اختلاف طوائفهم ليس من رأي مفكر عالم في المدرسة الشيعية الإمامية .

حاول الشيخ ميثم البحراني في كتابه (شرح نهج البلاغة) أن يفلسف أهم مبدأ من مبادئ (المدرسة الجعفرية) ، وهما مبدأ (الولاء) ومبدأ (البراء) ، أي بمعنى الولاء للإمام علي وبنيه (عليهم السلام) والبراءة من أعداء الإمام علي وبنيه (عليهم السلام) ويخرج بهما - وهو الصوفي المتسامح - من عوالم الضيق والدائرة المغلقة إلى عالم فسيح من الأخوة والتقريب والوحدة والتسامح ونبذ الخلاف . فوجد البحراني أن (المراد به أن يبرأ الإنسان من حوله وقوته ، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية)^(١) ، فيرى البحراني كيف يستطيع المفكر المتبصر إن شاء ، أن يتجنب ما ليس فيه ما ينفع ، دال (على أن السب وغيره من الشؤون الجانبية إنما يسعى إليها الشيعي في ظروف خاصة تملئها السياسة ومقتضياتها حين تعز السلامة وينفجر رجل الغضب)^(٢) ، وتلك أمور من الوجدان الإنساني يمكن إصلاحها ، وتقليل أذاها .

والشيخ محمد حسن الباقوري ، وزير الأوقاف المصري السابق وجد الحل لهذه المعضلة بقوله : (قضية السنة والشيعية ، هي في نظري قضية إيمان وعلم حقا فإذا رأينا أن نحل مشكلاتها على ضوء من صدق الإيمان وسعة العلم ، فلن تستعصي علينا عقدة ، ولن يقف أمامنا عائق .

أما إذا تركنا - للمعرفة القاصرة واليقين الواهي - أمر النظر في هذه القضية والبت في مصيرها ، فلن يقع إلا الشر .

وهذا الشر الواقع إذا جاز له ان ينتمي إلى نسب ، أو يعتمد على سبب ، فليبحث عن كل نسب في الدنيا ، وعن كل سبب في الحياة ، إلا نسباً إلى الإيمان

(١) البحراني ، الشيخ ميثم بن علي ، شرح نهج البلاغة ، ص ٨٣ .

(٢) الشيباني ، الفكر الشيعي ، ص ١٠٧ .

الصحيح أو سببا إلى المعرفة المنزهة^(١) ، إذن فمسألة التقريب والوحدة ، مسألة قائمة منذ صارت وحتى اليوم ، لا بد من النظر في شعابها والتقليل من سلبياتها .

بين الشيخ ميثم البحراني وابن أبي الحديد :

كتاب شرح نهج البلاغة للشيخ ميثم البحراني ، بصيغه الثلاث ، الكبير ، المتوسط ، والصغير^(٢) ، يتميز عن الشروح السابقة عليه ، وعلى الخصوص منها شرح ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) في كونه مشحوناً حتى العنق بالمباحث الكلامية والحكمية والعرفانية^(٣) ، بصيغ تبدو وكأنها حالة متماثلة ، ومطلب واحد يكمل بعضه بعضاً ، يمضي في طريق واسع ، واضح المعالم ، موحد الهدف ، وهو على العموم ما تتميز به الفكر في القرن السابع الهجري . حاول الشيخ البحراني أن لا يطعن في أي من اتباع المدارس الفقهية الإسلامية الأخرى ، ويضع الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) في مكانتهم اللاتقة ، وأن يجعل من شرحه لنهج البلاغة جسراً يعزز تقارب الأفكار ووحدة الأمة^(٤) .

وللمكانة البالغة التي يحتلها شرح الشيخ ميثم البحراني ، تمنى الخوانساري أن يكتب بالنور على الإحداق ، لا بالحبر على الأوراق^(٥) .

(١) مقدمة كتاب (المختصر النافع) ص ٥ .

(٢) الخوانساري ، روضات الجنان ، ص ٦٥٣ ، الطهراني ، الذريعة ، ج ٢٣ ص ١٨٧ .

(٣) في شرح نهج البلاغة ، الذين سبقوا الشيخ البحراني وابن أبي الحديد هم ١- فخر السدين الرازي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) ذكر ذلك تلميذه ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٤) البحراني ، شرح نهج البلاغة ، ص ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٤ .

(٥) الخوانساري ، المصدر السابق ، ص ٦٥٣ .

كان الشيخ ميثم البحراني قد درس عن كُتُب كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ، واقتبس من مقدمته ما ينفعه في شرحه الجديد ، وصاغ الكثير من قواعد التأليف في ضوئه على (طريقة السابق ينفع اللاحق) ، إلا أن الشيخ البحراني وجد ابن أبي الحديد كان قاصراً في شرحه ، لم يلم بالحقيقة^(١) والسبب في ذلك أن ابن أبي الحديد كان آخر المتكلمين من المعتزلة ، إلا أنه لم يفتح أبواب ثقافته على الفلسفة ، كما كان أغلب المفكرين في عصره ، بعد أن لانت وقتها المصطلحات الفلسفية ، وتيسر العمل بالفلسفة وحقائقها ، غير أنه كان على عكس ذلك خصماً لفلاسفة اليونان ، ولم يقف إلى جانب "الفلسفة العربية الإسلامية" التي كانت واضحة المعالم زمانه ، مستقلة إلى حد كبير عن طروحات سقراط وأفلاطون و أرسطو الذين ألهم ابن أبي الحديد ظهورهم بسياطه والقوي من قصائده ، وجعل منهم فراشات تحوم حول النار لتحرق نفسها، (ولو اهتدى رشداً لأبعد)^(٢)، مما يدل على أن الغرض من شرح الشيخ البحراني كان من أجل تغليب ثقافة عصره وإضافة العنصر الفلسفي والكلامي والعرفاني إلى كلام الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام)^(٣) ووصله بثقافة القرن السابع الهجري^(٤).

وتأسيساً على ذلك (أدركنا الغرض الأساس من كتابة ميثم البحراني شرحه الجديد ، بعد مدة يسيرة من ظهور شرح ابن أبي الحديد في ظروف تيسرت فيها الأحوال للخوض في الفلسفة في حرية واطمئنان)^(٥)، في ظل حكام

(١) الشيباني ، د.د. كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ١٠٧ .

(٢) أيضاً ، ص ١٠٦-١٠٨ .

(٣) أيضاً ، ص ١٠٨ .

(٤) البحراني ، شرح نهج البلاغة ، ص ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٤ .

(٥) أيضاً ، ص ١٠٧ .

غير حكام ابن أبي الحديد ، بهرتهم الفلسفة في جانبها التطبيقي ، الذي زوجه لهم صديقهم نصير الدين الطوسي .

كتب الشيخ البحراني

فرغ الشيخ ميثم البحراني من كتابه (شرح نهج البلاغة) ، هو بعدة مجلدات ، عام ٦٧٧هـ / ١٢٧٧م وتقدم به إلى علاء الدين عطا ملك الجويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) صاحب ديوان بغداد ووكيل التتر فيها ، على عادة المؤلفين في ذلك العصر بتقديم مصنفاتهم إلى الحكام .

وفرغ البحراني من شرحه الصغير عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م^(١) وهذا الكتاب مطبوع لأول مرة طبعة حجرية في إيران عام ١٢٧٦هـ / ١٨٧٥م ، ولم يطبع مرة أخرى على حد علمنا القاصر ، وفي مثل ظرفنا الذي أضعنا فيه رصيدنا السابق من خزائن الكتب التي حرقت في نيسان / ٢٠٠٣ وبعده ، فكيف بالطبع الجديد ؟) .

ذكر السيد محمد باقر الخوانساري^(٢) ، أن للشيخ ميثم البحراني كتباً أخرى غير شرح نهج البلاغة بصيغته الثلاث التي ذكرنا ، منها :

- ١- شرح المائة كلمة من كلمات الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) .
- ٢- كتاب (استقصاء النظر ، وهو رسالة في الإمامة ، ذكره حاجي خليفة ونسبه إلى الشيخ البحراني^(٣) .
- ٣- رسالة في العلم .

(١) الطهراني ، الذريعة ، ج ٢٢ ، ص ١٨٧ وموارد أخرى .

(٢) روضات الجنات ، ص ٦٥٢-٦٥٣ .

(٣) ج ٢ ، ص ١٩٩٤ ، وقال سهواً أنه توفي عام ٦٧٩هـ .

٤- كتاب النجاة يوم القيامة .

ولم نطلع على أي من مخطوطات هذه الكتب الأربعة ولم تطبع على حد
اطلاعنا .

٥- كتاب (شرح الإشارات) ، شرح فيه كتاب شيخه جمال الدين علي بن
سليمان البحراني (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) على قواعد الحكماء والمتألهين ، في
معرفة أسرار الوجود ، وفلسفة النبوة والإمامة . توجد نسخة مخطوطة من
هذا الشرح في مكتبة مجلس الشورى الإيراني ضمن مجموعة رقمها
٥١١ (١) .

٦- كتاب (تجريد البلاغة في المعاني والبيان) وسمي أيضاً (أصول البلاغة)
ألفه الشيخ البحراني باسم أبي المظفر منصور بن علاء الدين عطا ملك
الجويني (ق٦٨٩هـ/١٢٩٠م) (٢) كتب المقداد السيوري شرحاً عليه سماه
(تجريد البراعة في شرح تجريد البلاغة) (٣) .

٧- كتاب (قواعد المرام في علم الكلام) : طبع هذا الكتاب أول مرة على
هامش كتاب (منتخب المجالس الحسينية للطريحي) ، وطبع مؤخراً في

(١) مكتبة جامعة طهران ، الفهرس العام ، ج ٣ ، ص ٥٩٩ ، مدرس رضوي ، المرجع السابق
، ص ١٥١ .

(٢) قتله السلطان التتري الوثني أرغون ، كما أمر بقتل أفراد عائلة الجويني كونهم في صف
الإسلام و سأل يوماً ممن تبقى من آل الجويني ، فأخبر عن صغارهم في الكتائب ومن
هم في من الشباب فأمر بقتلهم جميعاً ، و تعقبهم واحداً واحداً ، وفعل ابنه السلطان غازان
بمثل ما فعل أبوه فأمر بقتل آخر أبناء الجويني مظفر الدين علي بن علاء الدين عطا ملك
الجويني ، ودفن إلى جانب والدته أم رابعة الأيوبيه ، الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٩ ،
٥٠٥ ، ٥٣٣ .

(٣) مدرسي رضوي ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

مطبعة مهر في قم بإيران عام ١٣٩٨^(١)، بذلنا ما في الوسع للحصول عليها في زمن الحصار الجائر دون جدوى. من الكتاب نسخة مخطوطة كانت في مكتبة محمد رضى المنشي ، ضاعت كما ضاع أهل المكتبة بكتبهم . ونسخة أخرى من مكتبة المتحف البريطاني باسم (القواعد في الكلام) ، كما ذكرها المستشرق الألماني بروكلمان، ونسخة ثالثة في مكتبة جامعة طهران ، ذكر المؤلف في هذه النسخة من الكتاب (فرغت منه في سنة ٦٧٦)^(٢) ، ونسخة رابعة من هذا الكتاب عند السيد جواد هبة الله الشهرستاني في بيته في الحارثية في بغداد .

(١) فاضل عرفان ، مصادر تحقيق كتاب نهاية المرام للعلامة الحلي م ٣ ص ٥٦٨ .

(٢) الطهراني ، الذريعة ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

المبحث الرابع

الشيخ تقي الدين احمد بن تيمية

(٦٦١هـ/١٢٦٢م - ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)

الحافظ الشيخ تقي الدين ابو العباس احمد^(١) بن شهاب الدين أبي احمد عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم

(١) فصلت القول في سيرة ابن تيمية مصادر كثيرة ومراجع أكثر منها :

- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٦ فما بعد .
- ابن خلدون ، التاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد المصري (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، والذهبي من ابرز تلاميذ ابن تيمية الذين اسهموا في جمع تراث شيخه ، وكتب عنه في اغلب كتبه منها :
تذكرة الحفاظ ج ٤٠ ص ٢٧٥ فما بعد ، سير أعلام النبلاء ، ج ١ ص ٧٥ فما بعد .
- ابن عماد الحنبلي ، (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) ، شذرات الذهب ، ج ٦ ص ١٥ فما بعد .
- ابن شاکر الکتبی ، ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ٤٤ .
- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ وج ٢ ، عدة مواضع .
- إسماعيل البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ١٠٥ .
- ابو زهرة ، محمد ، ابن تيمية حياته وعصره ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- د . محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، مصر بلا تاريخ ، أعلام العرب / ٥ ص ٦٥ فما بعد .
- د . أنور الجندي ، نوابع الفكر الإسلامي ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٧٩ ن ص ٣٠٩ - ٣٥٥ .
- د . سعد خميس الحديثي ، الخطاب السلفي في الفكر العربي الحديث ، رسالة دكتوراه ، جامعة بغداد ١٩٩٧ .
- عباس امير معازر ، نظرية المعرفة عند ابن تيمية ، مجلة الموقف الثقافي ، العدد ٤١ ، السنة السابعة ، بغداد ، ايلول ، ٢٠٠٢ ، ص ٣١ - ٥٢ .

الخضر بن محمد بن علي بن تيمية^(١)، الحرائي^(٢)، الدمشقي^(٣)، ولد في حران في ١٠/ربيع الأول/عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م^(٤) وتوفي في دمشق في ٢٠/ذي القعدة عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، بعد حياة حافلة، صاخبة، مكتظة، قضى زماناً منها وراء القضبان في سجون السلاطين حتى اخرج ميتاً من سجن القلعة في دمشق، وصودرت الكتب التي فيها وهو في السجن^(٥).

ابن تيمية أصولي مجدد، مجتهد تمكن من فتح باب الاجتهاد واسعاً، فقيه حنبلي، محدث، مفسر، متكلم، صوفي، كاتب، فيلسوف عربي مسلم، متعدد المواهب، موسوعي الثقافة، قال ابن دقيق العيد عندما زاره لأول مرة: (رأيت رجلاً سائر العلوم في عينيه، يأخذ ما يشاء منها، ويترك ما يشاء)^(٦).

(١) يذكر ابن شاکر الکتبی فی سبب شهرته (بابن تيمية) أن أم كان جده محمد بن الخضر كانت من الوعاظ تسمى تيمية، فنسب اليها وعرف هو واسرته بها، (فوات الوفيات)، ج ١ ص ٤٤.

(٢) نسبة إلى مدينة حران، وهي مدينة قديمة قصبة دار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة ورومان، قيل هي أول مدينة بنيت بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة الحرائيين، البغدادي، مراصد الاطلاع، ج ١ ص ٣٨٩.

(٣) اضطر والد ابن تيمية الشيخ عبد الحلیم ان يهاجر به وباخوته من حران مسقط رأسه الى دمشق، هرباً من المغول، فلما بلغوا دمشق عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، اقاموا بها، وبدأت مرحلة ابن تيمية في دمشق في عالم الفكر والحياة: ابن شاکر الکتبی، فوات الوفيات، ج ١ ص ٤٤، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٤ ص ٣٧٥.

(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٤ ص ٣٧٦ فما بعد.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤ ص ١٢٦.

(٦) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٦ ص ٨٣.

كان جل همه ان يوثق القيم الاسلامية ويؤكدھا ، على وفق فهمه للأمور وما وجده مناسباً ومطلوباً^(١)، وبجراة ملحوظة مكنته من مناقشة أفكار ما كان لغيره ان يدخل في متاهاتها^(٢).

نظرية المعرفة :

نظرية المعرفة عند ابن تيمية كما وجدها عباس أمير معازر^(٣) عبارة عن التواشج القائم فيما بين المعرفة المكونة والمعرفة المتكونة ، أي التواشج القائم فيما بين المعرفة الالهية - وهي المعرفة التي يمن بها الله تعالى على عباده ممن يصطفى للنبوات ، فيتحقق بموجبها للنبي علمه ويقينه ، وهي معرفة الوحي (القرآن، كتاب الله العزيز والسنة المطهرة، وصاحبها صادق وأمين،) وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى^(٤) ، وهذه هي المعرفة المكونة.

اما المعرفة المتكونة: فهي المعرفة الناتجة عن تفكر وتدبر وتعقل واستنتاج، وتلك هي معرفة غير الأنبياء ، وهذه هي المعرفة المتكونة. وتأسيساً على ذلك فان نظرية المعرفة عند ابن تيمية تتلخص في ايمانه بتلازم الاطراف الثلاثة (الله ، الكون ، الانسان) ، وهذا يعني ان ابن تيمية يضع نفسه ، بوصفه مدركا ، مطالباً بالمعرفة ، ثم يضع الإنسان في موضعه الطبيعي (بوصفه خليفة الله في الارض) ، او بوصفه المتصرف في الأشياء التي هي

(١) د: محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، ص ٩٢-٩٥ ، الحديثي ، د: سعد خميس ، الخطاب السلفي ، ص ٣٨ .

(٢) د: أنور الجندي ، نوابغ الفكر الإسلامي ، ص ٦١١-٦٢٦ .

(٣) نظرية المعرفة عند ابن تيمية ، مجلة الموقف الثقافي ، العدد ٤١ ، بغداد ٢٠٠٢ ص ٣١-٥٥ .

(٤) سورة النجم ، ٥٣ ، آية ٣ و ٤ .

أصلاً متصرف بها (بالتسخير) من قبله جل شأنه ، خدمة للإنسان^(١)، وهذا لا يتم دونما توظيف وسائل المعرفة والادراك ، الا وهي : السمع والبصر والفؤاد ، ومن ثم تصعيد عملهما من كونه انطباعات حية مباشرة الى ادراكات استنتاجية حسية عقلية ، باعتبارها دائرة مغلقة تبدأ به سبحانه وتنتهي عنده تعالى (الله بواسطة الالهام - الفؤاد - السمع والبصر - الكون - الله)^(٢)، وهذا يعني بالضرورة ان السمع والبصر (النقل) هو مرتكز المعرفة وطريقها، أما العقل أي الفؤاد و الحس فهما مقيدان به ، أما الحس فمدخل تلك المعرفة ، ولا بد له من صحة ، وهذه الصحة يوفرها له العقل المرتكز على النقل ، ومصدق ذلك قول ابن تيمية (ان الفساد لم يأت من قبل النصوص فهي حق في معناها ، ولا تحتاج الى تأويل) وانما جاء من يحملها على معانٍ فاسدة ليست بمعانيها المراد بها^(٣)، وعليه ان صريح العقل... يقول ابن تيمية في توضيح لهذه المسألة: (إذا وجدت : ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع ، ... ووجدت أيضاً ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال انه يخالفه: اما حديث موضوع ، او دلالة ضعيفة فلا يصح ان يكون دليلاً ، لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف اذا خالفه صريح المعقول^(٤) .

(١) معازر : عباس جبر ، نظرية المعرفة عند ابن تيمية . ص ٣١-٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣ .

(٣) ابن تيمية ، بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، على هامش منهاج السنة النبوية

ج ١ ، بيروت ص ٨٣ - ٨٤ .

(٤) ابن تيمية ، بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، على هامش منهاج السنة ،

بيروت ، بلات ، ج ١ ص ٨٣ .

و خلاصة الامر : ان العقل و النقل دعامة نظرية المعرفة عند ابن تيمية ،
غايتهما واحدة وسعيهم واحد ، هو الوصول الى ذات الله سبحانه وتعالى .

التفكير بصوت عال

مما يمتاز به الشيخ نقي الدين احمد بن تيمية انه يفكر بصوت مسموع
وعال يصم الأذان أحياناً ، شخص مناوئيه في وقت مبكر ، فحاربهم بشراسة ،
وقابلوا حربه بحرب أكثر عنفاً ، حتى مات مسجوناً بعد آخر المؤامرات التي
حيكت ضده ، وهو في العقد الثامن من العمر ، واخرجوا نعشه من سجن القلعة
بدمشق ، بعد ان عاش حياة مليئة بالمحن والمصاعب .

رفض ابن تيمية كثيراً من أفكار العلماء في عصره ، وبشيء من
(الحدية) ، التي كانت تأتي أحياناً في غير ساعاتها ، يقول عنها ابو زهرة : (لعلها
جذوة من الحدة التي امتاز بها ابن حزم قد آلت لابن تيمية ، من قراءاته لكتبه ،
وتأثره الى حد بعيد بأسلوبها)^(١) .

ولعل هذه الحدة أيضاً جاءت من قراءاته الكثيرة لكتب ابن رشد (فان
آراء ابن تيمية تحمل بصمات ابن رشد في كثير من جوانبها ، لاسيما في علم
الكلام .

ابن تيمية كان يعتقد ان مجمل أفكار خصومه كانت مبنية على اعتقادات
خاطئة ، عمق من خطر هذه الاعتقادات ، وجود تعارض فيما بين ما جاء به
الشرع وفيما بين ما يؤدي اليه العقل ، وهو اتهام خطير قد يخرج الخصم من
دينه .

قال الذهبي في شيخه ابن تيمية من جملة ما قال : (اطلق عبارات احجم
عنها الأولون والآخرين وهابوا ، وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء

(١) محمد ابو زهرة ، ابن تيمية ، حياته وعصره ، ط ٢ القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١١٥ .

مصر والشام قياماً لا مثيل له ، ويدعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحق المر الذي أداه اليه اجتهاده وحده ذهنه ، وسعة دائرته في السنن ، و الأقوال ، فجرى بينه وبينهم حملات ووقائع شامية ومصرية ، فينجيه الله)) (١) .

ومن هنا جاءت الحدة في رد الخصوم ، والتفكير بصوت عال لم يرض عنه البعض من المفكرين ، مع ان ابن تيمية يجد في خصومه انهم يسعون بعملهم هذا الى تعطيل النصوص وبالتالي هدم الشريعة و إضلال معتقديها (٢) . وهذا الامر في كثير من جوانبه لا يخلو من تطرف وطفولة يسارية جرّت على ابن تيمية الولايات .

معظم مصنفات ابن تيمية كانت مكرسة للرد على خصومه ، وحتى فتاوي الشيخ كانت لاتخرج عن هذا .

و خصوم ابن تيمية في الغالب ينحسرون في اربع جهات ، كان لها حضورها الفاعل على الساحة الفكرية والحضارية في القرن السابع .

اول هذه الجماعات :

فلاسفة الإغريق والهنود ومن اتبعهم من فلاسفة الإسلام ممن كان منصرفاً الى علوم الأوائل ، ولم يتمكن البعض منهم من العودة الى أحضان (الفلسفة العربية الإسلامية) ، الفلسفة الام ، التي كان الشيخ ابن تيمية من قادتها في القرنين السابع والثامن الهجريين .

(١) النشر ، علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٧ ، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام بن تيمية ، ص ١٣٨ .

(٢) ابن تيمية : العقيدة التدمرية ، ضمن رسائل ابن تيمية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، بغداد ١٩٨٩ ، ص ٥١ ، النشر ، علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، ص ١٤٧ -

يقول ابن تيمية : (كيف يكون هؤلاء المنقوصون المحبوبون الحيارى المنهوكون ، اعلم بالله وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين)^(١).

ويمضي ابن تيمية في مهاجمة فلاسفة الإغريق والهنود فيقول : (كيف يكون فراخ الفلسفة واتباع الهند واليونان ، وورثة المجوس المشركين ، وضلال اليهود والنصارى والصابئين وإشكالهم اعلم بالله من أهل القرآن وورثة الأنبياء ...

ان الإسلام ليس في حاجة الى هؤلاء)^(٢).

قد يتبادر الى الذهن ان الشيخ ابن تيمية في قوله ذلك أراد هدم الفلسفة العربية الإسلامية او تنويع صورتها ، والحقيقة خلاف هذا .

ابن تيمية في منهجه يسعى الى تحرير الفكر العربي الإسلامي من قيود الفكر الإغريقي وغيرها من الافكار التي أشار إليها ، بل هو في ذلك العمل يفتك الاشتباك بين الذهن العربي المسلم ، وبين الفلسفة الإغريقية خاصة .

الباحث هنا يؤكد : ان ابن تيمية في عمله هذا يمضي على ما مضى عليه الغزالي على ما بينهما من تفاوت في التفكير^(٣).

مثلاً كان الغزالي يؤسس لقواعد جديدة من الفلسفة العربية الإسلامية بما هي كذلك ، كان الشيخ ابن تيمية يمضي على ذلك التأسيس ، ولكن على وفق ما

(١) ابن تيمية ، (رسالة العقيدة الحموية) ضمن رسائل ابن تيمية ، تحقيق محمد صادق الفقي ، بغداد ١٩٨٩ ، ص ٣٨ .

(٢) ابن تيمية ، العقيدة الحموية ، ص ٣٨ .

(٣) دراستنا "شك الفيلسوف الغزالي" ، ضمن كتاب تاريخ الفلسفة العربية المعاصرة ، بيست الحكمة ، بغداد ٢٠٠٣ ، ص ١٤٦-١٤٨ .

يمليه النسيج الذهني للشيخ ، وبما كان عليه زمانه من مستوى العلوم والمعارف في عصره وطبيعة المجتمع والحكام .

ابن تيمية استنبط أفكاراً فلسفية جديدة ، لتعزيز مسيرة الفكر العربي الإسلامي ، مستوحاة مما اجاد به القرن السابع والثامن الهجريين من تطور في العلوم والمناهج .

ولذا نرى ابن تيمية في رده ومخاصمته للفلاسفة الإغريق ، وقف موقفاً غاية في الأنصاف من "الفلسفة العربية الإسلامية" ، وكان واحداً من أركانها ، وتمكن من فرزها عن الفلسفة اليونانية ، بعد ان وجد الفلسفة العربية الإسلامية لا تتعارض مع أصول الإسلام ، او أي من مقوماته ، وليس في الشرع أمر تعرض لهذه الفلسفة بالنفي ، بل هي في كل أحوالها منه واليه^(١) .

المدقق لكتابي ابن تيمية (الرد على المنطقيين)^(٢) و (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)^(٣) ، يجد مصداق قولنا السابق في كون الشيخ ابن تيمية من جملة رجال (الفلسفة العربية الإسلامية) في القرن السابع والثامن الهجريين ، وانه وضع لهذه الفلسفة منطقاً جديداً ، قد يبدو بعيداً عن (منطق اليونان) سماه (المنطق الإسلامي) هذا المنطق الذي كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية في الحكم على الأشياء .

(١) دراستنا ، الفلسفة العربية الإسلامية ، جدلية العنوان واشكالية النص ، مجلة دراسات فلسفية ، بيت الحكمة ، بغداد ، اذار ٢٠٠٣ ، ص ٦٧-٥٢ .

(٢) نشرة : عبد الصمد شرف الدين المكتبي ، المطبعة القيمة ، الهند ، ١٩٤٩ ، ونشرته دار المعارف في بيروت بدون تاريخ .

(٣) ويسمى ايضاً (نقض المنطق) نشره ، عبد العزيز الوكيل ، القاهرة ، ١٩٥١ ، قال السيوطي اختصرته في تحوتك حجمه (حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ص ١٩٥٧ .

مؤكدین بهذا الصدد ان الثقافة العربية الاسلامية ، هي في حقيقتها ليست
انتخاباً للفلسفة الاغريقية ، ولم تكن امتداداً للثقافة الغربية بأي حال ، كما وصفها
البعض^(١) .

والجماعة الثانية:

التي ناهضها ابن تيمية وجادلها بعنف واسبغ عليها كثيراً من النعوت ،
فهم المعتزلة واضرايهم من المتكلمين ممن اتخذ العقل اماماً ، يحمله ما يطيق وما
لا يطيق .

ابن تيمية في هذه المسألة ، وان كان يرجح عقيدة السلف على عقيدة
المتكلمين غير ان الكثير من افكاره الكلامية - على ما يرجحه الدكتور محمد
عابد الجابري - (تحمل بصمات ابن رشد في كثير من جوانبها ، لقد رفض ابن
تيمية فكرة الجوهر الفرد واعدها من (اغاليط المتكلمين) بل انه يذهب الى ابعاد
من هذا ويلتقي مع ابن حزم وابن رشد في انكاره على المتكلمين نفسيهم للطبائع
والسببية)^(٢) .

ومصدق ذلك ان ابن تيمية يقف الى صف الفلسفة ويقول (فقد يكون
صواب المتفلسفة اكثر من صواب من رد عليهم من أهل الكلام ، فان اكثر كلام
أهل الكلام في هذه الامور بلا علم ولا عقل ولا شرع)^(٣) . وهي أحكام ولا ريب
حاددة شديدة ، اعتاد عليها الشيخ ابن تيمية في كثير من جدله .

ويعيب ابن تيمية على أبي الحسن الاشعري ومن اتبعه من أصحاب
الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام احمد وإضرايهم ، ممن وجددهم ينكرون

(١) هذا هو رأي بعض المستشرقين منهم : دي بور ، ورينان ، جولديهر وغيرهم ، تاريخ
الفلسفة في الاسلام ، ص ٤٠-٥١ .

(٢) بنية العقل العربي ، ص ٥٣٧ .

(٣) ابن تيمية ، الرد على المنطقين ، دار المعرفة ، بلات ، ص ٣١٠-٣١١ .

القوى والطبائع ، ويقول عنهم : (هؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب ايضاً ويقولون ان الله يفعل عندها لا بها ، فيقولون ان الله لا يشبع بالخبز ، ولا يروي بالماء ، ولا ينبت الزرع بالماء ، بل يفعل عنده لا به ، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة و إجماع السلف مع مخالفة صريح المعقول والحس . والناس يعلمون بحسهم وعقلهم ، ان بعض الأشياء سبب لبعض كما يعلمون ان الشئ يحصل بالأكل لا بالعد ، ويحصل الطعام لا باكل الحصى ، وان الماء سبب لحياة النبات والحيوان^(١) .

وابن تيمية في طرحه هذا يقعد للفلسفة العربية الإسلامية قواعد ، يجعلها قريبة من العقل ومن صميم الشرع^(٢) ، وهو ما آلف فيه ابن رشد كتاباً برأسه سماه (الكشف عن مناهج الأدلة)^(٣) .

وكان اهل التصوف ثالث الجماعات:

التي نال منها ابن تيمية وسفه أفكارها ، وجرح زعماءها ، وانتقد فرقها ، وهي فرق خلقت في القرن السابع ، بعد ان لم تكن موجودة ، فرق قوية بجماهيرها ، متعددة باتجاهاتها ، لها حضور ملحوظ على ساحة الفكر في زمانه ، ورأس حربة تغطي ديار الإسلام ، تسيطر على الراي العام بنفس القدر الذي

(١) ابن تيمية ، مجموع فتاوي ابن تيمية ، ترتيب عبد الرحمن العاص ، ط ١ ، الرياض ١٩٦١ ، ص ٣١٠ .

(٢) ابن تيمية ، الرد على المنطقيين ، ص ٣١٠ ، الرد على فلسفة ابن رشد ، ضمن كتاب ابن رشد ، ص ٩٢ .

(٣) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، طبع مرات ، آخرها مع دراسة نقدية لعلم الكلام ، ضدّاً على الترسيم الايديولوجي للعقيدة ، ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر الفصل ومدخل ومقدمة تحليلية للدكتور محمد عابد الجابري ، صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ، آذار ١٩٩٨ .

تسيطر به على الامراء والسلاطين ، تتصارع بعنف مع من يخالفها ، ولكنها لا تتقاتل مسالمة ، فكان حربها مع ابن تيمية على وفق هذا .

من طريف ما نقرأ في هذا الاتجاه : المناظرة التي عقدها ابن تيمية مع شيخ من شيوخ الرفاعية الكبار ، الذي قال لابن تيمية (نحن ما يتفق حالنا الا عند التتار ، وأما عند الشرع فلا)^(١)، الامر الذي قرر ابن تيمية في ضوئه : (ان الصوفية كانوا من اكبر أسباب ظهور التتار)^(٢) .

عاب ابن تيمية عقيدة الاتحاد^(٣) والحلول ، أي حلول الخالق في المخلوق ، واستغراق المخلوق في الخالق ، وهو امر لا يقره الشرع بأي حال من الاحوال .

وسفه ابن تيمية عقيدة الصوفية في الاتحاد المطلق الذي يعني (وحدة الوجود) وشعارهم (لا موجود في الحقيقة غير الله) ، وهي عقيدة لا تتفق وعقيدة التوحيد الاسلامية ، ولا تتفق وقولنا (لا اله الا الله) ، وهما وان تقاربا من حيث اللفظ والمغالطة اللفظية ، الا ان كلا منهما مخالف أشد المخالفة للنتائج الأخرى^(٤) .

(١) ابن تيمية ، الرسائل ، ضمن مجموعة نشرها محمد حامد الفقي ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ١٣٠ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣٦ .

(٣) عرف ابن عربي الاتحاد من وجهة نظره بقوله: هو تصيير الذاتين واحدة ، ولا يكون الا في العدد وهو حال (مصطلح الصوفي) ضمن كتاب (نصوص المصطلح الصوفي في الإسلام ، بغداد ١٩٥٨ ، ص ١٢٧ .

(٤) من كتاب ابن تيمية ، حقيقة مذهب الاتحاديين ، او وحدة الوجود ، وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية ، امور كثيرة في هذا الاتجاه ، فصلها ابن تيمية تفصيل الخبير والعالم بأسرار الصوفية ومبدئهم هذا ، الكتاب من تحقيق محمد رشيد رضا ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

اثبت ابن تيمية في مناظراته لشيوخ الطريقة الرفاعية في مصر : ان دخولهم في النار انما كان بطلانهم أجسامهم (كادوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشرة النارنج وحجر الطلق)^(١).

ووجد ابن تيمية ان هؤلاء الناس من الصوفية في مصر كانوا يدخلون رجلاً بطريقة سرية في لحد أحد الموتى ، ومن ثم يدعون انهم يكلمون الموتى^(٢).

وكلامنا هذا لا يعني ان الشيخ تقي الدين بن تيمية ، لم يكن صوفياً في نفسه وسلوكه ، وانه يدعو الى التصوف الذي اعتمدته الفلسفة العربية الإسلامية ، بل ان هذا الشيخ قد قعد القواعد للتصوف الإسلامي القائم على الزهد و الورع ومحاسبة النفس ، ومراقبتها عند كل قول وعمل ، ومجاهدتها المشروعة ، وكان قيامه بتسفيه تلك الممارسات غير اللاتقة ، والاصطلاحات غير الدقيقة ، وكاشفاً الدعاوي الفارغة ، مبيناً براءة الاسلام منها^(٣) . ومن مناوئي ابن تيمية .

وهم الجماعات الرابعة :

والمهمة في قائمة الأعداء الذين ما انفك يرد عليهم ، و يكتب المصنفات الطوال في تفنيد أفكارهم ، ممن سماهم فرق الباطنية . و فرق الباطنية كما هو معروف هم فرع من فروع الإسماعيلية ، ذهبوا الى انه لا تخلو الأرض من إمام ظاهر مكشوف ، او باطن مستور^(٤) ، وقد يلحق

(١) ابن تيمية ، الرسائل ، ص ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٣) فصلى انور الجندي في كتابه (نوابع الفكر الإسلامي) تصوف ابن تيمية ، ص ٣٠٩ فما

بعد .

(٤) النشر ، علي سامي ، نشأة الفكر الإسلامي ، ص ١٨٨ ، وما بعدها تفصيلاً لهذه المسألة .

بهم فرق النصيرية، ولكن ابن تيمية لم يقصر كلامه على هؤلاء فقط بل يتعدى بهذا المصطلح (الباطنية) بعيداً أحياناً ، ليشمل الشيعة الإمامية والزيدية .

وكان الإسماعيلية عصر الشيخ ابن تيمية يملكون حلب ونواحيها^(١)، و فرق النصيرية ، تعيش في حمص وفي جبالها^(٢) .

أما في دمشق وغيرها فقد كان الشيعة الإمامية يعيشون بشكل طبيعي لا يعكر صفوهم احد ، وكسبوا احترام الناس ومودتهم ، لاعتدالهم في أعمالهم وتدينهم الحق^(٣) : امثال : الزين جعفر بن ابي المغيث البعلبكي (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م) والشيخ محمد بن ابي بكر الساكيني (٧٢١هـ / ١٣٢١م) الذي وصفه ابن تيمية بقوله : (هو من يتسنن به الشيعي ، ويتشيع به السني)^(٤) .

ومع هذا فقد (ادى الضغط بالشيعة الإمامية على العموم الى الاعتزال في قرى جبلية ، وشيدوا ابتداء من القرن الثامن ، قرى في جبل عامله)^(٥) .

ومصنفات الشيخ ابن تيمية في هذا الاتجاه كثيرة ، ولكن الأبرز منها في هذا الاتجاه كتاب ابن تيمية (منهاج السنة النبوية)^(٦) ، وهو نقض لكتاب (منهاج الكرامة في اثبات الامامة) الذي كتبه العلامة ابن المطهر الحلي باسم السلطان محمد خدابنده (ت ٧١٦هـ / ١٣٤٦م) .

(١) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٢١ .

(٣) الشيبني ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ١٤٩ .

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ج ٣ ص ٣٦٢ .

(٥) الشيبني ، المرجع السابق ، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٦) لكتاب (منهاج السنة النبوية) اكثر من طبعة ، منها : نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ،

بلا تاريخ ، وأقدم طبعاته في بولاق ١٩٠٣ في أربعة أجزاء (للذهبي اختصار له سماه ،

المنتقى من منهاج الاعتزال .

وهذان الكتابان (منهاج الكرامة) و (منهاج السنة) مازالا منذ صدورهما حتى اليوم - خلال سبعة قرون - يعيشان هذا العصر بكل تفاصيله ، وكان صاحباهما يعيشان بيننا لهما الأثر الواضح في الفكر منهجاً وتطبيقاً .

ومجمل القول في هذه المسألة ، وعلى الرغم من الموسوعية التي كان عليها الشيخ ابن تيمية واستيعابه لأفكار خصومه وهم كثر كما عرفنا ، ونضاله العنيف والعنيد في الرد عليهم في ادق خصوصياتهم .

الفلاسفة وابن سينا الذي خصه ابن تيمية بنقده ، والاشاعرة ولعل الشيخ الغزالي في المقدمة منهم ، الفقهاء بمدارسهم الفقهية كافة، خلا مدرسة الامام احمد بن حنبل ، ابن تيمية في ذلك كله.

وجهده الذي ادخله السجن مرات وجده الدكتور محمد عابد الجابري (مستلهماً ظاهرياً ابن حزم ، والطريقة التي يقترحها ابن رشد في كتابه (مناهج الادلة) ^(١) .

ولا اعتراض على ذلك فان ابن تيمية من رجال الفلسفة العربية الإسلامية في القرن السابع والثامن الهجريين وهؤلاء من رجالها ، ولكن الأمر الواجب الوقوف عنده قول الجابري : (ان ابن تيمية على الرغم من هذا النضال المضاعف والمتعدد الواجهات فقد بقيت السيادة في الفكر العربي للتقليد والشكلائية) ^(٢) .

وهو قول حمل المسألة اكثر مما تحتمل بل ان الشيخ ابن تيمية في كل فعالياته وردده على مناوئيه كان مؤسسا للفلسفة العربية الإسلامية ، التي هي جهد انساني يعيش في خضم الاحداث والجدل، المحتدم، والنقاش الحاد ، والمعاناة ، وهو ما اتسمت به حياة الشيخ ابن تيمية الحافلة ، كان كثير الأصدقاء ، كثير الاعداء .

(١) تكوين العقل العربي ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥-١٣٦ .

ابن تيمية والخطاب الفكري السلفي

علماء السلف الأولون (رضي الله عنهم) ، من المسلمين المتقدمين ، من التابعين وتابعي التابعين ، ممن حاول بكل الجهود تتبع ما كان عليه أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، السير على آثارهم في تعديد القواعد ورسم المبادئ ، وتمهيد المسارات للسالكين من بعدهم ، كان من جملتهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (١٤٨هـ/٧٦٧م) وسفيان الثوري (١٦٣هـ/٧٧٩م) ، وإضرابهم حتى آخر ممثل للعقيدة السلفية في صورتها الأخيرة في القرن السابع الهجري ، الشيخ تقي الدين أحمد ابن تيمية ، الذي ما انفك يدعو بصوت مسموع : ان السبيل الى تحقيق نهوض الأمة وانتشالها مما هي فيه ، هو التواصل مع السلف الصالح وفهمه للعقيدة الإسلامية في ضوء معطيات العصر الذي عاش فيه (القرن السابع والثامن الهجريين) ، وهذا ليس معناه الابتعاد عن الاجتهاد في فهم الخطاب السلفي في ضوء حكم العقل ومعطياته ، وقواعد استنباط الأحكام ومستجداتها .

فكانت كل أقوال الشيخ ابن تيمية ومصنفاته ورسائله وتقريراته و أفعاله تصب في هذا الاتجاه ، لا تخلو في كل مفاصلها من جهد عقلي ، وتطير فلسفي ، سواء من الدراسات القرآنية والتفسير منها على وجه خاص ، أم العلوم الشرعية ، الفقه و أصول الفقه ، وعلوم عقائد الملة ، علم الكلام والفلسفة العربية الإسلامية ، على وفق ما كانت في القرن السابع ، وكذلك علم المنطق الإسلامي الجديد الذي استنبطه ابن تيمية في ضوء فهمه للقرآن الكريم ، وعلم التصوف الذي لبس ابن تيمية ثيابه ، وتزيى بزيه ، لا تصوف اهل المسابح الطويلة والخرق البالية ، والدروشة غير المجدية ، كل ذلك في معالجات تكاد تمضي في منهج واحد تغلفه السياسة الممهورة بخطاب سلفي مقصود .

كتب الشيخ ابن تيمية في خطابه السلفي الواضح هذا العشرات من الكتب بالغ البعض من مترجميه فقال : انه ترك عدداً ضخماً من المؤلفات يصل الى خمسمائة^(١)، ووجدها تلميذه الذهبي ، لعلها ثلثمائة مجلد^(٢)، غير ان إسماعيل باشا البغدادى في كتابه (هدية العارفين) ، لم يذكر منها غير ٦٨ عنواناً^(٣)، والأستاذ محمد شنب في مادة (ابن تيمية) من موسوعة دائرة المعارف ، ذكر ٦٤ عنواناً^(٤).

وتعرض الكثير من مخطوطات الشيخ ابن تيمية الى التلف ، والمعروف منها لم يطبع منه الا القليل .

علم اصول الفقه

يعد ابن تيمية آخر الممثلين لفكر الإمام احمد بن حنبل (٢٣٢/٨٤٦) في القرن السابع الهجري ، ولذلك كانت اجتهاداته في علم أصول الفقه ، (هي في جملتها أصول مذهب الامام احمد بن حنبل)^(٥)، وهي في الغالب ستة أصول ، لم يقف عندها الشيخ ابن تيمية حرفياً بل كان له في بعضها نظر ، وفي البعض الآخر زيادة وتفصيل .

(١) د . محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، ص ١١٦ .

(٢) الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان المصري (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ، تذكرة الحفاظ ، حيدر اباد ، ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٣) البغدادى ، هدية العارفين ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .

(٤) د . محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، ص ١١٦-١٢٠ ، ويقول الدكتور موسى ، انه يميل الى التقدير الذي قال به الذهبي أي ٣٠٠ عنواناً ، وبه اخذ كاتب مادته في دائرة المعارف الإسلامية ، ص ١١٦ .

(٥) د . محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، ص ١٦٨ .

نشير اليها بإيجاز غير مغل على وفق ما يقتضيه البحث في هذه

الرسالة.

١- القرآن الكريم :

((كتاب أحكم آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير))^(١) ، قرآن مجيد ((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه))^(٢) ، أول نص للتشريع الإسلامي مكتوب ، وأول مصادر الشرع واستنباط الأحكام ، وليس هناك شك في قطعية ثبوته وتنزهه عن الخطأ^(٣) .

٢- السنة النبوية المطهرة :

((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا))^(٤) ، ((محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم))^(٥) ، الأصل الثاني للتشريع واستنباط الأحكام بعد القرآن الكريم ، وجدها الشيخ ابن تيمية ثلاثة أنواع :

الأول : السنة المتواترة التي تفسر القرآن ولا تخالف ظاهره .

الثاني : السنة التي جاءت بحكم جديد .

الثالث : أحاديث أو أخبار الأحاد بروايات الثقات عن الثقات ، فهي حجة

وأصل من أصول الفقه ، يجب الأخذ بها والعمل في ضوئها على رأي الشيخ ابن تيمية^(٦) .

(١) سورة فصلت ، آية ٧ .

(٢) سورة فصلت ، آية ٧ .

(٣) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن الشافعي ، (ت/٩١١/١٠٥٥م) الإتيان في علوم القرآن ، دمشق ١٩٤٢ ، ج ٤ ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٧ ، الخوئي ، السيد أبو القاسم ، البيان في تفسير القرآن ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ٤ .

(٤) سورة الحشر ، آية ٧ .

(٥) سورة الفتح ، آية ٢٩ .

(٦) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، نشر دار الكتب العلمية بلا تاريخ ص ٢٨١ .

٣-الإجماع :

ومعناه على رأي ابن تيمية : (هو ان يجتمع علماء المسلمين على حكم من الاحكام ، واذا ثبت ذلك لم يكن لاحد ان يخرج عن إجماعهم ، فان الامة لا تجتمع على ضلال ، ولا بد للإجماع في فقه ابن تيمية كي يُعدَّ حجة واصلاً من سند يسنده ومن النص (القرآن، والسنة) .

٤-القياس :

وهو الأصل الرابع من أصول الاستنباط عند ابن تيمية ، وقد فصل القول في الصحيح منه وفي الفاسد في قياساته ، في كثير من كتبه ، لا سيما في كتابه الضخم الفتاوي ، وكتابه اصول الفقه ، وكتابه في معنى القياس ، وكتابه معالم الأصول ، وغيرها .

وقد رسم الشيخ ابن تيمية صوراً عديدة للقياس الصحيح وغير الصحيح ، وراي ان القياس المعتمد لابد ان يطابق نصاً من النصوص (الكتاب او السنة)^(١) .

٥-الاستصحاب :

وهو الاصل الخامس ، يجئُ بعد الأصول الأربعة السابقة ، ويعمل به عند غيابها والدليل المعتمد على وفق أحكام الأصول الأربعة . وقد عرفوه (البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته او انتفاؤه بالشرع) . وابن تيمية وضع الشروط في حجية هذا الأصل للحد من التوسع فيه ، ووضع القيود للحد من تعميمه .

٦-دليل المصالح المرسلّة :

وهي المصالح التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها ، ولم يقم دليل معين على اعتبارها او إلغائها ، وهذا يعني ان محل واقعته ليس فيها نص ولا إجماع

(١) د محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، ص ١٨٠-١٨١ .

ولا قياس ولا استصحاب وفيها مصلحة للناس ، أجازوا فيها للمجتهد إيجاد حكم مناسب لتحقيق هذه المصلحة للناس^(١) .

والشيخ تقي الدين بن تيمية في بعض مواقفه يعد هذا الدليل أصلاً من أصول الاستنباط ، وحجة من حججه ، ولكنه في بعضها الآخر يقف موقف المشكك والمتردد في قبول هذا الأصل .

والشيخ في جميع الحالات يضع القيود الصارمة للحد من الإسفاف في الأحكام التي تفنقر للنص .

(١) د. عبد الكريم زيدان ، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص ٢٠٤ -

الفصل السادس

المبحث الاول : الفلسفة العربية الإسلامية.

المبحث الثاني : نصير الدين بن الطوسي

المبحث الثالث : سعد بن منصور ابن كمونة

الفصل السادس

المبحث الأول

الفلسفة العربية الإسلامية

هي ثالث أصول الفكر الفلسفي في القرن السابع، بعد علم الكلام وعلم أصول الفقه، تشكل مع الأصل الرابع، ونعني به -علم التصوف - قاعدة المشهد الفكري الثقافي العربي الإسلامي الذي تتكامل تحت خيمته الممتدة كل الفعاليات والأطراف التي رفعت بإيجابية ملحوظة راية الحوار الحضاري، وفتحت جميع النوافذ على رياح الثقافات في زمانها، من دون أن تسمح لهذه الرياح بزحزحة البيوت عن أماكنها، والأفكار عن أهلها، والثقافة عن مستلزماتها...

جنور ممتدة في أعماق الأرض العربية منذ أن اطلع المفكر العربي المسلم في بغداد على الفكر الآخر، وعلى الخصوص بعد ترجمة ذلك الفكر^(١)...

حينها جذبته فلسفة الإغريق إلى صفها، وقد كان قبلها مطمئنا إلى دينه وشريعته، ولأن واجبه يدعو لنشر مبادئ هذه الشريعة، والحجاج الواعي عن معتقداتها، وجد أن علم الكلام - وهو العلم المتكفل بهذا - كان متمكنا في مهمته بين أهلها، غير واف^(٢) بتعميم تلك الشريعة إلى حيث رحاب العالمية، بالصيغ، التي ترضي الطموح، ولما فيه صلاح الدين والدنيا^(٣)، على حد سواء، الأمر الذي دفع بعضهم إلى الانفتاح أكثر فأكثر للاطلاع على علوم العصر واعتبار ذلك من الواجبات الشرعية بعد أن حصل لهم اليقين أن علم الكلام بصيغته النمطية ((لم يحصل منه

(١) من المؤكد أن الترجمة كانت قد عرفتها دمشق قبل بغداد، ابن النديم، الفهرست، ص ١٩٤

(٢) يقول الإمام الغزالي: ((أني ابتدأت بعلم الكلام، فحصته وعقلته ٠٠٠ فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي، ((المنقذ من الضلال))، تحقيق د. جميل صليبا،

ود. كامل عياد، ط ٩، بيروت، ١٩٨٠، ص ٩١ .

(٣) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٩٣ .

ما يحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق))^(١)، وإن طرح ، الذين وقفوا من الانفتاح موقفا عنيدا ، غير مبرر وكانت ردودهم تلك ((معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد))^(٢)، بها حاجة للتدقيق وإعادة النظر . . . (٣)

والفلسفة التي جاء بها فكر الانفتاح نتيجة الترجمة، سواء منها فلسفة الإغريق ، أم فلسفات الشرق ، على كثرة أصنافها وألوانها ، بينها تفاوت عظيم، . . .

من أفكارها القريب من الشريعة ، ومنها البعيد عنها، ويستحق أصحاب ذلك الفكر الأبعاد، وكذلك من فروع الفلسفة ما ينفع ويفيد كفرع الرياضيات: الذي موضوعه : ((المقدار والعدد . . . وأصوله : علم الهندسة والحساب والهيئة . . . والموسيقى وفروعه: علم المناظر ، وعلم جر الأثقال، وعلم الأكر المتحركة وعلم الجبر وعلم الحيل وغيره))^(٤) ، وهي أمور برهانية لا سبيل الى مجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها^(٥) ، وابتكار المفيد لتطويرها . . .

أما علم المنطق فهو من فروع الفلسفة العربية الإسلامية المهمة ، فلا يتعلق شيء منه بالدين ((نفيًا وأثباتًا))^(٦) ، ولا بالشريعة تعريضاً وتجريحاً ، ولكنه ((آلة تعصم مراعاتها ان يضل الإنسان في فكره))^(٧)، وهو في الوقت

(١) المصدر السابق، ص ٩٣ .

(٢) الغزالي، مقاصد الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٣٩ .

(٣) الغزالي المنقذ من الضلال، ص ٩٣ .

(٤) الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص ١٣٩ .

(٥) الغزالي، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص ١٠٣ .

(٧) ابن سينا، الإشارات والتبهيئات، ج ١ ، ص ٩ .

نفسه))القانون الذي به يميز صحيح الحد والقياس عن فأسدها، فيميز العلم اليقيني عما ليس يقيناً)) ٠٠٠٠ (١)

صنع منه الشيخ تقي الدين احمد ابن تيمية في القرن السابع الهجري منطقاً جديداً سماه {المنطق القرآني}، استمد قانونه، وقعد قواعده، من القرآن الكريم، هدفه ان يميز العلم اليقيني عما ليس يقيناً^(٢). أما فرع الطبيعيات في الفلسفة العربية الإسلامية : فهو ((المبدأ الأول لحركة ما هي فيه، أي الجسم الطبيعي، ولسكونه بالذات ، وهو العلم المسمى بالطبيعيات لا العلم بالطبيعة نفسها))^(٣)، فهو بحث في الأجسام المفردة والمركبة ((وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضاً إنكار هذا العلم))^(٤) وهو لا ريب فيه علم نافع واجب التعليم على كل قادر عليه فلم يجد المفكر العربي المسلم في فجر بغداد صعوبة ما في تفهم هذه العلوم ونحت مفاهيمها وصياغة ألفاظها ، بما ينسجم والبيئة وما يوائم الشرع، بل يمضي في تطويرها ونفض غبار الماضي عن بعض أفكارها وسحبها لتكون جزءاً من تراثنا ٠٠٠٠

وهذه المصنفات وتلك العناوين تتم عن وعي متقدم بما يلزم الأمة من معدات ومستلزمات القوة والبأس يرهبون به عدو الله وعدو الناس، كل بحسب زمانه ومكانه ٠٠٠

(١) الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص ٣٦ .

(٢) فصل ابن تيمية أفكاره عن المنطق للفلسفة العربية الإسلامية في كثير من كتبه:

- كتاب {الرد على المنطقيين} نشره عبد الصمد شرف الدين المكتبي، الهند/

بومباي، ١٩٤٩

- كتاب {نقض المنطق}، تقديم ونشر عبد العزيز الوكيل، القاهرة، ١٩٥١

(٣) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج ١ ، ص ٩ .

(٤) الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص ١٠٥ .

وقد تمكن الكندي - بما وهبه الله من قدرة وإمكانيات - أن يسحب هذه الفلسفات وما كان ينسب إليها من علوم إلى صف الإسلام ، ويوفق بينها وبين الشرع ، وإن ينحت ألفاظها بما أفاض الله تعالى في القرآن الكريم على اللغة العربية من إمكانية في الاستيعاب والهضم حتى صارت الفلسفة: عربية في ألفاظها، إسلامية في مضامينها ، مؤكداً أن هذه العلوم لا تعمل بنفسها عvisية على خالقها ، كما أراد بعض الفلاسفة ، بل هي مسخرة من جهة فاطرها وخالقها سبحانه .

وهنا تخطر على البال وصية ابن سينا إلى طلابه بأن يضمن الواحد منهم بهذه العلوم على من لا قدرة له على فهمها وحصرها على من ((يستبصر بها من تيسر له))^(١) فهي علوم عvisية على غير أهلها... .
أما فروع الفلسفات السياسية ،^(٢) والأخلاقية ،^(٣) وتدبير المنزل^(٤) ، فهي الفروع العملية في مقابل الفروع النظرية... .

فروع الفلسفة العربية الإسلامية هذه: كما فرعها الكندي وابن سينا وأخوان الصفاء وغيرهم ، هذه الفروع الثلاثة من الفلسفة العربية الإسلامية ، إنما هي الفلسفات الكفيلة بتنظيم العلاقة بين الناس وحفظ مصالحهم في الدنيا ، وهي في جوهرها تراكم حضاري ، وجزء من تراث البشرية عبر العصور ، كل أضاف

(١) ابن سينا، الإشارات والتبهيّات، ج٢، ص ١-٢ ، و ج٣، ص ٣٤٨ .

(٢) هذا القسم من صميم العلوم الشرعية ، وأصله (تدبير المدن وترتيب أهلها) ، الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٣٥ .

(٣) وهو ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليكون ((خيراً فاضلاً في أخلاقه وصفاته)) ، الغزالي ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) ((وبه يعلم وجه المعيشة مع الزوجة والولد والخادم ، وما يشتمل عليه المنزل)) ، الغزالي ، المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

الى صرح الحضارة الشامخ، عبر الحياة، لبنة يكمل بعضها بعضاً، البشرية عبر آلاف السنين مشتركة بصنع هذه الفلسفات، حفظها حمورابي في شرائعه، وكانت قبساً في فلسفات الشرق، وحرفاً في أبجدية الفينيقيين، وعنواناً في أهرامات المصريين، حتى وصلت الى أثينا بذرة محسنة، كتبها أفلاطون جمهورية، ثم تنقلت بين الإسكندرية وفلسطين ونصيبين والرها وحران وجند يسابور، ثم أراد الله تعالى ان يجعل منها نوراً سرمدياً في رسالة الإسلام، وان تكون مكة المكرمة مبدأها ومدينة الرسول مستقراً لها والكوفة مدداً لعنفوانها، ودمشق راقداً من روافدها، حتى حطت ركابها في بغداد، متفتحة بين يدي جابر بن حيان علماً، وأبي الهذيل العلاف كلاماً، وإبراهيم بن سيار النظام فلسفة حتى تلقفها الكندي، فكانت مادة خصبة لرسائل عدة قرأناها في رسالته الكبرى في السياسة^(٢)، وفي رسالته (في سياسة العامة)^(٣) وفي رسالته (في الأخلاق ١٠٠٠)^(٤) وفي (رسالته في الرئاسة)^(٥)...

ثم قعد الفارابي القواعد في (مدينته الفاضلة) ١٠٠٠ ونقرأ في كتابه (تحصيل السعادة) مثل هذا، فيقول الفارابي ((وهذا العلم (الفلسفة) هو أقدم العلوم وأكملها رئاسة، وسائر العلوم الأخرى الرئيسة هي تحت رئاسة هذا العلم ...

(١) دراساتنا، الحضارة، المدنية، الثقافة، مجلة الأديب المعاصر، بغداد، العدد الأول / سنة

١٩٩٩

(٢) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق عبد الهادي ابو ريده، ج ١ ص ١٦١، الفهرست، ص ٣١٩

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٣١٧، اللقطي، أخبار العلماء ١٠٠٠ ص ٢٤٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ١٠٠٠ ج ٢ ص ١٨٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية ج ١ ص ١٦٦ فما بعد.

وهذا العلم، كما يقال :انه كان في القديم في الكلدانيين، وهم أهل العراق، ثم صار الى أهل مصر، ثم انتقل الى اليونانيين ولم يزل الى ان انتقل الى السريانيين، ثم إلى العرب.))^(١)

ولم تبق إلا أمور وشبهات في فرع اللهيات في الفلسفة العربية الإسلامية وقد تنبه إليها فلاسفتنا العرب المسلمون مبكراً، فعالجوا شبهات فلسفة الإغريق فردوا الباطل فيها وسموه باطلاً، وشخصوا الحق وطوروا أساليب الأخذ به ...

كان المؤسس لهذه الفلسفة أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وجددها على رأس المائة السادسة للهجرة حجة الإسلام الغزالي، فكان الغزالي فيلسوفاً عربياً مسلماً حتى في كتابه (المنقذ من الضلال)^(٢) ابعد كتبه عن الفلسفة ...

وجددها على رأس المائة السابعة للهجرة العلامة ابن المطهر الحلي في كتب عديدة كان في رأسها كتابه (الأسرار الخفية في العلوم العقلية)^(٣)، وهي تمضي مع الزمن حتى وصلت الشيخ محمد عبده، والأفغاني، وحملها محمد إقبال عالياً، حتى وصلت الى أهلها في هذا العصر وهي ترقل بالعرز بأيد أمينة ...

اختلف الكندي مع أفلاطون في اكثر من عشرين أصلاً فلسفياً^(٤)، ولهذا السبب كان يحسبه بعضهم ارسطياً او في صف الرواقيين عامة، ولكن الكندي اختلف مع أرسطو ربما اكثر من اختلافه مع أفلاطون، وأنتقد فلسفة ارسطو وزاد فيها وأنقص^(٥) وعد الكندي من عشاق سقراط لأنه كتب اكثر من ست رسائل في

(١) الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، تحقيق د. جعفر ال ياسين، بيروت ١٩٩٢ ص ١٨٨

(٢) الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيوعي، بغداد ١٩٦٧، ص ٢٦٧

(٣) تحقيق د. حسام الالوسي وصالح مهدي الهاشم، منشورات مكتبة المثلث، بيروت ١٩٧٥

(٤) نقرأ هذا مفصلاً في رسائل الكندي الفلسفية، منها ج ١، ص ١٩٤ فما بعد، وج ١ ص ٢١٤

ورسائله (إيضاح تنهاي جرم العالم)، ج ١ ص ٢٧٢، رسالته (القول في النفس...) .

(٥) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ١ ص ٣٥٩ فما بعد وج ١ ص ٣٦٩ فما بعد .

أمره^(١)، وكان الكندي حقا صديقاً لهذا الفيلسوف الخير صديق الفقراء، ولكن الكندي لم يكن عيلاً على سقراط، وليس هذا تعريضاً بتلك القمم الفلسفية الشامخة، التي غدت ارتناً للإنسانية جميعاً الى جانب أهلها^(٢)، ولكن حقيقة القول: ان الكندي الفيلسوف كان يدجن أفكار فلاسفة الإغريق الكبار وينحت ألفاظهم، ويسخر أساليبهم، لخدمة الفلسفة العربية الإسلامية، وقراءة أولية لعناوين كتبه ورسائله تؤكد ذلك^(٣).

ومضى الكندي الى رحمة الله بعد ان قعد للفكر العربي الإسلامي في فجر بغداد القواعد، وأسس للفلسفة العربية صرحاً، وأصل لها الأصول، في ضوء مفاهيم هذه الفلسفة القرآنية، ونحت ألفاظها من صلب لغة القرآن، ومن هنا جاء اسمها فلسفة لأنها بنت الإغريق وعربية لأنها بنت لغة القرآن، وليس غير، وإسلامية لأنها معمدة بعقائد الإسلام، ومعطرة بعطر حضارة الشرق، الممتدة عبر الزمن خيمة كبيرة، وتضم كل الذين كتبوا الفلسفة في هذه اللغة، ومن تكلم بالفلسفة بهذه اللغة، ومن ارتبط بالفلسفة بروابط الزمانية والمكانية^(٤)، لم تهضم أحدا ولم تلغ دور لغة أخرى، ولا تطمس نهج دين سماوي آخر، خيمة تتحاور فيها الأفكار...^(٥).

(١) ذكر هذه الرسائل: ابن النديم، الفهرست، ص ٣١٧، والقفطي، أخبار... ص ٢٤٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء... ج ٢ ص ١٨٧، ولم تطبع تلك الرسائل، وليس هناك ما يشير الى أي من مخطوطاتها ١٠٠٠ الأب ريتشارد يوسف مكارثي، التصانيف المنسوبة الى فيلسوف العرب، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٢، ص ٣٢.

(٢) دراستنا، الخطاب النقدي العربي وأشكاله الديمقراطية، ضمن بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الجامعة الأردنية، آذار، ٢٠٠٠.

(٣) مكارثي، المصدر السابق، ص ٦٢ وص ٦٧ وص ٦٧ وص ٦٩.

(٤) دراستنا، لماذا فلسفة التاريخ؟، ضمن بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، بغداد، بيت الحكمة، مارس، ٢٠٠١.

(٥) دراستنا، الحضارة، المدينة الثقافية، مجلة الأديب المعاصر، العدد الأول، ١٩٩٩.

ثم انفصلت العلوم عن الفلسفة ، منها الرياضيات التي كانت زمن الكندي فرعاً طويلاً عريضاً وهذا لا يعني استقلال العلوم عن الفلسفة ، أو أنها استغنت والى الأبد عن أمها ، فما زالت العلوم ترضع من ذلك الثدي الدافئ، وإن اختلفت جهة الحاجة والعون عما كان قبل استقلال العلوم، ((تماماً كالبنيت تستقل عن أمها عند زواجها، ولكنها تحتاج إليها في مشكلات واحتياجات جديدة ، بل أن علوماً لم تكن ترتبط بالفلسفة أصبحت تلتمس الحكمة والحكمة من هذه الأم العجوز))^(١) ، ذات الخبرات المتراكمة والنصائح الخالصة...

ولئن مضت بعض فروع الفلسفة العربية الإسلامية، فقد بقيت أصولها تتجذر مع الفارابي وابن سينا وعشرات من المفكرين بعد عصر الكندي ، يحملون تلك الأصول ويضعون لها الدعامات التي تبقىها متألقة ، قريبة من الشريعة، ليس بعيدة عن عصرها...

ثم جاء حجة الإسلام الغزالي فيلسوفاً ، جدد الفلسفة العربية الإسلامية على راس المائة السادسة للهجرة ، ويخطئ من يظن الغزالي عدواً للفلسفة العربية الإسلامية ، بل من هنا جاء مقتل هؤلاء ووقعوا في فخ الغزالي...^(٢) الفيلسوف الغزالي قسم الفلسفة الى ثلاثة محاور: محور قريب من فلسفتنا جداً ، ومحور بعيد عنها جداً ، ومحور ثالث به حاجة الى تقويم فسي مفاهيمه، ونحت في ألفاظه...

(١) احمد محمود صبحي، في فلسفة التأريخ ، ط٢. مؤسسة الثقافة الجامعية القاهرة ١٩٧٥، ص ٧٥ .

(٢) الغزالي فيلسوف في كل ما كتب: في فقهه وأصوله وفلسفته في كلامه في تصوفه يصدر عن العقل، والطرح العقلي فلسفة، فالغزالي فيلسوف ٠٠٠ يقول الغزالي في كتابه (معارج القدس) ص ٥٤ فما بعد ، في بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما الى الآخر : (اعلم ان العقل لن يهتدي الا بالشرع، والشرع لم يتبين الا بالعقل ٠٠ فالعقل كالبصر والشرع كالشماع ...)، العقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدده ٠٠٠٠

وقام الغزالي بهذه المهمة خير قيام ، حتى في كتابه ((المنقذ من الضلال)) أبعد كتبه عن الفلسفة... .

الغزالي وضع قواعد الفلسفة العربية الإسلامية في كتابه ((تهافت الفلاسفة)) بعد ان مهد لهذا الكتاب بكتابه ((مقاصد الفلاسفة))، وحدد مفاهيمها بما يميزها عن غيرها من الفلسفات ويجعلها بحق :عربية لها من لغة القرآن عنواناً، وإسلامية لأنها جاءت من صميم شريعة الإسلام أولاً، ولأنها صارت خيمة كبيرة ضمت حضارات من حولها ثانياً... .

الغزالي وجد ارسطو طاليس أقرب الفلاسفة الإغريق الى مذاهب الإسلام على وفق ما نقله عنه ابن سينا والفارابي^(١)... كما أحصى الغزالي أخطاء ارسطو طاليس فوجدها في عشرين اصلاً ،فصلها ورد عليها في كتابه ((تهافت الفلاسفة))^(٢)، ولكن الغزالي وجد أعظمها ثلاثة أعاد دراستها وفصلها ثانية في كتابه ((المنقذ من الضلال))^(٣) و هذه الأصول الخطأ وقف منها الإسلاميون كافة موقف المخالف... .

وكان ذلك في قول فلاسفة الأغريق :

((١- ان الأجسام لا تحشر وانما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية ، ولقد صدقوا في إثبات الروحانية: فأنها ثابتة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ...

٢- ومن ذلك قولهم : ((ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات)) .

٣- ومن ذلك قولهم بقدّم العالم وأزليته، فلم يذهب أحد من المسلمين الى

شيء من هذه المسائل.

(٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ،ص ١٠٦ .

(٢) تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٠ فما بعد .

(٣) تحقيق د.جميل صليبا ود.كامل عياد، ط٩، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٠-١١٦ .

وفي كتاب الغزالي التهاافت فصل الأصول الأخرى التي غلط بها الفلاسفة الإغريق مثل نفيتهم الصفات وموقفهم من البعث والنشور وان الله تعالى مصدر الوحي، وان الأنبياء رسل بعث بهم الله ، ونحوها من أصول...
وكان الكندي مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية قد فطن لهذا مبكراً فعالجه ملياً ونزله الفلسفة العربية الإسلامية عن هذه الشوائب، ليس في هذه الدراسة تفصيلاتها...

وكان الفيلسوف المغربي ابن رشد قد رد على الغزالي، وعلى ما جاء اتصال^(١) (١٠٠٠))، والآخر ((الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة^(٢))) والباحث يرى ان الفيلسوف المغربي الكبير وان كان قمة في عرضه ونقده وجداله، ولكن هذا جاء في غير الغرض الذي ألف من أجله، لأن ابن رشد ظن ان الغزالي عدو للفلسفة وهو غير ذلك قطعاً...
الفلسفة العربية الإسلامية تواصل أم انقطاع ؟

هذه الدراسات قد شغلت المستشرقين قبل غيرهم حتى استوى عودها لديهم خلال هذا القرن، الا ان من المؤسف ان نجد كثيراً منهم قد اصدر أحكاماً جائرة لا أساس لها من الواقع في دنيا الفلسفة العربية الإسلامية، حتى أشاع عنها

(١) طبع غير مرة: أخرها نشر مركز دراسات الوحدة العربية، مع مدخل ومقدمة.

تحليلية ودراسة عن تأريخ العلاقة بين الدين والفلسفة في الإسلام ، بقلم د.محمد عابد الجابري ، بيروت، ١٩٩٨.

(٢) طبع غير مرة: أخرها نشر مركز دراسات الوحدة العربية، مع مدخل ومقدمة تحليلية ودراسة في تأريخ علم الكلام في الإسلام ، بقلم د.محمد عابد الجابري ، بيروت، ١٩٩٨.

بعضهم أنها ضحلة مفككة لا وحدة فيها ولا عمق^(١)، وعلى هذا فليس هناك فلسفة إسلامية بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة... وزعموا أنها ظلت على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق^(٢)

في حين انصفها أخوان لهم ممن سير أغوارها وقام بدراستها بروح علمية متجردة، فتلمسوا آنذاك ما فيها من أصالة وخصب^(٣) وقرروا: أنها إنما وجدت لتشهد على أن الإسلام لا يعبر عن ذاته بنحو تام وحاسم بالفقه وحده كما كان يشاع خطأ^(٤)، والحق أنه ليس في تاريخ الفكر الإنساني فلسفة ذات أطر مستقلة غير متأثرة بما قبلها في الأقل، فالفلسفة اليونانية ذاتها - وهي أول فلسفة واضحة المعالم في التاريخ - لا بد أنها خضعت لنظام التطور الحتمي لسنة الحياة بصفتها كائناً حياً فكانت نتيجة لإرهاصات ومقدمات فكر أنساني سابق^(٥)

وكذا الفلسفة العربية الإسلامية التي نضجت في جنبات (مدرسة بغداد الفلسفية) فهي جزء فاعل في الفلسفة العربية الإسلامية نمت وترعرعت في ظل الإسلام ومن خلال مبادئه، فلها طابعها وميزاتها في عالم الفكر حيث وافق بعضها بعضاً وتأثر كل منهما بالآخر، شأنها في ذلك شأن كل أمر حضاري،

(١) ذكر الأستاذ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) استعراضاً موجزاً لبعض آراء المستشرقين في الفلسفة العربية الإسلامية ممن حكم لها أو عليها فمن ألف في الفلسفة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر، أو من المعنيين بهذه الفلسفة في القرن الحالي حتى عام ١٩٤٤م، ص ٤-٣٠، كذلك مقدمة وخاتمة كتاب الفلسفة الإسلامية (القاهرة ١٩٤٧) للدكتور إبراهيم مدكور.

د. حسام الألوسي، حوار بين الفلاسفة المتكلمين (بغداد ١٩٦٧)

(٢) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٩٥٧م) ص ٥٠-٥١.

(٣) مدكور، د. إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، (القاهرة ١٩٤٧) ص ٩-٣٠.

(٤) هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروة وحسن قبیس، بيروت ١٩٦٦ ص ٣٠.

(٥) في إشارة لابن النديم في (فهرسته)، أنه كان يرى أن أصل الكتب الفلسفية ونحوها من علوم عقلية هو بابل، ثم صارت إلى مصر، بعد أن ملكها (هرمس البابلي) الذي كان من أكمل القوم عقلاً، وأصوبهم علماً، والطفهم...، ص ٣٠٠، ديورانت، قصة الحضارة، ج ٦ ص ١٤ فما بعدها، وانظر بهذا الخصوص رأيه في اقتباس الفلسفة اليونانية من الحضارات التي سبقتها والتي اكتشفت مؤخرًا في بحر أيجيا التي كانت متأثرة بدورها بالحضارات البابلية والمصرية وغيرها من حضارات الشرق القديم...

والفلسفة العربية الإسلامية والفلسفة في مدرسة بغداد الفلسفية كما أسلفنا، هي نتاج العقل المعتقد المتأمل، فبينها وبين الإسلام أكثر من وشيجة وصلة، وليس هناك مجال للشك في أن الدين الإسلامي الحنيف ومعجزته القرآن الكريم من الديانات السماوية التي احتضنت العقل وبالغت في تقدير العلم والبحث والمعرفة بشتى مجالاتها (١)

ولكل ما مر نجد من الأنصاف أن نحدد معالم فلاسفتنا ومفكرينا بما هم أهلهم، فهم في الحقيقة لا يتعدون عن كونهم فلاسفة عرب مسلمين بقدر ما يتعدون عن كونهم محسوبين على هذا الفيلسوف اليوناني أو ذاك، لأن فلاسفتنا قد تقاسموا هذا الموقع الوسط الموفق المتعدد الأصول والأبعاد لظهور مدى الوحدة والتلاحم في الفكر العربي الإسلامي (٢)

أما لماذا حدد بعض الباحثين أن هذه فلسفة عربية إسلامية قبل ابن رشد وتلك بعده، أو لماذا لم تعط تسميات محددة زمنياً مثل ما جرى للأدب العربي وتقسيمه بحسب العصور التي مر بها، فالحقيقة أن كل تراث أنساني يخضع لمؤثرات تطبعه بطابعها، وبحقبة يتميز بها، فالفلسفة في الغرب تنقسم اعتيادياً

(١) في القرآن الكريم عشرات الموارد التي أسهمت في تثمين العلم والمعرفة منها على سبيل المثال لا الحصر: آل عمران: ٢٠، ١٨، ١٩، ٧، ٦٦، والنساء: ١٨٣، ١١٢، والأنعام: ١٤٤، ١١٩، ٥٠، وغيرها. وفي القرآن الكريم أيضاً تأكيد على أهمية القلم والقرطاس والسطور وما اشبهها من مستلزمات التدوين، وإن سبحانه أقسم بالقلم وما يسطرون، وقد بلغت مواردها أكثر من ٤٦٠ مورداً، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وضع محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥١٩-٥٩٥، ص ٥٢٩-٥٤٠، وغيرها كما أن لفظ العقل وغيرها ويعقلون ونحوها وردت في أكثر من خمسين مورداً، فهارس القرآن الكريم وضبع محمود رامبا، ص ٧٩٦، ٧٠٨، وغيرها، مقالنا (القلم ومستلزمات التدوين في القرآن الكريم)، مجلة البلاغ، بغداد / أيار / ١٩٧٠، العدد الثاني، السنة الثانية، ص ٢٧.

(٢) مثال ذلك المدرسة الفقيضية الإسلامية، كما يمثلها الفارابي وابن سينا في مسألة قدم العالم بالزمان وحدوته بالذات وما وراء ذلك من قضايا فلسفية معقدة مثل: فكرة العلة التامة والزمان...، والمتعمق في هذه المشكلات: يرى أن الفارابي وابن سينا كانا واقعيين تحت تأثيرات يونانية (أرسطية أفلوطينية) وإسلامية (القرآن وعلم الكلام)، ولا عيب في ذلك فهو انفتاح حضاري واجب الممارسة في كل زمان ومكان على أن لا يطمس الهوية، والمثال على ذلك قول فلاسفتنا أن الهولاء قديم بالزمان فهو يوافق قول أرسطو في (أزلية مادة العالم) ولكنه ينطلق من مقدمات أخرى واعتبارات تجعل هذه الهولاء بالرغم من أزليتها بالزمان فهي مبدعة من جهة، وبخالف المذهب الأرسطي من جهة أخرى، (فصل هذا الأمر: مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه)، ص ٢٨ فما بعد والدكتور الألوسي، المرجع السابق، ص ٢٨-٥٩.

إلى ثلاث حقب معروفة والتاريخ الإسلامي ذاته ينقسم إلى عصور معروفة أيضاً، ولكن لا يمكن ان نقسم تاريخ الفلسفة بناء على ذلك التقسيم...

ومهما يكن فالتقسيم اجتهادي واعتباري ويتوقف على اعتبارات هذا الباحث أو ذاك، ولذلك فان بعض الباحثين في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية يرى ان تاريخ هذه الفلسفة لم يمر الا بمرحلة واحدة فحسب، وهي تلك التي بدأت بظهور الإسلام وانتهت في المشرق مع الغزالي (ت ٥٠٥هـ - ١١١١م) وفي المغرب مع ابن رشد (ت ٥٩٥هـ - ١١٩٨م). وعيب هذا الرأي انه يقف بالفلسفة عند هذين القميتين، علماً بأنها استمرت بعدهما. في حين يرى آخرون انه بانتهاه بعض الأمور في الإسلام المغربي مع ابن رشد بدأت أمور أخرى مع ابن عربي (٦٣٨هـ - ١٢٤١م) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) وغيرهما وبقيت حتى أيامنا هذه.

كما ان القول بان الغزالي قضى على الفلسفة في المشرق قضاءً مبرماً لم تتم لها بعده قائمة، زعم خاطئ لا يدل على علم بالتاريخ ولا على فهم لحقائق الأمور^(١)، لأن أبا البركات البغدادي (مات بعد ٥٦٠هـ - ١١٦٤م) نبغ بعد ذلك^(٢)، وابن المطهر الحلي (٧٢٦هـ - ١٣٢٦م) جدد (مدرسة بغداد الفلسفية) وعممها واتخذها قسماً من أقسام الدروس في المدرسة النظامية، بل ان المفكرين في هذه المرحلة اصبحوا اكثر عمقاً واطلاعاً على المدارس المختلفة، كما استوت الفلسفة الاشراقية وظهرت أمهات الكتب الفلسفية الجامعة...^(٣)

(١) دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٣١٩.

(٢) هو هبة الله علي بن ملكا، قيل انه بلغ من العمر تسعين عاماً، وكتابه (المعتبر في الحكمة) مطبوع في ثلاثة مجلدات في حيدر آباد (١٣٥٧-١٣٥٨).

(٣) نقرأ، على سبيل المثال لا الحصر: كتاب (المعتبر في الحكمة) لابن ملكة وكتاب (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) للشيخ الحسن ابن المطهر الحلي

ورسالتنا هذه ،ومن خلال دراستها لواحد من ابرز الشخصيات الفكرية في القرنين السابع والثامن الهجريين، العلامة ابن المطهر الحلي، تراه قد رسخ قواعد جديدة لاستمرار هذه الفلسفة ،وعمل لتأصيلها ،كما نقرأ في كتابه { الأسرار الخفية في العلوم العقلية} تأكيداً لا يرقى إليه الشك في استمرار هذه الفلسفة بصيغتها العربية الإسلامية، وعلى وفق ما قررنا:

محمل القول:

محمل القول ،وفي صميم كل الذي ذكرنا تؤكد هذه الأطروحة الآتي:

= ان مسألة الخلافة والإمامة، ونحوها من أفكار لونت فكر أصحاب الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) (ت ١٤٨هـ/ ٧٦٥م)، مرورا بالعشرات منهم حتى وصلت الى العلامة ابن المطهر الحلي في القرن السابع، أن هي الا طيف من أطراف الفكر الفلسفي العربي الإسلامي على الساحة الثقافية في عصره، وعصر اتباعه من بعده.

= ان مسألة استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الأصلية، سواء أكان ذلك الأصل هو الرأي ام القياس ام الاستصحاب ام المصالح المرسلة ام غيرها على وفق ما قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، او على وفق ما وجدته مناسباً الإمام مالك بن انس (ت ١٧٣هـ/ ٧٨٩م)، او ما قعد له القواعد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، فهي ،مجتمعة، أفكار مؤسسة، تتحاور في مناخ الفكر العربي الإسلامي المتنور، وهي فكر فلسفي عربي، لا يتخطى مرجعياته بأي حال، أفكار عقلانية في صميم الفلسفة العربية الاسلامية ...

= الحملة الشعواء التي قادها الإمام احمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، وطلابه فيما بعد حتى ابن تيمية أحد أعمدة الخطاب السلفي في القرن السابع، أن هم الا أهل فكر له مقوماته في مقابل أفكار أخرى، تتحاور ضمن حوار حضاري، لا تفسد للود أمرا ولا قضية، وان كان فيها من الحدة ما فيها، فهي حوار أفكار وحوار الأفكار مسألة فلسفية.

= أفكار واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ/ ٧٤٨م)، وزميله عمرو بن عبيد (ت ١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، وأقطاب الاعتزال الكبار من (مدرسة البصرة)، أبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، وإبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، وأقطاب مدرسة الاعتزال البغدادية حتى ابن أبي الحديد (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، أو من تابعهم من الخلفاء، الخليفة الأموي يزيد بن الوليد (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م)، أو الخلفاء العباسيون، المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣١م)، والمعتصم (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤١م)، والواثق (ت ٢٣٢/ ٨٤٦م)، الذين وجدوا في الاعتزال جهداً حضارياً شاقاً اختار العقل منهجاً تحليلياً، وإماماً يقود الفكر العربي الإسلامي في حوار حضاري، هذا الجهد يمكنه تشخيص بصمات الفكر الفلسفي في كل مفاصله...

على امتداد التاريخ الحضاري، وما انتجه عقل الإنسان من نشاط فلسفي، لم يكن هذا يسير في خط مستقيم، ومع هذا كانت هناك علاقة واضحة بين دور الفكر العربي الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، ومصادق ذلك في حالات الانتعاش الحضاري، يشيع قانون الحوار، وفي حالات التراجع الحضاري فأن قانون الصراع هو الذي يشيع، وفي كلتا الحالتين يبقى الفكر الفلسفي يتعمق... ومسألة خلق القرآن وما نجم عنها ليست استثناء من ذلك...

= أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، في مناظرته مع أستاذه الجبائي، رئيس مدرسة الاعتزال، حول أمور عقلية معقدة، مكنت الأشعري أن ينسلخ عن الاعتزال ويقف موقفاً وسطاً بين إمامة العقل وسلطانه، وبين حكم النقل وحجة اسانيدِهِ...

و في خضم هذا الجدل يمكن تشخيص بصمات الفكر الفلسفي في حياة الأمة عصر ذلك، الذي كان الملون لهذا التيار الفكري الضخم، الذي ارتفع شيئاً فشيئاً بجهود تلاميذ الأشعري، و من أوائلهم: أبو بكر الباقلاني

(ت ٤٠٤هـ/١٠١٣م)، وأمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، وأبو الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)...

ثم صار لهذا الفكر الفلسفي العربي الإسلامي شأن كبير مع الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، وفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، والآمدي (ت ٦١٣هـ/١٢٣٤م)، حتى وصل القاضي الايجي (ت ٧٥٦هـ/١٢٠٩م)، وهو من قادة الفكر الفلسفي العربي الإسلامي في القرنين السابع والثامن .

أحكمت مسألة العقل والنقل مساحة كبيرة من أفكار الأشاعرة بهدف توسيع ارض الدرس الفلسفي، باتجاه التفاعل مع الواقع، الذي يعتمد الحوار وسيلة وهو بلا ريب جزء مهم من تأريخ الفلسفة العربية الإسلامية...
= الذين اتهموا ظلماً وعدواناً بأنهم يرفضون النهج العقلي، انطواءً على النفس او عبثاً وعشوائية، هؤلاء عملوا ما وسعهم الجهد على اكتشاف الحق عن طريق الذوق والكشف...

هم جميعاً منذ أول صوفي مارس علم الكلام والفكر الفلسفي الشيخ معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ/٨١٥م)، والحاتر المحاسبي (ت ٢٤٣هـ/٨٦٣م)، مروراً بالجنيد البغدادي (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م)، والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ/٩١٩م)، وحتى شهاب الدين بن حبش السهروردي (ت ٥٨٧هـ/١١٨٩م)، مؤسس فلسفة الإشراق، وشيوخ فرق الصوفية، الكيلانية: أصحاب عبد القادر الكيلاني (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م)، والكيزانية: أصحاب ثابت المصري (ت ٥٦٢هـ/١١٦٨م)، والرفاعية: أصحاب احمد الرفاعي (ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م)، والشاذلية: أصحاب علي الشاذلي التونسي، (ت ٦٥١هـ/١٢٥٦م)، والمولوية: أصحاب الشاعر جلال الدين الرومي، والاحمدية: أصحاب احمد البدوي (ت ٦٧٥هـ/١٢٧٦م)، والنقشبندية: أصحاب بهاء النقشبندي (ت ٧٩١هـ/١٣٨٩م)، وغير هؤلاء كثيرون...

هم مفكرون عقليون، فلاسفة عرب مسلمون، اتخذوا من العقل بقدر إنسانيته، سيداً وإماماً بالصيغة التي وجدوها مناسبة باعتبارهم دعاة قضية، يدعون الى الله كل على وفق عصره ومستوى العلوم في زمانه، حاول بعض ممن لا قدرة له على التحليل تجريدهم عن أفكارهم، ونعتهم بما ليس فيهم... = الكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا ومسكويه وابو حيان التوحيدي هم وأقرانهم في المشرق...

وابن طفيل وابن باجة وابن رشد وإضرابهم في المغرب، بدأوا جميعاً من حيث أثارَت سبلهم فلسفة الإغريق، فأخذوا منها ما شاءوا، نفضوا الغبار عما وجدوه قديماً، فصلوا القول في المتون والمطولات، واسهبوا في المتوسطات والمختصرات، عربوها، شذّبوها، وضعوا لها العناوين والفهارس، ثم حاولوا ما أسعفهم به الزمان والمكان من التلفيق والتقريب، والأخذ والعطاء، ثم ردوها الى أهلها احسن مما كانت على زمان أصحابها العظام من سقراط وافلاطون وأرسطو وأفلوطين، ومن جاء بعدهم من القمم...

هم جميعاً فلاسفة عرب مسلمون، اسهموا في تأسيس فلسفة عربية اسلامية... عربية في ألفاظها، إسلامية في مضامينها، إغريقية في هيكلها، قهرت الجسد كما قهره الهنود، وصبروا على التفكير بمنزل ما صبر عليه أهل الصين، كل ذلك كان قريباً من العقل، بعيداً عن العبث، هي هكذا طريقة للتفكير في بيئة عربية إسلامية، لا نبتغي منها حولاً ولا انفكاكاً...

ان الفلسفة العربية الإسلامية فن حياة الأمة، كانت وما زالت ضماناً لحقيقة الأمة وسياجاً للحقيقة، وهي وسيلة للتعامل الحضاري مع الواقع البعيد عن الحقيقة، الذي يرى بعض من أهله: ان الغرب أصحاب التأسيس والحضارة،... ولسنا هنا في معرض النقاش، شرط ان لا يهضم الحق، ولا يسلب الناس أشياءهم...

كلمة أخيرة:

الفلسفة العربية الإسلامية ، ومنذ مؤسسها الكندي ، ما كانت مجرد فكر بلا زمان ولا مكان ، هي مستقرة في مجتمعها العربي الإسلامي أي كانت حدوده، مستظلة تحت خيمة الحضارة العربية الإسلامية الممتدة عبر الاف السنين ، وهي - بلا شك- هيكل فكري نشأ في عصر الرسالة ، قام به جيل مبارك، خدم مجتمعا، وعبر عن حضارة . هذا الموضوع هو الذي دعا الباحث -في حقيقة الأمر- الى التفكير في بيان إشكالية الفلسفة العربية الإسلامية ، وعلاقته الجدلية مع عنوانها، ومضامين نصها والكلام في عين ماهيتها ، فقد وجدناه حاضرا بين يدي أهله في كل عصر وفوق كل مكان حاول ويحاول ان يطلق العنان للعقل العربي المسلم، لتدقيق أبنيته النفسية والاجتماعية والاقتصادية...

موقف الفلسفة العربية الإسلامية الحضاري اليوم ،متواصل غير مقطوع ،ينطلق من محاور ثلاثة واجبة التدقيق والتقصي والا كانت الفلسفة العربية الإسلامية ،غير متحضرة ،بل قد تكون من غير موضوع ومن دون هوية :-

المحور الأول:- الفلسفة العربية الإسلامية هي من تراث السلف الصالح ذكية، تعبر عن مجتمعها التراثي ،الذي يعي تاريخه، و أنه لن يكون معافى ان لم يجعل قنواته مفتوحة على ذلك التراث العتيذ، فما زال السلف الصالح يمثلون - بالنسبة لنا نحن أبناؤهم -المعين الذي لا ينضب، إذا ما انحسر الوعي النظري في فكرنا، او عجز من تحليل الظواهر في حياتنا...

المحور الثاني:-

بناء العلاقات بين الفلسفة العربية الإسلامية والتراث الغربي الذي بدأ يكون أحد الروافد الأساسية لوعينا ومجمل مصادر المعرفة التي نملك ،دخلت ثقافته من أوسع الأبواب ،ولم تحدث حركة جادة لكيفية التعامل مع هذا التراث الجارف، والثقافة المعولمة، ولم تقم حركة نقدية لهذا الغزو الا في أقل الحدود، وبمنهج خطابي به حاجة لأدوات المنهج ومنطق البرهان، كي يصنع مشروعا

نهضوا، يكافح العدوان بكل ما يدخر من عمق فكري وجذر حضاري، ويتضامن مع الحضارة الأوربية في أمورها الإنسانية .

المحور الثالث:-

للفلسفة العربية الإسلامية موقف من الواقع الذي يعيش الناس... الأمة في شتاتٍ، وتضاد في المواقف ، وقطرية في السياسات، ولل فلسفة العربية الإسلامية موقف من هذا ورؤية، تعين الحاكم والمحكوم على تلمس المسار ومواكبة التحولات، وتصد عنهم عاديّات الزمن الرديء، وتحول دون أن يرسم أعداؤنا خرائط مستقبلنا من وراء ظهورنا.(١)

في آخر الكلام :

كان في القرن السابع الهجري، العشرات من الفلاسفة، كل منهم يستحق الوقوف عنده ودراسة فلسفته ، ولكن ما كان هذا من منهج العمل في هذه الدراسة، وقد اخترنا من هذه القمم ،شخصيتين ، لا باعتبارهما الأحسن أو ألا جود أو نحو ذلك من ألفاظ المحاسن ولكن بهدف دراسة طريقتين مختلفتين في السلوك والطرح والانتماء...

الأول:

اصوله فارسية صار مبرزاً في الفلسفة العربية الإسلامية ،وهو الشيخ نصير الدين الطوسي...

الثاني:

وهو فيلسوف من الديانة اليهودية ،حاول ركوب موجة العداء للإسلام في عصر منفلت وهو عز الدين ابن كمونة...
بصفتهم نماذج مختارة لفلاسفة هذا القرن...

(١) فصلنا هذا في دراستنا: الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية، ضمن كتاب بحوث الندوة الفلسفية العربية الثانية، الجامعة الأردنية، عمان، شباط، ٢٠٠٠ .

المبحث الثاني

نصير الدين الطوسي^(١)

(٥٩٧هـ/١٢٠١م - ٦٧٢هـ/١٢٧٤م)

الشيخ نصير الدين ، أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن^(٢) ، وقيل

(١) اعتمدنا في دراسة الطوسي المصادر والمراجع الآتية :

- الحوادث الجامعة ، المنسوب لابن الفوطي ، ص ٣٣٠ ، ٣٥٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤١٧ .
- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠١ ، ٢١٥ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ .
- البحراني ، لؤلؤة البحرين ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ٢٥٢ .
- ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٣٩ .
- ابن شاکر ، فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٤٢ .
- الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ١٧٤ ، ٢٢٧ ، ٣٦١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
- العاملي ، السيد محسن ، أعيان الشيعة ، ج ٤ ص ١٨ - ٤ .
- قدری حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٠٩ - ٢١٢ .
- عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٧٢ - ٥٠٣ .
- الطهراني ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، عدة أجزاء وعدة موارد .
- الشيبی ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، عدة موارد .
- الأعمس ، د . عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام ، بيروت ١٩٧٥ .

- مدرسي رضوي ، محمد تقي ، العلامة الخواجه نصير الدين الطوسي ، حياته وآثاره ، تعريب علي هاشم ألا سدي ، طهران ١٩٩٤ .

(٢) البحراني ، الشيخ يوسف ، لؤلؤة البحرين ، ص ١٥٨ ، الخوانساري ، روضات الجنات ،

ص ٦٠٥ ، الشيخ عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٧٢ ، الأعمس ، د . عبد الأمير ،

نصير الدين الطوسي ، ص ٢٢ .

الحسين^(١)، الطوسي^(٢)، الفيلسوف^(٣) المحقق^(٤)، قال عنه العلامة ابن المطهر الحلي : (مولانا الأفضل الأكمل نصير الحق والملة والدين)^(٥) وأشرف بن المطهر الحلي في أن يسميه أستاذ البشر

والعقل الحادي عشر^(٦) نسبة إلى عقول نظرية الفيض العشرة ، فكان الطوسي على وفق ذلك (العقل الحادي عشر) ، وهي مبالغة اعتاد عليها السلف الصالح في مدح من يحبون، وقال عنه الحلي أيضاً:

(أفضل أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية)^(٧).

وعلى رأي الشيخ يوسف البحراني في كتابه (لؤلؤة البحرين) :
(زين المحققين وأفضل المتأخرين)^(٨) والطوسي على رأي الشيخ تقي الدين بن تيمية (كان وزيراً للملاحدة في الموت وهو الذي دفع هولاءكو إلى قتل

-
- (١) البغدادي ، إسماعيل باشا ، هدية العارفين ، ج ٦ ص ١٣١ .
 - (٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٠ ، وقال عنه بإعجاب : (الإمام العلامة نصير الدين محمد بن محمد الطوسي نسبة الى طوس، وهي مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على قصبتين وألف قرية ، تضم مشهد الإمام علي بن موسى الرضى ، (ت ٢٠٣/٨١٨) ، والخليفة العباسي هارون الرشيد (١٩٣هـ/ ٨٠٨م) .
 - (٣) ابن شاکر الکتبی ، فوات الوفيات ، ج ٢ ص ١٤٢، مدرسي رضوي، نصير الدين ، ص ٨٨-٩٨ .
 - (٤) ابن المطهر الحلي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ٢ ، العاملي ، أعيان الشيعة ، ج ٤ ص ١٠ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ٢-٣ .
 - (٦) الأعمش ، د. عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، ص ٢٣ .
 - (٧) المجلسي ، محمد باقر بن محمد تقي (١١١٠هـ/ ١٦٩٨م) بحار الأنوار ، طهران ١٣٠٢ هـ ، ج ١٠٤ ص ٦٢ (أجازه الحلي لبني زهرة) .
 - (٨) البحراني ، لؤلؤة البحرين، ص ١٥٨ .

الخليفة^(١)، و أسرف ابن القيم الجوزية في وصف الطوسي بما يشين ، قائلا
(نصير الترك والكفر، الملحد، وزير الملاحدة ، النصير الطوسي، وزير
هولاكو)^(٢).

وقال ابن العماد في كتاب (شذرات الذهب) :

إن الطوسي في شرحه لكتاب (الاشارات والتبیهات) رام جعل إشارات
إمام الملحدین ابن سینا مكان القرآن فلم یقدر على ذلك^(٣).
ووصفه السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) إنه (الشیطان المبین
الحکیم نصیر الدین الطوسی)^(٤).

في حين يجد بعض الباحثين أن نصير الدين الطوسي كان سجيناً في قلاع
الإسماعيلية وكثيراً ما دخل سجون (الموت)^(٥).
وإن الطوسي اغتتم فرصة قربه من هولاكو : (للاحتفاظ بما بقي من
العلماء والفلاسفة والحكماء من الإبادة التي كانت تنتظرهم .
وللحيلولة دون اكتمال الكارثة المنصبة على الإسلام والمسلمين فكان
نتيجة ذلك أن انتهى أمر المغول بعد حين إلى اعتناق الدين الإسلامي)^(٦).

(١) في رسالته (الرد على النصيرية) ، مصر بلات ، ص ٨٩ .

(٢) إغاثة اللفهان ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، مدرسي رضوي ، نصير الدين الطوسي ، ص ٧٠-٧١ .

(٣) ابن عماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٣٩ .

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١١٤-١١٥ .

(٥) عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٧٩ - ٤٨١ ، مدرسي رضوي ، المرجع السابق ،
ص ١٤-١٧ .

(٦) عبد الله نعمة ، المرجع السابق ، ص ٤٨١-٤٨٥ .

وابن كثير في موارد من كتابه (البداية والنهاية) يسمي الطوسي (المولى) ^(١) ، وفي أحيان أخرى يدعوه بـ (الخواجه) ^(٢) ، وهو وصف أخذه عن ابن كثير المؤرخون من بعده ^(٣) .

المستشرق الألماني بروكلمان وجد الطوسي :

(أشهر علماء القرن السابع ، وأشهر المؤلفين فيه إطلاقاً) ^(٤) ، وهو عبد سارطون (من اعظم علماء الإسلام ، ومن اكبر رياضيينهم) ^(٥) ، والشيخ اغازرك الطهراني ، كان يدعوه (سلطان المحققين ، وأستاذ الحكماء والمتكلمين) ^(٦) ، ووصفه عبد الله نعمة :

(من الأدمغة الكبيرة العالمية ، ومن العباقرة الذين لم تتجب الدنيا منهم الا القليل بالعلم والفلسفة والفلك والرياضيات) ^(٧) .

نسجت حول شخصية الطوسي خرافات وأقاصيص وحكايات مبالغ فيها ، الكثير منها من نسج الخيال ^(٨) .

وضع الطوسي كتباً كثيرة في الفلك والتنجيم والاختيارات والبصريات والطبيعيات والجغرافية ، هذا غير الحكمة وعلم الكلام والمنطق والعلوم العقلية الأخرى ^(٩) .

(١) ج ١٣ ص ٢٠١ ، ص ٢١٥ ، الأعمش ، نصير الدين ، ص ٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٤٢ ، ٢٦٧ ، الأعمش ، المرجع السابق ، ص ٢٢-٢٣ .

(٣) الأعمش ، د. عبد الأمير ، نصير الدين ، ص ٢٣ .

(٤) عبد الله نعمة ، المصدر السابق ، ص ٤٧٢ ، الأعمش ، د. عبد الأمير ، المصدر السابق ،

ص ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٧١-٤٧٢ .

(٦) الذريعة الى تصانيف الشيعة ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ ، ج ٤ ، ج ٥ ، ج ٦ عدة مواضع .

(٧) فلاسفة الشيعة ، ص ٢٧٣ .

(٨) الأعمش ، المصدر السابق ، ص ٧٣-٨٧ .

(٩) قدرى حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، مصر ١٩٥٧ ، ص ٢٠٩-٢١٢ .

وهو في إنتاجه الغزير هذا عالم منظر ، سواء في ابتكاراته الفلكية أم أزياجه المعتمدة ، وتحريره لكتاب المجسطي لبطليموس ، يعدّ من أجل أعماله الفلكية ، وابتكاراته العلمية على العموم ، هذا غير تطويره لصناعة الإسطرلاب وتأليفه كتباً عديدة تبحث في طرقه وإعداده^(١) .

الطوسي قبل هذا (احد حكماء الإسلام المشار إليهم بالبنان)^(٢) ، بل هو فيلسوف سينوي متخصص ، معايير إدراك الفلسفة السنيوية تعتمد بالدرجة الأولى على شروحه^(٣) ، يمتاز فكره بالتححرر من رواسب التفكير اليوناني وسواه^(٤) .

هذا الأمر يدل على ذكاء مبكر وجهد سابق ، يؤسس لهذه العبقرية ، التي صارت إراثاً عاماً للحضارة العربية الإسلامية ، شأنها في هذا ، شأن الكثير من تراث أعلام الأمة في مشارق الدنيا ومغاربها ، لا تتفرد بهم قومياتهم فيتقزمون ، ولا تستأثر بهم العربية فيتحجمون ، ماضون في خدمة الأمة بأسرها على كلمة سواء ، فلا سيطرة ، ولا هيمنة ، ولا استعلاء الجمع عرب مسلمون^(٥) ، لا ينبغي التفريق بينهم ، أو التفريط بأي منهم^(٦) .

(١) الأعمش ، د. عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، ص ١٣٦ ، ١٤٤ .

(٢) قدرى حافظ ، طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) الأعمش ، د. عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٤ .

(٤) عبد الله النعمة ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٧٢-٤٧٤ .

(٥) دراستنا ، فلسفة التاريخ ، دراسة مفصلة ، اعمال المؤتمر الفلسفي الثاني لبيت الحكمة ،

آذار ٢٠٠١ .

(٦) ان الفلسفة العربية الإسلامية ، ليست من إنتاج العربي بالدم فحسب ، بل هي من نتاج القرآني ثقافة وإسلاماً ، ونتاج أولئك الذين تكلموا العربية وكتبوا بها ، ومن غيرهم ضمن العلاقات الاجتماعية الزمنية والمكانية ، وهي علاقة واحدة تمضي إلى حيث يرفدها القرآن معجزة محمد صلوات الله عليه ، بالمدد الفكري المتلزم ، فصلنا هذا في دراستنا (الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية) ، ضمن بحوث الندوة الفلسفية العربية الثامنة ، الجامعة الأردنية ، شباط ، ٢٠٠٠ .

مؤكدین هنا : أن الطوسي ليس إرثاً فارسياً وحسب^(١) ، كما أنه ليس (إرثاً عاماً للحضارة العربية)^(٢) ، دون ربطها بالإسلام ، لان العرب والإسلام شجرة واحدة وارفة الظلال خيرها للجميع .

شيء من تاريخ الطوسي ونشأته:

ما أن انتهى الشيخ نصير الدين الطوسي من دراسته للمقدمات وأوليات العلوم على أبيه وخاله، وبلغ مبلغ الرجال ، تشوقت نفسه لتحصيل العلوم الفلكية والهيئة والمضي في الدراسات الفلسفية ، يومها عصفت بالأمة جيوش التتار^(٣)، وهي جيوش بدوية لا ثقافة لها ولا دين ، يقودها جنكيز خان ، وهو سفاح تجمعت بين يديه أسلحة الدمار، وهانت في حالته قتل النساء والأطفال (فدمر البلاد و أفقرت من السكان)^(٤) وتساقطت مدن الإسلام الواحدة بعد الأخرى ، حتى كان نصير الدين الطوسي من القلائل الذين نجوا بحياتهم من مذبحة نيسابور عام ٦١٨هـ/١٢٢١م) وقد تخطى العشرين من العمر .

(١) بحوث المهرجان العالمي احتفالاً بذكرى نصير الدين الطوسي ، طهران ، ١٩٥٦ .

(٢) الأعمى ، د. عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، ص ١١ .

(٣) فصلنا امر غزو التتار للديار الإسلامية حتى سقوط الدولة العباسية في الفصل السابق ، المبحث الثالث، ينقل الدكتور عبد الأمير الأعمى عن رضى قلى هدايت في كتابه (رياض العارفين) أن خال الطوسي كان اسمه (الحكيم فاضل بابا فضل الكاشي ، وانصرف ذهن الأعمى الى أن هذا هو نفسه الفيلسوف أفضل الدين الكاشي محمد مرقى كاشاني المتوفى عام (٧٠٧هـ/١٣٠٧م) وهو غير ذلك مطلقاً لفارق السن ، وقد انصرف ذهن الدكتور الأعمى أيضاً الى ان عمر الطوسي عند وفاة خاله عشر سنوات ظناً منه ان الطوسي ولد عام ٦٩٧هـ وهو ليس كذلك ، بل كانت ولادة الطوسي عام ٥٩٧هـ ووفاته عام ٦٧٣هـ كما هو ثابت ، ص ٢٨ .

(٤) سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٧٤٢ .

وبعد أن حول جنكيز خان آسيا الوسطى وفارس والعديد من دول الإسلام إلى صحراء عاد إلى بلاده حيث هلك بعد حين ، تمكن الطوسي وقتها من الهرب إلى طوس ، والنجاة بحياته من فوضى المغول ، ليعيش مأساة أمته (متأزماً يعاني قلقاً نفسياً شديداً)^(١) ، وهو أمر طبيعي أوقات المحن ، وظل الطوسي على هذه الحالة زهاء ست سنوات (٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م)^(٢) يجاهد مرضه النفسي ، ويكتم خوفه ، ويكافح تخاذله ، منطقياً معزولاً ، يمارس هوايته في الدرس والمتابعة ، بعيداً عن الناس ، ودون الرجوع إلى حلقات المدرسين في طوس^(٣) ، يدرس - بصيغ تلفت النظر - كتب الشيخ ابن سينا بدقة وصبر عجيب ، فبرع بهذه الفلسفة وصار من كبار المتخصصين بها^(٤) ، وهي أمور ساعدته على تخطي آلامه النفسية .

ثم عاد الغزاة من جديد بقيادة جديدة ، انهارت أمامها جميع أسباب المقاومة الإسلامية المتاحة في تلك الأمصار^(٥) ، ولم تصمد سوى قلاع القرامطة الإسماعيلية التي حصنتها قمم الجبال ، وظلت تقاوم صدمات التتار وزحفهم ، الى حين (الأمر الذي قرر معه الطوسي اللجوء إلى قلاع هؤلاء عند أول دعوة أو إشارة أرسلها ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور الإسماعيلي ، حاكم قوهستان ، ووزير داعي الإسماعيلية الأكبر^(٦) علاء الدين محمد .

(١) الأعمش ، د . عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، ص ٣٣ .

(٢) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٦٠٥ ، البحراني ، لؤلؤة البحرين ، ص ١٥٨ ، عبد الله نعمة ، فلسفة الشيعة ، ص ٤٧٩ .

(٣) الأعمش ، د . عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٤ .

(٤) عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٨٨-٤٩١ ، مدرسي رضوي ، نصير الدين الطوسي ، ص ٨٨-٩٨ .

(٥) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٠٤ .

(٦) البحراني ، لؤلؤة البحرين ، ص ١٥٨ ، الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٦٠٥ .

بانتقال الطوسي إلى قلاع الإسماعيلية ، بدأت صفحة جديدة دامت زهاء ٢٨ عاماً من ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م لغاية عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٥م^(١)، كانت فترة خصبة ثرية بعطائها ، اهتمت بالعلوم العقلية ، الفلسفية منها والأخلاقية والكلامية والمنطق ، وهو ما تهتم به الفلسفة الإسماعيلية خاصة ، حيث اتجهت مصنفات الطوسي في هذه الفترة اتجاهاً فلسفياً ممزوجاً بالنفس الإسماعيلي الخالص .

أول مصنفات الطوسي في هذه الفترة كان كتابه (أخلاق ناصري) باللغة الفارسية^(٢) . كما كتب (تقويم علائي) باسم الزعيم الإسماعيلي الأكبر علاء الدين محمد ، وكتب عشرات غيرها ، يقف في مقدمتها كتاب شرح الإشارات والتنبيهات .

أكثر الطوسي في هذه المصنفات من الدعاء للقادة الإسماعيليين فكان في هذه المرحلة ، أنموذجاً لواحد من وعاظ السلاطين ، يكتب بما يرغبون ، ويسعى إلى ما هم إليه ساعون ، حتى صار الشيخ الطوسي من أكبر دعاة الإسماعيلية ومنظرها في زمانه^(٣) .

وثمناً لهذا العطاء : (استدعاء الزعيم الأكبر للإسماعيلية علاء الدين محمد، واستضافه في قلعة (ميمون دز) وظل النصير في صحبته حتى اغتيل من قبل أحد غلمانه^(٤))، فانتقل إلى العمل صحبة خليفته ولده ركن الدين ، وانتقل معه

(١) تفصيلاً لتاريخ هذه الفترة وتحرك جيوش المغول : رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ، ج ١ ص ٢٣٢-٢٣٩ ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩-٣٣٠ ، خصباك ، العراق في عهد المغول، ص ٤٩ فما بعد .

(٢) فصل أمر هذا الكتاب ، مدرسي رضوي ، محمد تقي ، نصير الدين ، ص ٤٠٦-٤٠٧ .

(٣) يقول الدكتور كامل مصطفى الشبيبي ، (ينبغي أن نتذكر أن نصير الدين الطوسي ، بوصفه إسماعيلياً أو فلسفياً على العموم - قد صدر عن التيار الإسماعيلي نفسه وذلك من طبيعة الأشياء ، الفكر الشيعي ، ص ٩٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٨٣ فما بعد ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ، ج ١ ص ٢٥٤ .

إلى قلعة (الموت) ، فبرز النصير أستاذًا محاضرًا يمارس الدرس الفلسفي على النمط الإسماعيلي في قلاع الإسماعيلية كلها ، ومستشاراً ونديماً للداعي الإسماعيلي^(١).

وفي قلاع الإسماعيلية المحصنة ، لم تمنعه من سماع أصداء حوافر خيول التتار ومشاهد قتل النساء والأطفال التي لم تبرح مخيلته ، فعاد إلى مرضه النفسي القديم ، كما وصفها صادقاً في آخر صفحات شرحه للإشارات فقال:
((رَقَمْتُ أَكْثَرَهَا فِي حَالٍ صَعْبٍ ، لَا يُمْكِنُ أَصْعَبُ مِنْهَا حَالٍ ، وَرَسَمْتُ أَغْلِبَهَا فِي مَدَّةِ كِدُورَةِ بَالٍ ، بَلْ فِي أَرْمَنَةِ يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا ظَرْفًا لَغَصَّةٍ ، وَعَذَابُ الْيَمِّ وَنَدَامَةُ وَحْشَةِ عَظِيمٍ ، وَ أَمْكَنَةُ تَوْقُدُ كُلَّ أَنْ فِيهَا زَبَانِيَّةُ نَارٍ جَحِيمٍ ، وَيَصِيبُ مِنْ فَوْقِهَا حَمَمٌ ، مَا مَضَى وَقْتُ لَيْسَ عَيْنِي فِيهِ مَقْطَرًا ، وَلَا بِأَلِيٍّ مَكْدَرًا ، وَلَمْ يَجِئْ حِينَ لَمْ يَزِدْ أَلْمِي ، وَلَمْ يَضَاعِفْ هَمِّي وَغَمِّي ، وَنَعَمْ مَا قَالَ الشَّاعِرُ بِالْفَارْسِيَّةِ :

بكردا كردخود جندانكه بينم بلا انكشتري ومن نكينم

وما لي ليس في امتداد حياتي ، زمان ليس مملوء بالحوادث المستنزمة للذرامة الدائمة ، والحرسة الأبدية ، وكان استمرار عيشي أمير جيوشه غموم ، وعساكره هموم ، اللهم نجني من تراحم أفواج البلاء وتراكم أمواج العناد ، بحق رسولك المجتبي ، ووصيه المرتضى ، صلى الله عليهما وآلهما ، وفرج عني ما أنا فيه ، بلا إله إلا أنت ، وأنت ارحم الراحمين)^(٢).

كما نرى لم يتعرض الطوسي إلى حال الأمة وهي تمر بأزمة تاريخية على أيدي التتار الغزاة ، كما فعل علماء مروا بمثل الذي مر به الطوسي ، فقد كتب ياقوت الحموي رسالة دامية يصف حاله وهو يحاول الهرب من شراسة

(١) الأعمش ، د. عبد الأمير ، نصير الدين ، ص ٤٠-٤١ ، عبد الله ، فلاسفة الشيعة ، ص ٤٨٠ .

(٢) الإشارات والتنبهات ، ج ٣ ص ٤٢٠-٤٢١ .

المغول^(١)، بل كلمات الطوسي تلك، كانت على الأغلب نقّات مريض نفسي
بأس، خائف، يرتجف حتى من الكلمات، مخافة أن تتم عن ضعفه، فجاءت
مضطربة، تختلف كثيراً عن أساليب الكتابة المعروفة عن الطوسي.

وفي العاشر من شعبان عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، تجمع عسكر المغول
حول قائدهم هولأكو في ضواحي طوس^(٢)، حيث أمر بالهجوم الموحد على قلاع
الإسماعيلية، وبعد معارك ضارية وحصار مدمر سقطت قلاع الإسماعيلية
الواحدة تلو الأخرى، وكان آخر تلك الحصون قلعة (الموت) التي صعد إليها
هولأكو، فدهش لعظمة ذلك الجبل المنيع^(٣).

فخرج من قلعة (الموت) من جملة من خرج نصير الدين الطوسي
(وحضر بين يدي السلطان (هولأكو) فحظي عنده وأنعم عليه^(٤))، ولما اختبر
هولأكو نصير الدين الطوسي وتأكد من إخلاصه صار مستشاراً له ومضى معه
في حملته على بغداد^(٥)، واحداً من أتباعه، فلكي يزوق الأمور العملية والتطبيقية
لهولأكو، من علماء الاختيارات، يختار لهولأكو الأوقات المناسبة لإجراء
عملياته الحربية وطريقة معاركه وأساليب تعامله مع الناس والرؤساء، ونحو ذلك
من اختيارات يتخصص بها المنجمون، وهي من أخطر أعمال الجيوش والقادة.
وهذا السرد التاريخي لا يهم الدراسة كثيراً، ولكنه على كل حال مدخل
لدراسة هذه الشخصية الفلسفية في تاريخ الفكر الفلسفي العربي الإسلامي في
القرن السابع.

-
- (١) هذه الرسالة نشرها ابن خلكان كاملة في كتابه (وفيات الاعيان) ج ٦ ص ١٢٨-١٣٥ .
(٢) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج ١ ص ٢٥٠-٢٥٤ .
(٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٥٣، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠ .
(٤) الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠-٣٣١ .
(٥) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ج ١ ص ٢٥٦-٢٥٧، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٠-٣٣١ .

كل الذين قرأت لهم من الباحثين وجدوا هذا الرجل فيلسوفاً عربياً مسلماً متحرراً إلى حد كبير من رواسب التفكير اليوناني وسواه ، اتخذ من فلسفة ابن سينا منهجاً وتطبيقاً ، وإن اختلفوا في تفاصيل النصير الأخرى وانتماءاته الفرعية ، إلا الدكتور عبد الأمير الأعسم الذي وجد : (أن الرجل لم يكن فيلسوفاً مؤسساً لصرح عقلي بالذات و إنما كان في عمله الكبير شارحاً لابن سينا ، مستوعباً لهذه الفلسفة العريضة التي تركها لنا الأخير في كتاب الإشارات والتنبهات)^(١) .

وبالتالي على رأي الأعسم : فإن نصير الدين الطوسي كان معلماً للسينوية ، وأستاذاً لها ، وهو على وفق ذلك لم يكن إلا تابعاً لها في النظرية والتطبيق^(٢) .

وفي هذا السياق عاب الأعسم على الشيخ عبد الله النعمة ، إعجابه بالعبارة التي ينقلها عن الدكتور علي أكبر فياض^(٣) ، أن النصير كان من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، حيث وجدها غامضة لا طائل عنها^(٤) .

ليس هذا فقط بل ان اعتبار الطوسي ، على رأي الأعسم : باعثاً للفلسفة في القرن السابع الهجري على العموم (تجاوزاً على طبيعة ما قدمه في هذا المجال)^(٥) ، ولكنه يستدرك فيقول : (لعل التبرير الوحيد لذلك التجاوز ، أن الفلسفة في المشرق كانت لا تزال في نكستها بعد الغزالي)^(٦) ، وليس هذا فقط ، بل وجد الأعسم أن النصير (هكذا يتجاسر على وضع الحواشي والتعليقات على

(١) الأعسم ، د ، عبد الأمير ، نصير الدين الطوسي ، ص ١٧٩ .

(٢) نصير الدين الطوسي ، ص ١٧٩ .

(٣) الأعسم ، د ، عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨٠-١٨١ .

(كتاب القانون) في الطب ، لابن سينا، وكتب في الشعر والموسيقا والجدل والمنطق والتصوف العرفاني ، كما فعل ابن سينا، والأنكى ، انه كان يدرس لخاصته من تلاميذه ، كابن المطهر الحلبي ، (كتاب الشفاء) ، وإلهياته بالذات ، فليس بعجيب ، بعد هذا ، أن نراه يختص بكتاب (الإشارات والتنبيهات) فيشرح إلهياته ، ثم طبيعياته ، بل ويفرد كتاباً برأسه في الرد على اجتهدات الرازي للكتاب^(١).

نقول يعد هذا السرد : إذا كان الذي فعل كل هذا الجهد الفلسفي ليس فيلسوفاً فما هي صفات الفيلسوف المنشود يا ترى ؟
هل هو الفيلسوف المتعالي القابع في سماء جمهورية افلاطون، ولم يترجل حتى اليوم ؟

أم ذلك الذي حمل شهادة البكلوريوس من أقسام الفلسفة في جامعاتنا ، وهي لم تمنعه من جوع ، ولم توصله إلى الدرب؟
أم نحن الذين انتسبنا إلى الجمعيات الفلسفية في الأقطار العربية ، والبعض منها سرعان ما تهاوى اذ ما اشتدت الريح؟
هذا أمر ، أما الأمر الآخر : فان نقد الغزالي للفلسفة اليونانية لم يكن انتكاسة ، بل كان تأسيساً للفلسفة العربية الإسلامية ، وبناء عليه فان القول : أن الغزالي قضى على الفلسفة في المشرق وإن ابن رشد قضى على الفلسفة في المغرب ، قول غير موفق ، ورأي غير سديد وفيه من التجني ما ليس بخاف .

بين النصير الطوسي وابن المطهر الحلبي:

بين النصير الطوسي وابن المطهر الحلبي ، أكثر من وشيجة وصلة سواء من خلال شرح ابن المطهر الحلبي لبعض كتب الطوسي ، أو في العلاقة

(١) المرجع السابق ، ص ١٨١-١٨٢ .

الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تربط بينهما . لاسيما في تفصي موارد ابن المطهر الحلي في كتابه (الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، موضوع هذه الدراسة ونحوها في مصادر المؤلف التي رجع بها إلى النصير الطوسي ، من أجل استكمال البحث في فلسفة النصير .

علم المنطق:

قال الشيخ ابن سينا في كتابه (الإشارات والتنبيهات) : (المراد من المنطق أن يكون عند الإنسان آلة قانونية تعصم مراعاتها عن أن يضل في فكره ، وأعني بالفكر هاهنا ما يكون عند إجماع الناس)^(١) .

وقال الشيخ نصير الدين الطوسي عند شرحه (هذا رسم للمنطق ، وقد يختلف رسوم الشيء باختلاف الاعتبارات ، فمنها ما يكون بحسب ذاته ، ومنها ما يكون بحسب ذاته مقيساً الى غيره ، كفعله أو فاعله أو غايته أو شيء آخر . والمنطق علم في نفسه وألة بالقياس إلى غيره من العلوم

والتنازع فيه هل هو علم أم ليس ؟ مما يقع بين المحصلين .

أما قوله : آلة قانونية : فالآلة ما يؤثر الفاعل في منفعله القريب منه بتوسطه .

أما قوله : تعصم مراعاتها : لأن المنطقي ، قد يضل إذا لم يراع المنطق . أما قوله : عن أن يضل في فكره : فالضلال هاهنا هو فقدان ما يوصل إلى المطلوب ، وذلك يكون إما بأخذ سبب لما سبب له ، أو بفقد السبب ، أو بأخذ غير السبب مكانه ، فيما له سبب .

وقوله (وأعني بالفكر هاهنا) : لما في رسم هذا العلم ، وذلك لان الفكر قد يطبق على حركة النفس بالقوة التي آلتها مقدم بطن الأوسط من الدماغ المسمى

(١) ابن سينا ، أبو علي حسين بن عبد الله (الإشارات والتنبيهات) ج ١ ، طهران : مطبعة الحيدري ١٣٧٩ ، ص ٨-٦١ .

(بالدورة)، أي حركة كانت، إذا كانت تلك الحركة في المعقولات، و أما إذا كانت في المحسوسات فقد تسمى تخيلاً، وقد يطلق على معنى أخص من الأول : وهو حركة من جملة الحركات المذكورة تتوجه النفس بها من المطالب، مترددة في المعاني الحاضرة عندها، طالبة مبادئ تلك المطالب المؤدية إليها، إلى أن تجدها، ثم ترجع عنها نحو المطالب، وقد يطلق على معنى ثالث هو جزء من الثاني، وهو الحركة الأولى وحدها من غير أن يجعل الرجوع إلى المطالب جزءاً منه، وإن كان الغرض منها هو الرجوع إلى المطالب، والأول هو الفكر الذي في خواص نوع الإنسان، والثاني هو الفكر الذي يحتاج فيه وفي جزأيه جميعاً إلى علم المنطق، والثالث هو الفكر الذي يستعمل بإزاء الحدس^(١).

والعلامة الحلي في كتابه "الأسرار الخفية في العلوم العقلية" أخذ بتعريف الشيخ ابن سينا لعلم المنطق بكل تفاصيله الدقيقة وحرفياً، ولكنه بعد أن نقل شرح الشيخ الطوسي بالفاظه مرة وبمعانيه أخرى، وجد في ذلك الشرح نظراً وقال^(٢): (وتحقيقه أن نقول: إن المبادئ للمطلوب قد تطلق على المقدمات المتألفة، المرتبة ترتيباً صحيحاً، وقد تطلق على المقدمات قبل تأليفها وترتيبها).

فإن عني بالمبادئ التي ينتقل إليها في المطالب، ومنها إلى المطالب هي التي بالمعنى الأول، لم تكن الحركة الثانية محتاجة إلى المنطق، فأنها تكون حركة طبيعية لا يعرض فيها غلط وإن عني بها التي بالمعنى الثاني، لم تكن الحركة الأولى محتاجة إلى المنطق، فأنها تكون حركة استعراضية، إذا اتفق وقوع النفس على المقدمة ثم وقعت على الأخرى، احتاجت حينئذ إلى المنطق في تأليفهما لا في تحصيلهما.

(١) الطوسي، نصير الدين، شرح الإشارات والتنبيهات، ج ١، طهران ١٣٧٩، ص ٩-١١

(٢) ابن المطهر الحلي، (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) مخطوطة النسخة الأم بخط

مؤلفها، منها نسخة مصورة لدى الباحث، ورقة ٣.

فقول هذا الفاضل (الشيخ نصير الدين الطوسي) : إن هذا يحتاج في جزئيه الى المنطق "مدخول" ، والتحقيق ما ذكرناه . وقول العلامة (قول مدخول) يعني انه لا شيء من الحركتين يحتاج إلى المنطق، وإنما المحتاج إليه هو التأليف ، وهو ليس من أجزاء الفكر .

وهكذا هي الفلسفة العربية الإسلامية ، تتعلق بالحوار ، وتتجلى أفكارها بالنقاش الإيجابي المتزن .

التناقض:

وفي مبحث (الكلام في تناقض القضايا) ، وهو في موضوعات علم المنطق أيضاً ، نجد ابن سينا في كتابه (الإشارات والتنبيهات) وكلاً من شارحيه الشيخ فخر الدين الرازي والشيخ نصير الدين الطوسي ، يكونون مورداً من موارد ابن المطهر الحلي في كتابه (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) ، فقد اعتمد ابن المطهر الحلي تعريف التناقض الذي أورده الشيخ ابن سينا بكل تفاصيله وجزئياته فقال : (هو اختلاف قضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته (أي هذا الاختلاف) ، صدق أحدهما وكذب الآخر ، ويشترط فيه الاتحاد في الطرفين والزمان والمكان والقوة والفعل والإضافة والشرط والجزء والكل)^(١) . واستشهد الحلي بقول فخر الدين الرازي ، فقال : والأخيرة (أي من القضايا الستة المنوه عنها في الشرح)^(٢) ، راجعة إلى الاتحاد في الطرفين ، فانه مع الاختلاف في الزمان والمكان والقوة والفعل والإضافة ، يقع الاختلاف في المحمول ، ومع الاختلاف في البواقي يقع الاختلاف في الموضوع .

(١) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ، ص ١٧٧ ، ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ورقة ٣٧ .

(٢) فخر الدين الرازي ، سر الإشارات والتنبيهات (تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٧٢ .

ويقرن العلامة الحلي قول الرازي هذا بقول الشيخ الطوسي فينقل عنه أن :
(هذه الأمور قد تقع بحيث تتعلق بالمفردات ، وحينئذ تتعلق إما بالموضوع
وحده ، أو بالمحمول وحده) ، إلا أن المفردات التي تختلف باختلاف هذه قد
تصلح للوضع وللحمل ، فالتخصيص بأحدهما دون الآخر لا وجه له ، وقد تتعلق
بنفس الحكم من غير تخصيص بأحد جزئيه^(١) ، ويكرر العلامة الحلي هنا نفيس
الشواهد والأمثلة التي أوردها الطوسي في شرحه .

الطبيعيات

حفل كتاب الطبيعيات من (الأسرار الخفية في العلوم الطبيعية ، بنصوص
عديدة رجع إليها الحلي من ضمن مقتبساته من كتاب (الإشارات والتنبيهات) ،
سواء أكان الأصل بقلم الشيخ الرئيس نفسه ، أم من قبل شارحيه الشيخ فخر الدين
الرازي والشيخ نصير الدين الطوسي ، و يكاد لا يخلو موضوع أو فقرة أو سر
من أسرار ذلك الكتب دون الرجوع إلي الإشارات وشروحه أو كتاب (الشفاء)
لابن سينا ، وبصيغة واضحة تألفت النظر سنعود لدراستها بتفصيل في الباب
الثاني من هذه الدراسة .

الإلهيات: خواص الجواهر الشاملة

قال العلامة الحلي في أحد أسرار كتاب (من خواص الجواهر الشاملة :
انه موجود لا في موضوع ومن خواصه أنه مقصود إليه بالإشارة . ومن
خواصه : أنه لا ضد له ، وهذه الخاصة إضافية .

تتبع هذه الخاصة خاصة أخرى ، وهي عدم قبول الشدة والضعف ، فإن
المشتد يستدعي حالة هي ضد الحالة التي يشتد إليها ، فلا يزال يخرج عن حالة
الضعف - على التدرج - إلى حالة القوة ، والحالتان متضادتان ، فإن كانتا

(١) الطوسي ، الشيخ نصير الدين ، شرح الإشارات والتنبيهات ، ج ١ ص ١٧٩-١٨٠ .

عرضين ، كان الاشتداد والضعف في الاعراض ، وإن كانتا جوهرين ، كانت الجواهر متضادة ، وقد منع ذلك^(١) وهذا هو قول الشيخ ابن سينا في كتابه (الشفاء) من قسم المنطق^(٢) .

ويستطرد العلامة ابن المطهر فيقول : (ولا يلزم من كون بعض الجواهر أولى من غيرها كونها اشد، فإن الأولوية تتعلق بالوجود، والأشدية تتعلق بالماهية ، ويقرر الحلّي في آخر كلامه فيقول: (ونحن لا نستصوب هذا الكلام) . ويعود الحلّي إلى شرح الشيخ نصير الدين الطوسي ويقتبس ما يوافق رأيه ويشرح المسألة من وجهة نظره .

قال بعض المحققين ، و يعني به الشيخ نصير الدين الطوسي ، ولم يذكر اسمه مع ان الاقتباس جاء باللفظ والمعنى فيقول : (معنى الأشداد هو اعتبار المحل الواحد الثابت إلى حال فيه غير قار ، تتبدل^(٣) نوعيته إذا قيس ما يوجد منها في آن ما، يوجد في آن آخر ، بحيث يكون ما يوجد في كل آن متوسطاً بين ما يوجد في آنين يحيطان بذلك الآن ، ويتجدد جميعها على ذلك المحل كالمقول دونها ، من حيث هو متوجه بتلك التجددات إلى غاية ما^(٤) .

ومعنى الضعف هو ذلك المعنى بعينه إلا انه يؤخذ من حيث هو منصرف بها عن تلك الغاية ، فالأخذ في الشدة والضعف هو المحل ، لا الحال المتجدد المتصرم ، ولا شك أن مثل هذا الحال يكون عرضاً لتقوم المحل دون كل واحد من تلك الهويات المتجددة .

(١) ابن المطهر الحلّي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، قسم الإلهيات ، ورقة ٣٠٧ .

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، كتاب المنطق ، ج ١ ص ١٠٧ ، قسم المقولات .

(٣) في كتاب الإشارات (يتبدل نوعيته) ، وفي المخطوطة للحلي ما أثبتنا .

(٤) الطوسي ، نصير الدين ، شرح الإشارات والتبهيّات ، ج ٢ ص ٢٧٣ .

أما الحال الذي تتبدل هوية المحل بتبدله كالصور ، فلا يتصور فيها
الاشتداد والضعف ، لامتناع تبدله على شيء واحد يكون هو هو في الحالتين .
ولامتناع وجود حالة متوسطة بين كون الشيء هو هو ، ليس هو^(١) .
ويناقش العلامة ابن المطهر الحلي قول الشيخ نصير الطوسي ذاك بقوله:
(هذا كلام ضعيف ، فإن الهيولي لا تتقوم بصورة معينة من الصور المتعاقبة
حتى تتبدل بتبدلها)^(٢) .
ويستطرد العلامة الحلي برده على الطوسي فيقول : (وقوله (الطوسي)
يمتنع وجود حالة متوسطة بين كون الشيء هو ، وكونه ليس هو ، مع قوله أولاً
(إن اشتداد الشيء يقتضي تغاير أنواع الاشتداد بحيث يكون ما يوجد في كل آن
متوسطاً بين ما يوجد في انين يحيطان بذلك الآن ، لا يخلو عن تناقض)^(٣) .
ونكتفي بهذا القدر من مناقشات العلامة الحلي والشيخ ابن سينا في كتابه
(الإشارات) ومناقشة شارحيه ، على ان نعود إليهما في الباب الثاني من هذه
الدراسة .

(١) الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، التنبيهات ، ورقة ٣٠٧ .

(٢) الطوسي ، نصير الدين ، شرح الإشارات والتنبيهات ، ج ٢ ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٣) الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ورقه ص ٣٠٧-٣٠٨ .

المبحث الثالث

سعد بن منصور بن سعيد بن الحسن بن هبة الله بن كمونة^(١)

(ت ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م)

عز الدولة سعد بن منصور بن سعيد بن الحسن بن هبة الله بن كمونة الاسرائيلي^(٢)، من يهود بغداد والحلة^(٣)، الذين كان لهم في الإدارة شأن أيام هولاكو وابنه ابا قاخان^(٤)، وممن كان لهم على ساحة الفلسفة العربية الإسلامية

(١) راجعنا في ترجمة ابن كمونة :

- كتابه (الجديد في الحكمة) تحقيق الدكتور حميد مرعيد الكبيسي ، منشورات احياء التراث الاسلامي رقم ٤٤ ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص ١٥ .
- ابن الفوطي ، عبد الرزاق بن احمد (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، دمشق ١٩٦٢ ، ص ١٥٩-١٦١ .
- السنجاري ، ارشاد القاصد الى اسمى المقاصد ، بيروت ١٣٢٢ ، ص ٤٥ .
- الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٦-٤٧٧ .
- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٣٩٤ ، ص ٤٨٢ ، ص ٤٩٥ ، ج ٢ ص ٦١-٨٥ .
- البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٣٨٥ .
- بروكلمان ، المستشرق الالماني ، S, ١٧٦٨ .
- انبمئاني ، فؤاد افرام ، دائرة معارف ، ج ٢ ص ٤٨٢ .
- كحالة ، عمر رضى ، معجم المؤلفين ، ج ٤ ص ٢١٤ .
- الكبيسي ، حميد مرعيد ، مقدمة كتاب (الجديد في الحكمة) بغداد ١٩٨٢ ص ٩-٢١ .

(٢) ابن كمونة ، الجديد في الحكمة ، ص ١٤٥ .

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٦ ، ص ٤٧٧ .

(٤) له اتصالات ومراسلات مع الشيخ نصير الدين الطوسي ، وزير هولاكو وابنه أباقا خان ،

مدرسي مشهدي ، محمد تقي ، " كتاب الطوسي..." ، ص ٣٧١ ، ٣٧٩ .

مساحة^(١)، كان فاعلاً معروفاً في بغداد ، مطلعاً اطلاقاً واسعاً على الفكر للعلماء من قبله، وإذا حظوة عند العلماء في زمانه^(٢) ، مما جعل كتاب ابن كمونه "الجديد في الحكمة" ، (نموذجاً للفكر الفلسفي المرموق لفظاً ومعنى وتحري الضبط وسلامة العبارة ، ووضوحها، وحسن التقسيم وتسلسل البرهان)^(٣) .

ابن كمونة منطقي حكيم ، قرأ بإتقان ودقة : رسالة موسى بن ميمون (ت ٦٠٢هـ / ١١٣٥م) ، التي وضعها العلماء اليهود وذوو الإلمام بالأدب العربي ، الذين يحتاجون الى علم الفلسفة والمنطق الإسلاميين^(٤) ، واتخذها ابن كمونة دليل عمل في مسائل المنطق الذي تفنن فيه وهضم قواعده بصيغ تلفت النظر . الأمر الذي جعل ابن كمونه شكلاً آخر من اشكال موسى بن ميمون ، وان كان اصغر حجماً ، واقصر قاماً ، لاختلاف الزمان والمكان ، وتلك طبيعة الأشياء .

هذا لا يمنع من القول : ان ابن كمونة اراد ان يكون كموسى بن ميمون او متداداً له . غير اننا لا نعلم رجلاً آخر له مواهب كموسى بن ميمون . نعم بن كمونة كموسى ابن ميمون: آثاره ومصنفاته فيها تأثير الحضارة العربية الإسلامية واضحة لا تحتاج الى دليل ، علاقة ابن كمونة بدولة زمانه كما هي علاقة ابن ميمون في زمانه غير ترأسه لطائفه، ووضع الشروح لكتب ومصنفات ملته، وهي أمور ليست بعيدة عما فعله ابن ميمون .

(١) عرف ابن كمونه ، من خلال كتابه (تنقيح الابحاث في الملل الثلاث) الذي اثار ضجة ، الشيباني ، الفكر الشيعي ، ص ٨٠ .

(٢) الكبيسي ، د . حميد مرعي ، المرجع السابق ، ص ١٠-١٢ .

(٣) الكبيسي ، المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٤) اسرائيل ولفنسون ، موسى بن ميمون ، مصر ١٩٣٦ ، ص ٤٢-٥٤ .

ابن كمونة فيلسوف عربي مسلم ، على ذات القاعدة السابقة التي أخذنا بها^(١) ، وكان عليها السلف الصالح في قصر المأمون وغيره من اولي الامر في الدولة العباسية ، او على القاعدة ذاتها التي جعلوا شيخه موسى ابن ميمون ، فيلسوفا عربياً مسلماً .

قال فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرزاق : (انني ممن يجعلون ابن ميمون واخوانه من فلاسفة المسلمين)^(٢) ، وهذا الرأي ليس جديداً على الشيخ عبد الرزاق ، بل كان قد قال به منذ نيسان ١٩٣٥ في كلمة القاها في حفل اقيم بدار الاوبرا في القاهرة ، وقال : ان المشتغلين في ظل الاسلام بذلك اللون الخاص من اللون البحث النظري مسلمين وغير مسلمين يسمون منذ ازمان فلاسفة الاسلام ، وتسمى فلسفتهم : فلسفة اسلامية ، بمعنى انها نبتت في بلاد الاسلام ، وفي ظل دولته ، وتميزت ببعض الخصائص من غير نظر الى دين اصحابها ولا جنسهم ولا لغتهم)^(٣) .

ويستشهد الشيخ مصطفى عبد الرزاق بقول للشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) : (المتأخرون من فلاسفة الاسلام مثل يعقوب بن اسحاق الكندي ، وحنين بن اسحاق ١٠٠ الخ) فاذا كان حنين بن اسحاق المسيحي من فلاسفة الاسلام ، فانه لا وجه للفرقة بينه وبين موسى بن ميمون الاسرائيلي^(٤) .

ويضيف فضيلة الشيخ لقباً آخر فيقول : (وابن ميمون من فلاسفة العرب على رأي من يسمي الفلسفة الإسلامية ، فلسفة عربية نسبة الى العرب بمعنى اصطلاحى يشمل جميع الأمم : الشعوب الساكنين الممالك الإسلامية والمستخدمين للغة العربية في اكثر تاليفاتهم العلمية تشاركهم في لغة كتب العلم) .

(١) كتابنا ، مدرسة بغداد الفلسفية ، عمان ، ٢٠٠٠ ، ص ٨٤ فما بعد .

(٢) مقدمة كتاب (موسى بن ميمون) مصر ١٩٣٦ ، ص ٢ .

(٣) مصطفى عبد الرزاق ، المرجع السابق ، ص ٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣-٤ .

ويخلص الشيخ عبد الرزاق ، وعلى وفق تلك القاعدة فان ابن ميمون وهو عبري يهودي من فلاسفة العرب ومن فلاسفة الاسلام^(١) .
وقولنا هذا ليس بحثاً في الاديان ولا تشخيصاً للسلوك ، ولا تعريفاً بالمطامع الدنيوية، او أي من مشخصات التاريخ السياسي لمنطقتنا، او لكل الذين عاشوا ويعيشون تحت ظل خيمة الحضارة العربية الاسلامية الممتدة عبر مئات السنين ، بل هو تاريخ للفكر الفلسفي العربي الاسلامي بكل تفاصيل اهلته وشرائحه وقومياته واديانه .

كان التسامح بين السكان من سمات القرن السابع الهجري ، فقد كان اليهود يشتركون مع المسلمين في دخول معاهد الدرس ، وكثيراً من اليهود يتلقون العلوم في المعاهد الاسلامية العالية في المارستانات لدراسة العلوم الطبية ، وفي مجالس الدرس الفلسفي ، ليس هذا وحسب ، بل كانت ببغداد مدارس دينية يهودية، تعني بالدراسات اليهودية خاصة يسعى اليها الطلاب اليهود من كثير من الاقطار^(٢) في القرن السابع الهجري ، وقد تركت هذه الحرية النسبية في نفس ابن كمونة نوعاً من الانفتاح فدرس عند نصير الدين الطوسي وهو وزير التتار وعلى غيره^(٣) .

الفكر اليهودي والفلسفة العربية الاسلامية

هو لاشك عنوان كبير ، يمتد الى ما قبل الإسلام ، لاختلاط هؤلاء القوم بجيرانهم العرب منذ زمن بعيد ، وفي التراث أمثال كثيرة عن ذلك التأثير

(١) المرجع السابق ص ٢ .

(٢) د. اسرائيل لفنسون ، موسى بن ميمون ، ص ٤ ، وقد تخرج موسى بن ميمون نفسه على

دروس ابن طفيل وابن رشد .

(٣) مدرسي مشهدي ، تقي الدين ، نصير الدين الطوسي ، ص ١٧٣ ، ١٧٩ .

المتبادل ، نقرأ في شعر امية بن ابي الصلت وزير بن عدي وغيرهما من الشعراء وحكم المفكرين .

مسائل في الفكر والتفلسف ، منه ما هو حوار عن اصل العالم ، ومنه ما هو نقاش في الوجود وفكرة توحيد الله تعالى ، ومنه ما كان قصصاً وأحاديث تتحدث عن الجنة والنار ، لعلها ناتجة عن قراءات في التوراة والعهد القديم ونحوهما^(١) .

وفي صدر الإسلام كان للفكر اليهودي وجود وضجة ، فقد اعاب هؤلاء على الدين الجديد دعوته لأنفاق الاموال في سبيل الله ، وفسروها بأنها دعوة الى الفقر والالتزام به^(٢) ، فجاء قوله تعالى بسببه : ((لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء))^(٣) ، وهذا يعني عند المسلمين احتقار المادة ، ومنع الأغنياء من الزينة وملذات الحياة ، وهي امور لونت حياة اليهود عبر الزمن . . كثيراً ما وناقشهم القرآن الكريم نقاشاً مرأ ، وسفه الكثير من اقوالهم وافعالهم . في السنة السابعة للهجرة تمرد اليهود في خيبر ، واعلنوا العصيان ، ولكن النبي (صلوات الله عليه) ، سرعان ما اخمد فتنتهم ، واسكن تحركهم ، ثم امنهم على أنفسهم واعراضهم واموالهم واراضيتهم وما يملكون ، وسمح لهم بممارسة طقوسهم ، والعمل بشريعتهم بحرية ، لقاء جزية يدفعونها للمسلمين^(٤) . ولم يهدأ الصراع الفكري بين اليهودية والإسلام في أي وقت من الأوقات ، واستمر النقاش محتدماً بين علماء ومفكري الجانبين ، وظهر تأثير فكر

(١) الالوسي، د . حسام محيي الدين ، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي ، بيروت، ١٩٨٠ ،

ص ٩٧

(٢) الشيباني ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ١٤ .

(٣) سورة آل عمران ، ٣ ، آية ١٨١ .

(٤) ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك الحصري البصري (ت ٢١٣هـ / ٨٢٨م) ، السيرة ، ج ٢

ص ١٨٩ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ص ٤٦ .

أحدهم بفكر الآخر جلياً ، سواء في عاصمة الإسلام يثرب ام في حواضر الإسلام الأخرى التي حررها الإسلام .

هذه المناقشات والجدل تأخذ صوراً من اللين حيناً ، وصوراً من الشدة أحياناً أخرى ، اهم مسائل الخلاف قطعاً كانت تتمحور في عدم اعتراف اليهود بنبوّة محمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) لان ،اليهود بالأساس كانوا قد حرفوا كتبهم ، وتلاعبوا في شريعتهم ، بالصيغة التي كادت ان تخرج اليهودية من الوحدانية ، ولكنهم بصورة عامة موحدون كالمسلمين بعيدون بصيغة من الصيغ من تعقيد فكرة التثليث المسيحي ، ولو انهم لم يعترفوا بالنبوات بعد النبي موسى عليه السلام^(١).

عندما قيض الله تعالى للإسلام ان ينشر راياته فوق ربوع الأندلس انقذ العرب الرحماء ، الاقلية اليهودية المضطهدة في اسبانيا واعطوها الحرية ، نسغاً جديداً للحياة ، اعطاهم الامان لممارسة طقوسهم وشعائر دينهم ، واعطاهم الثقافة ينهلون من علوم العربية فلسفة وكلاماً وهنا لم يجد اليهود وللمرة الثالثة بعد السبي البابلي وخير سرى العربية ، ليستعيروا منها ، اخذوا بحور اشعارهم ومضامين قصائد شعرائهم ، كما اخذوا منها بحور اجروميتهم بل انهم كتبوا بحروف العربية بعض اعمالهم ، بدلاً من حرفهم المعقد (اشوري وضاع) أي الاشوري المربع ، كما كتبوا بعض الاعمال العربية بهذا الخط ليقرأها الآخرون^(٢).

وكانت نكبة ابن رشد في الايام الاخيرة لدولة العرب في الاندلس ، مكسباً لهم ، كي يجعلوا من فلسفة ابن رشد رصيذاً لفكرهم .

(١) النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٦-٢٠ .
(٢) فصل هذا الامر : العبيدي ، د. حسن مجيد ، ابن رشد ، أعمال الندوة العربية بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لوفاة ابن رشد (١١٩٨-١٩٩٨) ، بغداد ، ١٩٩٨ ، ج ٢ ص ٧٩
فما بعد .

يقول ابن ابي اصيبعة^(١) : ان ابعاد ابن رشد عن قرطبة ايام محنته كان الى بلد قريب من قرطبة اسمه (اليسانه) ، وكان هذا البلد لليهود او كان في حقيقته منفى لليهود ، فكان امعناً بايذاء هذا الفيلسوف ان ينفي الى هذا البلد، بلد اليهود ، ليبدأ منه الاتصال بين موسى بن ميمون ، وفلسفة ابن رشد ، ونقل تراثه الى العبرانية .

كان تأثير الفكر الفلسفي العربي الإسلامي واضحاً في كثير من مفاصل الفكر اليهودي عبر الزمن ، حتى ان دي بور ، قد وجد ان الفيلسوف اليهودي ابن جبرول ، كان قد تأثر فكره بقوة في فلسفة الشرق الطبيعية ، وابن جبرول هذا كان عند دانيس سكوت (حجة من الطراز الاول)^(٢) وليس هذا فقط بل كان الفيلسوف اليهودي الاخر باخيا باقود ، متأثراً بشكل واضح جداً بفلسفة اخوان الصفا البصرية .

وان كثيراً من الشعر الديني اليهودي كان قد تأثر بالحركة الفلسفية في الشرق العربي الاسلامي^(٣) .

اما الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون فقد تخرج في مدرسة ابن رشد ، وتبنى الكثير من افكارها ، وترجم معظم مصنفاتها الى العبرية ، ومنها الى اللغات الاخرى ، حتى بلغت الفلسفة اليهودية ذروة نموها - على راي دي بور - ممثلة في شخص موسى بن ميمون ، الذي حاول ان يوفق بين مذهب ارسطو وبين العهد القديم ، وذلك تحت تاثير الفارابية وابن سينا^(٤) .

(١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) دي بور ، ن ج ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة د. عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩ ، ٤٢٠ .

(٣) مصطفى عبد الرازق ، المرجع السابق ، ص ٩ ، د. اسرائيل ولقنسون ، موسى بن ميمون ، ص ٢١-٣٠ .

(٤) دي بور ، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

اما الفيلسوف اليهودي عز الدين بن كمونة ، فهو من ابرز الممثلين للفكر اليهودي في القرن السابع الهجري ، وممن تتلمذ على وزير التتار نصير الدين الطوسي^(١) .

الى جانب ذلك نجد مفكرين من اليهود لهم اثرهم في علم الكلام الاسلامي كان منهم سعيد الفيومي او سعديا ، كان قريباً من عهد ابن النديم (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م) وقد ادركه جماعة من زمانه^(٢) ، وكذلك حاليفي^(٣) ، وكان هذا التأثير ناتجاً عن الجدل في المجالس الثقافية ، او من خلال ما كان يكتب هؤلاء في كتبهم .

وعلى العموم فان هؤلاء الفلاسفة اليهود (ينتمون من الناحية الفلسفية الى دائرة الثقافة الاسلامية ، على راي دي بور^(٤) .

هذا في مجال التأثير والتاثر الايجابي ، اما على الجانب الاخر ، فقد كان اليهود قد ادخلوا من العقائد الفاسدة والاحاديث الموضوعة ، ما أرغم مفكري الاسلام على مناقشتها وانكار المدسوس من احاديثها ، وهو الامر الذي ساعد على تطوير الكلام وتوسيع دائرة معارفه ومكنه من الرد والمواجهة .

كما كان ادخال كثير من الاسرائيليات في الحديث (النبوي الشريف) ، ادت الى قيام علم اسلامي جليل هو علم مصطلح الحديث ، اما الخرافات التي جاءت بها الاسرائيليات في قضايا التفسير والتأويل ، فقد كانت بشكل ملفت ، ولكن المسلمين قاوموا هذه الخرافات مقاومة عنيفة^(٥) ، هذه الامور مجتمعة

(١) مدرسي مشهدي ، محمد تقي ، نصير الدين ، ص ١٧٣ ، ص ١٧٩ ،

(٢) ابن النديم ، الفهرس ، ص ٢٥ ، ويقول : (كان من افاضل اليهود المتمكنين من العبرانية ، وترغم اليهود .

(٣) الالوسي ، د . حسام ، دراسات ... ، ص ٩٧ .

(٤) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ٤٢٠ .

(٥) النشر ، المرجع السابق ، ص ١٦-١٨ ، ٢٩-٣٠ .

اضافت الى الفكر الاسلامي والعلوم العقلية فيه ، ما مكن المفكرين من الرد الحاسم والمجادلة بالتتي هي احسن واقوم ، وفي مثل هذه الاجواء تتطور العلوم وتتوسع قواعدها .

الفكر اليهودي في القرن السابع :

تأرجح الفكر اليهودي عبر الزمن ، وتعرض لمد وجزر ، وحتى سقوط الدولة العباسية ودخول قوات المغول الغازية لعاصمة الاسلام بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٦م^(١)، حين اعتمد المغول يوماً لاتقافة لهم ، ولا يتقيدون بدين (وكان مدار اهتمامهم حول الطاعة العمياء والتعاون معهم على الهدوء التام، فيما يتعلق بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم)^(٢) .

ومن هنا بالذات جاء إعجاب هولالكو وابنه اباقا خان بعز الدولة سعد بن كمنونة^(٣)، واعجاب ابنه السلطان ارغون بسعد الدولة الدلال السابق في سوق الموصل^(٤)، لخبرته في الطب وسلوكه في خدمة رؤسياه ، وإجادته للغة المغول ، فقربوه منه ، واتخذ منه طبيباً خاصاً ومستشاراً مالياً يجبي الضرائب بلا رحمة ، ووزيراً يقتل من يشاء ويترك من يشاء^(٥) .

(١) فصلنا هذه الحوادث في المبحث الثالث من الفصل الأول السابق .

(٢) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص ٤٢٠ .

(٣) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤) ابو الفدا ، اسماعيل بن علي الشافعي ، المختصر في تاريخ البشر ، ج ٤ ص ١٨ ، الشيبني ،

المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٥) امر سعد الدولة : بضرب عزيز الدين عبد العزيز الاربلي ناظر الكوفة ، فباع املاكه فلم يتم ما عليه وكان مريضاً فمات من تواتر الضرب ، وضرب عميد بغداد ضرباً مبرحاً ، الحوادث الجامعة ، ص ٤٩١ .

وزيادة في امر اليهود وامتداد نفوذهم ايام سعد الدولة ، فقد وصل بغداد في صفر من عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م (جماعة من اليهود من اهل تفليس وقد رتبوا ولاة على تركات المسلمين)^(١) .

ثم كان زمن السلطان غازان بن ارغون الذي استوزر رشيد الدين فضل الله ، الذي قيل انه كان يهودياً سابقاً^(٢) ، له مواهب عز الدولة ابن كمونه ومواهب سعد الدولة معاً^(٣) ، فأمر باستخدام اليهود على نطاق واسع ، وتسبب في قتل نقيب السادة الاشراف لمقاومة اليهود^(٤) .

ومهما كان الامر فان تسامح المغول مع الطوائف المستضعفة السابقة ومنهم اليهود كان واضح الهدف ، وهو الاعتماد على الضعيف على اساس استمداده الحماية من السلطة وارتباط مصلحة كل منهم بالآخر^(٥) .

واستمر المفكرون اليهود في القرن السابع على ما كانوا عليه في القرن السابق وسطاء يعملون على نقل الفلسفة العربية الاسلامية الى الغرب ، بعد ان اشتركوا من قبل في كل مراحل الحضارة العقلية والفكر الفلسفي العربي الاسلامي ، فكتب الكثير منهم باللغة العربية وترجم اخرون كتب العرب الى العبرية ، ويرجع الفضل في بقاء الكثير من كتب ابن رشد الى ترجمات موسى ابن ميمون ، لاسيما بعد محاولة نكبته والتعرض لتراثه^(٦) .

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٢ ، ورتب اخاه فخر الدولة ويهودياً آخر هو مهذب الدولة الماشعيري على العراق ص ٤٩٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٨٧ .

(٣) ابن حجر ، الدولة الكامنه في اعيان المائة الثامنة ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٤) الحوادث الجامعة ، ص ٤٢٨ .

(٥) الشيبى ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ٨٠-٨١ .

(٦) العبيدي ، د . حسن مجيد ، ابن رشيد ، ج ٢ ص ٧٩ فما بعد .

وعلى الجملة فقد كان اليهود في القرنين السادس والسابع ، سفراء بين الشرق والغرب وصلة وصل كانوا فيها وسطاء بين عرب الاندلس خاصة وبين اوربا^(١)، بما ترجموا من كتب عربية الى اللغة اللاتينية ، وبما تطوع اخرون من المفكرين اليهود بترجمة كتب عربية الى لغتهم العبرانية ، ليعرضوها على اهل الغرب الذين كانوا على معرفة بهذه اللغة ، وكان من اول الكتب المترجمة تعود للفيلسوف ابن رشد ، صديق العلماء والمفكرين في فرنسا وإيطاليا .

ومن غريب القول للبعض من الباحثين انهم وجدوا ان الفكر الفلسفي اليهودي في تلك الحقبة يتعرض للاهمال ، وان كتب موسى بن ميمون وعز الدولة ابن كمونه ، لم تنتشر بالعربية ، ونادراً ما نجد دراسات لحياة هؤلاء المفكرين من اليهود او لمذاهبهم ، وما نزال نتلمس اخبارهم واثارهم من لغة غير لغتنا^(٢) .

ومن الباحثين من تجرأ بالقول : ان مرد ذلك يعود الى عقيدة هؤلاء ، باعتبارهم مفكرين على الديانة اليهودية^(٣) .

وهو قول غير سديد ، وفيه من التجني ما هو واضح ، بدليل اهتمام الباحثين والمفكرين العرب المسلمين على مدى قرون طويلة لكتاب موسى بن ميمون (دلالة الحائرين) ، الذي طبع مرات عديدة ودرس على مستويات عديدة ، وان الدراسات في الفلسفة او في علم الكلام خلال هذه الحقبة او البحوث

(١) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ٤٢٠ .

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٣) الكبيسي ، د . حميد مرعيد ، مقدمة كتاب (الجديد في الحكمة) ص ١٥ .

والدراسات التي تمحورت حول الفيلسوف ابن رشد ، كان لموسى بن ميمون حصة الأسد في هذه البحوث للتلازم بين بعض مفاصل تاريخ الرجلين^(١) .

اما نتاج عز الدولة بن كمونة ، فهو الآخر نال من العناية ما يستحق .

كتاب ابن كمونة (تنقيح الأبحاث في البحث عن الملل الثلاث) ، الذي بالغ ابن كمونة فيه بالتعرض بالدين الإسلامي وبسبعض رموزه ومعتقداته وعلى الخصوص في الملائكة ونحوها من مبادئ، والمبالغة غير المقبولة في مناصرة اليهودية دين ابن كمونة ، فقد حقق وطبع ونشر وهو معروف في المنطقة .

اما كتاب ابن كمونة الآخر (الجديد في الحكمة) ، فقد صدر بعد تحقيق اكاديمي ، واصدرته اعلى مؤسسة دينية في العراق ، وباعتباره من تراث الاسلام . اما مخطوطات موسى بن ميمون وكذلك مخطوطات عز الدولة بن كمونة ، التي فقدت ، فلها اسوة بملايين المخطوطات العربية الإسلامية التي مازالت في طيات الغيب مفقودة او محجور عليها في مكتبة عامة او خاصة^(٢) .

الباحث بعد هذا العرض يؤكد ان أيّاً من الفلاسفة والمفكرين من اليهود ، لم يفقد هويته ولم يتنازل عن خصوصيته ، ولم تذهب سماته من كتبه وما يميزه في افكاره على الاقل في كل ما كتبوا ، وما طرحوا ، أفكارهم لها خصوصيتها على وفق الفكر الفلسفي اليهودي ، ولكنها على وفق ما هم عليه من دين وتاريخ وحضارة .

(١) اقيمت في جامعات عالمية وبعض المؤسسات الاكاديمية ومنها بيت الحكمة ببغداد ، ندوات كان في بعض بحوث هذه المؤتمرات والندوات دراسات جانبية عن العلاقة بين ابن رشد وابن ميمونة .

(٢) مانشر من هذه المخطوطات منذ فجر الطباعة في القرن السادس عشر الميلادي وحتى يومنا هذا لا تتجاوز بضع مئات من تلك الالاف المؤلفة من كتب التراث ورسائله ، اما سائر هذا التراث وهو الاغلبية الساحقة فانه مازال متوارياً عن الانظار راقداً في غياهب المكتبات بعيدا عن متناول معظم القراء .

نأخذ مثلاً واحداً بسيطاً ، ولكن له دلالاته الكبيرة ، نقرأ مفتتح مقدمات كتب المفكرين في القرن السابع أي السطور الاولى من المقدمة التي اعتاد عليها القوم ، فهم يبدؤون السطر الاول من مقدماتهم بحمد الله تعالى والصلاة على نبيه وآله الطاهرين ، كل بالصيغة والاسلوب الذي يرغب ، وقد تعبر تلك السطور بصيغة اولية عن هدفه من تأليف الكتاب مثال ذلك:

قال الشيخ نصير الدين الطوسي في مقدمة شرحه لكتاب (الاشارات والتنبهات) للشيخ ابن سينا (الحمد لله الذي وفقنا لافتتاح المقال لتحميده ، وهدانا الى تصدير الكلام لتمجيده ٠٠٠ وصلواته على المصطفين من عبيده ، خصوصاً على محمد وآله المخصوصين بتأييده ٠٠ وبعد^(١) .

ونقرأ في مفتتح مقدمة كتاب عز الدولة ابن كمونة في كتابه (الجديد في الحكمة) الشكل نفسه والصيغة القريبة من الشكل مع اختلاف ظاهر بالمضمون فيقول ابن كمونة (احمد الله تعالى حمداً يقرب الى جنبه الكريم ، ويوجب المزيد من فضله واحسانه ، واستغفره استغفاراً يؤمن من عقابه الاليم ، ويخلص في الفردوس الاعلى من جنانه ، وأسأله الهداية الى صراطه المستقيم بألهام الحق ، وأنارة برهانه ، وان يصلي على من بالملأ الاعلى ، الحافين من حول العرش العظيم ، وعلى المصطفين ، لإظهار التوحيد واعلانه ٠٠ بعد^(٢) :

ونقرأ في مفتتح مقدمة كتاب (المختصر النافع) للمحقق الحلي : الحمد لله الذي صغرت في عظمة عبادته العابدين ٠٠٠ وصلى الله على اكرم المرسلين ، وسيد الاولين والآخرين، محمد خاتم النبيين وعلى عترته الطاهرين وذريته الاكرمين ٠٠ وبعد^(٣) :

(١) الطوسي ، شرح الاشارات ، ج ١ ، ص ١ .

(٢) ابن كمونة ، الجديد في الحكمة ، ص ١٤٥ .

(٣) المحقق الحلي ، المختصر النافع ، ص ٢٦ .

ونقرأ في مفتتح مقدمة كتاب (الاسرار الخفية في العلوم العقلية) للعلامة ابن المطهر الحلي: الحمد لله ذي الازلية والبقاء والعزة والارتقاء... والصلاة على سيد المرسلين محمد المصطفى وعلى آله الطاهرين صلاة باقية الى يوم الدين. أما بعد^(١):

ونقرأ في مفتتح رسالة ابن عربي (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) مصطلح الصوفية قول: الحمد لله وسلامه على عباده الذين اصطفى، اما بعد^(٢).

هذه السطور القليلة، الكلمات الاولى من مقدمات كتب هؤلاء المفكرين من رجال القرن السابع الهجري فيها الكثير من المبادئ التي عليها أصحاب تلك الكتب، نقرأ فيها دين كل منهم، كما نقرأ مدرسته الفلسفية، انتماءه العرقي، طيفه السياسي، ولون أفكاره، ونحو ذلك من خصوصيات لاتخفى على المحقق، وفي نفس الوقت تعبر عن شيء من الحرية التي كانت في زمانه... ولا ندخل في التفاصيل.

كتب ابن كمونة، والعلوم التي صنف بها

يبدو ان ابن كمونة لم يكن مكثراً في تأليفه، يهتم بالنوع لا بالعدد، قياساً على ما وجدناه من كتابيه المطبوعين: (الجديد في الحكمة) و (تنقيح الابحاث في الملل الثلاث)، وهما من عيون المؤلفات الفلسفية التي كتبت في القرن السابع، وقد عبرت بوضوح عن افكار اخرى في مجتمع عربي مسلم، بصيغ من الحرية والانفتاح.

ذكرت المراجع لعز الدولة سعد بن كمونة ستة كتب وبعض رسائل متبادلة وله أيضاً رسائل بينه وبين استاذة الشيخ نصير الدين الطوسي وزير التتار،

(١) الحلي: الاسرار الخفية... الورقة ٥ من النسخة الام بخط المؤلف.

(٢) ابن عربي، ص ٢١٨ ضمن كتاب (نصوص المصطلح الصوفي في الإسلام) تحقيق د.

نظلة الجبوري، بيت الحكمة، بغداد ١٩٩٨.

لم تتخط الكلام في المنطق والفلسفة والكلام والديانات وكان واحد من الكتب فقط في الكيمياء مازال مفقوداً .

١- تنقيح الابحاث في البحث عن الملل الثلاث :

وهي اليهودية والمسيحية والاسلام . وصفه مؤلف كتاب (الحوادث الجامعة) القريب العهد من الاحداث ، فهو يتحدث وكأنه شاهد عيان فيقول : في حوادث عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م (فيها اشتهر ببغداد ان عز الدولة ابن كمونة اليهودي صنف كتاباً سماه (الابحاث عن الملل الثلاث) تعرض فيه بذكر النبوات وقال ما نعوذ بالله من ذكره ، فثار العوام وهاجوا ، واجتمعوا لكيس داره وقتله ، فركب الامير تمسكاي شحنة العراق ، ومجد الدين بن الاثير وجماعة الحكام الى المدرسة المستنصرية واستدعوا قاضي القضاة والمدرسين لتحقيق هذا الحال ، وطلبوا ابن كمونة فاخترق ، واتفق ذلك اليوم ، يوم جمعة فركب قاضي القضاة للصلاة فمنعه العوام ، فعاد الى المستنصرية ، فخرج ابن الاثير ليسكن العوام فاسمعوه اقبح الكلام ، ونسيوه الى التعصب لابن كمونة والذب عنه ، فأمر الشحنة بالنداء في بغداد بالمباكرة في غد الى ظاهر السور لاحراق ابن كمونة ، فسكن العوام ولم يتجدد بعد ذلك له ذكر . . واما ابن كمونة فانه وضع في صندوق مجلد وحمل الى الحلة وكان ولده كاتباً بها فاقام اياماً وتوفي هناك^(١) .

مع تحفظنا على ما جاء بهذه الرواية من مبالغة ، نقول ان في الكتاب بعض موارد تخالف المعتقدات الاسلامية ، و تفضل الديانة اليهودية على غيرها من الاديان ، وقعت اخبارها بين يدي العامة من الناس .

وامر العامة مع المفكرين عامة والفلاسفة على وجه الخصوص لا يتعلق بالفلاسفة اليهود دون غيرهم ، ومن اجل هذا كانت وصية شيخ الفلاسفة العرب المسلمين الشيخ ابن سينا في كتابه (الاشارات والتنبيهات) قدوة لاصحاب العلاقة

(١) كتاب الحوادث الجامعة ، ص ٢٨٥ فما بعد

يوم التمس من طلابه (ان يضمن بما تشتمل عليه هذه الاشارات) ان يصنعه عن
الجاهلين والمبتدئين ومن لم يرزق الفطنة والوقادة والدربة والعادة^(١) .

وللكتاب نسخ مخطوطة متناثرة في مكتبات العالم ، نسخة منها كانت عند
استاذنا الدكتور حسين علي محفوظ ، صودرت منه لتصبح بعد ذلك من ممتلكات
معهد المخطوطات العراقي في متحف بغداد^(٢) .

ونسخة من مخطوطات هذا الكتاب محفوظة في مكتبة مجلس الشورى
الاسلامي في طهران مسجلة تحت رقم ١٠٦ ، وظهر اسمها في فهرست المكتبة
المذكورة برقم ٥٩٣ في ص ٢٥٠^(٣) .

ذكر الكتاب ايضاً حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون وقال : (انه لابن
كمونة اليهودي ، عليه رد للشيخ زين الدين سريجا بن محمد الملطي ، المارديني
الشافعي المتوفى سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) سماه (نهوض حبيث النهود الى
خوض خبيث اليهود)^(٤) .

وذكره ايضاً اسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين) ، وذكر ان
المؤلف توفي سنة ٦٧٦هـ ، وهو ليس كذلك ، بل كانت وفاة ابن كمونة في عمام

(١) ابن سينا ، الاشارات والتبهيئات ، ج ٣ ص ٤١٩ .

(٢) في تعليمات خاصة ، صدرت من الحكومة العراقية بتاريخ ، ١٩٨٥ صودرت بموجبها
المخطوطات المحفوظة في المكتبات الخاصة ، ونقلها من ملكيات أصحابها الى معهد
المخطوطات في المتحف العراقي ولهذا الامر قصة طويلة يحتفظ بها المتضررون منها .

(٣) وجد محقق الكتاب ان كتابه هذا من تأليف ابن كمونة ، بعد ان ذكر خمس مراجع هي :

١ - كشف الظنون ، ج ٤ ، ص ٦٨٥ .

٢ - هدية العارفين لاسماعيل البغدادي ، ج ٥ ص ٣٨٥ .

٣ - عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٤ ص ٢١٤ .

٤ - فؤاد افرايم البستاني ، دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٤٨٢ ، ٥ - المستشرق الالماني

بروكلمان ، ١٧٦٨ ، ٥ .

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٦٨٥ .

٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وهذا العام الذي ذكره ابن الفوطي^(١) واكده صاحب الحوادث الجامعة^(٢).

وقد طبع ونشر في الولايات المتحدة الأمريكية من مطبوعات جامعة كاليفورنيا عام ١٩٦٧ ، نشره موسى بركان ، وقد

ترجمه الناشر المذكور الى الانكليزية بعنوان :

M.perlman : Ibn Kammina's examination of the three religions.

٢- كتاب (الحديد في الحكمة):

من كتب الفلسفة ذات الشأن في القرن السابع الهجري ، هو امتداد لكتاب (المعتبر في الحكمة) لابي البركات البغدادي في القرن السادس الهجري ، ووجه اخر للفلسفة العربية الاسلامية ، متمم لما كانت عليه الفلسفة على عهد الغزالي وخلفائه من بعده مثل الشيخ فخر الدين الرازي والشيخ الامدي ونحوهم . تعرض لمناقشة المسائل الفلسفية على وفق الصيغ القديمة بثوبها الجديد ، وتبويبها المنطقي ، وفي بيئتها الاسلامية .

الكتاب جزء من مضامين الفلسفة العربية الإسلامية ، متعددة الأطياف ، متنوعة الافكار ، متجاوزة متجاوزة ، لم تتصادم في اهدافها ، ولم يهضم قلوبها حق الأضعف فيها ، اخوان على كلمة (سواء) بمدلولها القرآني وبيئتها العربية ، وحضارتها الممتدة .

الكتاب من احسن الردود على قول من قال : ان الفلسفة العربية الإسلامية ذهبت مع الغزالي في المشرق ، واحتضرت مع ابن رشد في المغرب ، ثم ماتت بحوثه .

(١) تلخيص مجمع الاداب في معجم الانقلاب ، ص ١٥٩-١٦١ .

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٦-٤٧٧ .

هذا الكتاب مثل كتاب (الاسرار الخفية في العلوم العقلية) ، ومن على شاكلته من كتب الفلسفة^(١) ، بما يمتاز بالدقة في طرح الافكار الفلسفية المرموقة ، بالفاظها الواضحة بمعانيها ، السليمة بعباراتها ، الحسنة بتقسيمها المنطقي ، الجيدة بتسلسلها البرهاني .

الكتاب محقق تحقيقاً أكاديمياً ، وعلى مقومات موضوعية وعلمية بما يكفل سلامة النص ، اعتماداً على نسختين خطيتين ، الاولى : كتبت عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م بعد وفاة المؤلف بثمانى سنوات ، وهي من مخطوطات مكتبة كوبرلي في اسطنبول ، كتبها لنفسه : عبد العزيز بن ابراهيم بن الخيمي المارداني بدار السلام بغداد ، ووضع لها عنواناً الكتاب الملقب بالجديد (الحكمة والالهيات) ، وهي برقم ٧ / ١٦١٢^(٢) .

واما النسخة الثانية : فقد كتبها ابن النقي المؤذن بمشهد الحسين (عليه السلام) يوم الجمعة الثامن من شهر جمادي الاولى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م ، وهي من مخطوطات مكتبة احمد الثالث تحت رقم ٢٣٤م / ٥٣ الحكمة وجعل لها عنواناً (الحكمة الجديدة)^(٣) .

وجاء ذكر الكتاب وبهذا العنوان نفسه (الحكمة الجديدة) في المنطق من كتاب كشف الظنون^(٤) ، وكرر البغدادي هذا العنوان في كتابه (هدية العارفين)^(٥) ،

(١) قال دي بور : (اطلت الفلسفة الاسلامية على الدوام فلسفة انتخابية ، عمادها الاقتباس بما

ترجم من كتب الاغريق) ص ٥٠-٥١ .

(٢) الكبيسي ، د. حميد مرعيد ، مقدمة كتاب (الجديد في الحكمة) ص ١٧ .

(٣) الكبيسي ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٦٨٥ .

(٥) اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٣٨٥ .

وجاء هذا العنوان في مراجع اخر^(١)، ولم يظهر هذا العنوان او ينسب الى مؤلفه ابن كمونه زمن المؤلف او بعده في المصادر ، وقد احسن محقق الكتاب باختيار عنوان وسط بين العناوين (الجديد في الحكمة) وهي التفاته ذكية تجعل هذا الكتاب امتداداً لكتاب (المعتبر في الحكمة) لمؤلفه ابي البركات البغدادي ، الكتابان يعدان بحق امتداداً للفلسفة السينوية ، فهما على ذات المضمون وبنفس الشكل ، ومصاديق لعناوين الفلسفة بعد ابن رشد .

٣- شرح تلويحات السهروردي في الحكمة :

هكذا جاء اسمه في كشف الظنون^(٢) وفي غيره من المراجع^(٣) وكتاب (التلويحات العرشية) الذي كتب ابن كمونة شرحاً له من تأليف شهاب الدين السهروردي الذي قتل شاباً بطلب بامر السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٧هـ/١١٨٩م .

كان معاصراً للفيلسوف المغربي ابن رشد ومات قبله بسبع سنوات ، نشر كتاب (التلويحات العرشية) المستشرق الفرنسي هنري كوربان ضمن مجموعة في الحكمة ، وقد استفاد ابن كمونة في شرحه لكتاب التلويحات العرشية من شرح سبقه لتلميذ السهروردي الشيخ شمس الدين الشهرزوري ، وكان معاصراً لابن كمونة الذي وجده هنري كوربان لم يتوفى الا في حدود الثلاث الأخير من القرن السابع الهجري^(٤)، وهي السنين التي مات بها ابن كمونة نفسه

(١) كحالة ، معجم المؤلفين ، ج٤ ص ٢١٤ ، البستاني ، فؤاد افرام ، ج٢ ص ٤٨٢ ، بروكلمان ١٧٦٨

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ص ٤٨٢ .

(٣) البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ، ج٥ ص ٣١٥ ، هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص ٣٢٥ .

(٤) هنري كوربان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤-٣٢٦ .

عام (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) ولم يطبع الكتاب على حد علمنا ، وهو شرح ممزوج بصيغة (قال : أقول)

وقبل مغادرة هذا الكتاب ، من المناسب الوقوف على شيء مما جاء بمقدمته للوقوف على طبيعة فكره وصيغة عباراته وهدفه من تأليف كتابه ، يقول عز الدولة بن كمونة :

اتفق أرباب العقائد العقلية ، والديانات النقلية : ان الايمان بالله ، واليوم الآخر ، وعمل الصالحات ، هو غاية الكلمات الانسانية ، وبدونه لا يفوز الانسان بالسعادة السرمدية ، ولا ينجو من الشقاوة الاخرية .

ومن الظاهر ان ذلك لا يتم تحصيله على الوجوه اليقينية لا الظنية ، وبالطرق البرهانية الا بتحصيل بعلم الحكمة (الفلسفة) الذي هو استكمال النفس الانسانية لتحصيل التصورات والتصديقات ؛ بالحقائق النظرية والعملية وعلى حسب الطاقة البشرية .

وبهذا انقطع عذر من لم يرغب في تحصيله ، ولم يرأب في تمهيد قواعده وأصوله، فإن مكذب أهل الحكمة والنزير، مع عدم المستند والدليل لا يعد من اهل العقل والتحصيل ، ويجب على المتردد العمل بالاحوط ، وعلى المصدق الا يضل على علم عن سواء السبيل .

فلا تجد في هذا الكتاب ، الا ما ينتفع به ، في العلم بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه، وصفات جلاله ، وعجائب مخلوقاته الدالة على كبريائه وعظمته وبيان جوده وعنايته .

وفي اثبات الملائكة السماوية ، والنفوس الارضية ، وادراكاتها وأثارها وبقائها بعد خراب البدن ، وابديتها ، وتركيتها ، وما يعصمها من الخطأ والخذلان .

ومن خصائص النبوة والولاية ، وحال المعاد والنشأة الثانية .

وبالجملة فهذا الكتاب مشتمل على ما يعصم من الضلال ، ومزلة اقدام
الجهال ويسعد النفس في المنال بما تحلت به من الكمال .
يقول المؤلف جعلت هذا الكتاب سبعة ابواب ، وفي كل باب منها سبعة
فصول^(١) .

٤- التذكرة في الكيمياء

ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون وقال : (التذكرة في الكيمياء
لابن كمونة)^(٢) ، لم يزد شيئاً على عادته عندما تتعذر عليه المصادر . وتابعه
على نفس الخطا ، البغدادي في (هدية العارفين)^(٣) ، وذكره هكذا غيرهما اجمالاً
دون تفصيل^(٤) .

٥- "شرح الاصول"

والجمل من مهمات العلم والعمل في المنطق والحكمة" ، وسماه ابن كمونة:
(شرح الاشارات والنتيجهات) اوله : (احمد الله على حسن توفيقه)
الف ابن كمونه هذا الكتاب ممزوجاً مندمجاً مع الاصل ، اتى فيه بجميع
الفاظ الشيخ الرئيس من غير اخلال الا بما هو لضرورة اندماج الكلام ومزج ما
التقطه من كتب الحكماء ومن شرح الشيخ نصير الدين الطوسي ، وما استنبطه

(١) ابن كمونة ، عز الدين سعد بن منصور ، الجديد في الحكمة ، تحقيق حميد مرعيد الكبيسي
، منشورات ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، احياء التراث الاسلامي رقم ٤٤ ، بغداد
١٩٨٢ ص ١٤٥-١٤٧ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ .

(٤) طاش كبرى زاده ، عصام الدين احمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م) ، مفتاح السعد
ة ، ج ١ ص ٣٤٦ .

هو من فكر وتوجه نظر بحيث اندمج الاصل بالشرح مزجاً كان فيه شيئاً واحداً غير مميز ، كتاباً واحداً كالشرح للإشارات سماه مؤلفه ابن كمونة (الاصول والجمل من مهمات العلم والعمل)^(١) .

يذكر حاجي خليفة ان هذا الكتاب الفه ابن كمونة تكريماً لولد شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان المماليك زمن هولاءكو وابنيه آباقا خان واحمد دون ان يحدد اسم الولد^(٢) .

والمعروف ان من اولاد صاحب ديوان المماليك بهاء الدين (٦٨٧هـ/١٢٧٩م) صاحب اصفهان (كان ظالماً سيئ السيرة)^(٣) ، ومن اولاد شرف الدين هارون (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) ، زوج الایرة رابعة بنت الامير احمد بن الخليفة المستعصم بالله ، فوض اليه امر بغداد عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وجعل صاحب ديوانها ، وعرف هذا الرجل بالعلم والثقافة^(٤) ، وقد اهداه العلامة ابن المطهر الحلي كتابه (الاسرار الخفية في العلوم العقلية) وهو ما سوف نشرحه في الفصل الثالث لاحقاً ، ولذا يرجح الباحث ان المقصود بالكتاب كان شرف الدين هارون الجويني وهي امور لها دلالتها في ذلك العصر .

٦-الكاشف في المنطق:

ذكره بهذا الاسم اسماعيل البغدادي في كتابه هدية العارفين ، وليس له من ذكر في كشف الظنون ، ولم يستدرك عليه البغدادي في الذيل على كشف الظنون^(٥) .

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ص ٣٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ٩٥ ، ولم يتمكن الباحث من الاهتداء الى تلك المخطوطة .

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٦٥ .

(٥) البغدادي ، هدية العارفين ، ج ٥ ص ٣٨٥ .

٧- اسئلة المسائل السبع وجوابها (١)

كان عز الدولة ابو الرضى سعد بن المنصور بن كمونة احد الحكماء المشهورين المعاصرين لنصير الدين الطوسي ، فسأله سبع مسائل من مسائل الحكمة ، فاجاب الطوسي عنها في رسالة اولها (هذه مسائل سبع سأل عنها عز الدولة ابو الرضى سعد بن كمونة ، مولانا الاعظم افضل المتقدمين استاذ الدنيا نصير المله والدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي برد الله مضجعه:

المسألة الاولى : ان الحوادث تنتهي الى حركة متصلة سرمدية به .

المسألة الثانية : هو ان قال اهل علم الهيئة على امتناع عروض الاختلاف في الحركات السماوية وذلك ليس بمعنى .

المسألة الثالثة : أثبتوا ان تشخص الاشياء المتفقة في النوع ، انما هو بسبب المادة ، وكل موضوع استعملوا هذه المقدمة فيه جعلوها مما يثبتوه ، لان مطلق المادة اعم ؟

المسألة الرابعة : قالوا ان الجسم لا يؤثر الا فيما بينه وبين غيره نسبة وضعية؟

المسألة الخامسة: ما قرر ان كل مجرد بحث ان يكون عاقلاً لذاته ولغيره على الطرائق التي ذكرها الرئيس في الاشارات ؟

المسألة السادسة : اثبتوا ان النفس لا تدرك الجزئيات الا بالة جسمانية ؟

المسألة السابعة : المشهور عند اكثر المحققين القول بحدوث النفس الانسانية في النوع ، وذلك مع ان الائمة ما يفيدهم عن القول به ، فان حجتهم عليه لا يتم باتفاق وابطال التناسخ .

(١) مدرسي رضوي ، محمد تقى ، العلامة الخواجه نصير الدين الطوسى ، ص ٢٧١-٢٧٢

وجاء في آخر جواب الرسائل قول الشيخ نصير الدين الطوسي : فهذا ما قدرت على تحريره في اثناء هذه العوائق والشواغل التي ليس تحتها طائل والله موفق والمعين.

٨- مغالطة الكاتب القزويني وسؤال ابن كمونة وجواب الطوسي عليها .
كانت لنجم الدين الكاتب القزويني مغالطة اذ قال : (حدث العالم .لا يستلزم ارتفاع الواقع ، وكل ما لا يستلزم ارتفاع الواقع فهو واقع ، ينتج ان حدوث العالم واقع) .

هذه المسألة اشكلت على عز الدولة بن كمونة ، فطلب رأي الشيخ نصير الطوسي عنها برسالة قال : (كتب المولى العالم المحقق عز الدولة سعد بن منصور ابن كمونة عن مغالطة للحكيم الفاضل نجم الملة والدين الكاتب القزويني ، حدوث العالم) .

وكان جواب الطوسي : (خطر ببالي الداعي المخلص على الحجة المذكورة على اثبات الجواز في صورة النزاع هو هذا) .

واجاب ابن كمونة عن رسالة نصير الدين الطوسي بعد مطالعة جوابه ، وبدأت رسالته بالعبارة الآتية : (هذه النكات صنفها مولانا ملك الحكماء ، افضل المتأخرين سلطان المحققين نصير الله والدين) .

يقول السيد محمد تقي مدرسي ان هذه الرسالة وجدها ضمن مجموعة نفيسة للمرحوم الدكتور مهدي بياني^(١) .

يبدو واضحاً في الرسالتين المشار اليهما اعلاه : ان عز الدولة بن كمونة كان من جملة المفكرين الكبار في المجتمع البغدادي في عصر ما بعد الغزو المغولي لبغداد، وانه كان ممن انضم الى حلقات الدرس والافادة من التعليم العالي والمتقدم عند الشيخ نصير الدين الطوسي ، مثله مثل غيره من كبار المفكرين في

(١) مدرسي ، محمد تقي ، الخواجة نصير الدين الطوسي ، ص ٣٧٩-٣٨٠ .

بغداد والحلة امثال العلامة ابن المطهر الحلي و الشيخ ميثم البحراني و الشيخ نجم الدين الكاتبي القزويني ، ممن كانت لهم مساحات واسعة على ساحة الفكر و الفلسفة و الثقافة في زمانه .

ابن كمونة سينوي كبير :

مجل القول ان عز الدولة سعد ابن كمونة تلميذ متقدم من تلاميذ السينوية تخرج في استاذ هذه المدرسة في القرن السابع ، الشيخ نصير الدين الطوسي ، نجده في كثير من طروحاته مستخلص افكار فلاسفة عصره ، او ما عبر عنهم (افكار المتأخرين) ، الذين عاصروهم و تتلمذ عليهم او تعامل مع مصنفاتهم التي توفرت بين يديه ، وكذلك يلخص لباب حكمة الاوائل مدعومة بالحجة الناطقة ، والدليل الملموس دون ان يعير اهمية لما لا يجد منه طائلاً ، ولا يعطي بتحقيقه نفعا .

قال ابن كمونة في كتابه (الجديد في الحكمة) في الفصل الخامس تحت عنوان (المنامات والوحي والالهام والمعجزات والكرامات والاثار الغريبة الصادر عن النفس) ، وهو من العنوانات التي استفزت البعض من العامة في حسها ، قال: (دلت التجربة على ان النفس الانسانية ان تطلع على بعض المغيبات في حالة النوم ، فمن الناس من جرب ذلك من نفسه ، ومنهم من جربه من غيره ، فان خلقاً كثيراً يستحيل التواطؤ في حقهم على الكذب ، يحكون عن انفسهم رؤيا منامات يقع لنا عينها او تفسيرها) (١) .

ويفسر ابن كمونة قوله ذلك بقوله : (المدركات التي تتركها النفس في حالة النوم ، وما يجري مجراها من الاحوال التي نبهت عليها : اما ان يكون ادراكها بسبب اتصال النفس بعالم الغيب ، عندما يحصل لها فراغ عن شغل

(١) ابن كمونة ، الجديد في الحكمة ، ص ٤٤٥ .

البدن، او لا يكون ادراكها لها ، كذلك فان كان الاول فذلك الادراك بسبب اتصال النفس بعالم الغيب . وهذا اما ان يكون عند كون الانسان نائماً ، او عندما يكون يقظان .

فاما الذي عند النوم فسببه ركود الحواس ، وهذا الذي تستعد معه النفس للاتصال بالجواهر الروحانية^(١) .

اما ما تتلقاه عند اليقظة ، فمنه ما هو وحي صريح لا يفتقر الى تأويل ، ومنه ما ليس كذلك ، وهي اضغاث احلام ، وابن كمونة سبق له ان ذكر هذا الراي في كتابه الاخر (تفتيح المقال) ، وهو كتاب سابق على كتابه (الجديد في الحكمة) يقول : (هذا الوحي قد يكون مباشراً او غير مباشر، يقال : نبي ورسول لمن يؤدي اخباراً عن الله تعالى ، من غير ان يكون بينه واسطة او ادمي ، فيدخل في ذلك من يأتيه الخطاب من الله سبحانه بغير واسطة او بواسطة هي غير انسان آخر ، كملك من الملائكة ، ويفسر ابن كمونة هذا في مورد آخر فيقول : (المنامات الصادقة كالانموذج من النبوة ، وربما حصل منه حدس يكفي في الايمان باصل النبوة)^(٢) .

قال ابن سينا في (الاشارات) : (ان للنفس الانسانية ان تتال من الغيب نيلاً ما في حالة المنام ، فلا مانع من ان يقع مثل ذلك النيل في حالة اليقظة ، لا ما كان الى زواله سبيل ولا ارتفاعه امكان)^(٣) .

وقال الشيخ نصير الدين الطوسي في شرح هذا (ان الانسان قد يطلع على الغيب حال النوم ، فاطلاعه عليه في غير تلك الحالة ايضاً ليس ببعيد ولا منه مانع)^(٤) .

(١) ابن كمونة ، الجديد في الحكمة ، ص ٤٤٦ .

(٢) ابن كمونة ، المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣) ابن سينا ، الاشارات والتبهيئات ، ج ٢ ص ٣٩٩ .

(٤) الطوسي ، الشيخ نصير الدين ، شرح الاشارات ، ج ٢ ص ٣٩٩-٤٠٠ .

وخلصة شرح ابن كمونة لهذه الحالة ، هو نفس شرح استاذ الطوسي ،
مما يدل على ان ابن كمونة تلميذ من تلاميذ المدرسة السنيوية . وهناك افكار
اخرى لا نرى الاستفاضة في نقلها وتعدادها ، في بعض الفاظها مما لا يمكن
لغير المتخصصين تحمل صوتها العالي وقد تفسر بما لا يرغب بها المؤلف
ولكنها على كل حال هي حمالة ، أوجه ، قد تربط بدين هذا الفيلسوف بشك او
بآخر فيدفع ممن ليس له خبرة للثورة ضده .

الفصل السابع

المبحث الأول : التصوف العربي الإسلامي في القرن السابع

المبحث الثاني : ابو حفص الشيخ عمر السهروردي

المبحث الثالث : الشيخ عمر ابن الفارض

(٥٧٦ / ١١٨٠ م - ٦٣٢ / ١٢٣٥ م)

شاعر الحب الالهي

المبحث الرابع : الشيخ محيي الدين ابن عربي

(٥٦٠ / ١١٦٢ م - ٦٣٨ / ١٢٤٠ م)

" وحدة الوجود "

الفصل السابع

المبحث الأول

التصوف العربي الإسلامي في القرن السابع

التصوف العربي الإسلامي - كما عرفنا في دراسة سابقة^(١)، هو في الأساس زهد الرسول الكريم واعتكافه بعيداً عن الناس في جبل حراء وفي غيره^(٢)، وهو كذلك زهد الصحابة الكرام وعبادة التابعين وتابعي التابعين من السلف الصالح، أولئك النساك العاكفون على العبادة، المنقطعون إلى الله تعالى، المعرضون عن زخرف الدنيا وزينتها، الزاهدون فيما يقبل عليه جمهور الناس من لذة ومال وجاء ٠٠٠ (٣)

فالتصوف، إذن، في نشأته الإسلامية الأولى، هو: الزهد بعينه والانفراد عن الناس في الخلوة للعبادة، ومجاهدة الشهوة والهوى، والعمل على طهارة النفس وتزكيتها بالإقبال على الله سبحانه من دون غيره، فسموا ((النساك)) و ((الزهاد)) و ((العباد)). وسموا ((البكاء ون)).^(٤)

(١) - كتابنا: مدرسة بغداد الفلسفية، عمان / ٢٠٠٠ ص ٧٣-٨٢ ...

- اطروحتنا: الفكر الفلسفي في بغداد، الأصول والاتباع، بغداد/ ٢٠٠٢ ص ٩٦-٩٧.

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك الحميري البصري، (ت ٢١٣ أو ٢١٨-٨٢٨ م أو ٨٣٣ م)، السيرة النبوية، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٧ م، ص ١٠٨

(٣) فصل هذا الامر واكد مضمونه، القشيري أبو القاسم، عبد الكريم بن هوزان (ت ٤٦٥ -

١٠٦٤ م) (الرسالة القشيرية)، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٠، ص ٣٣-٤٩.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان، عمر بن بحر، البيان والتبيين: تحقيق وشرح د. عبد السلام محمد هارون، ط ٥، ١٤٠٥-١٩٨٥ م، ج ١، ص ٣١٣-٣٦٩.

وعرف آخرون من فقراء المسلمين باسم ((أهل الصفة)) (١) . . .
 كان الزهد فاشياً في الرعيّل الأول من الصحابة (٢) وكانت حياة الخلفاء الراشدين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب (رضي الله عنهم) ، وسيرة بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، وسلوك ابي بن كعب، وتميم الداري وابي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان ومصعب بن عمير وغيرهم (رضي الله عنهم) ، قد يفوقون العد ولا يبلغهم الحصر (٣) ، يمكن ان تعد بذورا اولى اينعت منها لوحة الحياة الروحية التي زكت وامتدت اغصانها، واينعت ثمارها، فكانت مقدمات التصوف... (٤)

وقد كان ابن الجوزي على حق عندما عاب على ابي نعيم الاصفهاني

(١) وهم جماعة من الفقراء المسلمين الذين هاجروا من مكة اول الدعوة، وكانوا من السابقين الاولين في الاسلام، وقد عرف عنهم الزهد الشديد لفقركم من ناحية ، ولان الاسلام دين المثل العليا والقيم الزهدية الرفيعة شملهم ببركته كان منهم عبد الرحمن الاصم (من اصحاب انظلة يعني الصفة صفة المسجد)، وكان منهم جرهد بن رزاح، وربيعه بن كعب الاسلمي، واسماء بن حارثة، وطلحة بن عبد الله النضري ٠٠٠ ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن سعد (ت ٢٣٠ - ٨٤٤ م)، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، بلا تاريخ، ج ١، ص ٣٠٥، وج ٤ ص ٢٩٨، ص ٣١٣، ص ٣٢٢، ج ٧، ص ٥١ .

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٦٣، ج ٣ ص ١٩٣

(٣) ذكر ابن الجوزي في كتابه (صفة الصفوة): ان ابا نعيم الاصفهاني في كتابه (حلية الاولياء) لم يذكر من اسماء الصالحين والاولياء هؤلاء سوى ستمائة من الرجال، ولا اظنه ذكر في جميع الكتاب عشرين امرأة، في حين قال ابن الجوزي: (لقد زاد عدد من ذكرنا في كتابنا هذا (صفة الصفوة) على الف شخص، يزيد الرجال على ثمانمائة، وتزيد النساء على مائتين، ج ١ ص ٣٨ .

(٤) فصلت كتب التاريخ الرئيسية حياة الخلفاء الراشدين، وحياة الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم اجمعين) لعل اهمها: ابن سعد (الطبقات الكبرى)، البلاذري في كتابه (انساب الاشراف وفتوح البلدان)، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك ، المسعودي، في كتابه (مروج الذهب) .

{ ١٠٣٩/٤٣٠ } في كتابه { حلية الاولياء } ، اضافته { السادة الكبار }^(١)، الذين ذكرنا ،الى التصوف، وصدق هذا الشيخ عندما لم يعد هؤلاء الصالحين الاخيار من المتصوفة، بل هم من العبد الزهاد، لأن { التصوف مذهب معروف لدى اصحابه، لا يقتصر فيه على الزهد بل له صفات واخلاق يعرفها اربابه... }^(٢) واعتبارنا في ذلك ومصادق القضية: ان التصوف ((من العلوم الحادثة في الملة))^(٣)، وكان، في سنيته الاولى، زهداً وليس تصوفاً...

وبعد حين من الزمن، في القرن الثاني للهجرة/ القرن الثامن للميلاد على التحديد، حينما اتسعت رقعة الأرض على المسلمين ((وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا))^(٤)، وعم الخير، فشا الإقبال على الدنيا، عندها اختص هؤلاء القوم المنقطعون إلى الله بطريقتهم ولم يجنحوا، كما جنح الناس، للإقبال على الدنيا، بل مضوا إلى سبيل ربهم ولم تغرنهم الحياة الدنيا وزينتها بل اعتزلوها بأساليب اختصوا بها، وبممارسات عرفوا فيها، ووسمتهم بين الناس باسم ((الصوفية أو المتصوفة))^(٥)... واول رواد التصوف كان الشيخ معروف الكرخي {ت ٢٠٠/٨١٥م}، لانه اول زاهد استحق اسم التصوف بمعناه الشامل الكامل، وذلك لا عن لقب ونسب وانما عن فكر ونهج ورأي.

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٣، بيروت/١٩٨٥، ج ١ ص ٢٥.

(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥-٢٦.

(٣) ابن خلدون، ابو يزيد عبد الرحمن بن محمد المغربي، (ت ٨٠٨-١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦٧ فما بعد .

(٤) سورة النصر، اية/٣

(٥) السهروردي، شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمد (ت ٦٣٢/١٢٣٥م)، عوارف المعارف، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت/١٩٦٦، ص ٤٥-٤٧.

وعند هذا الرجل ، وفي بغداد في بواكيرها (استقر التصوف نهائياً)^(١)، وصارت له قواعده وممارساته العملية وفكره ونظره ... فقد صار الزهد المتوارث مدرسة ، نظم فيها نفسه، ولملم أوراقه، ونسق أفكاره، صار علماً له منهجه الروحي وسلوكه المعروف ومجاهداته الصوفية، ومر بتجارب وتراكم خبز عبر السنين، ثم أضحي أساساً من الأسس الفكرية، وركيزة من ركائز التراث العربي الإسلامي، امتلك رؤية متميزة حول الإنسان والوجود، وبات نقلة معرفية للإنسان المسلم، خلق لغته الخاصة ورموزه المتعارفة التي تميزت بالرمزية الشديدة، أعطت المفردات معاني ودلالات توليدية بقرائن بعيدة عن أصولها القاموسية، ضمن اتجاه الصوفية لاختراق المسلمات في العقائد والأفكار واللغة، وعلى الخصوص بعد أن شهد مع الغزالي (٥٠٥/١١١١م) زخماً استوعب العصر كله، حتى صار له في الحياة الروحية شأن واي شأن^(٢). هذه المدرسة صار لها في القرن السادس سعة في الفكر، ومزجاً في المعرفة، فلم يعد الذوق والوجد وحدهما دليلاً الحقيقة، بل كان للعقل والنظر موقف.

خلطوا مسائل الكلام والفلسفة بعلمهم الذوقي وفهم الروحي، على وفق منهجهم الذي ميزهم عن اركان الفكر الفلسفي العربي الإسلامي^(٣)، ونعني به على وجه الخصوص علم الكلام واصول الفقه والفلسفة بصيغتها العربية الإسلامية...

(١) الشيبلي، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي...، ص ١٠٧، ونجد ترجمة مفصلة لمصادر

الكرخي: طبقات الصوفية للسلمي، الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد، ج ١٣ ص ١٩٩، ابن

الجوزي، صفة الصفوة، ج ٢ ص ٣١٨-٣٢٤.

(٢) د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٣٠.

(٣) - د. محمد مصطفى، المرجع السابق، ص ٧١-٧٥

- الشيبلي، د. كامل، الفكر الشيعي، ص ٩٥.

يعتمدون في معرفة الذات الإلهية وصفاتها وأفعالها وحكمتها، ببراهين وحجج، على وفق خط مشترك بين اهل الكلام واهل الفلسفة بما لديهم من اصول عقلية، مصاغة بوجه ما بالوسائل الصوفية بما فيها من روحانية واشراق...^(١)

عمق هذا اللون من التفكير: ابو الفتوح شهاب السدين بن حبش السهروردي (٥٨٧/١١٩١م)، في كتابه ((حكمة الاشراق))، الذي جعل التداخل قائماً غير منقطع بين مناهج علم الكلام، وقواعد الفلسفة العربية الاسلامية، والكشف الصوفي، كي تمضي من دون توقف، حتى تلاقها ابن عربي (٦٣٨/١٢٤٠م) والشيخ عمر السهروردي (٦٣٢/١٢٣٤م)، واضرابهم من كبار الصوفية في القرن السابع الهجري، الذين كانوا يعرضون من التفلسف اكثر ما يعرضون من التصوف، والتي يتجمع فيها النظر العقلي المتين، بالمفاهيم الصوفية الهادفة والانواق الروحية الشفافة، وهو الامر الذي اصاب من ابن حبش السهروردي مقتلاً...^(٢)

التميز في الشكل العام:

في هذا القرن من تاريخ الامة، الذي كان ثمرة كاملة لجميع المراحل التاريخية السابقة عليه بما اكتنزت من تراكم حضاري، وما اضافت من زخم ثقافي، ازدهر التصوف بصيغ لم تعرف من قبل، وتميز بأمر عمقت من جذوره، سواء منها التي كانت بالشكل العام للتصوف، ام بمضمونه وتعدد موضوعاته... فأما ما يتميز به فكر التصوف العربي الإسلامي في القرن السابع من حيث الشكل فهو أمور عدة اخذت ابعاداً اوسع، وصارت بصيغ غير التي عرفت قبل القرن السابع، منها:

(١) د. ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ط ٢ بغداد ١٩٨٩، ص ١٠.

(٢) د. محمود قاسم، محيي الدين ابن عربي، القاهرة، ١٩٧٢ ص ٣٥٠-٣٧١.

وهي من مصادر المعرفة لدى الصوفي، صارت في القرن السابع مفهوماً واضحاً، متميزاً عما قبله من السنين، ليس معقداً في سعيه، ولا غامضاً في مراده، غير عبثي في قصده....

صارت المجاهدة في القرن السابع الهجري من أكثر مصادر المعرفة للصوفي وأوسع ما يحصل له من الادواق والموارد عندما يرتفع الحجاب بينه وبين ربه {الحقيقة العليا}...

بالرياضة و المجاهدة، تلقى المعارف في قلب الصوفي مباشرة، من دون توسط، من دون الاستدلال عليها بشيء، تلقى القاءً "علي قدر ميل النفس واستقامتها أو اعوجاجها وثبوتها"^(١)، وعلى وفق محاسبتها على اعمالها "وحملها على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال"^(٢) لتصير مقاماً يترقى الصوفي منه الى غيره .

المجاهدة الكلية تلزم الصوفي "صاحب النفس الصعبة، الغليظة الطبع الشديدة البطش، القوية الشهوة"^(٣) اما ان يكون امره هذا نوعاً من انواع العبادة او نوعاً من انواع الصفة الحاصلة للنفس، كالحزن والسرور، والقبض والبسط، والهيبة والانس^(٤)، "كلما هانت النفس ولانت، هانت المجاهدة ولانت"، الى ان تنقاد وتتوب من كل ميل وعناد..^(٥) "عندها تكون المشاهدة ثمرة للمجاهدة فتحصل "طمأنينة القلب يوهج يلقاه، من حر شعاع نظر مولاه، فلا يشك بانه اياه، فيتألذذ بمحياه،

(١) الشيخ احمد بن علوان (ت ١٢٦٦/٦٦٥م)، المصطلح انصوفي، تحقيق نظلة الجبوري، بغداد ١٩٩٨، ص ١٦٢.

(٢) ابن عربي، اصطلاح الصوفية، تحقيق نظلة الجبوري، بغداد ١٩٩٨، ص ١٣٨.

(٣) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٤) فصل هذه المسألة، د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٣٤-١٦٣.

(٥) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ١٦٢-١٦٣.

ويحيا لروائح رؤياه، بلا طول ولا عرض، ولا رفع ولا خفض ولا سماء ولا ارض، ولا كيف، ولا أين، ولا أذن ولا عين " ليس كمثله شئ وهو السميع العليم" (١)

هذا النوع من نظرية المعرفة عند الصوفية، ناقشه الجابري في كتابه (بنية العقل العربي) انكره ولم يقره، وحاول تحليل هذه التجربة عند الصوفية من منطلق عقلاني - كما ذكر - قوامه الايمان بقدرة العقل على تفسير كل الظواهر تفسيراً يعطيها معنى معقولاً، ويرفع عنها ما قد يكتنفها من اسرار يدعي اهل التصوف ان معرفتها من اختصاص قوة معرفية في الانسان فسوق قوة العقل تعرف (بالمجاهدة والوجد والذوق) (٢).

يعترف الجابري: (ان العقل لم يكشف بعد عن جميع الاسرار، وما نظنه انه سيفعل يوماً) (٣) الاسرار التي يكتشفها العلم بدلالة العقل لاحد لها ولا نهاية، لان كل سر يكتشفه يطرح سرا آخر وهكذا... العالم يتعامل مع اسراره كأشياء يجهلها الآن، وقد يخترقها بعلمه وعقله غداً لينشرها بين الناس... .

اما الصوفي فهو يتعامل مع اسراره كأمر يعلمها وحده، علماً نهائياً مطلقاً، يضمن بها على غيره ممن ليسوا من (الصفوة المختارة) وتلك انانية الصوفي واستقراطيته (٤) ... ومع هذا يبقى للعقل ما وراءه...

٢- الكشف:

وهو ما يحصل للصوفي نتيجة ما يأخذ به نفسه من مجاهدة وخلوة وذكر . فهناك ينكشف له حجاب الحس، ويطلع على عوالم من امر الله اطلاقاً لا

(١) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٢) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٣) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٤) الشيخ احمد بن علوان، المصدر السابق، ص ٣٧٥.

يستطيعه من ما يزال مقيداً بقيود الحس " ويرجع هذا الكشف الى أن العبد اذا أنصرف عن الحس الظاهر الى الحس الباطن ظهرت روحه على نفسه المتلبسة ببدنه، وتلقى -حينئذ- المواهب الربانية، والعلوم الدنية...^(١)

وهي عادة ما تكون "الحقيقة المدركة من عالم الغيب"^(٢)، وعندئذ يكون التخلي: وهو " ما ينكشف للقلوب من انوار الغيوب او المكاشفة" على رأي ابن عربي " وتطلق بأزاء ثلاثة امور: اولها: تطلق بأزاء تحقيق الالبانة بالقهر .
وثانيها : تطلق بأزاء تحقيق زيادة الحال .

وثالثها: تطلق بأزاء تحقيق الاشارة..."

فتكون النتيجة، حينئذ، (المحادثة)، كما سماها ابن عربي ايضاً، وهي " خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة، كالنداء من الشجرة لموسى (عليه السلام)^(٣)، وهو ما يناله اصحاب الذوق والمواجد لا أصحاب الفكر والنظر وقد نال من هذا الكشف الشيخ محيي الدين بن عربي الشيء الكثير، وعلى الخصوص في كتابيه (الفتوحات المكية)^(٤)، و(فصوص الحكم)^(٥)

وابن عربي - كما عرفنا - قد ذهب بالتصوف في القرن السابع الهجري الى ابعد مدى مما كان قبله^(٦)، فإن الرجل (قد كتب كتبه تحت تأثير نوع من الوحي او الألهام فأنزل في سطورها ما أنزل به عليه، لا ما قضى به منطق العقل)^(٧)...

(١) د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٥ .

(٣) ابن عربي، المصطلحات الصوفية، ص ١٤٠.

(٤) طبع غير مرة: منها بيروت: دار صادر، بلا تاريخ.

(٥) تحقيق ابو العلاء عفيفي، بغداد ١٩٨٩ . مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ١٠.

(٦) الجابري، د. محمد عابد، نبيه العقل العربي، ص ٢٧٦.

(٧) ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ١٠.

وابو العلاء عفيفي يؤكد هذه المسألة ويقرها بقوله : "لم يكن الرجل واحدا ولا مفتريا حينما قال في فصوصه" ولا أنزل في هذا السطور الا ما ينزل به على، و لست نبيا ولا رسولا، ولكني وارث، ولاخرتي حارث"، فهو يعتقد عن يقين ان كتابه من املاء رسول الله في غير زيادة ولا نقصان، املاء عليه في رؤيا رآها في دمشق سنة ١٢٢٧/١٢٢٩م، وانه لم يكن الا مترجما لما كشفه به النبي الذي هو منبع العلم الباطن ومصدر نور المعرفة، كما انه لم يكن الا مترجما لما كشفه به عن نفسه عندما سمى موسوعته الكبرى في التصوف بأسم (الفتوحات الملكية)، وسمى كتاباً آخر بالتنزلات الموصلية، الى غير ذلك مما يؤيد به دعواه وانه لا يصدر في كتبه عن تفكير او روية، بل عن كشف والهام، وان ما نطق به فيها لم يكن الا في (الفتوح) الذي يفتح الله به على الخاصة من عباده^(١)...

ومن نماذج .الكشف هذا، وهو ما يميز هذه الظاهرة الصوفية في القرن السابع الهجري عما سبقها ، ما ينقله ابن عربي نفسه في كتابه {الفتوحات المكية}^(٢) انه تلقى من النبي الكريم "صلوات الله عليه" بطريق الكشف بقوله : "قال النبي: ما نزل في القرآن من آية الا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ومطلع"، ثم يضيف ابن عربي :وفهمت منه :ان الظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل، والحد هو ما ينتاهى اليه الفهم في معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد اليه منه فيطلع على شهود الملك العلام...^(٣)

ولم ينفرد ابن عربي بهذه الظاهرة ،وان كان قد مارسها على اوسع مدى^(٤)، ولكن شاركه فيها العديد من اعلام التصوف في القرن السابع الهجري، وهو ما نشرحه فيما بعد...

(١) المرجع السابق، ص ٩-١٠.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية، بيروت بلا تاريخ، ج ١ ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٣) ابن عربي، تفسير ابن عربي، القاهرة، ١٩٦٥، ج ١ ص ٢.

(٤) الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٧٦.

١ - الكرامات:

وهو ثالث المصادر لنظرية المعرفة عند الصوفية، استقرت في القرن السابع على مفاهيم وصيغ ميزتها عما سبقها...

تعددت في هذا القرن أسماء الاعلام العارفين الكبار من اصحاب الكرامات، لم تقتصر على {القطب والغيث^(١)} منهم، بل تعدت هذا الى الامام الذي كان الى يمين {الغوث}، والامام الآخر،^(٢) الذي هو على يساره، بل يبدو انها عمت الاوتاد^(٣) الاربعة والبلاء السبعة^(٤)، حتى صارت الى {النجباء}^(٥) الاربعين و {النقباء}^(٦) الثلاثمائة...

الكرامات قبل تفصيل الحديث عنها: ليست كمثل المعجزات، وان كانتا متساوية في كونها ناقضة للعادات^(٧) على راي الامام عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ / ١٠٣٧م) غير ان الفرق بينهما على وجهين:

-
- (١) القطب وهو الغوث: عبارة الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان وهو قلب اسرافيل (عليه السلام)، ابن عربي، المصطلح الصوفي، ص ١٣١.
 - (٢) ابن عربي، المصطلح الصوفي، ويقول "الامامان هما شخصان احدهما عن يمين الغوث ونظر في الملكوت، والآخر عن يساره ونظر في الملك، وهو اعلى من صاحبه، وهو الذي يخلف الغوث، ص ١٣٢.
 - (٣) منازل الاوتاد على منازل اربعة اركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مقام كل واحد منهم مقام تلك الجهة، المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٢.
 - (٤) من سافر من القوم عن موضع وترك جسداً على صورته حتى لا يعرف احد انه فقد فذلك هو البذل لا غير، وهم على قلب ابراهيم (عليه السلام)، المصدر السابق، ص ١٣١.
 - (٥) النجباء "هم المشغولون بحمل اثقال الخلق، فلا يتصرفون الا في حق الغير"، المصدر السابق، ١٣٢.

(٦) النقباء: هم الذين استخرجوا خبايا النفوس..، المصدر السابق.

(٧) البغدادي ابو المنصور عبد القاهر بن طاهر التميمي، كتاب اصول الدين، دار صادر بيروت، عن الطبعة الاولى اسطنبول، ١٩٢٨، ص ١٧٤.

احدهما: المعجزة: وهي ما يستدل بها على صدق انبياء الله {عليهم السلام} ،اما ما يظهر على الاولياء، فيسمى كرامة، للتمييز بينهما...
والوجه الثاني: ان صاحب المعجزة لا يكتُم معجزته، بل يظهرها ويتحدى بها خصومه... وصاحب الكرامة يجتهد في كتمانها ولا يدعي فيها^(١)...
فأذن، المعجزات للانباء، والكرامات للاولياء، فكما ان المعجزة، بالنسبة للنبي، هي علامة صدقه، فكذلك الكرامة هي علامة ولاية الصوفي وصدقه^(٢)...
ومن الكرامات المعروفة رؤية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب {رضي الله عنه} لجيشه المحارب في نهاوند، وهو في مسجد الرسول بالمدينة المنورة يلقي خطبة الجمعة، عندما قال: ياسارية الجبل الجبل، فكان على يده الفتح^(٣)...
ومن الكرامات المتواترة: قلع الامام علي بن ابي طالب {عليه السلام} باب خيبر، وهي باب حصن حصين، قال الامام علي {عليه السلام}: " ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية، ولكن قلعتها بقوة ربانية...^(٤)" وقد اشار ابن سينا الى هذا الامر وفصله في كتابه {الاشارات والتنبهات}، ووضح فيما يكون للصوفي العارف من الخواص والغرائب، وما يحصل للمحققين منهم من كشف لحجاب الحس واطلاع على الغيب، ووجه ابن سينا هذا الى اعتبار مذاهب الطبيعة وما فيها من

اسرار... والصوفي المتحقق، الذي انكشف حجاب حسه، وغلب سلطان روحه، وقربت ذاته من تحقيق حقيقتها من الافق الاعلى: هناك يستطيع من وصل الى هذه الدرجة من الكشف ان يدرك حقائق الوجود وان يعرف كثيراً من الوقائع

(١) البغدادي، عبد القاهر، كتاب اصول الدين، ص ١٧.

(٢) الجابري، د. محمد عائد، بنية العقل العربي، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) البغدادي، عبد القاهر، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٤) الطوسي، نصير الدين، شرح (الاشارات والتنبهات)، ج ٣ ص ٣٩٨.

قبل حصولها^(١)... ولا بأس ان نعود ثانية لتطبيق هذا الامر على الشيخ محيي الدين بن عربي ، فنروي واحدة من كراماته: قال " اما بعد :فأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مُبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبیده صلى الله عليه وسلم كتاب ،فقال لي : ان هذا {كتاب فصوص الحكم} خذه واخرج به الى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله واولي الامر منا كما امرنا. فحققت الأمنية و اخلصت النية وجردت القصد والهمة الى ابراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان ،وسألت الله تعالى ان يجعلني فيه وفي جميع احوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان وان يخصصني في جميع ما يرقمه بنائي وينطق به لساني، وينطوي عليه جنائي، بالالقاء السُّبُوحِي ،والنفث الروحي، في الرُّوع النفسي بالتأييد الاعتصامي ،حتى اكون مترجما لا متحكما،ليتحقق من يقف من اهل أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس المنزه عن الاغراض النفسية التي يدخلها التلبیس. وارجو ان يكون الحق لما سمع دعائي قد اجاب ندائي، فما ألقى الى ،ولا أنزل في هذا المسطور الا ما ينزل به على .ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث ولاخرتي حارث: فمن

الله فاسمعوا والى الله فارجعوا

فاذا ما سمعتم ما أتي به فعوا

طالبيه لا تمنعوا

ثم مُنُوا به على

وسعنتكم فوسعوا^(٢)

هذه الرحمة ان

(١) د.محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥، ص١٣٥.

(٢) ابن عربي ، فصوص الحكم ، ص ٣١ .

الفاظ وعبارات موهمة الظاهر صدرت عن كثير من أئمة الصوفية، وكان لها صداها في القرن الثالث والرابع، ولم يعد للشطح الصوفي كثير أثر في التفسير الصوفي في القرن السابع للهجرة لان الإشكال الذي تثيره عبارات الشطح قد جعلت الناس بين منكر ومؤيد و متأول...

الشطح، بصورة عامة، على رأي ابي نصر السراج الطوسي : "كلام يترجمه اللسان عن وجد فيفيض عن معدنه مقرون بالدعوى^(١)"، وهذه الدعوى يعبر عنها الصوفي بعبارات مضطربة غير متوازنة تعني الاتحاد بالله بنوع ما من الاتحاد...ولذا قال السراج عن الشطح في موضع آخر: انه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غلبانه وغلبته^(٢)..

كان ابن عربي في نظريته في وحدة الاديان يذهب الى المذهب نفسه الذي كان عليه الحلاج { ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م } ولم يسأله القوم بما سألوا به الحلاج... وما كان ديوان ابن الفارض، لاسيما تائيته الكبرى و خمريته ببعيدتين عن مقاصد ابي زيد البسطامي { ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م }، ومفاهيمه الصوفية، ولم تثر ما أثارته، بل حفظها الناس وتغنوا بها حتى اليوم.

الناس في القرن السابع الهجري تقبلوا هذا النوع من شطح صوفية اهل زمانهم لأنهم بالذات كانوا شديدي الشوق للهرب من واقعهم المكبل بكثير من الأغلال، والمبتلى بالكثير من المشكلات...

لقد كان شطح البسطامي خلافاً للمعهود وعلى الخصوص قوله " لا اله إلا انا فاعبدوني، سبحاني ما اعظم شأنى"، وقوله مخاطباً ربه " طاعتك لي يارب اعظم من طاعتي لك"، و "بطشي اشد من بطشه بي"، وقوله "ضربت خيمتي بأزاء العرش"، او قول الحلاج "انا الحق..."

(١) ابن سينا، (الإشارات والتنبيهات)، ج ٣ ص ٣٩٥-٤٠٥.

(٢) اللمع، نشره د. عبد الحليم محمود، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٢٢-٤٥٢.

ونحوها كثير، ومع هذا وجدنا من اعلام التصوف في القرن السابع الهجري أمثال الشيخ عمر السهروردي والشيخ نصير الدين الطوسي^(١)، وحتى ابن خلدون في القرن التالي، ممن اعتذر عن البسطامي واعتذر عن الحلاج، ووجد " ان من الانصاف في شأن القوم، انهم اهل غيبة عن الحس... وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور.."^(٢).

التمييز في المضمون:

اما ما تميز به فكر التصوف العربي الاسلامي في القرن السابع الهجري من حيث المضمون فكانت أموراً عدة أيضاً، لن نقف امامها طويلاً، بل سنشير اليها اشارات، ونحدها بمفاهيم، و الا أخذت من هذه الدراسة مساحة ليس هنا استحقاقها:

١- يعود الفضل الى تميز التصوف في القرن السابع والى مكانته الأليق، الى عصر الامام الغزالي، الذي مكن الناس من التعايش مع التصوف، ومنح اهل التصوف الصفة الشرعية في الأوساط الرسمية السلجوقية،^(٣) ومهد للوثام بين الناحيتين الباطنية والظاهرية للإسلام...

(١) فصل الامر: - د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص ١٠٣-١٠٥، ص ١٣٥-١٣٧.

- الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ١٣، ١١٠، ١٠٨، ١٠١، ١١٥.

- الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٨٨-٢٩٠.

- الجابري، د. محمد عابد، تكوين العقل العربي، ص ٢٠٧-٢١٠.

- الاعسم، د. عبد الامير، نصير الدين الطوسي، ص ١٦٦-١٧٦.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٣) - سيد حسين نصر، ثلاثة حكماء مسلمين، ترجمة صلاح الصاوي، دار النهار، بيروت ١٩٧١، ص ١١٨.

- دراستنا، شك الفيلسوف الغزالي، ضمن كتاب (كتابة تاريخ الفلسفة العربية المعاصرة)، بيت الحكمة، اعمال المؤتمر الفلسفي العربي الثالث، بغداد ٢٠٠٣، ص ١١٩-١٤٨.

ابرز الامام الغزالي الوجه الظاهر لبعض التعاليم الصوفية، حتى تكتسب الحرية لتواصل حياتها الباطنية في صميم المجتمع العربي الاسلامي انطلاقاً من عاصمة الاسلام بغداد وليعم امصار الامة كافة...

ادى دفاع الغزالي عن التصوف دوراً مهماً في اقرار المنزلة الممنوحة للطرق الصوفية وعقائدها وأفعالها في وسط فعاليات الدولة العربية الاسلامية، و من بين يدي الحكام السلاجقة وعلى الخصوص وزيرهم نظام الملك^(١)...

تمثل هذا في كتب للامام الغزالي اقبلت عليها الناس مثل كتاب (مشكاة الانوار)^(٢)، و (الرسالة اللدنية)^(٣)، وغيرها مهدت الطريق لابن عربي وأضرابه ليأخذ التصوف على ايديهم طفرة نوعية في القرن السابع^(٤)...

فكان للتصوف بعد ذلك شأن، وعلى الخصوص بعد ان رفع عنه حصار الفقهاء، ولو الى حين. فقد كتب ابن عربي الى شيخه عبد العزيز في تونس رسالة جاء فيها: "ما زالت الفقهاء في كل زمان مع المحققين - يعني الصوفية - بمنزلة الفرعون من النبيين^(٥)..."

(١) سيد حسين نصر، المرجع السابق، ص ١١٨-١١٩.

(٢) من الكتب المقطوع بصحة نسبها الى الغزالي، مطبوع في القاهرة مرات عدة منذ سنة ١٣٢٢هـ وفي ١٣٥٣، ١٣٢٥، ضمن مجموعة (جواهر الغوالي)، فصل فيها القول:

د. عبد الرحمن البدوي، مؤلفات الغزالي، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٩٣-١٩٨.

(٣) من الكتب المقطوع بصحة نسبها الى الغزالي، طبعت مرات عدة بلا تاريخ وترجمت الى

الانكليزية، فصل الامر فيها: د. عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، ص ١٩١.

(٤) فصل الامر:- ابو العلاء عفيفي، التصوف...، دار الشعب بيروت بلا تاريخ،

ص ١١٢، ٢٤، ١٤.

- سيد حسين نصر، المرجع السابق، ص ١١٣، ص ١١٨.

- الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٩٤، ص ١١٧.

(٥) محمد النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي، ص ٣٧٦-٣٨٠.

٢- القرن السابع الهجري كان عصر نضوج المذاهب الصوفية وتكامل تعاليمها وتميز طرقها، وظهور فرقها، وفك الاشتباك بينها وبين الكثير من خصومها. الفكر الصوفي في هذا القرن: كان فلسفي المخبر، صوفي المظهر، دخل في صميم العقائد الفلسفية، والقواعد الكلامية، وحتى في الفقه واصوله^(١).

لم يخش الصوفي ما كان يخشاه أهله في القرن الرابع، بعد أن توفرت للتصوف وسائل فعالة للمحافظة على مناهجه الروحية، وعقائده العلمية وممارساته العملية، وإذا عتتها من دون تقيّة تذكر^(٢). فهم صوفية من طراز الأولين، وفلاسفة روحانيون يصطنعون النظر الفعلي الخالص على نحو ما يصطنعه الفلاسفة المؤسسون، في عملية سبك وصهر على وفق وسطية شفافة بين التصوف المعتمد على الذوق وبين الفلسفة المستندة إلى النظر...

ويعمل ابن خلدون هذا إلى أن أسلاف هؤلاء المتأخرين من الصوفية كانوا مخالطين للفرق الإسماعيلية المتأخرة " فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم..."^(٣).

ولا يرى الباحث أن هذا دقيق في جملته، فإن تأثير الإسماعيلية على التصوف كان ضئيلاً لو قيس بتأثير الفيلسوف الكبير ابن سينا الذي أخذ منه الجميع وبصيغة واضحة جداً، وعلى الخصوص في أفكاره التوفيقية، ومبادئه التلقيفية...

(١) - عزام، د. عبد الوهاب: التصوف وفريد الدين العطار، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٤٥، ص ٥ فما بعد.

- د. أبو العلاء عفيفي، التصوف...، ص ١١.

- الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٩٤.

(٢) - د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص ١٠٤ - ص ١٢١ فما بعد.

- سيد حسين نصر، ثلاثة فلاسفة مسلمين، ص ١١٨ فما بعد.

- الجابري، بنية العقل العربي، ص ٢٩٦.

- الجابري، تكوين العقل العربي، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٣، الجابري، تكوين العقل العربي، ص ٢١١.

ومهما كانت الاسباب: فإن التصوف امتاز في هذا القرن بالامتزاج بالفلسفة وعلم الكلام، فصار صوفيا فلسفياً معاً، جمع بين قضايا العقل واحوال الذوق^(١) انتفع التصوف بمصطلحات الفلسفة العقلية بعد صبغها جميعاً بصبغة التصوف الخاصة، فصار لكل منها معنى جديد يتفق مع روح العصر، أي ان الصوفي اصطنع اساليب الصوفية ورموزهم للتعبير عن الفلسفة، فجمع في فكره الجديد: براعة القواعد الكلامية، ودقة البراهين الفلسفية، الى جانب روعة التعاليم الصوفية، و للأذواق الروحية كافة، بصيغ من الرموز والاشارة^(٢)...

٣- اتصف التصوف في القرن السابع الهجري بالتححرر العقلي، والانفتاح السياسي، حتى صارت عقيدتهم تميل في الاصول الى بعض فرق الشيعة، مع بقاء كل منهم على عقيدته في الفروع، مع اتصاف هذين الامرين {الأصل والفرع} بالأسس العقلية... هذا الامر دفع الصوفية في القرن السابع الهجري الى ان يدلوا بدلوهم في امور السياسة، فكانت مسألة الخلافة والامامة وكانت، يومئذ، موضع خلاف بين فرقهم، حتى جاء ابن عربي، الذي حسم الامر في هذا النزاع^(٣)، فوجد ان الامام علي بن ابي طالب {عليه السلام} كان افضل خليفة للناس بعد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وكان اولى الصحابة بالامامة، ولكنه سلم الامر الى الخليفة ابي بكر الصديق {رضي الله عنه}

(١) - د. ابو العلاء عفيفي، التصوف...، ص ١٣. - الشيباني، الفكر الشيعي، ص ١٢٠.

(٢) - عزام، د. عبد الوهاب، التصوف وفريد الدين العطار، ص ٢٥.

- د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١١٨.

- سيد حسين نصر، ثلاثة فلاسفة مسلمين، ص ١٢١.

- محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية...، ص ٣٨٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل في هذا الامر، ابن عربي، الفتوحات الملكية، ج ١، ص ٤٤٨، ج ٤؛

ص ١٣٩.

وفوض الامر اليه طائعاً، وترك حقه راغباً^(١)، ولذا جوز ابن عربي امامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل، وبهذا عالج الصوفية هذه المسألة الخطيرة في الاسلام، على اعتبار ان علياً كان افضل من ابي بكر، ولكن الخلافة فوضت الى الاخير لمصلحة رآها المسلمون^(٢)، وقد اخذ المتصوفة هذه الفكرة، التي اعتمدها ابن عربي وعمموها، ووسعوا قواعدها بما ينفع الناس...

٤- تميز التصوف في القرن السابع الهجري بالتواضع والتسامح، حتى صار قلب الصوفي محطة قابلة لكل صور الخير والمحبة والمساواة وتمجيد الانسان أي كان.

و يقول ابن عربي بهذا المعنى (٣):

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان وديراً
لرهبان
وبيتاً لأوثان و كعبة طائف
و الواح توراة ومصحف
قرآن
ادين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني و ايماني

(١) - الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٩٣ م)، المال والنحل، على هامش كتاب {الفصل في الملل والهواء والنحل}، نشر مكتبة المثنى في بغداد، ومؤسسة الخانجي، بمصر، ج ١، ص ٢١٧.

- الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي...، ص ٣٣.

(٢) - ابن عربي، الفتوحات الملكية، ج ١، ص ٤٤٨، ج ٤، ص ١٣٩، يقول ابن عربي
فمن شهد الامر الذي قد شهدته
يقول بقولي في خفاء وإعلان
ولا تلتفت قولاً يخالف قولنا
ولا تبذر السمرء في ارض عريان
- فصوص الحكم، ص ٨٥، (فص حكمة حقية في كلمة اسحاقية).

(٣) - ابن عربي، فصوص الحكم، ص ٨٤-٨٥، -ابو العلاء عفيفي، التصوف...، ص ٢٢٦، -
الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي...، ص ١١٧.

كل ذلك من اجل هدف اسمى شغل على ابن عربي و أمثاله في الصوفية في القرن السابع الهجري كيانهم ،ذلك الخب الإلهي ،الذي هو اصل العبادة وسرها وجوهرها^(١) ،من اجل محبة الله يتواضع الصوفي ولا يخالط قلبه عجب او كبر او رياء...الصوفي لا يدعي لنفسه شرفاً او علماً او جاهاً او فضيلة أياً كان نوعها.

٥- مما تميز به الفكر الصوفي في القرن السابع الهجري،مسألة اعتماد وظائف جديدة وهيكل تنظيمي جديد يختلف بصيغ كثيرة عن القرون السابقة،تلك هي اعتماده على عناوين واسماء لها تصرفها بهذه الصيغة المحددة والكيفية التي كان عليها امثال: القطب الغوث الذي هو (موضوع نظر الله)^(٢) ،وكذلك نائباه الامامان اللذان هما على يمين الغوث وعلى يساره، وكذلك الاوتاد الاربعة في شرق الدنيا وغربها وشمالها وجنوبها، (والبدلاء)،(والنجباء)،(والنقباء)،(والاوفياء)،وهم (الملامتية)^(٣) (الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر)^(٤) ،اكّد التصوف في هذا العصر

(١) ابو العلاء عفيفي ، التصوف...، ص٢٣١، السيد حسن نصر ، ثلاثة فلاسفة مسلمين، ص١٢١.

(٢) ابن عربي، المصطلح الصوفي، ص١٣١.

(٣) قال الشيخ عمر السهروردي (ت٦٣٢ هـ/١٢٣٤م) " قال بعضهم الملامتي هو السذي لا يظهر خيراً، ولا يضر شراً، وشرح هذا : هو ان الملامتي تشربت عروقه طعم الاخلاص، وتحقق بالصدق، فلا يجب ان يطلع احد على حاله واعماله...، عوارف المعارف، الناشر دار الكتب، ط١، بيروت، ١٩٦٦، ص٧١، وقال السهروردي أيضاً: "وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم (الملامتي)، وقلمنا تتداول السنة اهل العراق هذا الاسم...المصدر السابق، ص٧٣.

(٤) السهروردي ، المصدر السابق، ص١٣١-١٣٢، ولمزيد من التفاصيل في موضوع الملامتية واهل الفتوة، د. ابو العلاء عفيفي، (الملامتية والصوفية واهل الفتوة)، مصر ١٩٤٥

ضرورة تماسك الهيكل التنظيمي، و ضرورة التزام المريد بأعتباره الحجر الاساس...

قال ابو الحسن الشاذلي (ت ٦٥١/١٢٥٣م) مخاطباً المريدين: (لا تصحبوا الاشياخ الا بصدق واذعان وصبر على جفائهم لكم بغير سبب ظاهر، ولا تأتوهم الا بهمة وقادة)^(١) ، كانوا يقولون: " ملازمة المريد للشيخ قد تكون أفضل من سفر المريد الى مكة، لان الأستاذ إنما جعل ليرقي المريد الى معرفة رب البيت الذي هو اعظم من البيت نفسه"^(٢) ، والصحبة الصوفية شيء أعم من مجرد التلمذة او الإشباع. وانما هي من قبل الشيخ تعهد وارشاد ومراقبة دقيقة و محاسبة للمريد وتصحيح اوضاع...هي أيضاً تبصير بأسرار الحياة الروحية^(٣).

الآثار الاجتماعية للتصوف:

لقد ازدهر التصوف في الشرق العربي الاسلامي، خاصة في القرن السابع الهجري، نتيجة عوامل عدة، واسباب كثيرة، فظهرت له طرق وقامت فيه فرق، وبرز بين قادته رجال اعلام اسهموا، بصيغة او بأخرى، في التعبير عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية، بالاضافة الى حالتهم الفكرية ومستواهم الثقافي، حتى وجدنا حالات عديدة ينزع فيها ملك القوم ملابس الوقار ويرتدي خرقة الصوفية ويتنازل عن كرسي العرش لينخرط في تعذيب نفسه والهروب من الناس والعيش في البراري والقفار، او في الربط والصوامع، بعيداً عما كان عليه في الامس من

(١) الشعراني، عبد الوهاب، الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق د. طه عبد الباقي سرور، بيروت، ١٩٦٦، ج ١ ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٦.

(٣) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف...، ص ٢٥٤-٢٥٥.

عز وجاه، كان ذلك نتيجة هزة نفسية انتابته في صورة مفاجئة، فنقلته من حياته العادية الى الحياة الروحية^(١)...

لقد ظهر في القرن السابع الهجري قادة كبار للتصوف في شرق الامة وغربها، فيهم من كان ابن وزير او اميراً ترك ثراء ابيه ومجد عائلته ليلبس خرقة الصوفية^(٢) كما كان مع ابن عربي مثلاً:

في مغرب الامة ظهر في القرن السابع الهجري عدد كبير من ائمة التصوف الذين تنسب اليهم طرق ومناهج باعياتها، منهم الشيخ عمر بن الفارض، شاعر الحب الالهي الذي ولد في القاهرة وتوفي فيها عام {٦٣٢هـ/١٢٣٥م}.

والشيخ محيي الدين بن عربي صاحب فلسفة {وحدة الوجود}، الذي ولد بمرسيا في الاندلس عام {٥٦٠ هـ / ١١٦٤م} ورحل الى الشرق ومات في دمشق عام {٦٣٨هـ/١٢٤٠م}. والشيخ ابو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي

(١) مثلاً على ذلك محيي بن توغان الذي كان ملكاً لتلمسان وهو خال ابن عربي هذا الملك ترك الدنيا والملك ليدخل الى الطريق الصوفي على اثر نصيحة ابداهها اليه احد العباد هناك احدثت له هزة نفسية بصورة مفاجئة، اخرجته من حياته المادية الى الحياة الروحية وكان ابن عربي دائم الذكر لخاله هذا في كتابه {الفتوحات المكية} الذي الفه خلال الاعوام {٥٩٨ الى ٦٣٥}، فقد جمع ابن عربي في هذا الكتاب اشتاتاً من المعارف، وسجل احداثاً من حياته...، ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب نصوص ص ٦.

(٢) ابن عربي المعروف {الشيخ الاكبر والكبريت الأحمر}، كان ابوه من كبار الرجال في دولة الموحدين في الاندلس، وكان هو ذاته يرقى بالعز الى عقيدته، حتى انه رفض تزويج شقيقته من بعض امراء هذه الدولة رغم أمر الخليفة بذلك...، هذا غير ابن سبعين صاحب الجاه والنعمة واللباس الملوكي والنسب العلوي، وجلال الدين الرومي الذي انحدر من اسرة ملوكية في بلخ ومن حاشية امارة خوارزم شاه وصهر الامير نفسه... لمزيد من هذه التفاصيل: د. ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ٦-٤٢، د. محمود قاسم: محيي الدين ابن عربي، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢-٢٠، محمد البهلي النبالي، الحقيقة التاريخية... ص ٣٧١-٣٨٢.

المولود في عمارة في بلاد الريف من المغرب عام {٥٩٣هـ/١١٩٦م}، ومات في صعيد مصر عام {٦٥٦هـ/١٢٥٨م} في طريقه الى الحج بعد ان ترك احزانه في التوسل والتلطف والاستغفار ومناجاة ربه، وما كان من اصحابه الاربعين .

وقطب الدين ابو محمد عبد الحق ابن سبعين المولود بالاندلس عام {٦١٢هـ/١٢١٥م} والمتوفى في مكة عام {٦٩٦هـ/١٢٧٠م} ومعتقده في وحدة الاديان ووحدة الوجود... والمرسي احمد ابو العباس تلميذ الشاذلي وخليفته المولود في مرسيا عام {٦١٦هـ/١٢١٩م} والمتوفى عام {٦٨٦هـ/١٢٨٧م}، وغيرهم كثير في مغرب الامة...

وفي المشرق العشرات غيرهم في قمتهم ابو حفص عمر السهروردي صاحب كتاب {عوارف المعارف} المتوفى ببغداد عام {٦٣٢هـ/١٢٧٣م} سفير الخليفة الناصر لدين الله وممثله عند الملوك والقادة^(١)...

وجلال الدين الرومي المولود في بلخ عام {٦٠٤هـ/١٢٠٧م} والمتوفى في قونية عام {٦٧٢هـ/١٢٧٣م} شاعر الصوفية، وصوفي الشعراء صاحب منظومة المثنوي ذائعة الصيت

وفرقتة المولوية او الجلالية ما زال اتباعها يعملون على وفق طريقة الدراويش الراقصين .

والشيخ ابو العباس احمد البدوي المتوفى عام {٦٧٥هـ/١٢٧٦م} صاحب كتاب {النفحات الاحمدية والجواهر الصمدانية}، وفرقتة البدوية او الاحمدية، و نحوهم كثير ليس هنا موضع استقصائهم...

(١) يورد السهروردي، طرّفاً كثيرة عن حياته في كتابه (عوارف المعارف)، ص ٧٧، ص ٨٣، الحوادث الجامعة، ص ١٠٢-١٠٣، الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ١٠.

هذه القمم من رؤوس التصوف ما زالت تعيش بأثارها بين ظهرانيها، كأنها حية لم تمت، هي ظاهرة تستحق الوقوف عندها طويلاً، ودراستها بأمانة، وتقويمها بتحليل منهجي دقيق...
لابد من العودة إليها، ان جاد العمر...

ولا يعني قولنا ان تصوف القرن السابع الهجري كان مرحلة قائمة برأسها مستقلة عما سبقها، بل هي، ولا ريب، نهاية التجارب السابقة وبداية المعرفة الجديدة المضافة فهو اذن ثمرة كاملة لجميع المراحل التاريخية والحضارية لهذه الامة العريقة... ومع هذا كان التصوف في القرن السابع الهجري بنحو عام اكثر جوانب الحياة الدينية ازدهاراً واعظمها شيوعاً و اوسعها انتشاراً^(١)، لا حياً في الدين والعبادة، كما زعم، بل كان هروباً من واقع اليم ومن حياة مفعمة بالخوف من امور كثيرة من الحروب الطاحنة الى الكوارث الطبيعية وحتى الامراض الفتاكة، كان (تصوفاً بدون دين وتقوفاً بدون عمل) كان القتل والدمار يتفنن في اهلاك الناس فهو تارة يأتي من المغرب نتيجة حروب طويلة ضروس عرفت في، ما بعد بالحروب الصليبية^(٢)، و اخرى من المشرق على ايدي بدو من دون ثقافة لا يهتمهم الإنسان بشيء عرفت بالحروب المغولية^(٣) وثالثة غضب الله بعد

(١) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، دار الشعب ببيروت، بلا تاريخ، ص ٩، د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٢٣. د. علي صافي حسين، الادب الصوفي في مصر في القرن السابع، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص ٥-١٢. الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٧٤، ص ٢٨٧، ص ٢٩٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب: ابن الساعي، الجامع المختصر في عيون التواريخ... ابن العبري، مختصر الدول، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣. - ابو الفداء، المختصر في تاريخ البشر - ابو شامة، الذيل على الروضتين. - ابراهيم الحنبلي، قسوت القلوب...

(٣) لمزيد من تفاصيل الغزو المغولي: الحوادث الجامعة، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ.

ان تقاعس الحكام عن ردع الفيضانات^(١) ومحاربة الآفات الزراعية وتحسين الأحوال الاقتصادية^(٢) ورابعة عن سوء حالته الصحية، فقد كانت ساحة تتجمع فيها الامراض الوبائية والمستوطنة وكانت الملاريا والتيفوئيد تتحول في بعض السنين الى اوبئة فتاكة، ليس هذا فقط بل ما كان من سوء اداء نظار المارستانات وسرقتهم لحاجات المارستانات^(٣) غير عددها القليل وعلاجها السيء الرديء. والمجاعة في الكثير من بقاع الامة كانت من الحوادث الاعتيادية المكررة سببها الاهمال في مسألة تأمين قوت الناس، جراء غفلة الحكام وانشغالهم في امور بعيدة

(١) ذكر صاحب كتاب {الحوادث الجامعة}، تواتر الامطار وزيادة دجلة بعد كوارث الفيوت بصيف ضاقت بها ضفاف دجلة الخير، فانفتحت تلك الضفاف على الناس دماراً، وتعطلت معظم الاشغال، وكان ذلك في ثوال من عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م، ولم يقتصر الامر على بغداد بل كان عاماً شاملاً، ص ٢٧٢-٢٧٤.

(٢) كانت اغلب الارض الزراعية في المنطقة العربية الاسلامية خلال القرن السابع منقسمة الى ارض تعود الى الخليفة العباسي ومن بعده الى هولاء وابنائهم واحفاده، وارض اخرى تعود الى الربون مملوكة للدولة وثالثة ارض وقفية، اوقفها اصحابها لامر خيري ما وارض مملوكة للناس ملكية فردية ولم يفكر أي من المسؤولين عن تلك الملكيات الزراعية في اعمار اراضيهم او زيادة اقتصاديتها بصيغة او بأخرى، وكانت الاسباب كثيرة... خصباء، جعفر حسين، العراق في عهد المغول، ص ٩٩. ومن الجدير ذكره هنا ان الدكتور خصباء قد برأ الجيوش المغولية الغازية من عمليات التخريب المنتظم لنظام الري، ووجد انه امر لا صحة له البتة، ص ٩٤، وهذا لا يعني أن اياً منهم مد يد العون والاصلاح لهذه الارض.

(٣) ينقل صاحب كتاب الحوادث الجامعة ان عبد العزيز ابن القبيطي ناظر مارستان العضدي كان يتلاعب بحوائج المارستان عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م، وعجل المرض امورا وبالغ على غير وجه حق فأمر به، ص ١٦.

عن خدمة الامة. في سنين عديدة من القرن السابع الهجري ليس هنا محل حصرها... كان الغلاء وكان القحط فأكل الناس الميتة و الكلاب والسنانير^(١). هذه الصورة الكالحة التي كان عليها القسم الاغلب من الناس في القرن السابع الهجري اندفع الناس تحت وطأته وما نزل بهم من كوارث وملامات يصعب حصرها ، وفي المقدمة منها ظلم الحاكم وجوره، ففش الناس عن حلول لمبا يكابدون فما كان امامهم الا الخفي والمجهول وهو ما يتوفر في الصوفي الذي يدفع الانسان الى ان يقهر نفسه بعد عجزه عن قهر قاهره، وهكذا طلب الناس الخلاص من هؤلاء... واتي لهم الخلاص ولكنهم في الاحوال كلها طلبوا الشفاء والدواء والبراء من عالم الاسرار والمتاهة التي لا تجدي في صد الغزاة^(٢)، وعلى هذا تصوف الناس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومنازلهم الدينية والدنيوية الفقير منهم والغني، العالم منهم والجاهل، بسبب الخوف الذي فتك بهم من الداخل فماتت النفوس قبل الابدان جراء افتقار العدل الاجتماعي ، او قل الشعور بالظلم والجور^(٣)... الدولة العربية الاسلامية ومنذ الخليفة الطاهر مركز من دون اطراف والرياح تهب عليها عاصفة من كل جانب، زاد الطين بلة على ايدي القادة التتر المغول :لقد تصوف في هذا القرن اهل مصر والمغرب والسودان والشام وتصوف اهل الحجاز والعراق وايران واهل الروم وزاد اهل الهند بنحو ملحوظ، من تصوفهم اصنافاً مضاعفة بما عليهم من جور متميز^(٤)...

(١) نقرأ عن مشكلات المجاعة اموراً غاية في القرف ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ٩؛

موارد متعددة ، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٣ ، الحوادث الجامعة، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) د. علي صافي حسين، الادب الصوفي...، ص ٦-٧، الشيباني، الفكر الشيعي، ص ١٤٠.

(٣) الشيباني، الفكر الشيعي، ص ٢٢٤، الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٣٤٣، د.

علي صافي حسين، الادب الصوفي...، ص ١١-١٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٧-٥.

حتى أصبحت الكلمة لمشايخ الطرق الصوفية التي كانت على رأي الدكتور محمد عابد الجابري ، تشكل في كل بقعة من العالم الاسلامي دولة ، دولة العقل المستقل ثم يستأنف الجابري قوله بتوتر ظاهر داخل دولة، بل دولة لعصر الانحطاط ، عصر القرون الوسطى الاسلامية^(١)...

مجلد القول:

لقد اقترن مطلع القرن السابع الهجري في الاسلام^(٢) كله بارتفاع مكانة التصوف بخاصة اطراف العالم الاسلامي، ولعل اول الدلائل على ذلك ان شهاب الدين الشيخ عمر السهروردي {ت٦٢٣هـ/١٢٣٤م} كان ممثل الخليفة الناصر في استقبال الوفد المصري الى بغداد سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧، ونفذه رسولا الى جهات عدة وكان الملوك الذين يرد عليهم يبالغون في اكرامه وتعظيمه واحترامه اعتقاداً فيه وتبركاً وكذلك الحال لابن سبعين^(٣) وجلال الدين الرومي وغيرهما^(٤)...

(١) بنية العقل العربي، ص ٣٢٥.

(٢) الحوادث الجامعة، ص ١٠٢، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٤٧-٥١ ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان...، ص ٥٣٤، الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٣٦٩.

(٣) كان ابن سبعين صديقاً لشريف مكة، وذا حضور لديه ومشورة عنده... محمد البهلي، الحقيقة التاريخية... دار الاندلس، بيروت ١٩٧٨، ص ٣٨٣. وكتب ابن سبعين كتابه {بد العارف} كما قال استجابة لاستدعاء {من وجب في شريعة الاسلام اجابته} الخليفة المصيف الرشيد، بعد ان انتقل اليه من الاندلس الى المغرب فأحسن وفادته، وكتب كتابه المذكور باسمه يجيب على بعض المسائل الفلسفية التي ارسها الامبراطور فريدريك الثاني... الكتاب من تحقيق د. جورج كتورة.

(٤) كان جلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية باللغة الفارسية و ديوان شعره {المتنوي}، جعله قريباً من الحكام واسع الشهرة...

ولعل هذه الصورة الموجزة لآثر التصوف في الفكر العربي الإسلامي لا تظهر المطلوب ولذا يجدر بنا ان نقف ولو بإيجاز غير مغل عند بعض الشخصيات والمذاهب الصوفية التي ظهرت في هذا القرن وان نشير بصفة ما الى الفرق الصوفية التي قامت في هذا القرن واصحابها والتي تعد بحق مرآة صادقة تتجلى في سيرتها صورة التصوف الفلسفي او الفلسفة الصوفية التي تميز بها هذا القرن...

المبحث الثاني

ابو حفص الشيخ عمر السهروردي

{ ولد ٥٣٦ هـ / ١١٤٤ م - ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م }

{ التصوف الرسمي }

الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمد بن عبد الله^(١) ، المعروف بأسم عموية البكري نسبة الى الخليفة الراشد ابي بكر الصديق (رض الله عنه)^(٢)، السهروردي، الصوفي الواعظ^(٣)، ولد السهروردي (عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م) في بلدة بالجبال قريبة من زنجان^(٤)، في بيت عرف بالتصوف ونشأ نشأة اولاد المشايخ^(٥)، فهو ابن اخ الشيخ ابي نجيب السهروردي (ت ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م) الصوفي المعروف^(٦)، صحبه كثيراً، وعنه اخذ علم التصوف والوعظ ومعرفة الحقيقة والطريقة...

تنبأ الشيخ ابو نجيب السهروردي لابن أخيه بالمستقبل الباهر ويسر الحال، وصدقت نبوءته وفتحت عليه الدنيا، واحتاج اليه الناس ، فأحسن وفادتهم ، حتى انه

(١) - الحوادث الجامعة، ص ١٠٢، ٧٧-١٠٣، ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٤٤٦-

٤٤٨، - سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان...، ج ٦، ص ٦٧٩، - ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٨٩-٩٠.

(٢) - الحوادث الجامعة، ص ١٠٢، ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٣) - الحوادث الجامعة، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، مختصر معجم البلدان، مرصد الاطلاع، ص ٦٧١.

(٥) - الحوادث الجامعة، ص ١٠٢، هامش المحقق رقم ٤.

(٦) - الحوادث الجامعة، ص ١٠٢-١٠٣، ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٤٤٧.

لم يُخلف شيئاً من عروض الدنيا بعد ان حصل له فيها الشيء الكثير (فاخرجه جميعاً، لانه كان كريم النفس طيب الاخلاق كثير العبادة)^(١)...

قدم ابو حفص بغداد واستوطنها، وصار من الشيوخ الصالحين العباد (كثير الاجتهاد والرياضة، وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله)^(٢) أي الثلث الاول من القرن السابع الهجري...

يؤكد ابن خلكان: ان السهروردي صار شيخ الشيوخ في بغداد (وكان له مجلس وعظ، وعلى وعظه قبول كثير، له نفس مبارك، يقول ابن خلكان: حكى لي من حضر مجلسه انه يوماً وعظ على الكرسي فقال:

لاتسقني وحدي فما عودتني
أني أشخ بها على جلاسي
انت الكريم، ولا يليق تكراً
ان يعبر الندماء دور الكأس

(فتواجد الناس لذلك، وتاب جمع كبير)^(٣).

كان الشيخ ابو حفص عمر السهروردي في بغداد صديقاً للخليفة الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) ومستشاراً له في بعض اموره...

واعترازاً بهذا الشيخ بنى له الخليفة الناصر رباطاً بالمرزبانية على نهر عيسى وبنى الى جنبه داراً واسعة، وحماماً وبستاناً، يسكنها بأهله^(٤)، وفي العادة ان هذا

(١) ابن خلكان، المصدر السابق، ص ٤٤٦-٤٤٧، يروي صاحب الحوادث الجامعة ان الشيخ ابا محمد عبد الله ابن الشيخ ابي نجيب السهروردي قبل وفاته عام ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م، تصدق عن جميع ماله، ووقف بعضه الآخر ولم يترك شيئاً لابن عمه الشيخ عمر وكان على غاية الفقر مجرداً من الدنيا فضايق صدر والده ابي نجيب لما كان عليه ابن اخيه، وطلب من ولده ان يعطيه شيئاً من نصيبه فلم يوافق، فقال له الشيخ ابو نجيب وقد احتد والله لتحتاجن اليه، وهكذا كان فقد احتاج عبد الله الى ابن عمه فآكرمه الى ان مات، ص ٧٧.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٤٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤٤٦.

(٤) الحوادث الجامعة، ص ١٠٢-١٠٣.

لا يحدث من الخلفاء، الا للقلة من كبار القوم، وعلى الخصوص في زمن الخليفة الناصر وهو خبير بالرجال...
ومهما يكن الامر فقد كان السهروردي من الرجال البارزين في بلاط الخليفة، ومن الشخصيات الصوفية، التي مارست عملاً سياسياً خطيراً للغاية، ونجح فيه أياً نجاح، لما يتمتع به هذا الرجل الصوفي من مقدرة وكفاءة، وامكانية في ادارة الحوار السياسي..

لقد اقترن مطلع القرن السابع الهجري في الاسلام كله، بأرتفاع مكانة التصوف وبخاصة في اطراف العالم الاسلامي^(١)، ولعل من اول الدلائل على ذلك ان شهاب الدين الشيخ عمر السهروردي، كان ممثلاً الخليفة الناصر في استقبال الوفود السياسية والدينية والرسمية، وأرسله الخليفة معتمداً في سفرات متعددة، ورسولاً الى جهات عدة، حتى كان الملوك الذين يرد عليهم " يبالغون في اكرامه وتعظيمه واحترامه اعتقاداً فيه وتبركاً"^(٢).

يذكر ابن خلكان: ان السهروردي كان قد وصل مدينة اربل في مهمة رسمية رسولاً من الخليفة فأستغل السهروردي هذه المناسبة، وعقد مجلساً للوعظ في اهلها، لم يتسن لابن خلكان حضوره لصغر سنه^(٣)...

وفي عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ارسل الخليفة الناصر التشريف الى صديقه القديم الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي، حملها اليه الشيخ عمر السهروردي تكريماً للملك العادل، وتعظيماً للمناسبة، فكان يوماً مشهوداً^(٤)...

(١) الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٣٧٠.

(٢) الحوادث الجامعة، ص ١٠٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٤٤٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٤٢، حوادث ٥٩٩، الحنبلي، احمد بن ابراهيم، شفاء

القلوب في مناقب بني يعرب، ص ١٨٥.

وفي عام ١٢٠٧/٥٦٠٤م كان السهروردي ممثلاً للخليفة الناصر في استقبال الوفد المصري في زيارته الرسمية لبغداد^(١)، وكان أبو حفص شهاب الدين السهروردي رسولاً متميزاً في سفارات متعددة الى مصر وغيرها من الامصار^(٢).

وفي عام ١٢١٧/٦١٤م ومن اجل ان يطفئ الخليفة الناصر نار الفتنة، ارسل السهروردي مندوباً عنه للتفاوض مع محمد خوارزم شاه لما عزم هذا على غزو بغداد لاسيما وان السهروردي كان في سفاراته السابقة من انجح الموفدين، وادعى السفراء، ولعله في مهمته هذه يتمكن من ان يثني هذا الامير عن قراره في غزو بغداد، ولكن محمد خوارزم شاه اسمع الشيخ الصوفي كلاماً وقحاً ماكان يليق بهذا الشيخ الصوفي الكبير^(٣)...

وارسل الخليفة الناصر ايضاً الشيخ السهروردي رسولاً الى عز الدين كيكاس (ت ١٢١٦/٦١٦م) لألباسه لباس الفتوة في قونية، فأحدث وصول السهروردي دويماً عظيماً في المدينة حتى قيل ان كل السكان في المدينة لبسوا عنه الخرقة الصوفية^(٤)...

وهذا المزج الصوفي في المسألة السياسية، لم يتوقف بنهاية خلافة الناصر لدين الله عام (١٢٢٥/٦٢٢م)، بل كان امراً مقبولاً زمن الخليفة المستنصر بالله ايضاً بعد جده يوم قلد عام {١٢٣٣/٦٣٠م} السيد مجد الدين ابو القاسم هبة الله ابن المنصوري (ت ١٢٣٧/٦٣٥م) نقابة نقباء العباسيين، وهو بالاصل صوفي كبير

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٦، ص ٥٣٤.

(٢) الحوادث الجامعة، ص ١٠٣. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣، ص ٤٤٦-٤٤٧. الشيباني، د.

كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٣٦٩.

(٣) - ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٨٩-٩٠، - ابن خلكان، التاريخ، ج ٥، ص ١٢٩، -

حمدي حافظ، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٥-١٣٠.

(٤) الشيباني، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٣٧٠ نقلاً عن تاريخ ابن بسي.

ومن افاضل ارباب الطريقة المتكلمين بلسان الحقيقة، وكان المنصوري هذا قبل التعيين بوظيفة نقابة نقباء العباسيين ، يصحب الفقراء دائماً ويأخذ بالرياضة، والسياحة والصوم الدائم والتخشن والتعب^(١)، وبعد التعيين انكر عليه زملاؤه قبوله هذا المنصب وقالوا في ثلبه شعراً ، واستمر ابن المنصوري في منصبه هذا حتى مات عام {٦٣٥-١٢٣٧م}، فتقلدها بعده قوام الدين الموسوي^(٢) ولم يظهر من يعيب على السهروردي نشاطه السياسي ذلك او خدمته الخلافة كما عاب على غيره ، فقد كان الرجل متوازناً لم تغره متعة الدنيا ولم ينصع الى ملذاتها قط...

يبدو ان التصوف الرسمي في القرن السابع الهجري كان يلزمه مد الجسور مع الفقهاء والعمل معهم جنباً الى جنب، لضمان حيادهم اولاً لان التصوف المنفتح على الناس يهمله التقيد الشرعي وبمستلزمات الحياة الدينية من صوم وصلاة بصيغ تربطه بالمسجد بمقدار ما تربطه بالربط...

ولقد وجدنا هذا مبسوطاً في كتاب السهروردي (عوارف المعارف)^(٣) فهو وان كان من الكتب المهمة في التصوف في القرن السابع، اشتمل على ثلاثة وستين باباً فصل فيها السهروردي علوم التصوف واحوالها ومقامها وادابها واخلاقها وشرعيتها وعلاقاتها بالله وباليوم الآخر، ولكنه افرد ابواباً كثيراً للفرائض الشرعية من طهارة وصلاة وصوم ونحوها^(٤)...

(١) الحوادث الجامعة، ص ٦٢-٦٣، كان من الاعيان العدول في مدينة السلام.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٣) كتاب مطبوع متداول، يعد من مصادر اخبار الصوفية في القرن السابع الهجري قال السهروردي: ان ايثاري لهوس هؤلاء القوم، ومحبتي لهم، علماً بشرف حالهم، وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب السنة، ص ٦-٧.

(٤) السهروردي، عوارف المعارف، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٩٦٦، ص ٧-٨.

هذا الامر دفع السهروردي الى ان يقرر بوضوح : (ان كل وجد صوفي لا يشهد له الكتاب والسنة باطل وهذا حال الصوفية وطريقهم، وكل من يدعي حالاً غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب)^(١)

والسهروردي في فلسفة التصوف يجد ان التصوف فوق الزهد وفوق الفقر بل ان التصوف هو : (الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دني) ...^(٢)

افرد السهروردي لاقوال مشايخ الصوفية في ماهية التصوف ولباب حكمتهم، باباً برأسه فاحصى تلك الاقوال فوجدها تزيد على الف قول^(٣)، وقد وجد السهروردي هذه الماهية بصورة عامة قسمت المتصوفة الى نوعين:

الاول: هم المتصوفة حقاً .

والآخر هم المتشبه بهم .

الأخير صاحب ايمان والآخر صاحب علم .

ووجد التصوف بعد الايمان اكتسب مزيد علم لطريقهم، وصار له في ذلك مواجد .

المتصوف بالنسبة للصوفي كالمتزهد بالنسبة للزهد^(٤).

السهروردي في تصوفه شديد الصلة بربه، قريب جداً من الفقهاء، ولا يرضى بغير الشريعة الاسلامية سبيلاً، فهو يقول " كل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة"^(٥)

(١) المصدر السابق، ص ٥١.

(٢) السهروردي، عوارف المعارف، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٩٦٦، ص ٥٥.

(٣) الباب الخامس كله، ٥٣-٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٥-٦٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٧.

لصوفي المثالي الذي رسمه السهروردي هو غير الملامتي وفرقته الذي وجده { لا يظهر خيراً ولا يضر شراً }^(١) . . .
والصوفي عند السهروردي أيضاً ليس كمثال القلندري وفرقته القلندرية، الذي وجدهم وقد : { ملكهم سكر طيبة قلوبهم، حتى خربوا العادات... } فهذا منتم الى الصوفية وليس منهم^(٢) . . .
الصوفي الحق عند السهروردي هو من { انعكست فيه انوار العظمة الالهية، ولا ح فيه جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، وقال الله تعالى { قد فلاح من زكاها }^(٣) ...

هذه التوجه الالهي بفكر السهروردي الزمه تخصيص ابواب من كتابه { عوارف المعارف } على وفق ابواب العبادات في الكتب الفقهية، هناك - على سبيل المثال - نقرأ في الباب الثالث والثلاثين { في ادب الطهارة ومقدماتها }^(٤) وغالباً ما تفرد كتب الفقه الباب الاول منها { لكتاب الطهارة } فكأن هذا الباب من ابواب مقدمات الصلاة وغيرها من العبادات الاخرى عند الفقهاء، وكان الباب الاخر (من اداب الوضوء واسرارها)^(٥)، وجاء في صدره (الوضوء سلاح المؤمن) واذا اراد الصوفي الوضوء يبتدئ بالسواك، ولا ينسى السهروردي ان ينقل احاديث نبوية شريفة تتحدث عن أهمية السواك وكون النظافة من الايمان ومرضاة للرب، ثم يعزز السهروردي دعمه لهذا النهج بتخصيص ابواب عديدة للصلاة وللتصوف، واختلاف أحوال الصوفية في الصوم وهكذا يستمر السهروردي في تقصي هذه الأمور الفقهية كأحسن ما يكون الفقيه المجتهد، ولكن لا ينس كونه صوفياً يمزج العبادات بالحس والوجد الصوفيين، كل ذلك من رجل تصوف كان مقبولا، وسلوك اجتماعي لا يبتعد عنه الناس، ولا تنفر منه الفقهاء...

(١) المصدر السابق، ص ٧٧-٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) السهروردي، المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤.

(٤) السهروردي، المصدر السابق، ص ٢٨٧-٢٩١.

(٥) السهروردي، المصدر السابق، ص ٢٩٣-٢٩٤.

المبحث الثالث

الشيخ عمر ابن الفارض

(٥٧٦/١١٨٠م - ٦٣٢/١٢٣٥م)

شاعر الحب الالهي:

ابو حفص وابو القاسم عمر بن ابي الحسن علي ابن المرشد بن علي ابن الفارض الحموي الاصل ، المصري المولد والدار والوفاة، ولد في القاهرة عام ٥٧٦/١١٨٠م، ومات فيها عام ٦٣٢/١٢٣٥م^(١)، وقيل انه دخل مصر صغيراً مع والده في حماة^(٢)...

كان رجلاً صالحاً كثير الخير حسن الصحبة، محمود العشرة، نزل مكة المكرمة زماناً زاد على خمسة عشر عاماً من حياته سائحاً في اودية مكة من عام ٦١٣/١٢١٦م حتى عام ٦٢٨/١٢٣٠م عاد، بعدها، الى القاهرة بناء على دعوة من شيخه محمد البقال، ومات بعد اربعة اعوام^(٣)... له ديوان شعر لطيف، واسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء الصوفية لاقى من الشرح والدراسة منذمات صاحبه حتى اليوم، ومن احسن الشروح شرح البدريني...٠٠٠

وقصيدة ابن الفارض {التائية الكبرى} تبلغ سبعمائة وواحد وستين بيتاً، وقصيدته الخمرية يمكن اعتبارهما - من دون سائر الديوان - بانهما شعر صوفي يسمو على الماديات^(٤).

(١) - ابن خلكان، وفيات اعيان، ج٣، ص٤٥٤-٤٥٥، - مقدمة شرح لديوان ابن الفارض، ص١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٥٥.

(٣) فصل الامر: - محمد النبال، الحقيقة التاريخية لتصوف الاسلامي، ص٣٩٣-٣٩٦، - محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص١٤٧-١٤٩، د. ابو العلاء عفيفي، التصوف...، ص٤١٦-٤٢٢.

(٤) ابن الفارض، ابو حفص عمر بن المرشد، ديوان ابن الفارض، مقدمة البوريني، القاهرة، ١٩٥١، ص١٠-٥.

وفي مصر بعد رجوعه من الحجاز املى ديوان شعره، وقد بلغ الذروة في الكمال في النضوج والازدهار، حتى وصفه طلابه بسلطان العاشقين بل واحداً من الاقطاب العاشقين الالهيين...

نعمت روح ابن الفارض بما اتيج لها من الفتح الالهي، والكشف الروحي فجعلت منه شاعراً^(١) ابل اعظم شاعر صوفي في اللغة العربية على الاطلاق كما يجزم بذلك ابو العلاء عفيفي^(٢). اختلطت في شعره العناصر الفلسفية، بالوجد والشوق الصوفيين، فجعلت منه افكاراً ومذاهب حتى صار شاعراً فوق كونه صوفياً، او انه كان صوفياً فوق كونه شاعراً...

ساح شعر ابن الفارض على السن العشاق والمحبين، صادق اللهجة عفوي الصورة صادر عن نفس تهيأ لها من الصفاء وجلاء البصيرة ما لم يتهيأ لغير هذا الشاعر الصوفي...

حب الله ملك عليه كل قلبه، وغيبه عن الكل غير محبوبه، الذي تمثل به كل ما في الكون من ايات الفتنة والحق والخير والجمال، وقد مرت نفس ابن الفارض في طريق هذا الحب اطواراً متعاقبة^(٣).

١- -الطور الاول: وهو لما يزل بعد في مرحلة ادعاء الحب لأنه ما يزال شاعراً بنفسه:

حليف غرام انت لكن بنفسه وأبقاك بعضاً منك بعض ادلتي
فلم تهوني ما لم تكن في فانياً ولم تغن ما لم تجتل منك صورتي^(٤)

(١) د. محمد حلمي، الحياة الروحية...، ص ١٤٨.

(٢) د. أبو العلاء عفيفي، التصوف أثورة الروحية في الاسلام، دار الشعب، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٤) ابن الفارض، الديوان، ص ١١٠.

٢- وطور وسط: يتحدى به ابن الفارض الفناء، فلا يهابه في سبيل محبوبه فيقول:

وما انا بالشاني الوفاء على هدى وشاني الوفا تأبى سواء سجيتي
وماذا عسى عني يقال سوى قضى فلان هوى؟ من لي بذا وهو بغيتي^(١)
ثم ينهى ابن الفارض الى ارقى اطواره، وهو طور الفناء الذي اتخذ من الذات
الالهية موضوعاً لحبه، لافرق فيها بين محب ومحبوب، ولا عابد ولا معبود،
فيقول:

كلانا مصل واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سوى ولم تكن صلاتي لغيري في ادا كل ركعة^(٢)
هذان البيتان اجراً ما قاله ابن الفارض في (التائية)، وعليهما وعلى امثالهما استند
الذين يدعون انه كان من اصحاب (وحدة الوجود)^(٣)...

ولعل هذا العشق والتفاني هو نفسه الذي اوصل غير ابن الفارض من
الصوفية ممن كان في عصره الى ما يشبه المذهب الفلسفي الذي وجدته غير
واحد، أنه (وحدة الوجود) ٠٠

وأن كان الحب عند ابن الفارض حالاً من احوال النفس، الا انه يشبه هذه
النظرية كثيراً او قليلاً، او في الاقل الذي يقرره ابن عربي بين الله والعالم^(٤)، مع
ان كليهما عاشا في عصر واحد وسكنا ببيت الله الحرام زماناً، قرأ ابن الفارض
كتاب ابن عربي (الفتوحات المكية) كما روى ابن عربي قصيدة ابن الفارض
(التائية الكبرى)

نعم بالصبا قلبي صبا لاحتبي فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت^(٥)

(١) ابن الفارض، ابو حفص عمر بن المرشد، ديوان ابن الفارض، ج ١، ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.

(٣) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، دار الشعب ببيروت، بلا تاريخ، ص ٢١٩، وللمقارنة د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٤٩.

(٤) د. محمد مصطفى حلمي، المرجع السابق، ص ١٤٨-١٤٩.

(٥) ابن الفارض، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٢.

وكان ابن عربي، لشدة إعجابه بالقصيدة، طلب من ابن الفارض ان يرخص له شرح تلك القصيدة، فأجاب ابن الفارض بقوله: " ان كتابك الفتوحات المكية شرح لها، وهو دليل على ان (وحدة الوجود) التي قد تفسر بعض ابيات القصيدة، ليست ببعيدة بصيغة او بأخرى عن وحدة الوجود عند ابن عربي، ولكنها مغمسة في العشق الالهي الذي عرف عن ابن الفارض.^(١) الدكتور ابو العلاء عفيفي لم يقبل بهذا، ووجد ان "من الاسراف الذي لا مبرر له ان نضع ابن الفارض من اعداد الفلاسفة، او نحاول ان نستخلص من اشعاره مذهباً فلسفياً او نعدده من اصحاب وحدة الوجود، او نقرنه بمحيي الدين بن عربي، الذي تنطبق كل فقرة من كتابه (فصوص الحکم) بهذه النظرية..."^(٢) ان ابن الفارض شاعر صوفي، ينزع في حبه الالهي منزع اصحاب (وحدة الشهود)، لا اكثر ولا اقل... ومضاد ذلك ان ابن الفارض كثيراً ما كان يستدرك وينبه اتباعه الى أنها ليست فلسفة حلول او اتحاد، او ماشابه من افكار كان قد اتهم بها الشيخ البسطامي او الحلّاج، بل ان ابن الفارض كما قال:

ولي من اتم الرؤيتين اشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي^(٣)

نعم ابن الفارض على حق، فان عقيدته منزّهة عن عقيدة اهل الاتحاد او الحلول، بل هو عاشق الهی، سميت عقيدته تلك بفلسفة (وحدة الشهود)، وعلى الخصوص عندما صبغها ابن الفارض بعشقه وحبه الالهي، وتجلّى له ما لا يتجلّى لغيره... استسلم ابن الفارض لوجوده، وأستغرق في حبه، وغاب عن نفسه، وعن كل من حوله، فلم يشهد في الوجود شيئاً، الا شهد الله حبه، فاعلاً ومؤثراً، ولم يقع نظره على جميل الا الجمال الالهي المطلق...^(٤)

(١) مقدمة ديوان ابن الفارض، ج ١، ص ٧.

(٢) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص ٢١٦.

(٣) ابن الفارض، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.

(٤) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، دار الشعب ببيروت، بلا تاريخ، ص ٢١٦-٢١٩، وللمقارنة د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٤٢-١٤٥.

فهو، اذن، من اصحاب (وحدة الشهود)، وليس (وحدة الوجود)، سماها الصوفية علما لدنيا، ومعرفة ذوقية، والهاما وحبا ونحوه من مصطلحات^(١)

محمل القول:

ان ابن الفارض في (حبه الالهي)، وسط بين اصحاب الاتجاه الحلولي الذي قد يمثلته الحلاج، وبين الاتجاه القائل (بوحدة الوجود) الذي يمثلته ابن عربي فهو، اذن، خير من يمثل في القرن السابع الهجري فلسفة (وحدة الشهود)...

ونسبت على العادة لابن فارض كما نسبت لغيره من اقطاب الصوفية، كرامات واحلام صادقة، منها ما ينقله ابن خلكان بقوله: "اخبرني عنه بعض اصحابه انه ترنم يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري صاحب المقامات وهو:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

قال فسمع قائلاً، ولم ير شخصه، وقد اشد:

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

وينقل ابن خلكان قوله: عملت في النوم بيتين وهما:

وحياة اشواقى اليك وحرمة الصبر الجميل

لا ابصرت عيني سواك ولا صبوت الى خليل^(٢)

(١) د. ابو العلاء عفيفي، المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٢) ابن خلكان، وفيات اعيان، ج ٢، ص ٤٥٥.

المبحث الرابع

الشيخ محيي الدين ابن عربي

{٥٦٠/١١٦٢م - ٦٣٨/١٢٤٠م}

"وحدة الوجود":

الشيخ ابو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عبد الله ابن عربي الحاتمي الطائي الاندلسي^(١) قمة من قمم التصوف في القرن السابع الهجري^(٢)، بل انه "في قمة المفكرين العالميين في القديم والحديث، وانه يمكن ان يعد مصدر الهام الكثير من المذاهب الفلسفية الحديثة والمعاصرة في اوربا:

ابن عربي مؤلف خصب ، بلغ انتاجه من الضخامة مبلغاً لا يمكن تصوره عند كاتب آخر^(٣)، لو قيس انتاج ابن عربي مع النتاج كبار المتفلسفين، امثال ابن سينا او الغزالي، لبرزهم جميعاً في ميدان التأليف، سواء من حيث الكم ام من حيث الكيف^(٤) مع انه ينهل معهم من واد واحد، هو وادي التصوف دون غيره... .

وعلى الرغم من هذا فقد اختلف القوم في امر هذا الصوفي المتميز فمن قائل : " انه زنديق لا صديق" .

ومنهم من قال: " انه واسطة عقد الأولياء ، ورئيس الاصفياء..."

(١) - المغربي، ابو احمد بن محمد، نفح الطيب...، لندن ١٨٦١، ج ٢ ص ١٠٢، -الشعراني، عبد الوهاب بن احمد بن علي (ت ٩٧٣/١٥٦٥م)، الطبقات الكبرى...، ج ٢ ص ٨٥ فما بعد.

(٢) الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٩٦.

(٣) د. محمود قاسم، المرجع السابق، ص ٢، د. ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ٥.

(٤) د. ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ٤-٦.

ابن عربي، على أية حال شخصية، غير عادية بالمقاييس كلها، كتبت عنه دراسات لا تحصى منذ المغربي أبي احمد بن محمد في كتابه (نفح الطيب)، وحتى هذه السطور...

كتبت في ترجمة ابن عربي، او في فلسفته (وحدة الوجود)، او في تصوفه عامة، وحتى في إحصاء كتبه وحصرها وانتاجه، اطاريح ورسائل جامعية، صارت مراجع يعتد بها...

وعلى هذا وجد الباحث انه لن يأتي بجديد عندما يخوض في تلك الموضوعات، وظهران من الأنسب التركيز وبايجاز شديد على مسألة واحدة، كان لها صدى متفرد في القرن السابع الهجري وهي نظرية ابن عربي في (وحدة الوجود)، والتي سلك مسلكه فيها، متأثرون به، جماعة منهم: ابن سبعين (ت ٦٦٩/١٢٧٠م)، وابن هود (٦٩٣/١٢٩١م)، والششتري (ت ٦٦٨/١٢٦٩م) وغيرهم من اهل التصوف في الاندلس.

و بصيغة من الصيغ عند الشاعر ابن الفارض (ت ٦٣٢/١٢٣٤) من مصر، وكذلك الشاعر الفارسي الكبير جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢/١٢٧٣م)، وغيرهم كثير، ممن تشهد لهم الساحة الثقافية بالمعرفة والكفاءة، تأثروا بأبن عربي، وتأثر ابن عربي بهم...

وتلك أمور شائكة لم يخرج منها الباحثون بطائل، فهم كما اختلفوا في توثيق ابن عربي وعدالته، اختلفوا أيضاً في مذهبه ونظريته... من الباحثين من قال: انه صاحب مذهب في (وحدة الوجود)، ومنهم من قال انه كان يقول: ب(الوحدة الشهود)، او انه كان يقول بمقولة الجنيد بالتوحيد والفناء^(١).

استاذنا الدكتور الشيبلي يقرر: ان ابن عربي في نظريته الجديدة في (وحدة الوجود) ما كان يعتمد على مجاهدة ولا على سلوك، وانما كانت نظريته فلسفية في الوجود، قبل ان تكون مشرباً صوفياً عملياً، يتعلق بالاذكار والمجاهدات او نحو ذلك مما عرفنا من تطبيقات التصوف^(٢)...

(١) الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٢) الشيبلي، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، ص ٩٤-٩٥.

ويؤكد الشيبني بهذه المناسبة ان ابن عربي كان قد اخذ فلسفته في "وحدة الوجود" هذه من رسائل اخوان الصفا خاصة، وهذه الرسائل - بلا شك - ملأ بالتفلسف...

ومن هنا يقول الشيبني: "وجدنا ابن عربي يتطرق الى انواع النفوس والى الافلاك الى الكيمياء والطلاسم، بل والى الاعداد والحروف وفلسفتها^(١)... ومصداق ذلك موارد كثيرة نجدها في تفسير ابن عربي، وبعض فصول من كتابه (الفتوحات المكية) وكلها تدور حول الحروف والارقام وودالاتهما^(٢)...

الدكتور مصطفى حلمي لا يؤيد مثل هذه الطروحات التي تتكرر المزج الصوفي في نظرية (وحدة الوجود) ذات الأبعاد الفلسفية، ويجيد ان "وحدة الوجود"، من وجهة نظر الصوفي ابن عربي، انما تعني اسقاط الاتينية والكثرة في الوجود العيني، اذ ان حضرة الجمع في نظر الصوفي، قد استوعب كل شيء، والغى كل تفرقة، بحيث تكون كل الاشياء من عين واحدة بل تكون عبارة عن هذه العين الواحدة، اذ الكل من حيث الحقيقة واحد يتكرر على مظاهر متعددة، مثله في هذا كمثال الواحد من بقية الاعداد اذ يتكرر فيها على اشكال متكررة^(٣)

الدكتور ابو العلاء عفيفي لاحظ ان كل فقرة من فقرات كتاب (فصوص الحكم) تنطق بنظرية (وحدة الوجود)، وعاب على الذين ينفون عن ابن عربي القول (بوحدة الوجود)، ظناً منهم ان هذا المذهب مذهب مادي الحادي لا يليق بولي مسلم من كبار اولياء الله ولو عرفوا: ان "وحدة الوجود"، التي يقول عنها ابن عربي ليس فيها من المادية شيء، وانه، كما يقول الشيخ ابن تيمية: "فرق بين الظاهر والمظاهر"، وكان ابن عربي، بذلك، اقرب القائلين (بوحدة الوجود) الى روح الاسلام^(٤).

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١ ص ٤٩.

(٢) الشيبني، المرجع السابق، ص ٩٥.

(٣) د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الاسلام، ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) د. ابو العلاء عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص ٢١٦-٢١٨.

وحتى العلامة ابن المطهر الحلي الذي نعني في هذه الدراسة بفكره وكتابه (الاسرار الخفية في العلوم العقلية)، لم يتعرض لابن عربي بأي نقد، بل ذكره بكل احترام مع انه عاب على أصحاب الحلول والاتحاد والتناسخ، عقائدهم^(١)...

"وحدة الوجود" عند ابن عربي تعني : ان الوجود كله واحد، وان وجود المخلوقات عين وجود الخالق^(٢)...

قال ابن عربي: لما شاء الحق سبحانه من حيث اسماؤه الحسنى ان يرى أعيانها، وان شئت قلت يرى عينه في كل كون جامع يحصر الامر كله، لكونه متصفاً بالوجود، ويظهر به سره اليه، فان رؤية الشئ نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر اخر يكون له كالمرأة

او بعبارة اوضح: "ولولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود"^(٣).

وقال ابن عربي : "قد ثبت ان القلب وسع الخالق" ومع ذلك ما اتصف بالري، فلو امتلأ ارتوى، وقد قال ذلك ابو يزيد (البسطامي، ت ٢٦١/٨٧٤م)، ولقد نبهنا الى هذا المقام بقولنا:

ياخالق الاشياء في نفسه انت لما تخلقه جامع

تخلق ما لاينتهي كونه ف-----يك فأنت الضيق الواسع

لو ان ما قد خلق الله ما لاح بقلبي فجره الساطع^(٤)

وقال ابن عربي في هذا الاتجاه : "وقد ثبت عند المحققين انه ما في الوجود الا الله، ونحن وان كنا موجودين فأئما كان وجودنا به، فمن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم

(١) ابن المطهر الحلي، نهج الحق وكشف الصدق، ضمن لثاب دئل الصدق، ١٠ أيران، ١٤٢٣، ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤. الشيباني، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١ ص ٤٨.

(٣) ابن عربي، المصدر السابق، ج ١ ص ٥٥.

(٤) ابن عربي، فصوص الحكم، ص ٨٨.

من تفر وما في الكون الا هو وهل يجوز عليه "هو" او ما هو؟
ان قلت "هو" فشهود العين تتكره او قلت "ما هو" فما هو ليس الا هو
فلا تفر ولا تركز الى طلب فكل شئ تراه ذلك الله^(١)

تلك هي افكار ابن عربي في (وحدة الوجود)، ولم يكن لهذه النظرية في الاسلام في صورتها الكاملة التي ذكرنا قبل ابن عربي، "فهو الواضع الحقيقي لدعائمه والمؤسس لمدرستها"^(٢) فلم تكن قبله بمثل هذا الوضوح والفهم، بل كانت اشارات والغازات...

(وحدة الوجود) هذه وبالصيغ التي اوردها ابن عربي، كانت، على رأي الدكتور الجابري، ليست كمفهوم (وحدة الوجود)، كما عرفت في الفكر الاوربي.

يشرح الجابري هذا الرأي فيقول: ان اهل التصوف في الاسلام يقولون: "ان الله كل شئ او كما عبر عنه الحلاج (ما في الجبة الا الله)، ويعني بذلك: ان ما في الكون الا الله، اما العالم فهو مجرد تجليات له...
اما فكرة (وحدة الوجود) في الفكر الاوربي فأنها تعني: ان العالم ككل هو الله، وان الله لا يوجد الا من خلال العالم، ولهذا فإن الله ليس له وجود مفارق متميز عن العالم...

والفرق بين الطرخين واضح، وتأسيساً على هذا يجد الجابري ان الفرق في هذه المسألة بين الجنيد والحلاج وامثالهما من جانب، وبين ابن عربي...
الجنيد والحلاج يلحان وابن عربي يصرح^(٣)...

الباحث سيد حسين نصر لا يجد هذا، ووصف العقيدة الاساس للتصوف الاسلامي وخاصة، كما فسرهما ابن عربي ومدرسته-المدرسة الالهية-

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١ ص ٣٦٣.

(٢) د. ابو العلاء عفيفي، التصوف، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) الجابري، د. محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٣٥٩.

وسماها بأسم جديد (الوحدة المتعالية للوجود) وعلى هذا ليس هي حلاً بالمعنى
الفلسفي أو الوحدة الوجودية أو ما يعرف بالتصوف الطبيعي، بل هي هذا اللفظ
(الوحدة المتعالية للوجود)، وعليه فأن كل هذه الاتهامات باطلة، لسبب بسيط لأن
الذين يغالون بها يخلطون بين عقائد ابن عربي الالهية، وبين الفلسفة اليونانية، مع
ان التصوف في الاسلام مهما كان لا ينفصل عن البركة الالهية^(١)...
وهذا الرأي يعني فيما يعنيه ان التصوف العربي الإسلامي ان هو ألا
وجه من وجوه الفلسفة العربية الإسلامية.

(١) سيد حسين نصر، ثلاثة حكماء مسلمين، ص ١٣٨-١٤٠ .

الفصل الثامن

العلامة ابن مطهر الحلي

٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م - ٧٢٦هـ / ١٣٢٦ م

تمهيد: اضمامة من فكره وقبس من كتبه

المبحث الأول : ابن المطهر الحلي متكلماً

المبحث الثاني : المنطق في فكر العلامة الحلي

المبحث الثالث : أصالة الفلسفة الطبيعية في فكر الحلي

المبحث الرابع : أصالة الفلسفة الإلهية في فكر الحلي

(ما وراء الطبيعة)

المبحث الخامس : ابن المطهر الحلي صوفياً

العلامة ابن مطهر الحلبي

٦٤٨هـ / ١٢٥٠م - ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م

اضمامة من فكره وقبس من كتبه

تمهيد:

العلامة ابن المطهر الحلبي ، الشيخ جمال الدين ، أبو منصور الحسن بن الشيخ سديد الدين يوسف بن الشيخ زين الدين علي بن المطهر الحلبي ، العراقي ، الأسدي ، المعروف في الأوساط العلمية بالعلامة على الإطلاق .

واحد من أبرز الأسماء التي أفرزها القرن السابع الهجري ، موسوعي كتب في العلوم النقلية ، كما أجاد وأبدع في العلوم العقلية ، بعقريّة واضحة ، وبتميز مشهود ، لو قيس بالعلماء الافاذ الذين سبقوه أو عاصروه أو جاءوا بعده ، لوجدناه بينهم علامة فارقة لا تخطئها العين ...

مؤلف من اخصب المؤلفين ، تميزت مؤلفاته بالعقلانية والاستيعاب والهيمنة على المواضيع التي كتب بها ، متمكن من أدوات الكتابة في الموضوع الواحد وبخبرة ملحوظة ، كما تميزت مؤلفاته كماً وكيفاً ، حتى بز الكثيرين من كبار العلماء ، يشهد له طلابه عبر سبعة قرون ، الذين ما انفكوا ينهلون من مصنفاته ، ويتخرجون بها علماء الى الناس في ازمانهم حتى اليوم .

العلامة الحلبي : واضح العبارة ، سديد المنهج ، مفهوم القصد ، سهل الأسلوب كأنه يكتب لكل العصور ... أستوعب موضوعاته ، استيعاب الأساتذة المقتدرين مكن طلابه ان يمضوا معه ببسر وسهولة في تناول المفردات وتدرج الموضوعات ، الأسهل فالأسهل ، بدءاً من أوليات العلم ومقدماته ، حتى آخر مقاماته ومعارفه ، دون ان يمر بهم بطريق شائكة ، او يدخل طلابه بمتاهة هم في غنى عنها ، وهو أمر لا يدركه الا غزير العلم واسع الأفق ...

هذا الامر لا يقتصر على العلوم النقلية دون العقلية ، وان أخذ منه علم الفقه وأصوله حداً بلغ بهما المدى، نعم كتب الحلي في الفقه حتى صار من مراجع الامة العظام ، وكتب في علم أصول الفقه ، حتى صارت كتبه في هذا الفن أصولاً لمن بعده ...

ومع هذا فقد أجمع المؤرخون على تقديم صورة زاهية لابن المطهر الحلي باعتباره متكلماً كبيراً ، جمع العلوم النقلية والعقلية ، قرب علم الكلام من الفلسفة العربية الإسلامية ، وجر المفاهيم لفلسفية للقواعد الكلامية ، حتى صاروا متجاوزين متجاوزين ...

العلامة الحلي : متمكن من المفاهيم المنطقية ، وكأنه مكتشف لها ، فكانت مؤلفاته أنموذجاً لاستعمال هذه الآلة القانونية التي تعصم الذهن من الخطأ .
العلامة الحلي : ميال للتجديد بعقريّة غير خافية على الحضيف ، لا يرغب بالعودة في المسألة الوحيدة طويلاً ...

كثيراً ما كان الحلي يؤكد إنه لم يتبع في جميع املاءاته مذهب أحد من القدماء ، ولم يعول على قول من غير من الحكماء ، بل يسلك في دراسته، طريق البرهان ، الذي نصب نفسه في هذا المنصب دونما إكراه ، فلم يرم من تقدمه من المخالفين بالتخطي ، ولم يعول على نقضهم بأساليب السفسطة والتجريح ، بل نجد حجه تمضي على نهج الإنصاف وتجنب البغي والإعتساف، فكان بأسلوبه هذا مجدداً وأفكاره مستوعباً .

هذا المنهج ليس مقصوراً على كتبه الفقهية والإصولية، بل في كتبه المنطقية وعلم الكلام والفلسفة العربية الإسلامية .

وأي من طلاب الحوزات العلمية ، او المؤسسات التربوية والتعليمية الدينية الأمامية، في عصرنا الحاضر، يعي ما أقول ويدرك ما ذكرت .

كتب العلامة الحلي الفقيه والأصولية والكلامية والمنطقية والفلسفية ، على وجه الخصوص ، يعيشها الطلاب منذُ عصر العلامة حتى يوم الناس هذا .

ودليل الباحث هنا : مخطوطة فريدة لكتاب العلامة الحلي " الأسرار الخفية في العلوم العقلية " وجدتْها قد كتبت في المدرسة الكاملية عام ٧٣٤-١٣٣٣م ، أي بعد وفاة العلامة الحلي بثمانين سنين ، ليس هذا فقط ، بل كتبت هذه المخطوطة طالب مجتهد من المغرب العربي ، بخطه المغربي المعروف المتميز ، (القاف نقطة واحدة من فوق الحرف ، والفاء نقطة واحدة من تحت الحرف ، ثم ميزات أخرى ...)

أكد هذه الحقيقة معاصر للعلامة الحلي ، هو تلميذه ابن داود في كتابه " الرجال " ، وكتب عن شيخه كتابات مازالت خالدة ...

الطلاب يعيشون كتب العلامة الحلي في مقدمات العلوم التي ذكرنا ، في مرحلة المقدمات من الدراسات الحوزوية . . . ويتدرجون مع كتبه في دراسات السطوح . . . ويتخرجون على كتبه أيضا في دروس الخارج ...

هكذا هم الطلبة منذ عام ٦٧٥ هجرية وحتى اليوم ، بل يعيش الطالب منهم العلامة الحلي منذ أول يوم للدراسة ، وحتى بعد التخرج . يهتمشون بين سطورها ويلخصون مطولاتها ، ويشرحون مختصراتها ، مسألة لم يحصرها زمان ولا مكان ...

وأجماً فالعبارات قاصرة عن استيفاء حق هذا الرجل العملاق ، واستقصاء فضله ، فلنكتف بهذا القدر في سيرته ولنفصل القول في مصادر ثقافته ...

مصادر الثقافة الفلسفية في فكر العلامة الحلي

المبحث الأول

ابن المطهر الحلي متكلماً

لقد أجمع المؤرخون على تقديم صورة زاهية لابن المطهر الحلي باعتباره متكلماً كبيراً ، جمع العلوم النقلية والعقلية ، قرب علم الكلام من الفلسفة ، وجر المفاهيم الفلسفية للقواعد الكلامية ، حتى صار متجاوزين متجاوزين ، مدقق محقق ، اشتهرت تصانيفه في زمانه ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بهي الصورة ، قوي الشخصية .

كتب في الفقه حتى صار من مراجع الأمة العظام ، وكتب في علم الكلام ، فكان مجدداً في هذا العلم على رأس القرنين السابع والثامن الهجريين ، كتب في علم أصول الفقه ، حتى صارت كتبه في هذا الفن أصولاً لمن بعده ، وكتب في الفلسفة العربية الإسلامية حتى صار رائداً لها... كتب عشرات الكتب الكلامية ، المطبوع منها أكثر من عشرين كتاباً ورسالة ، يقف في الصف الأول منها كتابه (نهاية المرام في علم الكلام) ، وهو كتاب مطبوع ومحقق ، وكتاب (الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، الذي رد فيه على كثير من أفكار فلاسفة الإغريق وكتاب (أنوار الملكوت في شرح الياقوت) ، وكتاب (إيضاح المقاصد في حكمة عين القواعد) ، وكتاب (منهاج الكرامة) ، وكتاب (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) ، وهي جميعاً مطبوعة أكثر من مرة... .

ومن كتب الحلي الأخرى كتاب (المباحث السنية والمعارضات النصيرية) وكتاب (المقاومات) قال عنه مؤلفه ((باحثنا فيه الحكماء السابقين ، وهو يتم مع تمام عمرنا) ، وكتاب (حل المشكلات من كتاب التلويحات) ويفهم من عنوانه : شرح لكتاب شهاب الدين بن حبش السهروردي (هـ ٥٨٧/ ١١٩١م) .

ومن كتب الحلّي التي باحث فيها ابن سينا كتاب (ايضاح التلبيس في كتب الرئيس)، وكتاب (كشف الخفا من كتاب الشفا)، وكتاب (المحاكمات بين شراح الإشارات) .

وفي تلك إشارات مهمة على أن ابن المطهر الحلّي مستقلٌ في أفكاره، متميزٌ عن سبقه . . .

وفي ضوء ما تقدم سنقدم في السطور الآتية ، العلامة ابن المطهر الحلّي متكلماً فذاً ، وشيخاً من شيوخ هذا العلم ، متمكناً من فنه ، لين العبارة ، يقدم هذا العلم الشائك إلى قارئه ، واضحاً سهلاً مقبولاً . . .

ولنبداً مع الحلّي من بدايات العلم ، حده ، شرفه ، علة تسميته بعلم الكلام .

تعريف علم الكلام وحده

لم نجد في كتب الحلّي المطبوعة ما يعرف علم الكلام ، ويضع له حدوداً لا يخرج منه شيئاً فيخل به ، ولا يضاف إليه ما ليس منه ، بل كان يكتفي في كثير من كتبه في بيان شرف هذا العلم وعلو قدره ، لشرف المعلوم وهو معرفة الله تعالى ، وهو ما كان عليه الغزالي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) قبل الحلّي بقرنين ، وفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) قبل الحلّي بقرن والامدي (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) قبل الحلّي بعقود .

وقد وجد القاضي عبد الرحمن الايجي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) ، وقد جاء بعد الحلّي بعقود أن يضع لهذا العلم تعريفاً يحده ليكون طالبه على بصيرة ، ولكن لا يخطئ فيه خبط عشواء ، فقال : الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ،

وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخصم وإن خطأناه
لا نخرجه عن علم الكلام^(١) ، ثم صار هذا العلم رسماً لا يتخطاه الباحثون .

في بيان شرف هذا العلم

علم الكلام عند الحلبي هو علم أصول الدين^(٢) ، علم التوحيد والصفات ، علم
النظر والاستدلال^(٣) ، علم معرفة واجب الوجود سبحانه ، وصفاته وكيفية أفعاله
وتأثيراته ، والبحث عن رسله وأوصيائه وأحوال النفس والمعاد ، فهذه أشرف
المطالب ، وتحصيلها من أحسن المقاصد ، العلوم الدينية متوقفة على صحة الحجية
في هذا العلم ، فهي راجعة إليه ، دافعة بين يديه محتاجة إلى قطعته وثبوتيته ،
فالعلم به أشرف العلوم^(٤) .

في علة تسميته بالكلام

وجد الحلبي أن هذا العلم خصص باسم الكلام لوجود ستة :

الأول : لأنه الكلام في وجود الله تعالى وصفاته .

الثاني : لقول بعض السلف الصالح منعنا عن الكلام في هذا العلم .

الثالث : هذا العلم أسبق من غيره في المرتبة ، فالكلام فيه أسبق من الكلام في
غيره .

الرابع : هذا العلم أدق من غيره من العلوم ، فالمتكلم فيه أكمل الأشخاص
البشرية .

(١) الأبجي ، القاضي عبد الرحمن ، المواقف في علم الكلام ، عالم الكتب ، بيروت ، بلا
تاريخ .

(٢) ابن المطهر الحلبي ، الباب الحادي عشر ، ص ٤ .

(٣) ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ٣ ، ٢ .

(٤) ابن المطهر الحلبي ، نهاية المرام في علم الكلام ، تحقيق فاضل العرفان ، قم ، ١٤١٩ ،
ص ٦-٨ .

الخامس: الباحث في هذا العلم كالواقف على سائر العلوم ، فالمتمكّن فيه كالمتكلم في غيره .

السادس: العارفون بالله تعالى يتميزون عن غيرهم من بني نوعهم ، فطالبت السننهم على غيرهم^(١) .

في موضوع علم الكلام:

قال العلامة الحلي ، ان لكل علم على الإطلاق أموراً ثلاثة : موضوعاً ، ومسائل ومبادئ .

والمبادئ هي التي يبنى العلم عليها، وهي إما تصورات أو تصديقات وبعد ان شرح الحلي هذا الأمر ومهد لهذه القاعدة قال : ((علم الكلام ينظر فيه في أعم الأشياء وهو الوجود ، الذي يقسم أولاً الى قديم ومحدث ، ثم يقسم المحدث إلى جوهر وعرض ، ويقسم العرض إلى مشروط بالحياة وغير مشروط، وينقسم الجوهر إلى حيوان ونبات وجماد .

ثم ينظر علم الكلام في القديم ، فيبين عدم تكثره بوجه من الوجوه ، وأنه متميز عن الحوادث بما يجب له من الصفات ويمتنع عليه ، ويفرق موضوع هذا العلم بين الواجب والجائز والممتنع^(٢) .

النظر واجب بالعقل لا بالسمع

أكد الحلي في مقدمة دراسته لمباحث النظر قوله : إن العلم واجب ، وإن النظر الصحيح يستلزم العلم ، وهو حكم ثابت لا ينبغي الشك فيه وعلى أساسه

(١) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ٨-٩ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ص ١٠-١٤ ، ابن المطهر الحلي ،

كشّف المراد ص ٧ ، ابن المطهر الحلي ، الباب الحادي عشر ، ص ٤-٥ .

قرر أن النظر واجب بالعقل لا بالسمع ، والحق إن مدرك وجوب النظر عقلي لا سمعي ، وإن كان السمع قد دل عليه أيضا بقوله تعالى ((قل انظروا))^(١) .

وينقل الحلبي أن الأشاعرة قالوا : إن النظر واجب بالسمع لا بالعقل وليس يجب بالعقل شيء البتة

ونجد لهذا الرأي تفصيلاً عند الفخر الرازي الذي دافع عن هذه المقولة ، وإن معرفة الله واجبة اجماعاً وهي لا تنتم إلا للنظر ، ومدرك هذا الوجوب هو السمع . . .

والمعتزلة ومن اتبعهم على خلاف الأشاعرة في هذه المسألة ، فهم وإن قالوا إن النظر واجب إلا أنهم يجعلون مدركه العقل لا السمع ، وهذا يعني أن النظر لا يتم بالبديهة أو الضرورة ، بل بالاستدلال^(٢) .

معرفة الله تعالى واجبة بالعقل

توقف العلامة الحلبي عند هذه النقطة كثيراً في جميع كتبه ، كان واضحاً فيها حين قال : (الحق إن وجوب معرفة الله تعالى مستفاد من العقل ، وإن كان السمع قد دل عليه ، لقوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله)^(٣) .

إن معرفة الله دافعة للخوف الحاصل من الاختلاف ، ورفع الخوف واجب بالضرورة .

ويقول الحلبي أن ألا شاعرة قالت ، إن معرفة الله واجبة بالسمع لا بالعقل^(٤) . وعلى هذا يقول القاضي عضد الدين الأيجي ((النظر في معرفة الله تعالى واجب

(١) سورة يونس / ١٠ آية ١٠١ .

(٢) الحلبي ، نهج الحق وكشف الصدقة ص ١٤١ ، الفضل بن روزهان ، أبطال نهج الباطل، ج ١ ص ١٤٣

(٣) سورة محمد ٤٧ ، آية ١٩ .

(٤) الحلبي، نهج الحق وكشف الصدق، ج ٢ ص ١٥٣ ، ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ١٧٢ .

إجماعاً)) واختلف في طريقة ثبوته ، فهو عند اصحابنا (الاشاعرة) السمع، وعند المعتزلة العقل^(١).

يؤكد القاضي عبد الجبار هذا القول :- وهو من شيوخ الاعتزال - فيقول : معرفة الله لا تتم بالبدية او الضرورة بل باكتساب العقل^(٢).

ويرد الفضل بن روزبهان على ابن المطهر الحلي موضحاً بقوله : (إن

وجوب معرفة الله تعالى هل انه مستفاد من الشرع او العقل))

الفضل بن روزبهان يسأل : هل ان وجوب معرفة الله تعالى مستفاد من الشرع أو العقل؟

أجاب : ان اريد به الاستحسان ، وترتب المصلحة ، فلا يبعد ان يقال انه مستفاد من العقل ولا نزاع للاشاعرة في هذا . وان اريد به ما يوجب ترتيب الثواب والعقاب ، فلا شك انه مستفاد من الشرع ، لان العقل ليس له ان يحكم بما يوجب الثواب عند الله .

والمعتزلة يوافقون الاشاعرة في ان الحسن والقبح - بهذا المعنى -

مركوزان في العقل ، ولكن الشرع كاشف عنهما^(٣).

والحلي في كتابه (نهاية المرام) يذكر : أن الاستقراء لا يفيد اليقين ، وعليه لا يقال: لو كان الوجود بديهيًا استحال البرهان عليه ، لأنكم برهنتم عليه فلا يكون تصورًا بديهيًا، لانا نقول التصور البديهي له اعتباران : أحدهما : ثبوته في نفسه ، والثاني ثبوت هذا الوصف ، كونه بديهيًا له ، والممتنع إقامة البرهان

(١) الأيجي، المواقف ، ص ٢٨ .

(٢) القاضي عبد الجبار، شرح الاصول الخمسة ، ص ١٣٠ .

(٣) ابن روزبهان، بطلان نهج الداخل ، ج ٢ ص ١٥٥-١٥٧ .

عليه هو الأول ، اما الثاني فلا^(١)، وقد فصل العلامة الحلي القول في أبطال هذه المسألة في " كتابه الأسرار الخفية "، وأثبت بطلانها^(٢)...
و أضاف الحلي شرحاً لهذه المسألة في كتابه "كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد" ، بعد قول الطوسي: ان وجود الله تعالى واجب فهو المطلوب وإلا استلزم الوجوب ، لاستحالة الدور والتسلسل ، ويذكر الحلي ان الطوسي بكلامه المجمل ذاك أراد إثبات واجب الوجود سبحانه وإثبات صفاته ، وما يجوز عليه ، وما لا يجوز وبيان أفعاله وآثاره.

وكان الطوسي قد ابتدأ في إثبات وجوده تعالى لأنه الأصل في ذلك كله .
وأورد ابن المطهر الحلي في الاسهاب بشرحه : والدليل على وجوده ان نقول هذا موجود بالضرورة ، فان كان واجبا فهو المطلوب ، وان كان ممكناً افتقر إلى مؤثر موجود بالضرورة ، فذلك المؤثر إن كان واجباً فهو المطلوب ، وان كان ممكناً افتقر إلى مؤثر وتسلسل ، ودار وهو باطل .
ويزيد الحلي في استدلاله فيقول : المتكلمون سلكوا طريقاً آخر فقالوا العالم حادث ولا بد له من محدث ، فلو كان محدثاً تسلسل ودار ، وان كان قديماً ثبت المطلوب ، ولان القدم يستلزم الوجوب^(٣) .
وفي كتاب ابن المطهر الحلي (الباب الحادي عشر) عدد خواص "الواجب الوجود" لذاته وقد وجدها خمس خواص .
الأولى : ان لا يكون واجباً لذاته ولغيره معاً ، و إلا لكان وجوده مرتفعاً عنه ارتفاع وجود ذلك الغير ، فلا يكون واجباً لذاته . هذا خلف .

(١) الحلي ، نهاية المرام ، ج ١ ص ١٧-٢٠ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٤١٢-٤١٦ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ١٧٢ ، لمزيد من التفاصيل ، انظر الرازي ، المحصل ، ص ٦٦ ، الأمدي ، سيف الدين ، غاية المرام ، ص ٩ فما بعدها ، الايجي ، القاضي عبد الرحمن المواقف ، ص ٢٦٦-٢٧٨ .

الثانية : أن لا يكون وجوده ووجوبه زائدين عليه ، والا لافتقر اليهما فيكون ممكناً

الثالثة : ان لا يكون صادقاً عليه التركيب لان المركب مفتقراً إلى جزائه المغايرة ، فيكون ممكناً، والممكن لا يكون واجباً لذاته .

الرابعة : انه لا يكون جزءاً من غيره،و إلا لكان منفصلاً عن ذلك الغير فيكون ممكناً.

الخامسة : أن لا يكون صادقاً على اثنين^(١).

صفات الله تعالى

اعتاد العلامة ابن المطهر الحلي في جميع مصنفاته في علم الكلام وكان (قد صنف بها كتباً متعددة ومسائل مسددة)^(٢)، يبدوها في إثبات الصانع واجب الوجود عز وجل ، ومن ثم يفصل القول في الاستدلال على صفاته تعالى ، وهي عنده على قسمين صفات ثبوتية ، وصفات سلبية ، ويقدم الصفات الثبوتية في درسه وشرحه لأنها صفات وجودية ، والصفات السلبية عدمية ((والموجود ، اشرف من العدم ، والاشرف مقدم على غيره))^(٣).

والصفات الثبوتية كما قررها العلامة الحلي هي ثمانية :

الأولى : انه تعالى قادر مختار

والثانية : انه عالم ، لأنه فعل الأفعال المحكمة المتقنة.

والثالثة : انه حي لأنه قادر عالم ، فيكون حياً بالضرورة.

الرابعة : انه مريد وكاره . لأن تخصيص الأفعال بإيجادها في وقت دون

آخر لابد له من مخصص .

(١) ابن المطهر الحلي ، الباب الحادي عشر ، ص ٨-١٠ .

(٢) الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ٥ .

(٣) الحلي ، الباب الحادي عشر ، ص ١١ .

الخامس: انه مدرك ، لأنه حي ، فيصح ان يدرك .

السادس: انه قديم ازلي باق ابدى ، لأنه واجب الوجود، فيستحيل العدم

السابق عليه واللاحق

السابع : انه متكلم ، والمراد بالكلام الحروف والأصوات المسموعة

المنتظمة .

الثامن : انه صادق ، لان الكذب قبيح بالضرورة ، والله تعالى منزّه عن

القبيح لاستحالة النقص عليه^(١) .

وقد فصل الحلّي مسألة الصفات في كتابه (نهج الحق وكشف الصدق) ،

فقال:

الله قادر على كل مقدور

وهو الحق ، لأن المقتضى لتعلق القدرة بالمقدور هو الإمكان ، فيكون الله

تعالى ، قادراً على جميع المقدورات^(٢)، فهي أولى الصفات ، وغيرها مترتب عليها.

ولكن أبا القاسم البلخي قال : انه لا يقدر على مثل مقدور العبد ، لأنه إما طاعة أو معصية أو سفه

وقد اعتذر الأيجي عن هذا بقوله : ((والجواب أنها اعتبارات تعرض

للفعل بالنسبة إلينا ، واما فعله تعالى فمنزه عن هذه الاعتبارات ، وهو خال عن

الغرض كسائر أفعاله ، ولا يلزم العبث^(٣)))

قال الحلّي في شرح قول الطوسي في (تجريد الاعتقاد) : ان (عموم العلة

تستلزم عمومية الصفة ، انه يريد بيان أن الله تعالى قادر على كل مقدور ، وهو

(١) المصدر السابق ، ص ١١-٢٠ .

(٢) ابن المظهر الحلّي ، نهج الحق وكشف الصدق . ج ٢ ص ١٦٥-١٦٧ .

(٣) الأيجي، المواقف ، ص ٢٨٢-٢٨٤ .

قول الأشاعرة واخلف اكثر الناس في ذلك) فان الفلاسفة قالوا انه تعالى قادر على فعل شيء واحد ، لان الواحد لا يصدر منه الا واحد ، وقد تقدم بطلان مقالتهم والمجوس ذهبوا إلى أن الخير من الله تعالى والشر من الشيطان ، لان الله خير محض ، وذهب الثنوية إلى أن الخير من النور والشر من الظلمة وذهب الجبائيان إلى أن الله تعالى لا يقدر على عين مقدور العبد و إلا لزم اجتماع الوجود والعدم^(١) .

وقال النظام : إن الله تعالى لا يقدر على القبيح لأنه يدل على الجهل أو الحاجة .

ثم قرر الحلي بعد هذا الشرح كله ، ان هذه المقالات كلها باطلة ، ثم شرع بالرد على كل منها فقال:

١- ان المقتضي لتعلق القدرة بالمقدور ، إنما هو الإمكان إذ مع الوجوب والامتناع لا تعلق ، والامكان سار في الجميع فيثبت الحكم ، وهو صحة التعلق .

٢- الجواب عن شبهة المجوس ان المراد من الخير والشر ان كان عن فعلهما قلم لا يجوز إسنادهما الى شيء واحد ايضاً .

الخير والشر ليسا ذاتين للشيء فجاز ان يكون الشيء خيراً بالقياس إلى شيء ، وشرأ بالقياس الى آخر ، وحينئذ يصح إسنادهما إلى ذات واحدة .

٣- والجواب عن شبهة النظام أن الإمالة حصلت بالنظر إلى الداعي فلا ينافي الإمكان الذاتي المقتضي لصحة تتعلق بالقادر .

٤- وعن شبهة البلخي : ان الطاعة والعبث وصفان لا يقتضيان الاختلاف الذاتي .

(١) ابن المطهر الحلي ، كشف المراد ، ص ٢٧٢ .

٥- شبهة الجبائين : إن العدم إنما يحصل إذا لم يوجد داع لقادر آخر على إيجادهِ^(١).

ونقرأ اعتذاراً للحلي عن الفلاسفة في كتابه (الأسرار الخفية) فيقول : " قال الحكماء : القادر هو الذي إذا شاء أن يفعل فعل ، وإن شاء أن يترك ترك ، والله تعالى قادر بهذا المعنى " . . .^(٢)

لهذا قال الحلي : " لا أرى بينهم (الفلاسفة) وبين (المتكلمين) نزاعاً في هذا ، بل في أن القادر هل يقع منه المقدور مع صحة الفعل أو مع وجوبه ؟ ، فالمسلمون على الأول والحكماء على الثاني " . . .^(٣).

ثم يقرر الحلي بعد ذلك : أن المتكلمين المسلمين استدلوا على دعواهم بالعالم محدث ويستحيل أن تتجدد لله تعالى صفة يتمكن بها من الفعل ، فبوجوده في المستقبل ، بل هو قادر أزلاً أبداً^(٤).

الله تعالى مخالف لغيره

النقل والعقل متطابقان على أن الله تعالى لا شبيه له تعالى بل هو مخالف لجميع الأشياء بنفس حقيقته^(٥).

ووجد العلامة الحلي "أن أبا هاشم عبد السلام الجبائي من معتزلة البصرة واتباعه، قد ذهبوا إلي : أن الله تعالى يخالف ما عداه بصفة الإلهية ، وإن ذاته مساوية لغيره من الذوات ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً^(٦)"

(١) ابن المطهر الحلي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢٤-٥٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢٥ ، ابن المطهر الحلي ، كشف المراد ، ص ١٧٢ .

(٥) ابن المطهر الحلي ، نهج الحق وكشف الصدق ، ج ١ ص ١٧٣ .

(٦) ابن المطهر الحلي ، نهج الحق وكشف الصدق ، ج ١ ص ١٧٣-١٧٤ .

الرازي ، فخر الدين ، محصل افكار المتقدمين والمتأخرين ، ص ٢٢٣ .

وقد رد عليه الحلبي بقوله : ((فلو كانت ذاته تعالى مساوية لغيره من
الذوات ، لساواها في اللوازم ، فيكون القدم ، أو الحدوث أو التجرد ، أو المقارنة
... إلى غير ذلك من اللوازم ، مشتركا بينها وبين الله))^(١).

والقاضي عبد الرحمن الأيجي : يذكر (((أن ذاته تعالى مخالفة لسائر
الذوات ، فهو منزّه عن المثل ، والله تعالى عن ذلك علوا كبيرا))^(٢) .
و ينقل الأيجي عن قدماء المتكلمين ان ((ذاته تعالى مماثلة لسائر الذوات
و إنما تمتاز عن سائر الذوات بأحوال أربعة : الوجوب والحياة والعلم التام
والقدرة التامة ...

و عند أبي هاشم يمتاز بحالة خامسة ، هي الموجبة لهذه الأربعة نسميها
بالإلهية...))^(٣).

و أوضح الفضل بن روزبهان في كتابه (أبطال نهج الباطل) : " مذهب
أبي الحسن الأشعري ، أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ، والمخالفة بينه وبينها
لذاته المخصوصة لا لأمر زائد عليه ... وإن المخالفة بين كل موجودين من
الموجودات إنما هي بالذات ، وليس بين الحقائق اشتراك إلا في الأسماء والأحكام
دون الأجزاء المقومة"^(٤) .

(١) ابن المطهر الحلبي ، نهج الحق وكشف الصدق ، ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) الأيجي ، المواقف ، ص ٢٦٩ .

(٣) الأيجي ، القاضي عبد الرحمن ، المواقف ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) ضمن كتاب (دلائل الصدق لنهج الحق) ج ٢ ص ١٧٥-١٧٦ . وفي معرض تعليقه على
رد الفضل ابن روزبهان ، قال الشيخ محمد حسن المظفر ، إلا ان بعض متبني الاحوال من
الاشاعرة وهم قائلون بمقالة أبي هاشم ، وان المصنف (الحلبي) كان يصدد رده على
الجمهور مطلقا من دون خصوصية للاشاعرة (دلائل الصدق ، ج ٢ ص ١٧٦ .

في الصفات السلبية

لما كان العلامة الحلي قد اثبت لله تعالى ثمان صفات ثبوتية و فرغ من شرحها وتبويبها انتقل الى صفات الله السلبية في مقابل الصفات الثبوتية، وتسمى هذه أيضا "صفات الإجلال" و "صفات الإكرام" وكما سموا بالمباحث الكلامية فيها "جليل الكلام" ومنها "رقيق الكلام" تعني بوجوده تعالى وصفاته وقدمه ووجوبه ونحوها ، يبحثون تحت عنوان القسم الآخر الممكن ، والجسم ، والجوهر ، والسكون والحركة والإعراض ونحوها من أمور ، كل ذلك اعزازاً بهذا العلم وتكريماً لمباحثه .

ومثلما قسم الحلي الصفات الثبوتية إلى ثمان صفات كما أسلفنا ، قسم الصفات السلبية الى سبع ، وهي باعتبار سلب العجز عنه ، بعد ان اثبت صفة القدرة له ، وكذلك اثبت صفة كونه عالماً سبحانه بعد أن سلب منه صفة الجهل وكذلك باقي الصفات ، يقول الحلي: ((في الحقيقة المعقول لنا من صفاته ليس السلوب والإضافات ، وأماكنه ذاته وصفاته محجوب عن نظر العقول ، ولا يعلم ما هو إلا هو))^(١) .

والصفات السلبية كما شرح ابن المطهر :

١ - انه ليس بمركب ، والمركب ما كان له أجزاء ، ونقيضه البسيط ، وهو ما لا أجزاء له ، ثم التركيب قد يكون خارجياً كتركيب الأجسام من الجواهر و الأفراد ، وقد يكون ذهنياً كتركيب الماهيات ، والحدود من الأجناس والفصول ، والمركب بكلا المعنيين مفتقر الى جزئه ، لامتناع تحققه وتشخصه خارجاً وذهناً بدون جزئه ، وجزؤه غيرد ، لأنه يسلب عنه ، فيقال : الجزء ليس بكل ، وما يسلب عنه الشيء ، فهو مغاير له ، فيكون

(١) ابن المطهر الحلي : الباب الثاني عشر ، ص ٢٢-٢٨ ، ابن المطهر الحلي : نهاية المرام ، ج ٣ ص ١٥-٣ ، ابن المطهر الحلي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ١٨٥ .

مفتقراً إلى الغير، فيكون ممكناً فلو كان الله تعالى مركباً لكان ممكناً وهو محال .

٢- انه ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر و إلا لافتقر إلى المكان ، ولا تمتنع انفكاكة من الحوادث فيكون حادثاً وهو محال .

ولا يجوز ان يكون في محل ، الا افتقر إليه ولا في جهة إلا افتقر إليها . ولا يصح عليه اللذة والألم، لامتناع المزاج عليه سبحانه ، وانه تعالى لا يتحد بغيره .

٣- ليس محلاً للحوادث لامتناع النقص عليه سبحانه

٤- استحالة رؤيته تعالى ، الرؤية البصرية ، لكان مرئياً ، فهو ذو جهة ، فيكون جسم وهو محال .

٥- نفي الشريك عنه تعالى وقد فصل هذا الأمر بعدة وجوه ، عدها في مظانها .

٦- نفي المعاني والأحوال عنه تعالى ، وفي ذلك مباحث كثيرة ناقش الاشاعرة فيها .

٧- انه تعالى غني ليس بمحتاج ، لان وجوب وجوده دون غيره ، يقتضي استغناءه عنه وافتقار غيره إليه .

الكرامية والتجسيم

وانه تعالى ليس في جهة

قال العلامة الحلبي : ان العقلاء كافة يؤكدون انه تعالى ليس في جهة ، خلافاً لفرقة الكرامية ، حيث قالوا : ((انه تعالى في جهة الفوق)) .

وذكر الحلبي أن هذا القول لا يمكن قبوله : لان الضرورة قضت بان كل ما هو في جهة ، فأما ان يكون لابناً فيها ، أو متحركاً عنها ، فهو إذا لا ينفك عن الحوادث ، وكل ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث^(١) .

(١) ابن المطهر الحلبي ، نهج الحق وكشف الصدق ، ج ، ص ١٨٩ .
ابن المطهر الحلبي ، كشف القواعد في شرح القوائد ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ١٠٢ .
ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص ١٧٥ .
= ابن المطهر الحلبي : أنوار الملكوت في شرح الياقوت ، تحقيق محمد الزنجاني ، قم ١٤٠٢ ، ص ٨٣ .

فصل الأمر في هذه المسألة القاضي عبد الرحمن الأيجي وذكر فرق المشبيه ومنهم الكراميه أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ، وعدّها من الفرق الضالة الذين قال فيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلهم بالنار وذكر ان زعيمهم هذا ذكر ((أن الله على العرش من جهة العلو ، ويجوز عليه الحركة والنزول ، واختلفوا ، إيملاً العرش أم لا ؟ قال بعضهم : بل هو محاذ للعرش . واختلفوا أبعد متناه ؟ أو غيره ؟

ومنهم من أطلق عليه لفظ الجسم ، ثم هل هو متناه من الجهات ؟ أو من جهة تحت ، أو لا ؟ أو تحل الحوادث في ذاته ؟

وزعموا انه إنما يقدر عليها دون الخارجة عن ذاته ، ويجب أن يكون أول خلقه حياً ، يصح منه الاستدلال .

والنبوة والرسالة صفتان . سوى الوحي والمعجزة والعصمة ، وصاحبها رسول^(١) .

قال الحلبي في كتابه (الباب الحادي عشر) ان الله تعالى ليس بجسم ، فهو ليس أذن بجهة ، لان الجسم كما حد : هو ماله طول وعرض وعمق . وهو بهذه الحالة مفتقر إلى المحل وإلى المكان ، والمحل والمكان غير الجسم فهو مفتقر إليهما ، والمفتقر إلى غيره ممكن ، ولو كان الباري جسماً أو عرضاً لكان ممكناً^(٢) ، إن كل شاغل للمكان ، وما لجأ له ، وشكل بشكل المكان ، فهو محدود بذلك المكان ، وكل محدود متناه تنتهي مكانه فهو جسم^(٣) .

(١) الأيجي ، المواقف ، ص ٤٢٩ .

(٢) ابن المطهر الحلبي ، الباب الحادث عشر ، ص ٢١ .

ابن المطهر الحلبي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ٢ ص ١٠٥ .

(٣) ابن حزم ، ابو محمد علي بن حزم الأندلسي . (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) الفصل في الملل

والأهواء والنحل ، مؤسسة الخانجي ، مصر ، ص ١٢٢-١٢٤ .

المبحث الثاني

المنطق^(١) في فكر العلامة الحلي

يعد العلامة ابن المطهر الحلي واحداً من ابرز الأسماء التي اقرزها القرن السابع الهجري ، موسوعي : كتب في الفنون العقلية ، كما اجاد و أبدع في العلوم العقلية . . . بعبرية واضحة ، لو قيس بالعلماء الافذاذ الذين سبقوه او عاصروه او جاؤوا بعده لوجدناه بينهم علامة فارقة لا تخطئها العين...

مؤلف من اخصب المؤلفين ، تميزت مؤلفاته بالعقلانية والاستيعاب والهيمنة على المواضيع التي كتب بها ، متمكن من ادواة الكتابة في الموضوع الواحد وبخبرة ، تميزت مؤلفاته كمأ وكيفاً حتى يز الكثيرين من فطاحل العلماء ، يشهد له طلابه عبر سبعة قرون ، الذين ما انفكوا ينهلون من معين مصنفاته ، ويخرجوا بها علماء الى الناس في ازمانهم . . .

العلامة الحلي : واضح العبارة ، لين المنهج ، مفهوم القصد ، سهل الاسلوب كأنه يكتب لكل العصور . . .

متمكن من المفاهيم المنطقية ، وكأنه مكتشف لها ، فكانت مؤلفاته أنموذجاً لاستعمال هذه الألة القانونية التي تعصم الذهن من الخطأ ، صحيح ان ابن المطهر الحلي سينوي بكل تفاصيل السينوية من بعد ، ولكنه يقف في الصف الاول من خريجي هذه المدرسة ، حتى تمكن - وبحكم التطور الحياتي للعلوم - من شيخه ابن سينا فحاكم بين شراح الاشارات ، وناقش كثيراً من افكار ابن سينا وقومها بما يجعلها قابلة للحياة .

(١) لخصنا ما جاء بهذا الفصل ما ذكره المؤلف في كتابه "الاسرار الخفية في العلوم العقلية" على وجه الخصوص واستعنا بكتب الحلي الاخرى ومنها على وجه الخصوص "الجواهر النضيد" وكتابه "انوار الملكوت" و "ايضاح المقاصد".

العلامة ابن المطهر الحلي استوعب موضوعه استيعاب الأساتذة
المقتدرين مكن طلابه أن يمضوا معه بيسر وسهولة في تناول المفردات ، وتدرج
الموضوعات الأسهل فالأسهل ، بدءاً من أوليات العلم ومقدماته حتى آخر مقاماته
ومعارفه، دون ان يمر بطريق شائكة ، او يدخل طلابه بمتاهة هم في غنى
عنها . وهو امر لا يدركه الا غزير العلم واسع الافق . . .

العلامة الحلي : ميال للتجديد بعقريّة غير خافية على الحصيف ، لا
يرغب بالقعود في المسألة الواحدة طويلاً . . . وكثيراً ما كان الحلي يؤكد انه لم
يتبع في جميع املاءاته مذهب أحد من القدماء ، ولم يعول على قول من غير من
الحكماء بل يسلك في دراسته طريق البرهان ، الذي نصب نفسه حاكماً في هذا
المنصب دونما إكراه ((فلم يرم من تقدمه من المخالفين بالتخليط ، ولم يعول
على نقضهم بأساليب السفسطه والتجريح ، بل نجد حججه تمضي على نهج
الأنصاف وتجنب البيغي و (الاعتساف)^(١) ، فكان بأسلوبه هذا مجدداً ايضاً
ولأفكاره مستوعباً ، فكان متبوعاً مدققاً .

هذا المنهج ليس مقصوراً على أفكاره في كتبه المنطقية فحسب ، بل في
كتبه الفقهية والأصولية ، فكان في مقدمة الأسماء الرواد ، حيث أهله هذا التفوق
من المرجعية الدينية حتى مات . . .

وهذا القول ينسحب بالكامل على كتب الحلي في علم الكلام وفي الفلسفة
العربية الإسلامية ، الذي يعد الحلي فيها واحداً من المعدودين . . .

كتب الحلي المنطقية

ظهر من القائمة التي كتبها الحلي في تعداد مصنفاته ضمن ترجمته لنفسه
في كتاب (خلاصة الرجال)^(٢) ، انه قد ألف تسعة كتب في المنطق ، منها ثلاثة

(١) الحلي ، الاسرار الخفية ... ، ص ١٧ .

(٢) الحلي ، الخلاصة ، منشورات مطبعة الحيدري ، النجف ١٩٦١ ، ص ٤٥-٤٨ .

شملت المنطق والطبيعيات والإلهيات، وستة منها خاصة في المنطق دون غيره ، ولم يطبع من هذه الكتب غير اربعة وهي مدار هذا المبحث ومنها لخصنا أفكار العلامة في المنطق ، فهي مصدرنا واليها رجعنا

١- ((كتاب الأسرار الخفية في العلوم العقلية)) وهو في المنطق والطبيعيات والإلهيات وهذا الكتاب هو موضع بحث هذه الدراسة ، كما هو واضح من عنوانها . طبع قسم من هذا الكتاب في بيروت عام ١٩٧٥ نشرته مكتبة المثني حققناه بالاشتراك مع أستاذنا الدكتور حسام محيي الدين الالوسي على نسخة آلام الأصلية .

٢- ايضاح المقاصد من حكمة عين القواعد : صدر عن جامعة طهران باهتمام السيد محمد مشكاة وتصحيح علي تقوي منزوي ، طهران ، ١٣٧٩ هجرية .

٣- القواعد الجلية في شرح الرسالة الشمسية في المنطق : تحقيق فارس حسون تبريزيان نشر مؤسسة النشر الاسلامي ، قم ١٤١٢ هجرية .

٤- الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد : تحقيق محسن بيدار ، وهو كتاب مطبوع غير مرة ، مصدرنا الطبعة الثانية ، منشورات بيلار ، قم ١٤١٠ هجرية .

أما كتب الحلي المنطقية غير المطبوعة ، فلم يتسنَّ للباحث في مثل هذه الظروف الشاذة التي يمر بها العراق ان يطلع عليها .

نشير في أدناه الى أهم المعلومات عنها:

٥- كتاب القواعد والمقاصد في المنطق والطبيعي والإلهي ، ذكره الحلي ضمن قائمة كتبه في كتاب (خلاصة الرجال) ^(١) ، وذكرها السيد محسن الأمين في كتابه (ايعان الشيعة)^(٢) ، والسيد حسن الصدر في مقدمة كتاب

(١) ابن المطهر الحلي، كتاب الخلاصة، ص ٤٦ .

(٢) العامل، ايعان الشيعة، ج ٢٤ ، ص ٢٩١-٣٠٢ .

- (الخلاصة)^(١) والطهراني في كتابه (الذريعة)،^(٢) وذكره البغدادي في كتابه (هدية العارفين) ، ولم نجد له ذكرا في كشف الظنون ولا في ذيله .
- ٦- مرصد التدقيق ومقاصد التحقيق ، في المنطق والطبيعي والالهي ، وهذا كأخيه الكتاب السابق، ذكرته المصادر والمراجع المشار إليها ولم يذكره خليفة في كشف الظنون ولا البغدادي في الذيل .
- ٧- نهج العرفان في علم الميزان ، كتاب في المنطق برأسه .
- ٨- الدر المكنون في علم القانون ، كتاب في المنطق برأسه .
- ٩- النور المشرق في علم المنطق : وهذه الكتب الأربعة الأخيرة ذكرها الحلبي ضمن مصنفاته، كما ذكرتها المراجع المشار إليها في الفقرة ٥٠ ولم يذكرها خليفة والبغدادي^(٣) .

أهمية المنطق والحاجة إليه

يؤكد العلامة الحلبي : ان النفس البشرية في اول فطرتها تكون خالية من جميع العلوم التصويرية والتصديقية ، لان اكثر الناس يعرض لهم الغلط في افكارهم ، لذا اعطيت النفس البشرية اله تعينها على ذلك وهي آلة (الحس) ، لتقوي بها على تحصيل جانب العلم والعمل . .

ولكن هذه الآلة وحدها - كما قرر العلامة الحلبي - ما كانت كافية فلا بد من آلة أخرى يؤمن معها وقوع الغلط ، وكانت هذه الآلة (المنطق) ، ومن هنا جاءت الحاجة الملحة لهذا الفن في الحياة . .^(٤)

(١) السيد حسن الصدر، مقدمة كتاب الخلاصة، ص ٦-٣١ .

(٢) الطهراني ، الذريعة . .، الجزء الاول والثاني .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٠٠ ج ١ ص ١٦٠ ، ج ٢ ص ٣١٢ ،

(٤) الحلبي، الأسرار الخفية، ص ٧-٤٢ .

حد المنطق :

عرف الحلي هذه الآلة (المنطق) بأنها آلة قانونية تعصم مراعاتها ،
الذهن من الخطأ في الفكر .

وقال ابن سينا في تعريف المنطق انه أداة قانونية تعصم مراعاتها عن ان
يضل الإنسان في فكره^(١) .

والحدان وان تقاربا في التعريف إلا انهما لم يعترفا في المسألة .
الحلي: جعل المنطق آلة تعصم مراعاتها (الذهن) من الخطأ ، في حين
ابن سينا جعله آلة تعصم مراعاتها (الإنسان) بمجمله، وهو يضم الذهن
وغیره

وعلى وفق ذلك أكد الحلي هذه المسألة وفسرها بقوله : والفكر يطلق على
حركة النفس بالقوة التي إليها مقدم البطن الأوسط من الدماغ .

موضوع علم المنطق :

يقول العلامة ابن المطهر الحلي : " قد ظن بعض الناس أن موضوع علم
المنطق هو الألفاظ ، وهذا قول خطأ فاحش ، فان نظر المنطقي في اللفظ ليس
بالقصد الاول ، فانه لو أمكنه إيصال ما في ذهنه إلى الغير لا بواسطة اللفظ
لاستغنى عن اللفظ مطلقاً^(٢) .

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد ظن بعض المتأخرين عن الشيخ
الرئيس ، ولعل في مقدمتهم فخر الدين الرازي : أن موضوع علم المنطق هو
التصور والتصديق ويعملون ذلك بقولهم : ((إن المنطقي ناظر في الموصول
إليهما ، على القول الشارح والحجة ، وفيما يتوقف عليه الموصولان كالجنسية
والفصلية والذاتية والعرضية والموضوعية والمحمولية والقضية والعكس ،

(١) ابن سينا ، الاشارات والمنبهات ، مع الشرح ، ج ١ ص ٨-٩ .

(٢) الحلي، المصدر السابق، ص ٩-١٠ .

ويظنون ان هذه الأمور ان هي الا عارضة للمعلومات التصورية التصديقية وعلى هذا يقررون ذلك هو موضوع علم المنطق .

وقد اكد العلامة الحلي ان هذا الطرح خطأ ايضاً ، لانهم ان عنوا بالتصورات والتصديقات جميع ما يقع عليه هذان الاسمان فهو جميع العلوم ، فيبقى المفهوم منه ان موضوع المنطق هو جميع العلوم بأسرها وهو فاسد .

والأمر الثالث : ان عنوا بهما مذكوليهما من حيث هي تصورات وتصديقات ، فهو خطأ أيضاً ، لان المنطقي باحث في الموصل الى التصور والتصديق ، والموصل الى التصور والتصديق لا يجوز ان يكون هو التصور من حيث هو تصور ، والتصديق من حيث هو تصديق ، لان الشيء لا يوصل الى نفسه .

والأمر المهم في الموضوع ان ماهية التصور والتصديق هي الادراك، والحد والقياس ماهيتهما القول ، فهما متغايران ، وليس الحد والقياس بعرضين ذاتيين للإدراك ولا لجنسه ، وكيف يمكن ان تكون الكلية والجزئية وسائر ما عدوه من اللواحق الذاتية للماهات المتصورة ، فان الماهية لو كانت لذاتها كلية ، لم تصدق جزئية ، بل الكلية إنما تلحق الماهية عند اعتبار صدق الماهية على كثيرين (١) .

مبحث التصور والتصديق :

العلم اما تصور واما تصديق

عرفوا التصور بأنه : عبارة عن حصول الماهية في الذهن من غير حكم

عليها بنفي او إثبات .

وعرفوا التصديق بأنه : الحكم على تلك الماهية بالنفي وبالإثبات .

(١) الحلي ، الاسرار الخفية...، ص ١٠-١١

ولقد لخص العلامة الحلي مسألة التصور والتصديق بقوله :
التصور أقسام أربعة :

- ١- التصور التام وهو : العلم بالماهية من حيث هي .
 - ٢- التصور الناقص وهو : العلم بها من حيث بعض عوارضها .
 - ٣- تصور ضروري وهو : الذي لا يتوقف على طلب وكسب .
 - ٤- تصور كسبي وهو : الذي يتوقف على طلب وكسب^(١) .
- وقسموا التصديق الى اقسام ستة وهي :
- ١- تصديق ضروري وهو : الذي يكفي في حصوله تصور طرفيه .
 - ٢- تصديق كسبي وهو : الذي يفتر مع التصور إلى وسط .
 - ٣- تصديق علمي وهو : الاعتقاد الجازم، والمطابق، الثابت .
 - ٤- ومنه اعتقاد المقلد وهو : الاعتقاد الجازم، المطابق الذي لا يكون ثابتاً .
 - ٥- ومنه جهل وهو : الاعتقاد الجازم الذي لا يكون مطابقاً .
 - ٦- ومنه ظن وهو : الاعتقاد الذي يترجح فيه أحد الطرفين على الآخر مع تجويز نقيضه .
- واما الشك : فهو التردد بين الاعتقادين .
- واما الوهم : فهو مرجوح الظن ، وبعضهم يدخل هذين الأخيرين في باب التصديقات وهو سهو^(٢) .

الالفاظ واقسام الدلالة

اللفظ ان اريد تجزئة الدلالة على جزء المعنى من حيث هو جزؤه ، فهو المركب مثل جدار البيت ، والا فهو المفرد مثل الإنسان ، او زيد .

(١) الحلي، الاسرار الخفية...ص٢٥.

(٢) الحلي، المصدر السابق، ص١٥-١٦

والدلالة تنقسم الى ما بالطبع ، والى ما بالعقل ، والى ما بالوضع ،
الدلالة تابعة للقصد والارادة .

واللفظ المفرد : إما اسم ، وإما فعل وإما أداة .
الاسم : لفظ دال بالتواطؤ على معنى تام مجرد من الزمان ، ولا يكون واحد من
أجزائه ؛ دليلاً بانفراده .

فعل : ما دل على الزمان المعين ، ولا يكون واحد من أجزائه دليلاً بانفراده ،
ويكون أبداً دليلاً على ما يقال على غيره .
والأداة : ما دل على معنى مفرد في غيره ^(١) .

الكلي والجزئي :

اللفظ ان منع تصور معناه وقوع الشركة فيه ، فهو الجزئي ، والا فهو
الكلي . كلي فهو بالنسبة الى جزئياته ، اما ذاتي لها ، واما عرضي .
والذاتي له خواص ثلاثة :

- أحدها : امتناع رفعه عما هو ذاتي له في الوجودين
- ثانيها : عدم احتياجه الى علة مغايرة لعله ما هو ذاتي له .
- ثالثها : امتناع تصور ما هو ذاتي له ، الا اذا تصور هو أولاً .

الكليات الخمس

١- العرض : منه لازم ، ومنه مفارق ، واللازم هو : الذي يصحبه الماهية
صحبة واجبة ، ولا يكون جزءاً منها . والمفارق هو : الذي يمكن انفكاكه
عنها .

٢- الجنس : وهو المقول على كثيرين مختلفين بالحقائق في جواب (ما هو) ،
قولاً بحال الشرکه من حيث هو كذلك .

ومراتب الأجناس ، أربعة ، العالي ، والسافل ، والمتوسط ، والمفرد

(١) الحلي ، الامرار الخفية ... ص ١٧

٣- النوع : وهو يقال بالاشتراك على الحقيقي والإضافي على ما وجدته العلامة الحلي ، فالحقيقي هو ، المقول على كثيرين مختلفين بالعدد فقط في جواب (ما هو) من حيث هو كذلك .

والإضافي : هو أخص الكليين المقولين في جواب (ما هو) . ومجمل القول : الطبيعة الجنسية اذا أخذت بمعنى المادة ، كانت سبباً لوجود الطبيعة النوعية ، اذا أخذت بمعنى الجنسية ، لم تكن علة لها ، والا لتقدمت عليها بالوجود ، فيلزم وجود ذاتها قبل النوع ، فتكون مادة للنوع فلا يصدق على النوع انه هو ، هذا خلف ، بل ذات تلك الحيوانية مثلاً هي ذات تلك الإنسانية وهذا معنى قولهم ((الجنس والنوع متحدان في الوجود)) ، وان كان باعتبار عروض الجنسية يخرج عن هذا الحكم .

وعلى هذا تكون مراتب النوع الإضافي أربع: العالي والمتوسط والسافل والمفرد . ولكن السافل هاهنا هو نوع الأنواع والعالي من الأجناس ، هو جنس الأجناس .

٤- الفصل : (وهو الكلي المقول على الشيء في جواب (أي شيء هو في جوهره)) ، وانما يطلب به التمييز المطلق عن المشاركات في معنى الشيئية فما دونها^(١) . والفصل على ثلاثة أقسام :

١- عام وهو : الذي يفصل الشيء عن غيره في الجملة وقتاً ما .

٢- خاص وهو : الذي يفصله عن الغير ، ولا تفصل الغير عنه ، اما دائماً او وقتاً ما

٣- خاص الخاص وهو : المميز الذاتي ، والاولان يحدثان الغيرية ، والأخير يحدث

(١) ابن سينا ، الإشارات النبّهات ، مع الشرح ج ١ ص ٨٧ .

الخاصة والعرض العام

الخاصة : على قسمين :

- ١- مطلقة : وهي التي تختص بشيء واحد ولا توجد في غيره .
 - ٢- إضافية : وهي التي توجد في شيء مع وجودها في غيره ، ولكنها لا توجد في شيء ثالث ، فهي خاصة بالقياس اليه .
- العرض العام : وهو المقول على افراد حقيقة واحدة وغيرها قولاً عرضياً .

نظرية التعريف

الحد او القول المعرّف على رأي الحلي ثلاثة اصناف :

- الاول - ان يتركب من مقومات الشيء ، ويشتمل على الجميع مع الترتيب الطبيعي فهو الحد التام ، وهو يكون بالجنس القريب والفصل ، يذكر الجنس أولاً ، ثم يقيد بالفصل
- وان لم يشتمل على الجميع ، فلا بد وان يذكر فيه المساوي ، كالفصل ، وان ذكره وحده فهو الحد الناقص .
- ويعد الحد ناقصاً ان ذكر الفصل مع الجنس البعيد ، أو ذكر الجنس القريب مع الفصل ولكن من غير ترتيب ، فقدم الفصل على الجنس .
- الثاني - ان يتركب من عوارض الشيء ، وهنا لا بد وأن يكون مساوياً ، ويسمى الرسم الناقص ، كمن يعرف الانسان بالصاحك .
- الثالث - ان يتركب من مقومات الشيء ومن عوارضه معاً ، ويسمى بالرسم التام ، وهو ان يذكر الجنس ، ثم يقيد بالخواص .

(١) ابن المظهر الحلي ، الأسرار الخفية ... ص ٢٦-٣٧

والقدماء يسمون ما يفيد التمييز الكلى ، رسماً تاماً ، وما يفيدُه بالنسبة لشيء دون آخر الرسم الناقص ، وهو قول ابن سينا في قسم المنطق من كتاب الشفاء^(١) وكتاب الاشارات والنبهات^(٢) ، ويجد العلامة الحلي : ان الا مشاحة في هذا^(٣).

ومجمل القول في هذا الحد لا يكتسب بالقسمة ، لانها توجب وضع أقسام من غير تعيين وضع قسم منها .

وان استثنى نقيض بعض الاقسام لينتج الثاني - كما يقول مثلاً : ((حد الإنسان إما الحيوان الناطق ، او الحيوان غير الناطق ، والثاني محال ، فالأول هو الحق ، كان للمانع ان يمنع الحصر ويمنع المقدمة الاستثنائية .

القضية والحكم

القضية: قول يقال لقائله : ((انه صادق او كاذب ، وليس هذا من التعريفات المفيدة لتصورها ، والا لزم الدور : بل هو مخلصها من غيرها . وهي على قسمين حمالية ، وشرطية .

القضية الشرطية :

اما متصلة :وهي ان حكم فيها باستصحاب قضية لأخرى أو بعدمه وتسمية المتصلة بالشرطية موافقة للوضع اللغوي وهي على سبيل الحقيقة ، اما المنفصلة : وهي ان حكم فيها بالمعادنة او بعدمها ، وتسميتها على سبيل المجاز .

والسالبة للزومية هي التي حكم فيها بسلب اللزوم ، لا بلزوم السلب ، وكذلك في العناد

(١) ابن سينا ، كتاب الشفاء ، قسم المنطق ، ج ٣ ص ٥٢ .

(٢) ابن سينا ، الإشارات والنبهات ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، كتاب المنطق ، ج ١ ص ٤٤ .

القضية الحملية (١)

وهي تشتمل على أجزاء ثلاثة :

١- محكوم عليه ، ويسمى الموضوع .

٢- محكوم به : ويسمى المحمول

٣- رابطة بينهما تربط المحمول بالموضوع ، ولا بد منها .

والربط قد يرد في صورة اسم كقولنا : " زيد هو كاتب " ، وقد يرد في صيغة كلمة كقولنا : " زيد يكون كاتباً " او " يوجد كاتباً " وسواء كان المحمول اسماً او كلمة او مشتقاً فانها تحتاج الى ذكر رابطة ، فان الكلمة انما ترتبط بذاتها بفاعلها كما في صورة (قام زيد) ، يقرر الحلبي : ان للموضوع نسبة الى المحمول بالموضوعية ، وللمحمول نسبة اليه بالمحمولية ، وهما متغايران ومتلازمان .

وعلى هذا ان نسبة الموضوع الى المحمول بالمحمولية ، غير نسبته بالموضوعية

في تحقيق المحصورات والمخصوصات والمهمولات (٢):

موضوع القضية الحملية ان كان شخصاً معيناً سميت مخصوصة وشخصية موجبة ان كانت نسبة المحمول الى الموضوع نسبة بها هو هو ، أو سالبة ان كانت نسبته نسبة ليس هو هو . . .

وان كان موضوعها كلياً ، فلا يخلو : اما ان ينظر الى تلك الطبيعة من حيث هي هي ويحكم عليها بالمحمول ، وتسمى القضية الطبيعية . و إما أن ينظر إليها من حيث تقع على الكثرة وهي المأخوذة بمعنى الكلي العقلي ، العلامة

(١) الحلبي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٥١ .

(٢) الحلبي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٥٨ .

الحلي يقول عنها ((نحن نسميها القضية العامة ، كقولنا (الإنسان نوع) أو الحيوان جنس)) .

و إما ما ينظر إلى الكثرة من حيث تلك الطبيعة مقوله عليها ، فلا يخلو حينئذ إما ان يحكم على كل الأفراد ، او على بعضها ، او لا تبين كمية الأفراد وان كانت الأفراد ملحوظة ، والقسم الأول هو الكلية : وهي اما موجبة او سالبة والثانية هي الجزئية ، والثالثة هي المهيمنة ، وتنقسمان الى الإيجاب والسلب .
ولكل ما مر : فان على رأي الحلي : سور الموجبة الكلية ((كل)) وسورة السالبة الكلية ((لا شيء)) و ((لا واحد)) ، وسور الموجبة الجزئية (بعض) و ((واحد) وسور السالبة الجزئية ((ليس بعض)) و ((بعض ليس)) و ((ليس كل))

في الإيجاب والسلب والعدل والتحصيل^(١) :

نسبة المحمول الى الموضوع ان كانت نسبة بها الموضوع هو المحمول ، فهي نسبة الإيجاب . وان كانت نسبة بها الموضوع ليس هو المحمول ، فهي نسبة السلب. ولا اعتبار في ايجاب القضية ، وبإيجاب طرفيها ، ولا في السلب بسببهما ، فان قولنا : (اللامى لا عالم)) ، موجبة مع سلب طرفيها ، وقولنا : ((الجماد ليس هو بعالم)) سالبة مع كون طرفاها ثبوتيين
إذا أطلقت المعدولة إنما يراد بها ما يكون حرف السلب فيها جزءاً من المحمول . قد تفسر المعدولة بـ(عدم شيء عن شيء) فسي وقت من شأن الموضوع الاتصاف بذلك الشيء في ذلك الوقت ، فعدم اللحية على هذا عن "الأنتط" (أي غزير الشعر وطويله) ، أيجاب ، وعن المرأة والطفل سلب .

(١) الحلي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٦٥-٦٦ .

القياس الجهوي^(١):

جهة القضية لما حددها الحلّي: أما بسيطة: أي لم يذكر فيها إلا كيفية أحد الطرفين .

وأما مركبة: وهي التي ذكر فيها كيفية الطرفين .
والبسائط ستة:

١- المطلقة العامة: وهي التي إدخالها في الموجهات، كإدخال السالبة في الحملات .

٢- الممكنة العامة: وهي التي حكم فيها برفع الضرورة عن الجانب المخالف للحكم .

٣- الضرورية المطلقة: وهي التي حكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع، أو سلبية مادامت ذات الموضوع موجودة .

٤- المشروطة العامة: وهي التي حكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع، أو سلبية مادام موصوفاً بالعنوان، وهو اعم من الضرورية .

٥- الدائمة المطلقة: وهي: التي حكم فيها بدوام ثبوت المحمول لذات الموضوع أو سلبية مادامت الذات موجودة .

٦- العرفية العامة: وهي التي حكم فيها بانتساب المحمول إلى الموضوع مادام موصوفاً العنوان .

المركبات سبع^(٢):

١- المشروطة الخاصة: وهي التي حكم فيها بضرورة انتساب المحمول إلى الموضوع مادام الوصف العنواني لا دائماً بحسب الذات، وهي مركبة من

(١) الحلّي، الاسرار الخفية....، ص ٧٠ .

(٢) الحلّي، الاسرار الخفية....، ص ٧٣ .

المشروطة العامة الموافقة ، والمطلقة العامة المخالفة ، وهي أخص من المشروطة العامة ، وبينها وبين العرفية العامة عموم من وجه .

٢- العرفية الخاصة : وهي التي حكم فيها بانتساب المحمول إلى الموضوع ما دام الوصف العنواني لا دائماً بحسب الذات ، وهي مركبة من العرفية العامة الموافقة ، والمطلقة المخالفة .

٣- الوقتية : وهي التي حكم فيها بانتساب المحمول إلى الموضوع بالضرورة في وقت معين لا دائماً .

٤- المنتشرة : وهي التي حكم فيها بالانتساب بالضرورة في وقت ما لا دائماً .

٥- الوجودية : اللا دائمة : وهي التي يحكم فيها بالانتساب لا دائماً .

٦- الوجودية اللا ضرورية : وهي التي حكم فيها بالانتساب لا بالضرورة .

٧- الممكنة الخاصة : وهي مركبة من مكنيتين عامتين ، لأنه حكم فيها بسلب الضرورة عن الطرفين معاً ، ويقال : الممكن لهذا باعتبارين على وجه الاشتراك

مقابل القضايا

أو ما يعرف بالتناقض:

وهو اختلاف قضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي الخلاف لذاته صدق أحدهما وكذب الآخر .

ويشترط فيه الاتحاد في الطرفين والزمان والمكان والقوة والفعل والإضافة والشرط الجزء والكل .

في العكس المستوي:

وهو عبارة عن جعل المحكوم عليه محكوماً به ، والمحكوم به محكوماً عليه ، مع الموافقة في الكيف والصدق .

واشتراط حفظ الكيف حصل بالاصطلاح ، واما الصدق فواجب ، ولكن العكس لازماً للاصل ، ووجوب استلزام صدق الملزوم صدق اللازم ، ولا يشترط الموافقة في الكذب، لجواز كون اللازم اعم ، و لانه يكذب (كل حيوان إنسان) مع صدق عكسه (١).

نظرية القياس:

تعريف القياس : عرف العلامة الحلي القياس في علم المنطق بأنه ((قول مؤلف من قضايا متى سلمت لزم عنها لذاتها قول اخر .

ويفسر الحلي هذا فيقول : القول جنس، والتأليف من القضايا ، مميز له عن القضية المستلزمة لما يلزمها من العكسين وغيرهما .

يقول الحلي : ((من قضايا ، ولم نقل من مقدمات، لئلا يلزم الدور ، فان المقدمة قضية جعلت جزء قياس .

ولا يشترط في القضايا أن تكون مسلمة ، بل تكون بحيث متى سلمت لزم عنها قول . واللزوم يشمل البين كالشكل الاول ، وغيره كالبواقي .
وقولنا ((لذاتها)) احتراز عن أمرين :

أحدهما: ما حذف فيه بعض القضايا كقياس المساواة مثل قولنا ((ان مساوي المساوي مساو)) وكقولك : ((فلان يطوف بالليل فهو متلصص)) ، فان الكبرى محذوفة للعلم ، وهي ((وكل من يطوف بالليل فهو متلصص)) .

وثاني الاحترازات : ما يذكر فيه بدل بعض القضايا عكس نقيضها كقولك ((جزء الجوهر يوجب رفعه رفع الجوهر ، وما ليس بجوهر لا يرتفع بارتفاعه

الجوهر)) ينتج ((جزء الجوهر جوهر)) بواسطة عكس نقيض الكبرى .
وقولنا : ((قول آخر)) احتراز عن استلزام مجموع كل قضيتين

لاحداهما .

(١) الحلي، الاسرار الخفية...ص٧٦ فما بعد.

والقول منه مسموع ، ومنه معقول ، وكذلك القياس ، منه معقول - هو الأفكار المؤلفة في النفس من الأقوال العقلية تأليفا يؤدي في النفس الى التصديق بشيء آخر - ومنه مسموع ، وهو القول الملفوظ المؤلف من القضايا المذكورة ، وهو قياسي لا من حيث كونه مسموعاً ، فان التلفظ بالقياس لا يوجب التلفظ بالنتيجة ، بل إنما هو قياس من حيث دلالاته على القياس المعقول ، المستلزم للمطلوب ، فالقول المسموع جنس للقياس المسموع والمعقول للمعقول .

معنى القياس الاستثنائي:

القياس ان اشتمل على نوع المطلوب او نقيضه سمي استثنائياً كقولنا :
 (كلما كان اب ، ف : ج د ، لكن كان اب ، ف : ج د) او (ليس ج د ، فليس
 اب) ، وان لم يكن مشتملاً سمي اقترانياً . . .
 والمتقدمون يجعلون الاقتراني للحمل.

والاستثنائي للشرطي ، فلم يفطنوا يتفقوا للقياسات الاقترانية ، الشرطية ، ولكن الشيخ اظهرها وذكر أنه حصلها^(١) في مدة متطولة .

معنى القياس الاقتراني

العلامة الحلي وجد ان القياسي الاقتراني مركب من مقدمتين :
 إحداهما : مشتملة على موضوع المطلوب او شبهه، وتسمى الصغرى .
 والثانية : تشتمل على محمول المطلوب او شبهه، وتسمى الكبرى، كما
 نقول ((كل إنسان حيوان وكل حيوان جسم)) ، فالإنسان اصغر، لخصوصه،
 الجسم اكبر لعمومه ، والحيوان أوسط .
 ثم استعمل هذا مطرداً في الإيجاب والسلب، ومع العموم والمساواة على
 سبيل المجاز، ويقرر العلامة الحلي بعد هذا . وهذه الثلاثة يطلق عليها اسم الحد .

(١) ابن سينا ، كتاب النجاة ، ص ٣٢ .

والمطلوب يسمه نتيجة ، وتأليف المقدمتين اقترانا ٠٠ وهيئته التأليف شكلا ،
والمنتج قياسا ٠٠

والأشكال تكون أربعة ، لان الأوسط ان كان محمولاً في الصغرى ،
موضوعاً في الكبرى ، فهو الأول ، وهو أبين الأشكال و أشرفها ، لانتاجه
الموجب الكلي والمحصورات الاربع .

وان كان بالعكس فهو الرابع ، واسقطه الاوائل لبعده عن الطبع . وان
كان محمولاً فيهما ، فهو الثاني ، وهو يتبع الاول في انتاجه الشكلي المستعمل في
العلوم . وان كان موضوعاً فيهما فهو الثالث .

هذا وقد تبسط العلامة الحلي في شرح شرائط الأشكال الأربعة في
مضامينها^(١) .

المختلطات:

كما أسهب العلامة في القول في المختلطات فقال : وللشكل شرائط زائدة
على ما ذكرنا ، باعتبار الجهات لا يحصل الإنتاج بدونها .
والتقضايا الموجهة ثلاث عشرة إذا ضربت في نفسها حصل منها مائة
وتسعة وستون ضرباً يسقط منها في كل شكل ما يخرج عن الشرائط
المذكورة . . .

القياس الشرطي:

وقد وجده العلامة الحلي، تتركب من ١- متصلات، ومن ٢- منفصلات،
ومن ٣- خلط منهما، ومن يتركب ٤- احدهما مع الحملات، أي المتصلات مع
الحملات، ومن ٥- والمنفصلات مع الحملات .

(١) العلامة الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ١٢٦ .

فالأقسام خمسة:

القسم الاول: ما يتركب في المتصلتين ، وهو على اقسام ثلاثة ، ذكرها الشيخ بالتفصيل^(١) .

القسم الثاني : ما يتركب من المنفصلات : وهو انواع ثلاثة ، ذكرها الحلبي بالتفصيل^(٢) .

القسم الثالث : ما يتركب من الحملي والمتصل ، وهو على انواع اربعة ذكرها المؤلف بالتفصيل^(٣) .

القسم الرابع : ما يتألف من الحملي والمنفصل وهو على ستة أقسام^(٤) .
القسم الخامس : ما يتألف من المتصل والمنفصل : وهو على أقسام ثلاثة^(٥) .

في القياس الاستثنائي :

يراه العلامة الحلبي مركباً من مقدمتين : إحداهما شرطية ، والاخرى استثنائية وهي: وضع لوضع أو رفع ، أو رفع لوضع أو رفع .
فالشرطية إما متصلة أو منفصلة ...

اما الشرطية المتصلة : فان كانت لزومية وكانت موجبة ، كان استثناء المقدم ينتج عين التالي ، استدلالاً بوجود الملزوم على وجود اللازم، واستثناء نقيض التالي بوجب نقيض المقدم ، استدلالاً بعدم اللازم على عدم الملزوم .

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) الحلبي، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

واما استثناء نقيض المقدم أو عين التالي ، فلا يلزم منه شيء ، لجواز كون اللازم أعم ، ولا يلزم من وجود العام وجود الخاص ، ولا من عدم الخاص عدم العام .

والقدماء سهوا في هذا ، وقالوا ان الملزوم المساوي تجري فيه الاستثناءات الأربع .^(١)

وهذه في الحقيقة ليست متصلة واحدة ، بل متصلتان مقدم أحدهما المقدم ومقدم الآخر التالي .

ثم يقرر العلامة الحلبي بعد الشرح : (إذا كان المقدم في المتصلات مهملًا أو جزئياً - وإن كانت كلية - لم يقع الجزم بالنتيجة كما نقول : (كلما كان آب أو بعض آب ، ف : ج د لكن ا ب) لا يلزم منه ثبوت ج د ، لجواز أن يكون الذي صار ب في هذا الاستثناء غير الذي كان موضوع المقدم في المتصلة ، والسبب فيه ان الاستثناء هاهنا ليس للمقدم جزءاً ، بل لما يحتمل ان يكون المقدم ، فإذا أريد استثناء المقدم جزءاً في هذين ، اتى بقضية كلية موافقة للمقدم في الكيف .

اما المنفصلة : فان كانت حقيقية ، وكانت ذات جزأين ، فان استثناء عين أيهما كان ينتج نقيض الآخر وبالعكس ، وان كانت أكثر ، فاستثناء عين أيهما كان ينتج نقيض الباقي ، واستثناء نقيض أيهما كان ينتج منفصلة حقيقية مركبة من البواقي .

وان كانت مانعة الجمع ، فاستثناء عين أيهما كان ينتج نقيض الباقي ، واستثناء النقيض لا ينتج ، لجواز كونه أعم من عين الباقي .

وان كانت مانعة الخلو ، فاستثناء نقيض أيهما كان ينتج عين الباقي ، واستثناء العين لا ينتج ، لاحتمال عموميته .

(١) الحلبي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٢٠٢ .

في الاقيسة المركبة^(١) :

يقول العلامة الحلي : لا يركب قياس من اقل من مقدمتين ، والا لزم المصادرة على المطلوب الأول ، ولا اكثر من مقدمتين ، لان الثلاثة ان تباينت من جميع الوجوه ، فلا اقتران ، وان بانّت الواحدة اثنتين من جميع الوجوه ، فلا يقترن معهما .

وبعد ان يشرح العلامة هذا القياس المركب ، وكيف ان هذه القياسات المركبة ، هي التي تنتج نتائجها ، وينساق منها الى نتائج آخر ، فتكون تلك النتائج مقدمات لهذه فالنتائج التي هي المقدمات ، قد تكون بان تجعل تارة مقدمة وتارة نتيجة ، وقد تطوى فلا تذكر الا الاخيرة التي هي مركبة من اكبر آخر المقدمات واصغر ولها ، والنتائج لها بالذات هو القياس المؤلف من المقدمة الاخيرة ومشاركتها من النتائج . .

ويذكر العلامة الحلي ايضاً : ان قياس الخلق مركب من قياسين :

احدهما : اقتراني مركب من متصلة وحملية تشارك تالي المتصلة .
والثاني : استثنائي مقدمته الشرطية متصلة ، هي نتيجة القياس الاول ومقدمته الاستثنائية رفع نقيض تالي المتصلة .

ودرس العلامة الحلي عكس القياس فوجده : اخذ نقيض النتيجة او ضدها ، وضمه الى احدى المقدمتين لينتج نقيض المقدمة الاخرى او ضدها ، ويستعمل في الجدل لابطال القياس .

ثم اتم العلامة البحث في القياس فدرس الامور الاتية :

فيما يقال : ان كل ما يصح انتاجه بالاشكال الاربعة ، فهو أبين مما لايبين الا بشكل واحد ، والذي يبين بضروب كثيرة ابين مما لا يبين الا بضرب واحد .

(١) الحلي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٢٠٤ .

ويقول الحلبي أيضاً : ان المطالب العلمية قد تذكر في الكتب مستنتجة عن مقدمات غير مترتبة ترتيباً على هيئة الأشكال، طلباً للاختصار ، بل جعل ذلك موكولاً الى الماهرين في المنطق ، فيؤلفون تلك القياسات على هيئة منتج ، يستنتجون منها النتائج .

ويقول الحلبي : إذا قام القياس على شيء بالذات ، فقد قام على ما يلزمه بالعرض من العكس وعكس النقيض ، وكذب النقيض .

والمنتج للكلي منتج للجزئي ، والمنتج للحمل على كل ألا صغر ، منتج للحمل على كل ما يصدق على الأصغر .

وختم العلامة الحلبي كلامه في القياس في موضوع الاستقراء والتمثيل : فوجد ان الاستقراء منه تام وهو : القياس المقسم وقد بحثه فيما مر من المباحث . ومنه ناقص وهو : الذي يستعمله الدهماء في استدلالهم وهو الاستدلال على الكلي فيما وجد في أكثر جزئياته ، وهو غير تام الدلالة ^(١) .

والفهاء يستعملون اردأ من هذا وهو : الاستدلال بما ثبت في جزئي ، على ثبوته في آخر . ^(٢)

البرهان (٣)

في المقالة الخامسة من منطق كتاب (الاسرار الخفية في العلوم العقلية) درس العلامة الحلبي (البرهان) .

وكان قد درس في المبحث الاول : النظر في المقدمات من جهة ايقاع التصديق ، وهنا وجد العلامة الحلبي : ان القضية اما ان تؤثر تصديقاً اولاً .

(١) الاستقراء الناقص، هو أساس العلة، وليس لأن (الدهماء)، تعتمد، العبيدي، د. حسن مجيد،

املاءات العبيدي، بغداد في ٢٠٠٤/٣/٦

(٢) الحلبي ، الأسرار الخفية...، ص ١٩٤ - ١٩٦ .

(٣) الحلبي، المصدر السابق، ص ١٩٧ فما بعد.

والثاني هو القضايا المخيلة ، فانها تؤثر قبضاً وبسطاً ، ولها نفع عظيم ، ولا يشترط صدقها او كذبها . فان اخذت الحجة على انها ما تؤثر تصديقاً ، لم يكن المؤلف من المخيلات حجة وانما هو قياس شعري ...
والذي يؤثر تصديقاً على اقسام :

الاول : البديهيات :

وهي التي يكفي في الحكم بها تصور طرفيها ، كالحكم بان الكل اعظم من الجزء ، ومثل هذه القضايا لا يستعين العقل فيها بغيره .

الثاني : المشاهدات :

وهي القضايا التي يحكم بها العقل بتوسط القوى الظاهرة : كالحكم بان النار محرقة .

الثالث : المحربات :

وهي قضايا يحكم بها العقل ، لتكرر المشاهدة تكراراً ، أو وقع يقيناً بقياس خفي .

الرابع : الحدسيات :

وهي قضايا حكم بها العقل بواسطة الحدس النفسي ، كالحكم بأن نور القمر مصدره الشمس .

الخامس : المتواترات :

وهي التي حصل الجزم بها لتكرار الشهادات التي يؤمن معها من وقع التواطؤ والاجتماع على الكذب .

السادس : فطرية القياس :

وهي القضايا التي قياساتها معها : كقولك " الأثنان عدد أنقسمت الأربعة إليه وإلى ما يساويه " وهذه الأنواع الستة يطلق عليها اسم الواجب قبولها .

السابع : المشهورات:

وهي قضايا مبدأ التصديق بها عموم الاعتراف ، لمصلحة ، أو رقة ، أو حمية ، أو انفعالات من عادات وشرائع و آداب وغيرها مما هو واجب القول .

الثامن : الوهميات الصرفة :

وهي ، قضايا كاذبة يقضي بها الإنسان لمجرد وهمه .

التاسع: المأخوذات :

فمنها المقبولات ، وهي الآراء المأخوذة عن جماعة يحسن الظن بهم كالنبي والإمام .

العاشر: المطنونات :

وهي القضايا التي لا تبلغ في الاعتقاد بها إلى الجزم

الحادي عشر: المشبهات :

وهي القضايا التي تشبه الأوليات وما معها او المشهورات.

في البرهان وقسيمه

القياس: إما أن يؤثر تصديقاً أو تخيلاً والثاني هو القياس الشعري ، الأول إما أن يكون جازماً أو جازم . والثاني الخطابة . والأول إما أن يعدّ كونه حقاً أو لا يعدّ والثاني الجدل ان اعدّ فيه عموم الاعتراف به ، وكان كذلك . وإن لم يكن كذلك ، فهو الشغب ، والأول اما ان يكون حقاً ، او لا . والأول هو البرهان ، والثاني هو السفسطه وتندرج السفسطة والمشاغبة تحت اسم المغالطة .

الصنائع الخمس^(١) :

وجدها العلامة الحلي واجبة الشرح لانها الصنائع الخمس في المنطق :

(١)الحلي، الاسرار الخفية...، ص ٢٠٠-٢١٦.

١- البرهان:

قياس مؤلف من قضايا واجبة القبول - وهي اليقينيةات -، لإفادة يقيني
قالتصديق بها يكون ضروريا .

٢- الجدل :

وهو اعم من البرهان بحسب المادة والصورة ، ويتألف من المشهورات ،
ومن المأخوذة من تسليم الخصم من جملة التقارير ، وغاية الجدل الإلزام ،
اودفعه لا اليقين .

وقد يقع في الجدل الأصناف الثلاثة من القضايا : الواجب والممكن
والممتنع .

٣- الخطابة :

مقياس مؤلف من المظنونات والمقبولات و المشهورات في بادئ الرأي،
هذا بحسب المواد ، و أما الصورة فيجوز استعمال القياس والاستقراء والتمثيل
فيها .

٤- الشعر :

قياس مؤلف من المخيلات يؤثر تخيلا سواء كانت صادقة أو كاذبة .

٥- المغالطة :

قياس مؤلف من المشبهات ، والوهميات ، وصورتها كذلك، وغايتها
الترويج .

واجمل الحلي ما فصله أعلاه فقال : الحد الأوسط في البرهان علة للحكم
في النتيجة في العقل ، والا فهو غير برهان ، فان كان علة للحكم في الخارج
أيضاً فهو البرهان اللمي ، والا فهو الآني .

ثم ان كان معلولا لوجود الحكم في الخارج فهو الدليل ، والأول أحق باسم البرهان ، فهو مما يقع على أصنافه بالتشكيك .^(١)

في شرائط المقدمات وبيان المطالب^(٢):

المقدمات يجب ان تكون يقينية ، فإن اليقين إنما يستفاد من أمثاله وان تكون أقدم من نتائجها عند العقل ، بمعنى أنها تكون اعرف منها لتكون عللا للتصديق بها، وإلا لم تحصل الأولوية فاستتاج أحدهما من الآخر ، وفي برهان (لم) يجب أن تكون أقدم بحسب الطبع ، ويجب ان تكون المقدمات مناسبة للنتائج، بمعنى أنها تشتمل على محمولات ذاتية لموضوعها .

وهنا يقرر الحلّي أموراً منها:

- المطالب البرهانية لا تشتمل على المقومات ، فان الماهية لا تعلم إلا بعد معرفة اجزائها .
- المطالب البرهانية يستحيل ان تكون جزئية متغيرة .
- أمهات المطالب (هل) و (ما) و (لم) ، ويشتمل كل منها على امرين :
- أما (هل) فمنه بسيط يطلب به نسبته الوجود الى الماهية ، ومنه مركب يطلب به نسبة وجود شيء لها .
- أما (ما) فقد يطلب به نفس الماهية ، ويجاب بأصناف المقول في جواب (ما هو) ، وبالحدود التامة وعند الاضطرار بالرسم .
- و أما (لم) فقد يطلب به العلة في التصديق لا غير، كما يقال (لم كان المبدأ واحداً) وقد يطلب به علة الوجود كما يقال (لم جذب المغناطيس) .
- المطالب الأول من مطلبي (ما) يتأخر عن مطلب (هل) البسيط ، والثاني يتقدم

(١) الحلّي، الاسرار الخفية...، ص ٢١٨-٢٢١

(٢) الحلّي، المصدر السابق، ص ٢٠٦-٢٠٧

- من المطالب الجزئية (كيف) و (إين) و (متى) و (من) ، و (أي) و يستغنى عنها بمطلب (هل) المركب و (ما).

في اجزاء العلوم (١):

وهي ثلاثة :

- ١- (الموضوعات) .
 - ٢- (المبادئ).
 - ٣- (المسائل).
- موضوع علم ما يبحث به عن أعراضه الذاتية كالمقدار للهندسة .
 - الموضوع قد يكون شيئاً واحداً على الإطلاق كالعدد للحساب ، وقد يكون أشياء كثيرة
 - قد يكون موضوع علم اعم من موضوع علم آخر تحقيقاً بان يكون الأعم جنساً كالمقدار الذي هو موضوع الهندسة . وأقسامه ثلاثة .
 - قد لا يكون بين الموضوعات عموم ، وهو على أقسام خمسة .
 - أكثر مبادئ العلوم الجزئية إنما تتبين في العلوم الكلية .
 - يقول العلامة الحلي: المبادئ هي : الحدود والمقدمات ...
 - ثم يفصل القول في ذلك فيقول :

أما الحدود :

- فهي إما لموضوع العلم كقولنا : في الطبيعي : (الجسم هو الجوهر القابل للأبعاد)
- و إما لجزئه : كقولنا : (الهولي جوهر قابل) .
 - و إما لجزئي تحته : كقولنا : (الجسم البسيط هو الذي له طبيعة واحدة) .

(١) الحلي، الاسرار الخفية...، ص ٢١٧.

- و إما لعرض ذاتي : كقولنا : (الحركة كمال أول لما بالقوة من حيث هو بالقوة).

اما المقدمات :

هي التي يبرهن بها على الصناعة ، فمنها ما هو بين كالأوليات وهي : القضايا المتعارفة ، فهي مبادئ مطلقاً . ومنها ما ليس كذلك ، ولكن يجب تسليمه ليبنى عليها ، ومن شأنها البيان في علم آخر ، فهي مبادئ لهذا .
ومسائل فيما تبين فيه . . . فان سلمت مع المسامحة وحسن الظن فهي الاصول، فهي : الاصول الموضوعية . . . والا فهي المصادر . . .
والنوع الأول من المقدمات - وهي الواجب قبولها- يندرج مع الحدود تحت اسم الأوضاع ، وتصدير العلم بالمبادئ أولى كما في الهندسة ، وقد يخلط بالمسائل كما في غيره . . .

ثم يقرر العلامة الحلي بعد هذا التفصيل فيقول ^(١):

- ان تعاون العلوم هو: أن يكون مبدأ أحدهما مسألة للآخر ، وذلك على وجوه ثلاثة، منها . . .
- المسائل هي : المطلوبة في ذلك العلم ، ومحمولاتها عوارض ذاتية للموضوع أو لأنواعه أو لأعراضه .
- نقل البرهان يقال لمعنيين : أحدهما : ان يكون الشيء مأخوذاً في علم ، وبرهانه في آخر . . .
- ثانيهما : أن يكون الشيء مأخوذاً في علم على انه مطلوب ، ثم يبرهن عليه برهان حده الأوسط من علم آخر .

(١) الحلي، الاسرار الخفية...، ص ٢٠٠-٢٠٣.

في مشاركة الحد والبرهان:

وقد بين العلامة الحلي في مبحث (أمهات المطالب) : إن مطلبي (ما) الحقيقي، و(لم) يتأخران عن مطلب (هل) ، والجواب الحقيقي عن (لم) ، هو العلة الذاتية . .

٦- في المغالطات^(١)

سبب الغلط في القياس إما أن يكون لفظياً وإما أن يكون معنوياً.

فالأغلاط اللفظية تنحصر في ستة : لأنها إما أن تتعلق بالألفاظ لام من حيث تركيبها ، وأما تتعلق بها من حيث تركيبها:

١- لا يخلو : إما أن يتعلق بالألفاظ أنفسها وهو أن تكون مختلفة الدلالة ، فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيرها .

٢- المتعلقة بالتركيب تنقسم إلى ما يتعلق الاشتباه فيه بنفس التركيب ، وإلى ما يتعلق بوجوده وعدمه .

٣- المعنوية : وتنحصر أغلاطها في سبعة ، لأن الغلط في المعاني إنما يقع في المؤلفات منها.

٤- المادية : فكما تكون بحيث إذا رتب المعاني فيه على وجه الصدق، لم يكن قياساً، وإذا رتب على الوجه القياس لم يبق صادقاً .

٥- الصورية : فكما تكون على ضرب غير منتج ، ويسمى الجميع سوء التركيب أو سوى التأليف .

٦- أما المتعلقة بالقضية الواحدة ، فما أن تقع فيما يتعلق بجزأي القضية جميعاً، وذلك يكون بوضع أحدهما في مكان الآخر ويسمى إيهام العكس .

(١) الحلي ، الاسرار الخفية، ص ٢٠٦ .

والعلامة الحلي يفصل الأمر في ضوابط كثيرة يستعان بها على حل المضاعفات لا نجد مجالاً هنا لذكرها ، فان الاعتماد في ترتيبها يقع على الفطرة السليمة بعد معرفة القوانين والتدرب باستعمالها ، فهذا ما أردنا إيجازه واختصاره في هذا الفن .

المبحث الثالث

أصالة الفلسفة الطبيعية في فكر الحلي

الفلسفة الطبيعية :

يوم لم تكن هناك علوم كانت فلسفة، وربما ومنذ الآلاف من السنين قد تزيد على ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد^(١) ، يوم تشكل الوعي المنظم في المجتمع ، ولم تكن قد ظهرت - بعد - العلوم المستقلة بالطبيعة ، بل كانت فلسفة الطبيعة لا العلم بالطبيعيات .

كانت فلسفة للمجتمعات، للإنسان بالصيغة التي أملتها طبيعة الحياة ومستوى العلوم ، وكانت الفلسفة الشكل الأول والأساس للمعرفة كنظرية عامة .

ثم ويتطور المعرفة الإنسانية ظهرت العلوم بعناوين مستقلة عن الفلسفة^(٢)، ولكن سلفنا الصالح (رضي الله عنهم) جعلوها فروعاً من الفلسفة وحدوها جزءاً من الطرح الفلسفي، وكانت في زمانهم الفلسفة الطبيعية : (وهي أقرب الأشياء إلينا ، فإنما ندرك الأشياء بحواسنا أولاً) - كما قال العلامة الحلي^(٣) - .

ومن ثم المنطق الذي هو آلة تعصم من الخطأ .

(١) الألويسي ، د . حسام ، الفلسفة والإنسان ، منشورات دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص ١١ .

(٢) الألويسي ، د . حسام ، الفلسفة والعلوم الأخرى ، منشورات بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٩٧ ، ص ٨ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ٢٢٧ .

والنجومية والحسابية والهندسية ، فهي جميعها داخلية (في جملة العلم الفلسفي) الذي هو العلم بحقائق الموجودات المعلولة^(١) .

وكان الكندي يرى أن (علوم الفلسفة ثلاثة ، فأولها العلم الرياضي في التعليم ، وهو أوسطها في الطبع ، والثاني علم الطبيعيات ، وهو أسفلها في الطبع ، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها ، وإنما كانت العلوم ثلاثة لأن المعلومات ثلاثة^(٢) .

وكذا تدريجاً انفصلت العلوم عن الفلسفة لأسباب موضوعية واجتماعية وكذا هي سنة الحياة في التطور .

وأول العلوم التي انفكت عن الفلسفة (الرياضيات) ، وهي من العلوم التميدية ، أي علوم تعليمية ساعدت على استقلالها بنفسها ، بعد أن انضم إليها بشكل أو بآخر علم الفلك ، وما رافقه من القول في قدم مادة العالم ، خلافاً للطرح الاسلامي .

ثم صار علم المنطق ، كتاباً يراسه باعتباره آلة لتحصيل العلم ، ومنبهاً على الأصول التي يحتاج إليها كل من يقتنص المجهول من المعلوم^(٣) .
و"الفلسفة الطبيعية" على ما حددها العلامة الحلي (هي أقرب الأشياء بالنسبة إلينا،

فإننا إنما ندرك الأشياء بحواسنا أولاً ، ثم ننقل منها إلى المعقولات ، إذ كانت نظرتنا لا تفي بإدراك المعقولات إلا بتوسط المحسوسات ، والأشياء المدركة بالحواس إنما هي الأجسام ولواحقها ، فالعلم بها ينبغي أن يتقدم على العلم المتكفل

(١) جابر بن حيان (ت ١٩٧هـ/ ٨١٢م)، رسالة الحدود ضمن المختار من رسائل جابر ، تحقيق بول كراوس ، القاهرة ١٣٥٤ ص ٩٧-١٠٤ .

(٢) الكندي ، رسالة في الحدود والرسوم، ضمن رسائل الكندي الفلسفية ، نشر د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٢ ، ج ١ ص ١٧٠ .

(٣) ابن سينا ، إشارات والتبهيّات ، كتاب المنطق ، ج ١ ص ٥ .

بالبحث عن الأمور المجردة عن المادة^(١) أي هو متقدم على علم ما وراء الطبيعة .

وموضوع فلسفة طبيعية كما حده ابن المطهر الحلي : هو الجسم الطبيعي من حيث يلحقه التغير ، الذي هو اما الحركة وإما السكون في الأجسام الطبيعية^(٢) وكذلك في أفعال الطبيعة التي كانت عندهم قوة او صدوراً أو فيضاً في النفس الكلية للعالم، أو هي صدور عن واجب الوجود لأول العقول حتى آخرها العقل الفعال ، وكان محور البحث بالطبع هو الإنسان ، أو هو هذا العالم الأصغر الذي انطوى عليه العالم الأكبر .

ولا يجد الباحث من حرج في القول : إن سلفنا الصالح من العرب المسلمين (رضي الله عنهم)، قد استعان في أخذ عناصر فلسفتهم الطبيعية من مؤلفات الفلاسفة الإغريق، التي تعامل معها شارحاً ملخصاً مبوباً، ويبدو لي أن أوقليدس وبطليموس وسقراط وجالينوس وأرسطو وحتى الفيثاغوريه الجديدة الأفلوطنية الجديدة^(٣)، ينظرون بنظرة إعجاب ودهشة لهؤلاء العمالقة العرب المسلمين الذين أخرجوا أعمالهم ونظرياتهم إلى النور ليمضي على طريق الحياة المتطور .

لقد كانت الترجمات التي قام بها علماؤنا في صدر الدولة العباسية وعلى الخصوص زمن الخليفة المأمون ، هي الوسيلة التي خدمت الجميع-على حد سواء- فلاسفة الإغريق والمجتمع العربي الإسلامي . في القرن السابع والثامن الهجريين ، كانت الفروع التي يدرسها كتاب فلسفة الطبيعيات تعتمد الثنائيات الكبرى التي شغلت بالهم للدفاع عن الشريعة ، وهي :- مادة وفكر - الله

(١) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ٢٢٧ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ورقة ١٦٧ .

(٣) دي بور ، تاريخ الفلسفة ، ص ١٤١ .

والعالم - النفس والجسم - عالم أرضي وعالم سماوي - كل ذلك من خلال تصور فهمه للمادة ، التي كانت على العموم ساكنة لا تعاني تناقضات داخلية ، وهي غير متصلة بما حولها اتصالاً علياً ، ولا تعاني تطوراً ، وبالتالي وجد الفلاسفة أنفسهم تحت ضغط مثل هذا المفهوم الكوني عن المادة^(١). تدرس هذه الفلسفة الطبيعية في الغالب من خلال ست مقالات ، تكون عادة المقالة الأولى في لوائح الأجسام الطبيعية، ويكون الاعتماد على مباحث . من أهمها: (الجزء الذي لا يتجزأ) و (الحركة) و (المكان) و (الزمان) و (الخلاء) وفي (الآن) . وعادة ما تكون المقالة الثانية : في التالي والمماس والنهاية واللانهاية ، وفي تناهي الأبعاد ، وفي تناهي القوى الجسمانية وفي الجهات .

وعادة ما تكون المقال الثالثة : في تقاسيم الحركة ، والمناسبات الواقعة بين الحركات والأزمنة والمسافات ، والحيز الطبيعي للأجسام وفي الميل وفي اتصال الحركات .

وعادة ما تكون المقالة الرابعة : في السماء والعالم ، تدرس الأجسام البسيطة والفلك وتعطي الدليل على ان العالم واحد . . . وعادة ما تكون المقالة الخامسة في بسائط العناصر ومركباتها . وتكون المقالة السادسة في النفوس وتحديد^(٢)ها .

وقد رجح الباحث أن يقوم العلامة ابن المطهر الحلبي نفسه بعرض الفلسفة الطبيعية كما هي ، وبالصيغة التي ناقشها المفكرون في القرنين السابع والثامن الهجريين .

ولقد اخترنا لهذا الغرض مباحث شغلت أهل ذلك الزمان ، بعد ان قام الباحث بتحقيقها على النسخة الأم بخط مؤلفها ابن المطهر الحلبي من كتاب الحلبي

(١) الالوسي : دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي ، ص ١١ .

(٢) مثلاً على ذلك كتاب ابن المطهر الحلبي ، الأسرار الخفية ، ص ٢٢٧-٤٠٦ .

(الأسرار الخفية في العلوم العقلية) وهو الامر الذي سنقوم بتفصيله في الباب الثاني من هذه الدراسة . فنقول: مفصلين موضوعات هذا الفن على لسان ابن المطهر نفسه .

في الجزء الذي لا يتجزأ

اختلف الناس في تركيب الأجسام وبساطتها، فقال قوم : إنها مركبة من جواهر لا تتجزأ (١٦٨) فعلاً وقرضاً ، وهي متناهية ، وربما زعم آخرون : أنها غير متناهية .

وقال آخرون : أنها مركبة من أجسام صغار لا تقبل القسمة الفعلية، وان قبلت القسمة الفرضية والوهمية، أو الواقعة باختلاف الأعراض وهذا ينسب إلى "ديمقراطيس" . (١)

وذهب جمهور الحكماء: إلى أنه مركب من الهيولي والصورة . وسيأتي البحث عنهما . وقال بعض المتأخرين : أن الجسم بسيط في نفس الأمر، كما هو بسيط عند الحس ، وأن الهيولي عبارة عن الجسم البسيط، و اتفق هؤلاء وجمهور الحكماء على أن الجسم وإن كان غير مؤلف (٢) من أجزاء مقدارية . إلا أنه ينقسم إليها قسمة بغير نهاية .
ولكل قوم حجج قلنأت عليها .

(١) ديمقراطيس او ديمقريطس Democrite - من مؤسسي المدرسة الذرية ، ومن ممثلي المذهب المادي قبل سقراط ، وقد اثر في الفكر الفلسفي الاسلامي ، وكان أحد مصادر الرنيسة إلى جانب أفلاطون وارسطو وأفلوطين ... ذكر القفطي عنه أن له تواليف نقلها المترجمون إلى السريانية وإلى العربية و له رسائل حسنة مهذبة أنظر تأريخ الحكماء ، لبيزج ١٣٢٠ هـ ، ص ١٨٢ ، ويعتمد القفطي على ابن ججل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٣ وحواشيها حيث الإشارة إلى كتاب المل والنحل للشهرستاني وسواه ، كذلك ابن صاعد ، طبقات الأمم ، نشره لويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٢٨ فما بعد - ٣٣ .

(٢) في سن (وإن كان مؤلفاً من أجزاء مقدارية...) وهو اشتباه ، والصحيح ما أثبت في المتن

فنقول: - (١) أما الذاهبون الى تأليف الأجسام من الجواهر الأفراد ، فقد استدلوا
بوجوه :-

أحدها : أن الحركة المنقسمة إلى أجزاء لا تتجزأ ، لأن الزمان كذلك ،
فإن الماضي والمستقبل من الزمان معدومان ، فإن لم يكن للآن وجود ، لزم عدم
الزمان مطلقاً ، والآن غير منقسم ، وإلا لكان بعضه ماضياً وبعضه مستقبلاً .
فلا يكون الآن حاضراً . هذا خلف . فالقدر الموجود من الحركة في الآن أن كان
منقسماً ، انقسم الآن ، وإلا لزم وجود جزء للحركة لا يتجزأ ، ثم بعد الآن
يحصل جزء آخر عقيبهِ ، فالقدر المسلوكة بتلك الحركة أن كان منقسماً انقسمت
الحركة لانقسامه، فإن الحركة إلى نصفه نصف جميع الحركة، فيلزم وجود جزء
لا يتجزأ من المسافة ثم يتلوه جزء آخر إلى أن تنقطع .

الثاني :- النقطة أن كانت جوهرأ فهو المطلوب ، وإن كانت عرضاً
فمحلها إن انقسم انقسمت ، فإن الحال في أحد المحليين لا يجوز أن يكون عين
الحال في المحل الآخر ، اللهم إلا أن يقال إنها حالة في المجموع من دون
الحلول في الأجزاء، لكنه معلوم البطلان .

الثالث :- البسيط المستوى إذا وضع عليه كرة حقيقية لاقته بنقطة ، فإن
الملاقاة بالخط تقتضي تضلع (٢) الكرة ، فإذا دحرجت عليه لاقته بنقطة متتالية ،
فتتركب الكرة والسطح منها ، وربما فرض هذا في طرف تحرك على خط حتى
أنهاه .

الرابع :- إن كل جسم فلا بد له من أجزاء مقدارية ، فإنه متصل ، وكل
متصل فله طرفان ، وتلك الأجزاء إن كانت متناهية فهو المطلوب ، وإن كانت
غير متناهية لزم منه مجالات.

(١) في س (أما الذاهبون إلى تأليف الأجسام)

(٢) زيادة في (س)

أحدها - قطع المسافة المتناهية في زمان غير متناه ، فإن المتحرك لا يقطعها إلا بعد قطع أجزائها ، فلو كانت غير متناهية كانت الأزمنة غير متناهية .
ثانيها - عدم لحوق السريع بالبطيء^(١) . فإن البطيء إذا قطع جزء ثم ابتدأ السريع ، فإذا قطع ذلك الجزء يكون البطيء قد قطع آخر .

ثالثها - عدم حصول المقدار من التأليف ، و إلا فليؤخذ من الكثرة غير المتناهية أجزاء متناهية ، ثم تضم طولاً وعرضاً وعمقاً ، فإن لم يزد مقدارها على مقدار الواحد لزم ما قلنا ، وإن زاد فله نسبة إلى المؤلف مما لا ينتهي ، وهي نسبة متناه إلى متناه في المقادير ، ولكنها هي نسبة الأجزاء ، أعني مالا ينتهي الى ما ينتهي وهو باطل بالضرورة . (١٧٠)

ورابعها - مساواة انقسام الجبل للخرجلة ، وربما جعل هذا الوجه مستنداً برأسه في إبطال مذهب القائل بقبول القسمة غير المتناهية .
والخامس - الاستدلال بالبرهان الذي ذكره إقليدس^(٢) على وجود أصغر الزوايا الحادة فإنه يدل على وجود الجزء^(٣) .

واحتج الفريق القائلون بتركيب الأجسام من الأجزاء التي لا تنتهي ، بأن قالوا :- قد ثبت وجود أجزاء الجسم ، وسيظهر بالبراهين الآتية انقسام الجسم إلى مالا ينتهي ، فإنهم^(٤) أخذوا الشيء الذي ينقسم إليه الجسم ، فجعلوه جزءاً .

(١) في س (تضليع) .

(٢) في س ، أوقليدس .

(٣) إقليدس Euclid ، من رجال القرن الثالث قبل الميلاد (٣٣٠ - ٢٧٠) ، الذين تخصصوا في علوم الرياضة ، جمع (مبادئ الهندسة) ورتبها وعلم بالاسكندرية ولذا يعرف بالمهندس ، تميزا له عن إقليدس الميغاري صاحب المدرسة الميغارية وهذه الحجة موجودة نفسها في ((مباحث)) الرازي ، ج ٢ ، ص ٣١ ، مع رد نفاة الجزء عليها ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، الإيجي ، القاضي عبد الرحمن ، المواقف ، ص ١٨٨ .

(٤) في المطبوع وفي س ، كأنهم .

واعترضوا عن الوجهين الأولين من إلزامات الفريق الثاني^(١) ، بإثبات
الطفرة . وعن الثالث بالتداخل . و ألزموا الفريق الأول^(٢) ، وقوع التفكك في^(٣)
الرحى المتحركة فالتزموه .

والعذران المذكوران باطلان .

أما الطفرة فإنه^(٤) لابد فيها من المرور على الوسط .

و أما التداخل : فإنه يقتضي عدم تألف الأجسام من الأجزاء ، وعلى
تقديره يلزم انقسام الجزء . فإن الجزء حالة الملاقة يماس ما لا يماسه حال
المداخلة .

واحتج "دميقريطس" بأن أجزاء الجسم قد ثبت أنها متناهية ، وسيثبت
بالبرهان أن الجسم قابل لانقسامات غير متناهية بالفرض لا بالفعل ، وأيضاً
فالجسم ينقسم إما إلى "لاشيء" مطلقاً وهو محال ، وإما إلى "النقطة"^(٥) ، وهو
أيضاً محال . وإلا لركب^(٦) منها .

فإن هو منقسم إلى أجسام لا تقبل القسمة فعلاً^(٧) .

واحتج نفاة الجوهر بوجوه :-

الأول - إن الجوهر بين الجوهرين إن لاقاهما بالأسر لزم التداخل
المستلزم للانقسام . وإن كان لا بالأسر ، لزم الانقسام .

الثاني - الخط المركب من ثلاثة جواهر إذا وُضع على طرفيه جزءان
وتحركا تلاقياً على الوسط فانقسم الجميع .

(١) في س ، الفريق الأول .

(٢) في س ، والزم الفريق الأول .

(٣) في س ، من الرحي .

(٤) في س ، محذوفة وفي المطبوع ، فأنه .

(٥) في المطبوع "نقط" .

(٦) في المطبوع وفي س ، لتركب .

(٧) أي إنها أمر علمي لأنها خط .

الثالث - لو ثبت الجوهر^(١) انتفت الحركة و التالى باطل بالضرورة
فالمقدم مثله ، بيان الملازمة إن وصف الجزء^(٢) بالحركة لا يكون وهو حاصل
في المكان المنتقل عنه ولا المنتقل إليه فلا بد من وسط.

الرابع : البئر النازلة^(٣) مائة إذا كان في منتصفها خشبة وعلق فيها
حبلان أحدهما إلى فوق (١٧١) والآخر إلى أسفل ، ثم جذب السفلاني بالفوقاني ،
تحرك مائة مع حركة الفوقاني خمسين ، فإذا تحرك السفلاني جزءاً تحرك
الفوقاني أقل . وهذه عمدة مثبتتي الطفرة.

الخامس : بطوء^(٤) الحركات ليس لتخلل السكنات - على ما يأتي - فيلزم
انقسام الجزء لأنه إذا تحرك السريع جزءاً تحرك البطيء أقل .

السادس : شكل العروس^(٥) ، برهن فيه على مساواة مربعي ضلعي
القائمة لمربع وترها . فإذا كان كل ضلع عشرة كان الوتر جذر مائتين المنكسر .

السابع : المربع المركب من ستة عشر جزءاً متلاقية . إن تلاقت
^(٦)أجزاء قطره ، فالقطر كالضلع وهو باطل بشكل العروس ، وإن تباعدت بما
يسع الجزء^(٧) فالقطر كالضلعين وهو باطل بشكل الحمار^(٨) ، ثم قالوا لأولئك :-

(١) في س ، لو ثبت الجزء .

(٢) في المطبوع ومن ، الجوهر . ومما يجدر ذكره هنا أن الكلمتين كانتا لمسى واحد عند
القديماء ، شرط أن يقال الجزء الذي لا يتجزأ

(٣) في س ، بزيادة كلمة (نزاع) . وهو كذلك في مباحث الرازي ، ج ٢ ، فصل ٣ ،
ص ٢٣ .

(٤) في المطبوع ، بطء .

(٥) العروس وردت أيضاً عند الرازي في المباحث ، دليل ١٥ ، ج ٢ ، ص ٢١ ويراد به
رسم نظرية فيثاغورس كما هو واضح من كلام الحلبي . وربما يقصد بشكل العروس :
المثلث كما واضح من دليل الحلبي السابع ، ودليل الرازي الثاني عشر ، الذي هو دليل
الحلبي السادس . وفيه تكملة لدليل الحلبي هي : وليس للمائتين جذر صحيح فلا بد أن
تتكسر الأجزاء كذلك ، ص ٢٠ .

(٦) في المطبوع ، لاقت .

(٧) في س ، بما يسع للجزء .

(٨) شكل الحمار لا نعرف ما هو ، ولكننا نجد في الرازي ((فحينئذ مقدار القطر سبعة
أجزاء ، وكذلك هو أجزاء الضلعين ، فيكون مساوياً للضلعين هذا خلف)) ج ٢ ، ص ٢١ .
فشكل الحمار إذا هو الشكل الذي يبرهن فيه على استحالة أن يكون القطر كالضلعين أو
دليل الخلف نفسه .

أما ما احتججتم به في الأول من انقسام الزمان إلى الماضي والحاضر والمستقبل فإنه ليس كذلك ، وسيأتي الكلام فيه ، بل الآن طرف للزمان وهي^(١) ليس له تحقق في الخارج ، وانقسام الحركة إنما هو بالفرض ، بل هو شيء واحد متصل فأندفعت حجتكم الأولى.

و أما الثانية فالكلام فيها من وجهين .

أحدهما - أن النقطة أمر عديم لأنها فناء الخط .

والثاني : إن العرض لا تجب مساواته لمحله بحيث يشترك في جميع أجزائه ، فإنه ليس يبين . إن الحال في المجموع حال في أجزاء ذلك المجموع أو في أحدهما .

و أما الثالثة - فالمنع من وجود كرة و سطح متلاقين.

ثم مع التسليم المنع من إمكان حركة الكرة على السطح .

ثم مع التسليم نقول الحركة إنما تكون في زمان ، فالكرة حال الحركة تكون مماسة للسطح في زمان ، و المماس في الزمان بالخط ، و إنما تكون المماس بالنقطة في حال الثبات والسكون ، أو في حالة^(٢) التوهم للآن ، فمسلم أن المماس في الآن إنما تكون بنقطة ، وليس بمسلم^(٣)، إن الكرة تكون مماسة للسطح في آنات متعاقبة حتى تكون مماسة له بنقط متعاقبة، فإن هذا هو أول المسلم^(٤)، بل كما أن الآنات المفروضة إنما تفرض إذا تخللتها أزمنة، كذلك النقط المفروضة إنما تفرض إذا كانت أطرافاً لخطوط فاصلة بين كل نقطتين منها.

(١) في س ، وهو ليس له تحقيق في الخارج.

(٢) في المطبوع و س ، في حال .

(٣) في المطبوع و س ، بدل (وليس بمسلم) ، وممنوع...

(٤) في المطبوع و س ، أول المسلمة.

و أما الحجة الرابعة - فإنها في غاية المنع ، فإنه ليس بمسلم أن الأجزاء المفروضة^(١) الموجودة في المقدار حاصلة فيه بالفعل ، حتى يلزم ما ذكرتم . و أما قولكم يلزم مساواة الجبل للخردلة في الانقسام ، فإنه حق ، لكن الشنيع أن يقال :- أن تلك الأجزاء مساوية لهذه في المقدار ، ونحن لا نقول به .

و أما الخامسة - فإنها مغالطة ، فإن اقليدس برهن على وجود زاوية هي أصغر الزوايا الحوادة ، هي^(٢) التي تكون بين خطين مستقيمين ولا يلزم منه أن تكون تلك أصغر من كل زاوية مفروضة سواء كان خطاها مستقيمين أم غير مستقيمين .

ثم قالوا للفريق الثاني قد بينا بطلان تركيب الجسم من الأجزاء ، فبطل كلامكم بالكلية ، ثم كيف يلزم من قبول الجسم القسمة ، تركيبه مما انقسم إليه ؟ وهذا وارد على "ديمقراطيس" أيضاً في حجته الأولى .

و أما حجته الثانية فساقطة بالكلية ، فإن انقسام الجسم إذا كان غير واقف عند حدٍّ ، لا يلزم ما ذكر ، على أن قوله :- إذا انقسم الجسم إلى أجسام^(٣) تركيب منها ، لا يخلو عن ضعف ، وقد سلف^(٤) بيانه .

ثم إن الشيخ^(٥) نقل منه أن تلك الأجزاء متساوية ومساوية للجميع في

(١) في س ، المفروضية وفي المطبوع "الفرضية".

(٢) في المطبوع وفي س ، من .

(٣) في س ، أقسام .

(٤) في س ، قد سلف ، بسقوط الواو .

(٥) هو الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبو علي الحسين بن عبد الله ، ولد قرب بخارى في شهر صفر من عام ٣٧٠هـ - أب ٩٨٠م ، علم ما رجع ابن خلكان في وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٩١ ، الشهرزوري ، في نزهة الأرواح ، ص ٢٢٤ ، والقفطي في أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٦٩ ، أو في عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م كما ذكره ابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ٢ ، وتوفي سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٤٠م ، كما اجمع عليه . أخذ العلم في بيت أبيه صبياً فذبح مبكراً واشتهر طبيباً وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، فكيان واسع الثقافة وفيلسوف الشرق العظيم ، ألف من الكتب والرسائل ما جاوز ٢٧٦ مؤلفاً ذكرها بإسهاب الأب قنوتاي في كتابه (مؤلفات ابن سينا) . ترجم ابن سينا لنفسه فيما أملاه على تلميذه انجوزجاني في نسخة ليست هي الأصل ، كان هو وأبو نصر الفارابي ممن عناهما الغزالي بكتابه (مقاصد الفلاسفة) و (تهافت الفلاسفة) فقال في مقدمة (التهافت) - فليعلم إننا مقتصرون على رد مذاهبهم بحسب نقل هذين الرجلين ، ص ٩ ، كما وصفه ابن قيم الجوزية بأنه (إمام الملحدين) ، (نقلاً عن الأعلام ج ١ ، ص ٢٥٨) . والحق أن الرجل فيلسوف مسلم .

الطباع ، و إنما تختلف بالأشكال ، ولا شك^(١) في المتساويات تتساوى في القبول . فإذا صح على المنفصلين الاتصال الرافع للأثينية ، صح على المتصلين الانفصال الرافع للوحدة . واعلم أن لنا في بعض كلام هؤلاء نظراً ، فإن قول الفريق الأول - " أن أجزاء الجسم لو كانت غير متناهية كانت المسافة المتناهية مقطوعة في زمان غير متناه ، أن أرادوا به عدم النهاية في المقدار فهو غير مسلم ، وإن أرادوا به عدم النهاية في الأجزاء ، فهو مذهب الخصم . فإن المسافة المتناهية المقدار كما اشتملت على ما لا يتناهي من الأجزاء ، كذلك القدر المقطوع فيه المسافة من الزمان وإن تناهى ، لكنه اشتمل من الأجزاء على ما لا يتناهي ، فكل^(٢) جزء من أجزاء المسافة مقابل لكل جزء من أجزاء الزمان .

وقولهم :- "إن المؤلف من المتناهي له نسبة إلى المؤلف من غير المتناهي ، وهي نسبة الأفراد إلى الأفراد . ممنوع أيضاً ، فإن النسبة إنما يجب أن تكون محفوظة بين المتناهي القدر غير المتناهي الأجزاء وبين المتناهي القدر المتناهي الأجزاء ، لو بقيت أجزاء الأول محفوظة {١٧٣} على ما كانت عليه مرتبة في أمكنة متغايرة حتى يزيد المقدار بزيادتها .

أما على تقدير صحة مذهبهم من التداخل لا تبقى النسبة محفوظة لعدم تغاير الأمكنة المستلزم لعدم زيادة المقدار . فالأولى الاشتغال مع هؤلاء في أبطال التداخل أولاً :- وقول الفريق الثاني في الجواب عن حجة أصحاب الجزء :- وهو أن العرض قد يحل في محل منقسم ، وإن كان غير منقسم فإنه لا يخلو من وهن ، فإن المحل الذي هو منقسم إلى الأجزاء لا يخلو إما أن يكون قد حصل عند اجتماع الأجزاء هيئة مغايرة للأجزاء زائدة عليها^(٣) ، أو لا يكون . فإن كان الثاني ، وجب أن يكون الحال في ذلك المحل حالاً في أجزائه .

(١) في المطبوع " لاشك في أن " .

(٢) في المطبوع و س ، وكل .

(٣) في المطبوع وس ، (وزائدة) وكلمة (عليها) محذوفة من {س} مثبتة في المطبوع .

وان كان قد حصل^(١) عند الاجتماع حياة مغايرة فإما أن تكون منقسمة أو غير منقسمة ، ويعود البحث فيه .

و أما جوابهم عن الحجة الثالثة لأولئك^(٢) :- فانهم قد سلموا فيه أن السطح يلاقي الكرة بالنقطة ، فنقول حينئذ :- تلك النقطة أن كانت جزءاً ثبت المطلوب ، وإن كانت عرضاً ، فكيف يمكن أن يقال :- إن العرض يلاقي الأجسام وهو غير مقدار . فان كل ما يلاقي غيره وكان عرضاً ، فانه لا بد وأن يكون له طرفان ، طرف يلاقي به محله ، وطرف يلاقي به ذلك الجسم الآخر؟ ثم كيف يمكن وجود عرض متوسط بين جسمين ؟ فأذن أن لاقت النقطة غيرها ، وجب أن يكون محلها ملائقاً للسطح ، لكن البرهان الهندسي ، دل على أن الملاقي للبسيط من الكرة شيء غير منقسم ، فثبت الجوهر .

و إنما طولنا في هذه المسألة لكونها من المسائل الشريفة التي تبتني عليها مطالب كثيرة .

في الحركة

إن نقطة^(٣) "الحركة" وإن كانت مشهورة عند الناس ، لكن تعريفها لا يخلو عن^(٤) تعسف، لخفاء حقيقتها^(٥)، وقد حُدّت بحدود مدخولة :-

أحدها :- أن الحركة هي الخروج من القوة إلى الفعل ، على التدرّج أو يسيراً يسيراً، أو "لا دفعة"، وذلك لأن الخروج إلى الفعل قد يكون دفعة كحدوث الصّور والأعراض القارة ، وقد يكون على التدرّج كالحركة .

(١) في المطبوع 'حصلت'.

(٢) في المطبوع و س ، (لأولئك القوم ...) بزيادة كلمة القوم ولا نرى حاجة لهذه الزيادة .

(٣) في المطبوع و س بدأ البحث بقوله (اعلم ان لفظة الحركة ، أي بزيادة كلمة (اعلم)) .

(٤) في المطبوع و س - (من ...) .

(٥) في س ، (لخوا...) .

وهذا التعريف لا يخلو من فساد ، فإن الحصول على التدرج أو الذي يكون يسيراً يسيراً إنما يعرف بعد معرفة الزمان ، وكذلك الدفعة ، إنما تعرف بالحصول الآتي . و الآن لا يعرف إلا بالزمان . ثم الزمان يعرف بأنه مقدار الحركة فيلزم الدور .

وربما اعتذر بعض المتأخرين عن هذا (١٧٤) بأن الحصول "لا دفعة"، ليس هو نفس الزمان ، وإنما هو أمر يلزمه الزمان ، وأخذ لازم الشيء مكان الشيء غلط . وهذا العذر فاسد ، فإن الحصول "لا دفعة" ، وإن كان مغايراً للزمان لكنه لا يمكن تصوره إلا بعد تصور الدفعة التي لا تتصور إلا بأنها^(١) الحصول في آن ، والآن هو طرف الزمان ، والزمان مقدار الحركة ، فلزم الدور بمراتب^(٢) . والمعتذر توهم أن الحصول لا دفعه أخذه السائل نفس الزمان .

الثاني:- كون بين المبدأ الذي منه الحركة ، والمنتهى الذي إليه الحركة بحيث أي أحد يفرض في الوسط لا يكون المتحرك قبله ولا بعده فيه، وهذا التوسط هو صورة الحركة .

وهذا التعريف أكثر اختلافاً من الأول . فإنه قد أخذ فيه القبل والبعد وسائر أقسام القبلية والبعدية الآتي ذكرها. غير مراده هاهنا سوى القبلية والبعدية الزمانية ، فيكون قد أخذ الزمان في تعريف الحركة فكان الإلزام مشتركاً . وأيضاً فإن هذا التعريف قد أخذ فيه "مبدأ الحركة ومنتهى الحركة" ، فقد أخذ في تعريف الحركة نفسها ، وكذلك أخذ "المتحرك" في التعريف ، وهو لا يعرف إلا بالحركة .

وأيضاً المبدأ والمنتهى ليسا بحاصلين للحركة الفلكية إلا بالقوة ، فإن قيدهما بالقوة خرجت الحركات المستقيمة ذوات المبدأ والمنتهى بالفعل .

(١) في المطبوع "لا بالحصول".

(٢) في المطبوع و س ، (بمرتبة) .

وإن أطلقا كان اللفظ مشتركاً إذ القوة لا تخلو عن عدم ، ولا اشتراك معنوي^(١) بين العدم والوجود ، وأخذ الألفاظ المشتركة في الحدود منهى عنه .

الثالث :- أن الحركة كمال أول لما بالقوة من حيث هو بالقوة، فإن الساكن كونه في المكان الثاني بالقوة وحصوله فيه كمال له ، لكنه مسبوق بكمال هو التوجه نحوه . فالتوجه هو الكمال الأول لكن لا مطلقاً ، فإن حصول أحد الكمالين سابق على صاحبه ، يصدق عليه أنه كمال أول لما بالقوة ، فإذا قيد بقولنا :- من حيث هو بالقوة انطبق حينئذ الحد على الحركة .

وهذا فيه خلل أيضاً ، فإن الكمال الأول أرادوا به الكمال السابق والمعنى بالسبق هاهنا السبق الزماني ، فيكون قد أخذوا الزمان في (١٧٥) تعريف الحركة ، على أن تصور الكمال لا يخلو من خفاء .

وللقدماء تعريفات أخر رديئة^(٢) كقولهم ، :- الحركة هي الغيرية، إذ كانت تفيد تغير الحال أو "هي زوال من حال إلى حال" أو "سلوك من قوة إلى فعل" ، فإن المفيد لشيء لا يجب أن يكون نفس ذلك الشيء ، والزوال والسلوك من الألفاظ المرادفة للحركة

سر: - الحركة تطلق على معنيين :

أحدهما: - الأمر المتصل المعقول للمتحرك بين المبدأ والمنتهى.

والثاني: - التوسط بين المبدأ المفروض والنهاية بحيث أي حد يفرض لا يوجد المتحرك قبله ولا بعده فيه.

وهذا التوسط هو صورة الحركة وهو صفة واحدة لا تتغير مادام متحركاً ، بل قد تتغير حدود التوسط ، وليس المتحرك متوسطاً لوجوده في حد دون آخر ، بل لأنه بحيث أي حد نفرضه لا يكون قبله ولا بعده فيه .

(١) في المطبوع س (فلا اشتراك) .

(٢) في المطبوع (دورية).

قال الشيخ :- والأول لا يحصل في الأعيان وإنما حصوله في الذهن ، لأنه لا يحصل ، والمتحرك بين المبدأ والمنتهى ، و إنما يتوهم حصوله ، إذا كان المتحرك عند المنتهى . وهناك يكون هذا المعنى المعقول قد انقطع وعدم ، فليس له ذات قائمة في الأعيان ، وارتسامه في الذهن ، لأن المتحرك له نسبة إلى مكان متروك ، وآخر مطلوب ، فيرتسم في الخيال حصوله في المكان المتروك حال ارتسام الحصول في المكان المطلوب في الحس .

ثم قال : " أن الحركة بمعنى التوسط توجد في آن ، لأن كل آن نفرضه^(١) ويصح^(٢) أن يقال أن المتحرك لم يكن قبله ولا بعده فيه . "

وما يقال من " أن الحركة في زمان " إنما يشيرون بذلك إلى الحركة بالمعنى الأول الذي وجوده في الذهن ، و أما الحركة بهذا المعنى فإن كونها في الزمان لا يعني به مطابقتها للزمان . بل لأنها لا تخلو من قطع ، يكون ذلك القطع مطابقاً للزمان .

وكما أن المسافة مسافة شخصية إنما توجد لها حدود ونقط بالفرض ، كذلك^(٣) هذا الكون المتوسط إنما هو كون شخصي لا توجد له حدود ألا بالفرض التابع فرض حدود المسافة ، فإذا وافى حداً من حدود المسافة الفرضية كون كان ذلك الكون حاصلًا بالفرض ، وكما أن حصول الحدود في المسافة بالفرض لا يخرجها عن الشخصية كذلك الحدود في هذا الكون .

(١) في المطبوع (يفرض).

(٢) بعد هذه العلامة (٢) و أولها (يصح أن يقال...) إلى نهاية العلامة بقوله (ولان الأجسام...) من الصفحات التالية ساقطة من س .

(٣) في المطبوع "هو"...

ولو كانت حدود هذا الكون حاصلة بالفعل (١٧٦) لكان منقسما إلى مالا يتقسم فكان أن حصوله غير أن خروجه ، وبين الاثنين يكون ساكنا^(١) وليس كذلك.

سر:- اختلف الناس في وجودها ، فأقوى شبهة النفاة :- أنها إن كانت موجودة فإما أن تقبل القسمة دائما أو لا . والثاني يلزم منه الجزء الذي لا يتجزأ ، والأول يلزم منه عدم وجود الحركة لأنها حينئذ لا وجود لها في الحال ، وإلا لأنقسم الحال لانقسامها ، والماضي والمستقبل معدومان فالحركة معدومة .

والجواب عنه :- إن الحركة صحيح أنها لا وجود لها في الحال ، ولا يلزم من نفي الوجود الحالي نفي مطلق الوجود ، هذا^(٢) إن قلنا بانقسام الجوهر ، وقولهم: " الماضي والمستقبل معدومان " إن أرادوا به العدم في الحال فهو حق ، وإلا فهو ممنوع .

واعترض صاحب ((المعتبر))^(٣) على الحركة المكانية بأنها إما أن تكون عبارة عن المماساة الأولى، أو عن الثانية، أو عن الزوال عن المماساة الأولى، أو عن مجموع المماسيتين، أو عنهما وعن الزوال . والأولان باطلان ، وإلا لما بقي فرق بين الحركة والسكون . والثالث باطل ، فإن الزوال عدمي والحركة عندكم موجودة .

(١) في المطبوع (سالباً).

(٢) في المطبوع (وهذا).

(٣) هو أبو البركات البغدادي ، هبة الله على بن ملكا ، مات بعد عام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م ، بعد أن عمر كثيرا وقيل أنه بلغ التسعين من العمر ، كان يهوديا ثم أسلم ، وبذكر هنري كوربان ، أن اسمه ورد في نص عبراني تحت اسم نتايل وهو ما يرادف من حيث الأصل اللغوي (هبة الله) في العربية (تاريخ الفلسفة الإسلامية) ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٦٨ . اعتنى بآثاره ودرسه بشكل خاص المستشرق (س. بينيس) ، وكتابه الذي اشتهر به (المعتبر في الحكمة) مطبوع في حيدر آباد سنة ١٣٥٧-١٣٥٨هـ . بثلاث مجلدات ، المنطق ، الطبيعيات ، الإلهيات.

وكذلك مجموع المماسيتين ، فان الأولى مفقودة حال حصول الثانية، فلا تحصل أجزاؤها فلا تكون موجودة وكذلك الرابع^(١).

و أجاب عنه.. أن المماسة الأولى كانت حاصلة أولاً ثم بعد ذلك حصلت المماسة الثانية ، فالمماستان حاصلتان ولا يلزم^(٢) من كونهما حاصلتين ، حصولهما دفعة ، "والحركة مجموع المماسيتين ، وإذا كان مجموع المماسيتين موجوداً وإن كان لا دفعة"^(٣) فالحركة موجودة^(٤). وهذا الجواب لا يخلو من فساد، والحق في الجواب وما سلف من ان الحركة هي التوسط بين المبدأ والمنتهى^(٥).

سر :- تفترق الحركة إلى ستة أمور :-

الأول^(٦)، المتحرك :- وهذا ظاهر، فإنها عرض لا بد لها من محل، ولا يجوز أن يكون بالقوة من كل وجه، وإلا لكان معدوماً ، فكيف تحل فيه الحركة الموجودة ؟ فهو^(٧) لا محال بالفعل، فإن^(٨) كان من كل وجه استحال تحركه أيضاً، لأن الحركة طلب لكمال معدوم ، فيكون المتحرك بالقوة من حيث ذلك الكمال، وعلى فرض بالفعل من كل وجه . هذا خلف . فالمتحرك مشتمل^(٩) على قوة وفعل ، فهو لجسم (١٧٧) تفرض له الحركة، وليست الحركة صورة مقومه له ولا للجسم، لأنها عرض، والجسم لا يتقوم بفرض . ولأنها تعرض لجسم

(١) في المطبوع (الخامس).

(٢) (من..) محذوفة من المطبوع.

(٣) من 'ساقطة من المطبوع'

(٤) المعتبر ، ج ٢ ، حيدر آباد ، الدكن ، ص ٢٥-٣٧.

(٥) في المطبوع لا يخو من نظر ، والحق في ما سلف في ان الحركة هي التوسط بين.

(٦) (الأول) إضافة من وضعنا .

(٧) في المطبوع وهو .

(٨) في المطبوع وان.

(٩) في المطبوع يشتمل.

بالفعل، ولا وجود لجسم عام ، ولأن الحركة لا توجد أنواعها بالفعل، ولا يتنوع ما هو بالفعل ، ولأنها فانية بأجزائها فكيف تقوم ما هو موجود؟ فقد ظهر في هذا فساد ظن أن الحركة هي الطبيعة أعني جوهر الشيء الصوري .

الثاني المحرك: - فإن الحركة أمر موجود حادث لا بد له من سبب ، ولا يجوز أن يكون سببه الجسم من حيث هو وإلا لدامت الحركة بدوامه بل كان كل جزء مفروض من أجزاء الحركة يدوم بدوام الجسم ، مع دوامه لا يوجد معاقبة فلا توجد الحركة .

ولأن^(١) "الأجسام متساوية في الجسمية فهي كلها متحركة" . وكان يجب تشابه حركاتها لأستلزام التساوي في العلل، التساوي في المعلومات. ولأنه إن طلب مكاناً معيناً سكن عنده وإن لم يطلب مكاناً، فلا اختصاص له بجهة من الجهات، فيتحرك إلى الكل أولاً يتحرك .

ولا ينتقض^(٢) بعض هذه بالطبيعة الثابتة، فإن الطبيعة لا تقتضي لذاتها الحركة، والإلزم دوام الحركة ، بل أن لا تحصل حركة أصلاً^(٣) . بل إنما تقتضي الطبيعة الحركة عند خروجها عن الحالة الملائمة إلى الحالة غير الملائمة، ثم هذه غير الملائمة^(٤) يشترك فيها^(٥) الوصول إلى الأيون^(٦) ، التي يصل إليها المتحرك على سبيل القطع والتجدد مما يفصلها الوهم ، وإن كانت المسافة والحركة في الأعيان موصولتين .

(١) بين علامتين ساقطة من س .

(٢) في س ، (ولا ينقض) .

(٣) كلمة (أصلاً) ساقطة من س .

(٤) في س ، (ثم إن الغير ملائمة..) وفي الأصل : ثم الغير الملائمة هذه ، والصحيح ما وضعنا.

(٥) في س يشترك في الوصول .

(٦) الأيون : جمع اين بمعنى المكان وهو من مصطلحات الفلاسفة .

فَعَلَّةُ الحركة أمران :- ثابت هو الطبيعة ، ومتجدد هو الوصول إلى الحثيات والأينيات لغير الملازمة على سبيل التجدد حتى يصل الجسم إلى مكانه الطبيعي. وكذلك القول في النفوس الثابتة أحوالها فإنها لا تقتضي الحركة ما لم تتجدد لها إرادات ودواع^(١) متجددة.

سؤال : جعلت الوصول إلى أقرب المكانين علة للوصول إلى أبعدهما . والعلة حاصلة مع المعلول.

جواب : - هو من العلل المُعدة ، بمعنى أن الطبيعة تقتضي الحصول في المكان الثالث بشرط حصولها في المكان الثاني .

ثم اعلم أن المحرك إن كان داخلاً في الجسم ، فإن حرك بإرادة وكانت {١٧٨} الحركات متفننة فهو القوة الحيوانية ، وإن كانت متفنة^(٢) فهي القوة الفلكية . وإن كان بغير إرادة فإن حرك حركات متفنة فهي^(٣) القوة النباتية وإلا فهي^(٤) الطبيعة ، وقد تطلق الطبيعة على الثالث والرابع ، وقد يجتمع ما يحدث عن الطبيعة والإرادة الحادث بحسب الطباع.

وإن كان خارجاً ، فإن كان مبدأ الحركة من الجسم فهو القاسر وإلا فالحركة عرضية وسيأتي البحث عن هذه الأقسام .

الثالث :- ما فيه الحركة:-

والمعنى به ههنا كون الجوهر يتحرك من نوع مقولة إلى نوع آخر ومن صنف إلى صنف ، وقد حُصر في المشهور في أربع مقولات لا غير .
{المقولة الاولى}^(٥) الكم - وتقع فيه الحركة باعتبارين^(٦) .

(١) كذا في الأصل وفي س (دواعي) .

(٢) بمعنى غير متنوعة .

(٣) في المطبوع و س "فهو" .

(٤) في المطبوع و س "فهو" .

(٥) ليست في للأصل استوجبها المقام .

(٦) في س ، (باعتبار) .

أحدهما - التخلخل والتكاثف.

والثاني - النمو والذبول.

أما الاعتبار الأول : فالدليل عليه ، ما سيأتي من تركيب الجسم من الهولي التي لا تتقدر بذاتها والصورة.

وحاصل كلامهم أن المقدار زائد على الجسم . فنسبة^(١) المقادير إليه على السوية ، فجاز انتقاله من أحد تلك المقادير إلى الآخر .

وهذه الحجة على تقدير تسليم أصولها داله على جواز المعنى الأعم من الحركة، وهو الخروج مطلقاً وليس الخروج التدريجي^(٢) .

وربما احتجوا بالقارورة إذا كبت على الماء بعد المص بداخلها الماء^(٣). مع أنه لا خلاء ثم ، لما يأتي^(٤)، بل لأن الهواء بالمص خرج منه شيء^(٥) ، فاكتسب الباقي مقداراً أكبر ففسراً لضرورة الملاء ، فعند دخول الماء رجع الهواء^(٦) إلى حجمه الطبيعي ، فدخل الماء^(٧) .

وقد يحتجون بالأواني المصدعة^(٨) عند الغليان لزيادة المقدار.

(١) في المطبوع وفي س ، ونسبة .

(٢) ربما فهم بهذا . أن التغير يلحق الجوهر . والحال أنه و أرسطو وابن سينا ...الخ . لا يرون أن هناك علاقة بين التغير الكمي للشيء بالكيف . أي أن التغير لا يلحق الجوهر ، بل يلحق حجمه أو كميّاته ، كما سنوضح بعد قليل .

(٣) في المطبوع وفي س ، (فأنها بداخلها الماء... بزيادة كلمة (فأنها...))

(٤) في المبحث الرابع في الخلاء.

(٥) في المطبوع وفي س ، العبارة بالشكل التالي (وبل لان الهواء خرج منه بالمص شيء)

(٦) في س ، الهواء.

(٧) في س ، جملة (فدخل الماء) محذوفة.

(٨) في س ، بالأواني المتصدعة.

وهاتان الحجتان وإن لزمهما ما ذكرنا على الأولى لكن تضعفان^(١) من حيثية أخرى، وهي عدم البرهان على حصر السبب في ما ذكروه .
و أما الاعتبار الثاني : فإنهم قالوا إذا زاد الجسم باتصال آخر ، وكانت الزيادة مداخلية للأصل دافعة لأجزائه إلى جميع الأقطار^(٢) متشبهة بطبيعة الجسم المدخول فيه فهو النمو وضده الذبول ، ولا شك في أن ههنا حركة مكانية ، أما الحركة التي ذكروها زائدة على المكانية فالكلام عليها كما في الأولى .

المقولة الثانية :- كيف - وأثبتوا الحركة في الانفعالات والانفعاليات منه ، فإن الحار قد يبرد {١٧٩} يسيراً يسيراً وبالعكس .
وأكرر جماعة الاستحالة ، وسيأتي البحث معهم .
وكذلك الحال "والملكة" ، فإن البدن قد ينتقل إلى الصحة على التدريج ، والنفس قد تنتقل إلى العلم يسيراً يسيراً ، وكذلك القول في القوة واللاقوة .
ومنعوا من الحركة في الكيفيات المختصة بالكميات^(٣) .
واعلم أن الذي يمكنهم الاستدلال به على وقوع الحركة فيما ذكروا ، إنما هو^(٤) البناء على الحس ، وأنت تعلم أن الحس قد يحصل فيه الشيء على

(١) كلمة (لكن) ساقطة من س .

(٢) في س ، الجملة (إلى جميع الأقطار على التناسب...) .

(٣) في س ، مشبهة .

(٤) الأين بمعنى المكان . والكلام في الأصل في س ناقص هكذا الآتي وقوع الحركة فيه : انظر ، أرسطو : الطبيعة ، المقالة الخامسة ، الفصل الأول ٢٦٦-٢٦٦ ب ، والكندي مختصراً في كتاب الجواهر الخمسة ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، ومع بعض التفاصيل في ج ٢ ، رسالته في الإبانة من أن طبيعة انفلك . ص ٤٠ فما بعد ، وابن سينا ، النجاة ، ص ١٠٦ .

التدرّيج وإن كان في نفس الأمر بخلاف ذلك ، النطقة المتكونة^(١) حيواناً فجاز العكس .

المقولة الثالثة :- "الأين" : و وقوع الحركة فيه ظاهر ...

المقولة الرابعة :- "الوضع" : وقد ينتقل الجسم من وضع إلى غيره على التدرّيج قطعاً كالحاوي الثابت في مكانه المتحرك في وضعه بالدور ، وانتقال أجزائه لا يوجب انتقاله في المكان ، ولا استبعاد في حركة أجزاء الجسم في الأين ، وحركة جملة الجسم في الوضع .

وأما باقي المقولات فقد منعوا من وقوع الحركة فيها ، أما الجوهر فلأنه غير قابل للشدة وللضعف فلا تكون فيه حركة .

والأولى ممنوعة - وسيأتي البحث فيها - والثانية منتقضة بالكم .

وأيضاً موضوع الصور الجوهرية إلا يقوم^(٢) بالفعل لا بالصورة .

والذات التي لا توجد إلا بالقوة يستحيل أن تتحرك بالفعل، فإن جعل المتحرك^(٣) هو الهيولى فلا بد له من صورة حال الحركة ، فإن كان الجوهر حال الحركة هو الجوهر السابق فليست الحركة في الجوهر ، وإن كان غيره ، فيكون الأول قد فسد وحدث الجوهر المتوسط، ويكون جوهران متميزين^(٤) بالفعل، ويكون الكلام^(٥) في الانتقال إلى الوسط كالكلام^(٦) في الانتقال إلى الطرف ، فإنه إن كان دفعة ، فلا حركة ، وإن كان على التدرّيج، فلا بد من جوهر متوسط .

(١) في المطبوع / المكونة.

(٢) في س ، (يقوم) .

(٣) في س ، العبارة بالشكل التالي (مستحيل بالفعل فإن حصل المتحرك...) .

(٤) في س ، متميزين .

(٥) في س ، فيكون .

(٦) في س ، الوسط.

ولا يلزم على هذا الكلام في الأعراض ، لأن الهيولى مفقورة في قوامها^(١) نوعا بالفعل إلى وجود الصورة ، فيجب أن يكون الجوهر المتوسط بين الجوهرين حاصلًا بالفعل، ولا كذلك العرض المتوسط بين العرضين لاستغناء الموضوع عنه .

واعلم أن هذا الفرق ضعيف^(٢)، لأن الكيفية المتوسطة بين الكيفيتين إن كانت هي الكيفية الأولى {١٨٠} ، فلا حركة في الكيف ، بل عسى أن تكون^(٣) في أمر آخر غير الكيف ، وليس الكلام فيه . وإن كانت غيرها فالانتقال إليها إن كان دفعة فلا حركة^(٤) ، وإن كان على التدريج فثم كيفية متوسطة غير هذه ، وينتقل الكلام إليها.

ولا ينفعهم الاعتذار بأن الكيفيات المتوسطة موجودة بالقوة غير متناهية لأن الذي بالقوة معدوم . فإذن لا متوسط، وهو ينافي الحركة .

وقد يستدل في هذا الموضوع بأن الجوهر لو تحرك من الجوهرية لكان إلى لا جوهرية . والتالي باطل . فإن الجوهر لا يمكن انقلاب عينه ، والسلوك ينتهي إلى شيء غير الذي منه ابتداء الحركة ، فإذا كانت الحركة من نفس الجوهرية، فالانتهاء إلى شيء غير جوهر .

وهذا الاستدلال رديء جداً ، وقد وقع الخلل فيه لوقوع^(٥) الغفلة عن اعتبار الحثيات ، فإن الحركة المتنازع فيها ليست من الجوهر من حيث هو هو

(١) في س ، قوامها .

(٢) قوله ((واعلم) ٩ الى قوله ((وهو ينافي الحركة)) رد على إجازتهم في التغيير على الأعراض، ما لا يجيزونه على الجواهر .

(٣) كلمة (أن) ساقطة من س.

(٤) في المطبوع وفي س ، فلا حركة له.

(٥) في المطبوع " بوقوع".

، بل من جوهر معين هو الصورة المعينة إلى جوهر آخر . وهذا^(١) كما في الكيفيات إذا تحرك الجسم من كيفية إلى أخرى .

وأما "المضاف" فإنه أبداً، عارض للغير ، فإن كان معروضه قابلاً للحركة ، قبلها بتوسط ، كالسخونة والبرودة ، لما قبلتا الزيادة والنقصان ، كان الأسخن والأبرد قابلين لهما وإلا فلا تكون الحركة أولاً بالذات للمعروض، وثانياً وبالعرض للإضافة .

و أما "متى" ، فإن الانتقال فيها يقع دفعة كالانتقال من سنة إلى أخرى ، ولا يقع في زمان ، وإلا لكان لمتى متى آخر ويتسلسل .

و أما "المالك" فإنه لما كان عبارة عن نسبة الجسم باعتبار الشامل له ، كان تبدله إنما هو في السطح الحاوي وفي المكان ، فلا يكون فيه لذاته حركة . والحق أن المالك عبارة عن نسبة الشيء إلى غيره نسبة التملك ، فلا يكون أيضاً فيه^(٢) حركة، بل تقع دفعة.

و أما أن "يفعل" وأن "ينفعل" ، فقد منعوا من الحركة فيهما ، وإن كان قد جوز قوم الحركة فيهما .

واحتج المانعون بأنه لو كان الانتقال من التبريد إلى التسخين على التدريج، لكان لا يخلو. إما أن {١٨١} يكون ذلك والبرد والتبريد^(٣) ، أو عندما ينتهي التبريد، والقسمان باطلان .

(١) كلمة هذا ساقطة من س.

(٢) في س ، فيها وفي المطبوع "منهما" .

(٣) في المطبوع كالتالي: " أما ان يكون ذلك التبريد تبرداً أولاً، او عندما ينتهي الى التسخين..."

أما الأول :- فلأن الانتقال إلى التسخن أخذ من طبيعة السخونة^(١) ، وفي طبيعة التسخن أخذ من طبيعة السخونة^(٢) ، فتكون عندما نقصد الحر نقصد البرد^(٣).

وأما الثاني :- فإنه يكون عند الانتهاء والوقوف على البرد كما سيأتي من^(٤) ثبوت السكون بين الحركات المتضادة .

وأيضاً فإن ذلك الانتقال إن^(٥) كان نفس التسخن فليس بين التبريد والتسخن الا زمان سكون، أو أن . وإن كان انتقالاً إلى التسخن ، فحينئذ لا يخلو: إما أن يكون الانتقال إلى التسخن أخذاً من طبيعة التسخن^(٦) أو لا يكون . فإن لم يكن فليس ذلك استحالة . وإن كان فهناك أخذ من طبيعة السخونة فيكون عند الانتقال إلى التسخن قد وجد التسخن ، إلا أن يفرض التسخن ما هو الغاية^(٧).

واحتج المجوزون بأن الشيء قد ينتقل من أن يفعل ولا ينتقل اليهما^(٨) على التدرج مثل السواد فإنه غاية التمدد . وإيضاً فإن الانفعال قد يكون بطيئاً فيندرج يسيراً يسيراً إلى أن يشتد وبالعكس .

واجاب الشيخ عن الأول : بأن الحركة لا تكون فيهما بل في اكتساب الهيئة والصوره . والتي بها يصح أن يصدر الفعل والانفعال . وعن الثاني: بأن الانتقال يكون في السرعة، وهي كيفية ليست بفعل ولا انفعال .

(١) في المطبوع وفي س ، السخن .

(٢) في المطبوع وفي س ، التسخن .

(٣) العبارة في وفي س كالآتي (فيكون عندما يقصد الحر يقصد البرد) .

(٤) في وفي س ، في .

(٥) كلمة (ان) محذوفة في س .

(٦) في وفي س ، السخونة .

(٧) في المطبوع ارباك في النقل يخالف النسخة الام الذي اثبتناه

(٨) في المطبوع ، و " أن لا يفعل، اليها، وهو خلاف المعنى .

الرابع والخامس^(١) :- ما منه وما إليه ، وتعلقها بهما ظاهر قان حد الحركة :
 "أنها كمال أول يتوصل بها إلى كمال ثان " . وقد يكونان ضدين .
 وقد يكونان بين ضدين لكن أحدهما أقرب من ضد^(٢) والآخر أقرب من
 الآخر .

وقد لا يتضادان ولا يتوسطان المتضادين بل لهما نسبة إلى أمور متضادة .
 أو متقابلة بوجه ماكما في الفلك . وقد يثبت الحصول فيهما زماناً فيحصل^(٣) بين
 الحركتين سكون . وقد لا يثبت إلا أنا كالفلك .
 وقد يكونان بالفعل^(٤) كما في حركات الأجسام المستقيمة الحركة^(٥) . وقد
 يكونان بالقوة كما في الفلك ، فإنه إذا فرضت فيه مبدأ ، كان ذلك حاصلًا بالقوة
 {١٨٢} والفرض

ومبدأ الحركة المستديرة هو بعينه المنتهى ، لكن باعتبارين . وإذا قيس
 المبدأ والنهاية إلى معروضهما أعني الحركة كان قياس التضايف . وإذا قيس
 أحدهما إلى الآخر ، لم يكن قياس التضايف ، فإنه قد يعقل أحدهما^(٦) لا مع الآخر
 بل يكون أحدهما مضاداً للآخر
 السادس :- الزمان وتعلق الحركة به على ما قلناه أولاً .

-
- (١) في المطبوع د و ه على وفق ترقيمه السابق... و يقصد المؤلف به حركة الكون
 والفساد، وقد أخرج أرسطو من مفهوم الحركات الأربعة السابقة ، أعني الحركة في
 الكم والكيف والمكان والوضع .
 (٢) هذا في الأصل ، والأصح : من ضده .
 (٣) في المطبوع وفي س ، (وقد يثبت الضدان فيهما) .
 (٤) أي مأمنه ، واليه ، أي طرفا الحركة : المبدأ والنهاية ، ولذلك فهما فعليان في المتحرك
 بالاستقامة وهو من - الى ، ولكنهما فرضيان في الحركة الدورية ، ان الدائرة ليس فيها
 نقطة هي البداية او النهاية ، وكذلك حركتها
 (٥) ساقطة من س و المطبوع .
 (٦) في الأصل وفي س : أحدهما الا مع الآخر . وما اثبتناه انسب .

سر :- الجسم في حال سكونه له نسبة ثابتة إلى الأمور الثابتة ، وله عدم الحركة ، فالسكون إن أطلق على الأول ، فهو ثبوتي . وإن أطلق على الثاني فهو عدمي . والحكماء جعلوا الأول من مقولة الوضع ، والثاني هو السكون . والمتكلمون جعلوا السكون هو الأول

سر :- السكون يقابل الحركة ، إما مقابلة الضدين ، أو مقابلة العدم والملكة على الخلاف في التفسير .

وقد جعل قوم السكون يقابل الحركة عن المكان .

وآخرون جعلوه مقابلاً للحركة إليه . وآخرون قالوا :- السكون^(١) لا يقابل حركة خاصة وإلا لكان المتحرك يمتنع ساكناً ، لكونه مسلوباً عند^(٢) الحركة يسره ، بل السكون في المكان يقابل الحركة عنه وإليه ، وإذا جعل السكون عدم الحركة لم يكن عدماً مطلقاً بل عدماً مع إمكان الوجود^(٣) . بخلاف عدم القرنين للإنسان ، فله نحو من الوجود وله علة هي علة الوجود ، لكن عند ارتفاعها فأنما سيظهر أن علة العدم هي^(٤) عدم العلة . ويستدعي المحلل استدعاء الأمور الوجودية . فإما^(٥) لما قلنا أنه عدم شيء عن شيء ، فقد جعلنا للعدم محلاً .

واعلم أن السكون لما كان عدم الحركة مما من شأنه أن يتحرك وجب اشتراطه بالزمان ، فإن الجسم في الآن الواحد من حيث هو في آن لا يمكن أن يتحرك فلا يكون ساكناً ولا متحركاً ، ولا استبعاد في خلو الجسم عن هاتين الحالتين . ومثبتو الجزء يحيلون ذلك .

(١) في س ، (إن السكون ...) .

(٢) في المطبوع ، عنه .

(٣) العبارة في س ، كالآتي (بل عدم إمكان الوجود بخلاف ...) .

(٤) كلمة (هي ساقطة من س) .

(٥) في س ، (فانه) ، وفي الاصل ، فاما ، وفي المطبوع ، عما والصحيح ، ما اثبتناه .

في الخلاء

كنا قد نقلنا عن القائلين بأن المكان بُعد ، إن البعد قد يكون خالياً على ما يراه قوم منهم، وقد لا يكون ، فلنذكر الآن حجج الفريقين.

أما النفاة فقالوا :- إن المفسرين للخلاء يختلفون^(١) فيقول بعضهم :-

إنه "لا شيء" محض وهؤلاء لا منازعة معهم ، ويقول آخرون :- إنه بُعد يتقاطع فيه على زوايا قائمة ، وهو غير قائم في مادة ، واحتجوا على بطلان هذا بوجوه .

أحدها :- أن الخلاء لو كان موجوداً لامتعت الحركة والسكون ، فإنهما إنما يكونان بحسب تعيين حيز^(٢) باقتضاء الطبيعة فإذا استوى^(٣) نسبته إلى الجميع، فلا تخصيص^(٤) لأن الخلاء متساو ، والقسري إنما يكون لذى ميل طبيعي على ما يأتي ، ولأن القسري عارض على الأمر الطبيعي ، فهو مسبوق به أو بالسكون ، ولأن الميل القسري إنما يبطله المعاق، ولا معاق في الخلاء.

الثاني :- لو وجد الخلاء لتساوت الحركة مع العائق الحركة الخالية عنه، والتالي باطل فالمقدم مثله ، بيان الملازمة^(٥) ، أنا نفرض الجسم يتحرك مسافة ما في زمان مع الخلاء ويتحرك تلك المسافة بعينها مع ملاقي في ضعف الزمان مرات معدودة ، ثم نفرض ملاء آخر أرق من الملاقي الأول بحيث تكون نسبة معاوقة الملاء الأولى إلى معاوقته^(٦) كنسبة ضعف الزمان الأول إلى زمان الخلاء

(١) في المطبوع وفي س ، مختلفون .

(٢) في المطبوع وفي س ، تغير حيز .

(٣) في س ، والاستوى .

(٤) في المطبوع "فلا يخصص فان".

(٥) في س ، (بيان الملازمة الشرطية ... بزيادة كلمة والشرطية) .

(٦) (إلى) محذوفة من س.

، فيتحرك المتحرك^(١) تلك المسافة مع الملاء الثاني في زمان حركته مع الخلاء .
ولو كانت المقاومة أقل لكانت الحركة مع الملاء أسرع ، وهذا محال. الثالث :-
الخلاء قابل للمساواة والمفاوتة^(٢) ، وكل ما كان كذلك فهو إما كم أو ذو كم ، فإن
كان كما فله هيولى ، فالخلاء حال في الهيولى ، فلا يكون خلاء ، وإن كان ذا كم
فهو جسم ، فالخلاء غير خلاء .

الرابع :- الأبعاد متناهية على ما يأتي فهي مشكّلة والشكل^(٣) إما أن
يحصل للبعد لذاته^(٤) فيكون الجزء والكل متساويين فيه ، أو للفاعل المحرك فلا
بد من مخصص ويعود الكلام ، أو لحال فيه ، ويعود الكلام أيضاً ، أو للمحل ،
فكل^(٥) بعد فله محل ، فالخلاء له محل هو الهيولى ، فليس بخلاء . {١٨٨}

الخامس :- تلازم سطح الأجسام دال على امتناع الخلاء فإن الإناء
الضيّق الرأس إذا كان في أسفله ثقب^(٦) ضيقة وملئ وضم رأسه ، لم ينزل الماء
وإن فتح نزل . والأنبوبة إذا امتص^(٧) أحد طرفيها صعد الماء من الآخر و
انتقالة^(٨) الجسم العظيم بالشيء اليسير إذا حكم اللحم بينهما .
وأما المثبتون :- فقد احتجوا بأمرين :

(١) (التحرك) محذوفة من س .

(٢) في س - والمقاومة .

(٣) في س ، والمشكل .

(٤) في س ، (إما أن يحصل له البعد لذاته...)

(٥) في المطبوع وفي س ، وكل بعد له محل .

(٦) في س . ثقب .

(٧) في س ، امتص .

(٨) في الأصل وس ، وابساله ، وضعنا إمالة اجتهدا وهو انسب .

أحدهما - أن مع الملاء تمتنع^(١) الحركة^(٢) إذ من شرط حصول الجسم في الحيز الثاني خلوة ، والإلزام للتداخل .

والثاني :- السطوح المتلاقية إذا رفع بعضها عن بعض دفعة ، ففي حال الرفع يخلو الوسط لاستحالة الانتقال إليها من^(٣) خارج دفعة.

ثم أجابوا عن حجج النفاة :-

أما عن الأولى :- فلأن مقصد الحركات ليس هو أحد أجزاء الخلاء بل هو القرب من بعض الأجسام دون البعض . وأما مما ذكروه لنفي الحركة القسرية فضعيف جداً، لما يأتي من عدم استلزام الميل القسري الطبيعي، وقولهم "لا معاق مع الخلاء" ممنوع .

أما أولاً - فلأن انتفاء الحركة القسرية ليس لوجود المعاق^(٤) بل لعدم القوة القسرية.

وأما ثانياً :- فلأن الخلاء جاز أن توجد فيه أجزاء مبنوثة^(٥) . تكون عائقة للمتحرك في النفوذ الدائم.

وأما عن الثانية :- فلأن الحركة تستدعي زماناً من حيث هي وتسبب^(٦) المعاقبة زماناً آخر، والقابل للزيادة والنقصان من الزمان بحسب الزيادة والنقصان في المعاقبة، إنما هو الثاني فاندفع المحذور وأيضاً جاز أن لا

(١) في س ، يمتنع الحركة .

(٢) يذكر أرسطو لمعنى الملاء ثلاث حجج قوية ، ذكر منها المصنف واحدة فقط هي الأولى.

(٣) في المطبوع وفي س ، إليه.

(٤) في المطبوع وفي س ، (المعاق)

(٥) في س (ميتوله)

(٦) في المطبوع وفي س ، وبسبب .

توجد مقاومة تكون نسبتها إلى المقاومة الأولى^(١) كنسبة زمان الحركة في الخلاء إلى زمان الحركة في الملاء الرقيق .

وأما عن الثالثة :- فلأن القابل للمساواة والمفاوتة ليس هو الخلاء الموجود بين طرفي الجدار مثلاً بل الجسم الحاصل فيه تقديراً .

على أن القابل للمساواة والمقاومة لا يجب أن يكون حالاً في الهيولى .

وأما عن الرابعة :- فلأن الشكل جاز أن يستند إلى الذات ... {١٨٩} وقولهم الجزء والكل متساويان :

فالجواب عنه إما أولاً :- فالإزامية^(٢) ، فإن الجزء يقتضي التشكل بشكل الكرية ، والكل يقتضي ذلك الشكل بعينه^(٣) ، فإن ادعوا أنه يلزم منه التساوي في المقادير - على ما ذكره الشيخ - فإنه في غاية المنع .

وأما ثانياً :- فلأن الجزء والكل إنما يكون مع القسمة . فحيث لا قسمة فلا جزء ولا كل . وأما عن الخامس :- فلأن هذه العلاقات أمور جزئية جاز أن تستند إلى أسباب آخر غير ما ذكرتموه .

وأجاب النفاة عن حجتى المثبتين : بأن التخلخل والتكاثف الحقيقيين يدفعان ذلك الأول ، والثاني يندفع بمنع ارتفاع أحد السطحين عن الآخر دفعة ، بل متى ارتفع أحدهما صاحبه الآخر ٣١ . واعلم أن بعض هذه الأجوبة لا يخلو عن تعسف .

أما الأول :- فلأن قولهم " طلب الحركة هو الترتيب ، والقرب من بعض الأجسام " لا يخلو من ضعف لأن الكلام في الأجسام المطلوب قربها كالكلام في الأجسام الطالبة^(٤) ، من تحصيل سبب التخصيص .

(١) في س ، محذوف من قوله - إنما هو الثاني ... إلى قوله ونسبتها إلى المقاومة الأولى .

(٢) في س ، (فلترامه) .

(٣) في س ، (ذلك الشيء) .

(٤) في س ، الطالب .

وأما الثاني :- فقد أجاب عنه بعض المحققين بأن الحركة لا تخلو عن حد معين من السرعة والبطء ، ومع فقدانها لا حركة ، فهي لا مع واحد منهما ، غير موجودة ، فكيف تكون مقتضية للزمان المعين ؟

وهذا الكلام ضعيف جداً لأن الحركة وإن كان لا وجود لها دون السرعة والبطء ، لكن إذا اقتضت شيئاً من حيث هي لا يلزم جواز خلوها عن لوازمها ، ولا يلزم دخول تلك اللوازم في المؤثر به .

وأجاب الشيخ عن الكلام الأخير: بأن هذا البرهان لا يفتقر إلى إثبات المقاومة المذكورة لأننا نقول إن زمان هذه الحركة في الخلاء يكون مساوياً لزمان حركته^(١) في مقاومة ما لو كانت موجودة ، وهذه المقدمة قد بينا صدقها ومعناها مقدمة صادقة وهي أن الحركة في (الخلاء فهي حركة)^(٢) في عدم مقاومة ، وأخرى صادقة ، وهي أن الحركة في عدم مقاومة ليست مساوية البتة^(٣) لحركة في مقاومة ما لو كانت موجودة ، فنجعل الوسطى صغرى والأخيرة كبرى ، فتحصل قريبة^(٤) من الأول ((ناتجة لقولنا لاشيء من الحركة في الخلاء بمساويه لحركة في مقاومة ما لو كانت موجودة فيجعلها كبرى للأول الميينة الصدق فتحصل قريبة من الثاني))^(٥) ناتجة لقولنا لاشيء من الحركة في الخلاء بحركة في الخلاء^(٦) . { ١٩٠ }

(١) في س ، حركة .

(٢) بين القوسين محذوفة المطبوع و من س .

(٣) كلمة (البتة) ، محذوفة المطبوع و من س .

(٤) في المطبوع وفي س ، قرينة .

(٥) بين القوسين محذوفة من س .

(٦) أحسن كتاب قديم نسبياً يستوعب حجج مثبتتي الخلاء ونفاته ، كتاب أبو رشيد النيسابوري المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين .

في المكان

قد وقعت المشاجرة في وجود المكان أو لا ، ثم في ما هيته .

أما النفاة فقد احتجوا بحجج :-

الأولى :- أنه لو كان موجوداً لكان إما جوهرأ وإما عرضاً ، والقسمان

باطلان .

أما الأول : فلأنه إن كان متحيزاً ، أو المتمكن حال فيه^(١) ، لزم التداخل

وافتناره إلى مكان لصحة {١٨٣} الانتقال عليه . وإن كان مفارقاً استحال

اختصاص المقارن به ، لعدم الأولوية .

وأيضاً فكيف^(٢) يكون مفارقاً مع وقوع الإشارة الحسية إليه ؟

وأما الثاني :- فلأنه إن قام بالمتمكن كان منتقلاً باننقاله والمكان منتقل

عنه ، ولزم افتقاره إلى المحل في الحلول . وافتقار المحل إليه أيضاً في ذلك

فيأخذ جهة الدور ، وإن قام بغيره وكان ذلك الغير متحيزاً تسلسل . وإن كان غير

متحيز استحال وقوع الإشارة إليه

الثانية - أنه ان كان جسماً لزم ما ذكرنا من المحال ، وأيضاً فليس هو

من بسائط الأجسام ولا مركباتها . وإن كان غير جسم بطل ما يقولونه من

مطابقته للجسم ومساواته له ، فإن مساوي الجسم جسم .

الثالثة - الانتقال إن أوجب إثبات المكان للمنتقل ، فللسطح وللخط

والنقطة مكان ، ومكان النقطة مساو لها ، فكيف تخصصت^(٣) إحدى النقطتين

(١) في المطبوع ، المتمكن ، فيه حال .

(٢) في المطبوع ، كيف .

(٣) في المطبوع وفي س ، يخصص .

بالمكانية دون الأخرى ، ولا^(١) يمكنكم أن تقولوا :- إن كل واحدة مكان للأخرى^(٢).

الرابعة - لو كان النامي في مكان لكان مكانه نامياً بجسمه^(٣) ، فيكون للمكان مكان

واحتج المثبتون بوجود النقلة التي هي مفارقة لغير جوهر وكم وكيف ، فهي إذن لشيء كان الجسم فيه ثم استبدل به^(٤) .

وأيضاً فالتعاقب دال على وجود المكان ، فأنا نرى الجسم يفارق موضعاً ثم نشاهد آخره حاصلاً فيه .

ولأن الفوقية والسفالية معلومة لكل أحد ، وليس يصير الجسم فوقاً باعتبار جوهره أو كنهه أو كيفه ، بل باعتبار حلوله في المكان الأعلى والأسفل . وإثبات المكان قريب من اليين بنفسه ، ولهذا ما يرسخ عند الدهماء ، إثبات كل موجود في مكان ، وإن ما لا مكان له لا وجود له.

ثم أجابوا عن حجج النفاة :-

أما عن الأولى^(٥) :- فلأن المكان عندهم إما عرض هو سطح ، فينقطع التسلسل باعتبار وجود جسم لا مكان له هو المحيط ، وإما بعد قائم لا في مادة ، ولا يلزم وجود كل بعد في بعد .

(١) في المطبوع ، فلا .

(٢) في المطبوع وفي س ، العبارة كالآتي (إن كل واحدة منهما مكان للأخرى)

(٣) في س ، (ناياً)

(٤) كلمة (به) ساقطة في س .

(٥) في س ، الأول .

وأما عن الثانية :- فلأن المساواة إن أخذت على الإطلاق ، فهو على سبيل المجاز ، وإلا فالمقصود منها إما مساواة الظاهر من الجسم^(١) للباطن^(٢) من الحاوي وإما مساواة بعد المحاط لبعد المحيط^(٣) {١٨٤}.

وأما عن الثالثة^(٤) :- فلأن الانتقال قد يكون انتقالاً بالذات ، وقد يكون انتقالاً بالعرض ، وليس المحوج إلى المكان هو مطلق الانتقال ، بل الانتقال^(٥) الذاتي الذي لا يكون على سبيل الاستتباع.

وأما عن الرابعة :- فلأن النامي كما يستبدل الكم كذلك يستبدل المكان ، وإنما كان يجب نماء المكان تبعاً لنمائه لو كان المكان واحداً حالتي النمو والذبول.

سر :- اختلف المتفكرون^(٦) على وجود المكان في ماهيته ، وتحقيق الخلاف أن نقول :- المكان ليس هو نفس الجسم ، بل إما أن يكون جزءاً منه أو خارجاً .

والأول : إما أن يكون هو الهولي أو الصورة^(٧).

والثاني : إما أن يكون مساوياً لأقطار الجسم الثلاث ، أو لا يكون . والأول هو البعد والثاني هو السطح.

والبعد قد يكون فارغاً وقد يكون ممثلناً^(٨) ، والسطح قد يكون أي سطح كان ، وقد يكون هو^(٩) السطح الباطن من الجسم الحاوي ، المماس للسطح الظاهر

(١) ربما كان هناك نقص محذوف عمداً أو نسخاً والصحيح : الظاهرة الجسم المحوي للباطن من الحاوي ، جريا على تعريف أرسطو للمكان ، كما سيورده كاملاً فيما بعد .

(٢) في المطبوع وفي س ، الباطن .

(٣) في المطبوع وفي س ، العبارة كالآتي (وإما مساواة بعد (المكان لبعد الممكن) .

(٤) المطبوع ، الثالث .

(٥) في س ، العبارة كالآتي (اختلف الناس المتقدمون) وهو اشتباه .

(٦) عبارة (بل الانتقال) محذوفة في س .

(٧) في س الجملة (والثاني إما أن الكون جزء منه أو خارجاً والأول إما أن يكون الهولي أو الصورة) مكررة سهواً .

(٨) في س ، مملؤا .

(٩) كلمة هو محذوفة من س .

من الجسم المحوي، وقد صار إلى كل واحد من هذه الاحتمالات قريب .
والأول^(١) منقول عن "أفلاطن" . ويؤول بأن المراد من الهيولى في كلام "أفلاطن"
ها هنا هو البعد .

والأخير هو المنقول عن أرسطو . وأصبح القائلون بالهيولى بأنها قابلة
للتعاقب . والمكان قابل له فالهيولى هي المكان . وأحتج القائلون بالصورة بأن
الصورة حاو ومحدد^(٢) ، والمكان حاو ومحدد ، فالصورة هي المكان . وهذان
المذهبان باطلان .

فإن المشهور في الاصطلاح من أمر المكان :- أنه الذي يتحرك ذو
المكان عنه، ويفارقه بالحركة وتقع الحركة فيه وإليه . ومفارقة^(٣) الشيء لجزئه
غير معقول ، وكذلك وقوع الحركة إلى الهيولى والصورة أو عنهما .
على أن البراهين التي ذكروها عواقر . فإن من شرط إنتاج الشكل
الثاني الاختلاف بالكيف على ما مر في المنطق .
واحتج القائلون بالبعد بوجوه .

أحدها : أن المكان مساو للمتمكن ، والمساوي ليس إلا البعد ، فالمكان هو
البعد. {١٨٥}

الثاني :- التخليل يقتضي جعل المكان هو البعد ، فإننا لو رفعنا^(٤) الأجسام
المحوية في الآناء^(٥) لثبت البعد ، فعلم^(٦) أن تلك الاجسام كانت حاصلة فيه .

(١) المطبوع "قالاول" .

(٢) المطبوع ، بأن الصورة حاوية ومحددة .

(٣) في س ، مفارق .

(٤) في المطبوع وفي س ، لو دفعنا .

(٥) وفي س (الانثات) .

(٦) في س ، فيعلم .

الثالث :- أن المكان لو كان سطحاً لزم حركة الساكن ، والثاني باطل فالمقدم مثله . وبيان الشرطية مايتمثلون به من الحجر الواقف في الماء والطيور الساكن في الهواء .

الرابع :- وصف الناس المكان بالفراغ والامتلاء، مع عدم وصفهم السطح بذلك .

الخامس :- من المعلوم أن كل جسم في مكان، وليس كل جسم في سطح لتناهي الأبعاد فالمكان غير السطح^(١) .

السادس :- النار في حركتها علواً ليست طالبة نهاية الجسم فوقاني ، لعدم ملاقة النهاية سائر أجزائها. فهي إذن طالبة للترتيب في البعد .
والجواب عن الأول :- أن المساواة إن عني بها المساواة في المقدار، فهو ممنوع. وإن عني بها مطابقة النهاية له ، فهو مسلم، فإن السطح الظاهر من المحوي مساو للباطن من الحاوي .

وعن الثاني :- أن التخليل^(٢) إنما يقتضي وجود الشيء بعد إقامة البرهان عليه ويكون مختلطاً بغيره غير متميز^(٣) عند العقل . فمع التخليل يتميز عما عداه.

على أن رفع المتمكن لا يقتضي إثبات البعد مالم يتوهم نهايات الجسم^(٤) المحيط محفوظة على الوضع الأول ، وعدم دخول شيء آخر فيها ، فلا يجب من رفع المتمكن ثبوت البعد .

وعن الثالث :- أن الطائر والحجر ليسا بمتحركين وإن فارقا السطح المطيف بهما ضرورة ، إن مبدأ الحركة والتغير ليس منهما^(٥) ، فإن أخذت

(١) في س ، (فالمكان هو السطح) .

(٢) في المطبوع وفي س ، (التخليل) .

(٣) كلمة (غير) ساقطة من المطبوع وفي (س)، وصارت العبارة 'متميزاً عن العقل'

(٤) في س (نهايات البعد)

(٥) في المطبوع وفي س (ليس فيهما)

الحركة على معنى أعم من هذا كاتا متحركين وهما غير ساكنين ، إن عني بالسكون محافظة الجسم لمكانه^(١) زماناً ، ولا استبعاد في سلب الحركة والسكون عن هذا كما أنهما يسلبان عن الجسم اذا اخذ وجوده مقيداً بالآن . وأما إن عني بالسكون محافظة الجسم للنسب التي له بالقياس إلى الثابتات فهو ساكن ، ولا مشاحة في مثل هذه المباحث اللفظية .

وعن الرابع :- إن البعد أبعد عند الناس في^(٢) وصفه بالفراغ والامتلاء ، وإنما يصفون الجسم المحيط . ونسبة السطح إلى الجسم المحيط أقرب من نسبة البعد إليه ، ولهذا لو توهموا قيام السطح المحيط بنفسه {١٨٦} مجرداً من جسم يقوم به ، لوصفوه بما وصفوا الجسم .

على أن العبرة هنا ليس فيما يفرضه العامة .

وعن الخامس :- أنه لازم على تقدير وجوب هذه الكلية^(٣) فإن المنازع أن ينازع فيها.

على أن هذه الكلية لو سلمت لتوزع في دلالتها على جعل المكان بعداً فلعله غير البعد والسطح .

وعن السادس :- إن طلب النار ليس بأن يلاقي كل منهما كل جزء من المطلوب ، فإن هذا محال ، بل بأن يلاقي نهايتها نهاية المطلوب ، وحينئذ يندفع الإشكال .

ثم لو سلم أنها غير طالبة للسطح فلم لا تكون طالبة للوضع ؟ ولا يجب استدعاء الوضع البعد .

(١) قوله (زماناً) محذوف من س

(٢) في المطبوع وفي س (من)

(٣) المراد بالكلية : قوله : القائلين بالبعد في حجتهم الخامسة اعلاه ...

واحتج القائلون بالسطح مطلقاً :- بأن البعد باطل والسطح الحاوي يوجب أن تكون^(١) بعض الأجسام غير متمكنة في مكان .

والجواب :- ما مر . على أن هؤلاء يلزمهم أن يكون لبعض الأجسام مكانان وهو فاسد . واحتج القائلون بالسطح الحاوي^(٢) :- بأن الجسم لا بد وأن يحصل في مكان^(٣) ، وذلك إما أن يكون بالمداخلة كما يذهب إليه أصحاب البعد وهو باطل^(٤) أو بالماساة، وهو السطح .

ثم ردوا على أصحاب البعد بأن المكان لو كان بُعداً ، لزم تداخل البعدين وهو بعد^(٥) المكان والمتمكن، وهو محال ، لأن كل مجموع فهو أعظم من آحاده ، وإنما لزم التداخل لأن عند وجود المتمكن إن بقي البعد المنظور^(٦) الذي جعل^(٧) مكاناً، لزم ما قيل وإلا لكان^(٨) المعدوم متمكناً في الموجود أو بالعكس ، وهما محالان .

وأيضاً البعد قابل للحركة وكل قابل للحركة^(٩) فله مكان، فلبعد مكان^(١٠) .
أما الكبرى فظاهرة .

(١) في س (يوجب أن يكون)

(٢) المقصود بهم الأرسطيون : ومنهم أرسطو وابن سينا ومعظم شراح أرسطو من فلاسفة الإسلام ، وشذ عنهم أبو البركات البغدادي حسب علمنا ، هذا ولا تعرف ممثلاً للقائلين بأن المكان هو السطح مطلقاً ، وقد ذكرنا أن مدرسة أفلاطون نرى أن المكان هو البعد أو الهيولى ، وذكرنا مصادر هذه الأقوال فيما تقدم ...

(٣) في س (لا بد وأن يجعل في مكان) ، وفي المطبوع "لا بد أن يكون في مكان"

(٤) في س كلمة (باطل) ساقطة

(٥) المطبوع وفي : "وهما بعدا"

(٦) في س (المفطور)

(٧) في س (جعله)

(٨) في س (والا كان)

(٩) قوله (وكل قابل للحركة) محذوف من س

(١٠) في س (فالبعد وكان)

وأما الصغرى فلأنه لو امتنع منها^(١) لكان الامتناع إما للذات أو لغيرها .
والأول يقتضي امتناع قبول الاجسام ذوات الأبعاد الحركة . والثاني باطل، لأن
ذلك الغير إن كان لازماً نقلنا الكلام إليه ، وإن كان عارضاً جازت مفارقتة،
فافتقر البعد حينئذ إلى مكان .
والأقرب إلى الحق أحد هذين والأخير أقرب .

(١) في المطبوع وفي س / (فيها)

المبحث الرابع

أصالة الفلسفة الإلهية في فكر الحلبي

(ما وراء الطبيعة)

الفلسفة الإلهية:

هي المعارف الحقيقية أو العلوم اليقينية ، الحكمة النظرية ، معرفة أعيان الموجودات^(١) ، هي مطلقاً أزكى العلوم ، وأكمل المعارف ، وأشرف ما ينسب الى الحقيقة واليقين ، وأفضل الأمور المجردة عن المادة^(٢) .

العلم الذي يستدل به على وجوده تعالى ، لا البحث في ذات الله سبحانه .

لان البحث في هذا بديهي ، ومستغنى عن البيان ، فهو والحالة هذه ، علم يبحث عن امور ليست اعراضاً خاصة بالأسباب ، كالكلية والجزئية والوجوب والامكان . بل هو البحث عن مبدأ المبادئ ، ومسبب الأسباب ، وما يجوز عليه من الصفات ، وما لا يجوز^(٣) .

هو العلم بجليل الكلام ، واجب الوجود سبحانه ، الله ، صفاته ، لطفه الإلهي ، القديم ، المحدث ، ونحو ذلك من ألفاظ تدخل تحت جليل الكلام .

(١) ابن سينا ، الاشارات والتبهيات ، ج ٣ ، ص ١ ، الطوسي ، شرح الإشارات ، ج ١ ص ١٠

(٢) ابن المطهر الحلبي ، الاسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٨ ، ص ٢٠٧-٢١٢ ، ص ٤١٠ .

(٣) ابن المطهر الحلبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ، ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد ،

ص ٢ ، ابن المطهر الحلبي ، نهج الحق ، ج ٢ ص ٢٧ ، ابن المطهر الحلبي ، ايضاح

المقاصد ، ص ٢٦ .

ويبحث هذا العلم الشريف ايضاً ، في دقيق الكلام ، الجسم ، والحركة ، والجزء ، والجوهر ، والأعراض ، والإدراك ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة ، ونحو ذلك من هذه المفاهيم ، التي تدخل تحت خيمة دقيق الكلام^(١) .

ومجمل القول ، ان الكلام عن الذات الإلهية ، صار موضوعاً لعلم سمي ما وراء الطبيعة ، سمي (علم الإلهيات) ، سمي (الميتافيزيقيا) ، ونحو ذلك من مصطلحات تعارفوا عليها .

وهو واحد من أقسام وموضوعات وكتب (الفلسفة العربية الإسلامية) ، على وفق تقسيمات كتبهم .

وتتحصل موضوعات هذا العلم كما فصل ذلك الحلبي من خلال أربعة كتب أولها: كتاب المنطق : وموضوعه المعقولات الثانية من جهة التوصل بها الى المجهولات ، والكتاب الثاني : العلم الرياضي، وموضوعه المقدار لا من جهة وجوده ،

والكتاب الثالث: العلم الطبيعي ، وموضوعه الجسم من حيث يلحقه التغير ، لا من جهة وجوده ايضاً .

الكتاب الرابع: وهو كتاب يبحث - في (علم الإلهيات) ، (ما وراء الطبيعة) ، العلم المتكفل بالبحث عن الأمور المجردة عن المادة ولواحقها^(٢) .

وموضوعات هذا العلم كما وجدها الحلبي ليست بديهية الوجود ، ولا تتعلق بالمادة ، فإذن لوجودها بحث خارج عن هذه العلوم ، ولا يجمعها الإ وجود ، فجعل الوجود موضوعاً للعالم الذي تشتمل عليه هذه المسائل وغيرها

(١) هي تقسيمات اعتبارية منها: جليل الكلام ، دقيق الكلام ، ومثلها ، صفات الأجوال ، وصفات الاكرام ، وصفات ثبوتيه ، وصفات سلبية ، الهدف منها الوصول الى ادق الأساليب لدراسة ذات الله تعالى .

(٢) ابن المطهر الحلبي ، الأسرار الخفية من العلوم العقلية ، ص ٤١٠-٤١١ .

من المجردة موضوعاتها عن المواد ، كالواحد والكثير ، والوجوب والامكان وغير ذلك^(١) .

وموضوع هذا العلم أعم من كل موضوع فلا علم أرفع منه^(٢) .

عادة ما يدرس علم ما بعد الطبيعة بعد علم الطبيعة ، وان كان العلم الاخير أشرف من العلم الاول ، فعلم الطبيعيات يبحث عن المادة وعلم ما وراء الطبيعة يبحث عن المجرد عن المادة^(٣) .

وجرت العادة في مباحث هذا العلم (علم الإلهيات) ، الوجود والعدم ، والواجب والممكن ، الممتنع والحق والباطل .

ويبحث أيضاً في الجوهر وخواصه ، وفي الهولي والصورة وتفرعاتهما ، وفي الأعراض و أحكامها ، وفي الكم والكيف والمضاف ، وفي المتقدم من تقاسيم الوجود والمتأخر ، وفي الواحد والكثرة ، وفي الكلي والجزئي ، وفي العلة والمعلول ، وفي الإدراك واللذة والألم ، وفي النبوات ودلائلها ونحو ذلك^(٤) .

ولكن الباحث سيركز القول في إثبات واجب الوجود سبحانه ، ومسألة الخلق وما يتعلق بهذا ، ويتناول موقف الفلاسفة وكيف عالج الحلي شبهاتهم في ضوء طروحاته في كتبه الكلامية والفلسفية ، وعلى الخصوص منهما كتابيه (الأسرار الخفية في العلوم العقلية و(نهاية المرام في علم الكلام) ، وهما في حقيقة الأمر من أهم الكتب في هذا الموضوع في القرنين السابع والثامن الهجريين ، فقد استوعبا الفكر الفلسفي في هذه المرحلة ، وأسساً على مد الجسور التي أوصلت علم الكلام بالفلسفة ، حتى تداخلت الفلسفة في علم الكلام بصيغ

(١) المصدر السابق ، ص ٤١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١١-٤١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٥ .

(٤) الحلي ، المصدر السابق ، ص ٤٣٢ .

جديدة ما كانت معروفة قبل القرن السابع ، مع البناء على الركائز التي أسسها فخر الدين الرازي ووطد مفاهيمها الشيخ الأمدي ، ولكنها على يد العلامة الحلي صارت واضحة على مستويين ، مستوى (تبينة) المفاهيم الفلسفية بربطها بالإشكاليات الكلامية ، ومستوى (بنية) المنظومة الفلسفية التقليدية بصورة تستسخ بنية علم الكلام^(١)، وتلك هي من أهم ما امتازت به الفلسفة العربية الإسلامية، عصر العلامة الحلي .

في اثبات واجب الوجود

والكلام في صفاته وآثاره

١- في اثباته تعالى :

وهو علة العلل ، و أساس المعلومات ، الواجب الاول ، علة جميع الممكنات ، موجود بالضرورة ، فإن كان واجباً ، فهو المطلوب ، وان كان ممكناً ، استند الى مؤثر بالضرورة ، فمؤثره ان كان واجباً فهو المطلوب ، وان كان ممكناً ، لزم التسلسل وانتهاء الى الواجب ، والأول باطل ، والثاني حق ، وهذه الطريقة متينة قوية . على ما يقرر ابن المطهر الحلي والذي جمعت بين يديه خلاصة افكار القرن السابع في توضيح البراهين لإثبات مدبر العالم واجب الوجود ، يستحيل عليه العدم ، أزلي أبدي^(٢) . موجود اول ، واجب الوجود ، وجوده عين ماهيته .

ويذكر الحلي في كتابه (كشف المراد) دليل المتكلمين في اثبات وجوده تعالى وهم الذين سلكوا طريقاً آخر فقالوا: (العالم حادث ، فلا بد له من محدث ،

(١) الجابري ، د ، محمد عابد ، بنية العقل العربي ، ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الاسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥١٩-٥٢٤ ، ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام ، ج ١ ص ١٧ .

قلو كان محدثاً تسلسل ، ودار ، وان كان قديماً ثبت المطلوب ، لان القديم يستلزم الوجود^(١) .

ولا يغفل الحلبي من ذكر ومناقشة دليل الفلاسفة ، وهو ان كل موجود فهو اما واجب الوجود او ممكن الوجود ، وليس ثم غير هذين الضريبين في الوجود ، والحلي اسهب في الرد في كتابه (نهاية المرام ١٠) على كل من أصحاب هذه المذاهب، واستدل على انه تعالى بديهي ، فايد مذهب المحققين ونازع مذاهب القائلين بخلافه ، وعلى الخصوص الذين زعموا انه يعرف بحده ، وان الموجود هو الثابت العين ، وكذلك قول من قال : (الوجود هو الذي يوجب كون ما وصف به موجوداً) ومن قال : الوجود هو الذي ينقسم الى فاعل ومفعول، ومن قال ، وينقسم الى القديم والحادث .

وقد وجد الحلبي ان هذه التعريفات كلها رديئة ، لاستلزام التعريف بها الدور ، او التعريف بالأخفى ، والحق انه غني عن التعريف ، اذ كل عاقل لا يشك انه موجود^(٢) .

واستعان ابن المطهر الحلبي بأدلة أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي فخر الدين ، وسماه (افضل المتأخرين)^(٣) ، واعتمد أربع حجج مفصلة ، كان يذكر الفخر الرازي فيها تعريفات الخصوم ومن ثم يرد عليها بدقة وإمعان .

(١) ابن المطهر الحلبي . نهاية المرام في علم الكلام ، ج ١ ص ١٧-٢٢ ، ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد ، ص ٣-١٥ .

(٢) ابن المطهر الحلبي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥ ، ابن المطهر الحلبي ، كشف المراد ص ١٧٢ ، ابن المطهر الحلبي ، الاسرار الخفية ، ص ٥٢٠ .

(٣) نقرأ ذلك في الاسرار الخفية ص ٤٠٤، ٤٠٢، ٣٢٨، ٣١، ١١، ونقرأ هذافي عشرات الموارد من كتابه نهاية المرام ١٠ ج ٣ ص ٣٩٠، ٣٤٢، ٣٢١، وقال مرة: ذكر فخر الدين في ابطال تعريف الوجود وجهين، الطومني لم يرتض بهما ونحن نقرهما، ص ٢

وهو أن يتأمل المفكر بعامل الوجود المحض ، وجوب الوجود ، والوجود الواجب ، امور درسها الحلبي في كل كتبه . وقد وجد ان القوم قد اختلفوا في هذه المسألة ، فذهبت طائفة الى ان وجوده نفس حقيقته ، وقد وجده الحق .

وقال آخرون الى انه زائد عليها .

وقد ناقش الحلبي من قال : "ان الوجود زائد على الماهية ، زائد على حقيقته" .

مذكرا بالقول: فإنه لو كان زائداً لكان صفة للماهية ، فيفتقر اليها ، فيكون ممكناً ، وكل ممكن له مؤثر، فلوجوده مؤثر - هذا خلف^(١) .

يؤكد ابن المطهر الحلبي في كثير من مباحثه على أصالة الماهية ، وهو من خلال اثباتها يقول: ان الماهية لو كانت هي المؤثر ، كانت الماهية متقدمة بوجودها على وجودها، فتكون الماهية موجودة مرتين ، او يكون الشيء شرط نفسه ، ومتقدماً عليه .

والى جانب هذا وجد الحلبي ان المؤثر فيه لو كان غير الماهية ، كان واجب الوجود مفتقرا الى الغير ، وهذا خلف ايضاً .

وفي رد الشيخ الحلبي على المدعين زيادة الماهية على الوجود ، قال : لو كان الوجود نفس ماهيته لكانت الماهية معلومة للبشر ، كما ان الوجود معلوم .

وقد اجاب الحلبي على مجمل اقوال هؤلاء بقوله : (ان الوجود واقع بالتشكيك يقع على مختلف الماهية ، وتدرج تحته اندراج معروض تحت عارضه، فوجود واجب الوجود الخاص به ليس بمعلوم وهو المقتضي للتجرد ،

(١) ابن المطهر الحلبي ، الاسرار الخفية ، ص ٥٤١ .

وهو المبدأ لغيره ، واما المعلوم في الوجود فليس الا الواقع بالتشكيك ، الذي لا وجود له الا في الذهن ، وليس طبيعة نوعه^(١).

٣- في وحدة واجب الوجود تعالى :

وقد فصل الحلّي هذا الموضوع كثيراً في كتبه ، وفي كتابه "الاسرار الخفية: " ، رد الحجج الرديئة التي وجدها عند البعض من المتكلمين والفلاسفة ، ثم شرح ادلة الشيخ ابن سينا في كتابه (الاشارات) ، وكذلك أفكار أخرى وردت في كتاب الشفاء للشيخ الرئيس ثم لخص هذه الامور باسرار قال فيها:

- (لأنني بالوحدة ههنا معنى وجودياً كما نعني به في قولنا: (متصل واحد) ، بل نعني به انه لا تقع الشركة في ذاته . لكن الحلّي في هذه استدرك فقال :
- على ان لنا في الوحدة الاتصالية وثبوتها في الاعيان نظر :
- وقال الحلّي : لا يمكن ان تكون له اجزاء كمية ، والا لافتقر الى اجزائه العرضية فيكون ممكناً .

وايضاً فالمقدار لابد له من محل ، وهذا محال في واجب الوجود لذاته ، ولا اجزاء ماهية والا لكان مفترقاً اليها ، وكذلك ، لا ينقسم الى ماهية ووجود ، فليس له قسمة بوجه من الوجود ، فهو واحد حقاً من كل جهة ، فلا يكون جوهرًا ، لان الجوهر هو الماهية ، التي اذا وجدت في الاعيان كانت لا في موضوع .

ان كل قديم واجب الوجود ، ويستحيل تصدد العلماء ، والا لفسد الكون ، لان الفاعل لابد يتقدم مفعوله زماناً ، وان الفاعل المختار لا يكون مفعوله معه ، و إلا كان مطبوعاً ، فليس قديماً غير واجب الوجود ، فالعالم حادث بمحادثة وصورته وزمانه بعد ان لم يكن ، واجب الوجوب سبحانه ، ليس مادياً وليس فيه اي نقص او ثنائية او تركيب ، لا يتغير بأي أنواع التغير ، موجود ، مفارق ، أبدي ، أزلي ، فاعل

(١) الحلّي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٢

لا بألة، قادر، عالم، حي، حق، جواد، كريم، غني، مدرك، فعال لما يريد، مبدأ الكل، علم بالجزئي.
نظرية الفيض

عنونها الحلبي عند مناقشته للأفكار التي جاءت بها هذه النظرية بعنوان (الواحد لا يصدر عنه إلا واحد)^(١)، ونظرية الفيض هذه بخطوطها الأولية عرفها المسلمون عند إخوان الصفا^(٢)،

وفي كتب الإسماعيلية^(٣)، وفي بعض كتب مسكويه^(٤) ومنها تهذيب الأخلاق وقعد الفارابي (٣٣٩هـ/٩٥٠م) لها القواعد، ومضى بها ابن سينا (٤٢٨هـ/١٠٣٦م) بعد ذلك أشواطاً.

قال ابن سينا مفسراً لها "ان المبدأ الأول يؤثر في العقول، وهذه تؤثر في النفوس، والنفوس تؤثر في الاجرام السماوية، وهذه تؤثر تحت فلك القمر..."^(٥)

(١) فصل ابن المطهر الحلبي هذه المقالة في كتابه الأسرار الخفية في العلوم العقلية ص ٥٣٢-

٥٥١

(٢) إخوان الصفا وخلان الوفا، جماعة من المفكرين ظهوروا في البصرة في القرن الرابع الهجري، وصفوا أنفسهم (بأنهم عصابة تألفت بال عشرة والصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة)، حاولوا جر الفلسفة إلى الشريعة ليحصل الكمال، عرفت فلسفة هؤلاء من خلال رسائلهم الإحدى والخمسين، طبعت الرسائل غير مرة، وحقت، ونشرت على نطاق واسع.

(٣) فرقة من فرق الشيعة، التي توقفت عند اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي توفي زمن أبيه.

(٤) هو أبو علي أحمد بن يعقوب بن مسكويه، كان قريباً من عضد الدولة البويهية، وصاحب خزانته، توفي معمر (٤٢٠هـ/١٠٣٠م) في كتابه (تهذيب الاخلاق) مجمل فلسفته الاخلاقية.

(٥) بن سينا، تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، الرسالة الثانية...

نظرية الفيض هذه ، او نظرية الصدور كما وجدت عند البعض ، وجدها اصحابها على ان واجب الوجود سبحانه ، واحد لا كثرة في ذاته بوجه ، لا يصدر عنه الا واحد ، وعلى وفق ذلك لا يمكن ان تصدر عنه كثرة ، ويجوز ان تضاف إليه صفات كثيرة .

واجب الوجود تعالى ، صدر عنه ، الوجود الثاني بذاته ، حيث لا يصدر عنه الا واحد ، والكثرة إنما تبدأ من هذا الوجود الثاني ، فيتعقل ذاته ، وذاته ويصدر عنه : عقل ونفس وجسم ، ثم يصدر عن هذا العقل عقل ثالث ، هو عقل مدبر الفلك الأقصى ، ويستمر الصدور على هذا النحو ، فعن كل عقل تصدر ثلاثة أشياء : عقل ، ونفس ، وجسم^(١) . هكذا حتى آخر عقول الفيض .

و أخيراً يأتي العقل الفعال ، وعنه تصدر مادة الأشياء الأرضية ، الصور الجنسية والنفوس الإنسانية ، وهو يدبر هذه كلها .

فلسفة الفيض هذه لم تتل الرضى من متقفي الزهاد خاصة وكثير من متكلمي الإسلام، ناهيك عن أهل الفقه والحديث ، ولم يكن العلامة الحلي ، وهو المتكلم والفقيه، والمحدث والأصولي استثناءً من ذلك ، فدرس هذه النظرية في كتب الغزالي وفخر الدين الرازي والآمدي، غير ما جاءته من مصادر الفلسفة السنيوية خاصة ، فأهمل هذه الأفكار أولاً ثم فكك مفاهيمها على وفق ما اكتسره عقله الكبير ، وثقافته الواسعة .

الباحث ومن خلال دراسته لمصادر ثقافة ابن المطهر الحلي ، وجد أن الحلي قد استوعب تماماً أفكار الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م) وعلى الخصوص في هذه المسألة (نظرية الفيض السنوية) ، وعلى أخص مناقشة الغزالي للفيضين : ان

(١) الفارابي ، المصدر السابق ، ص ٣٠-٣٢ .

الله تعالى فاعل العالم على المجاز وليس على الحقيقة وهو الأمر الذي توقف عنده طويلاً^(١).

وفعل الحلي الشيء نفسه في دراسته لهذه المسألة عند أبي البركات البغدادي (٥٤٧هـ/١١٥٢م) وما وجد هذا الفيلسوف بعد ابن رشد في هذه القضية من وهن^(٢).

والحلي اعتمد وبشكل مباشر في دراسته لهذه المسألة على نقد فخر الدين الرازي الذي سماه في عدة موارد (افضل المتأخرين)^(٣)، ونقل عنه الكثير ، كما نقل عن تلميذه الآمدي ، وعلى الخصوص قول الآمدي (علة الواحدة يجوز أن يصدر عنها أكثر من معلول واحد)^(٤)، مفنداً قولهم (الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد) - الذي سنأتي على شرحه - مع أنهم يناقضون قولهم (في الفلك الواحد هيولي وصورة جسمية وصورة نوعية ، وان إسناد هذه إلى علة واحدة إبطال لقولهم ذلك)^(٥).

والحلي يسأل ؟ كما تسأل قبله فخر الدين الرازي : لم لا يجوز أن يكون للعقل تصورات متعاقبة بواسطتها تتغير هذه الحوادث؟^(٦)، أو لم لا يجوز أن يصدر عن كل عقل عقل آخر بأعداد أكثر مما ذكرتم ، ولماذا أسندتم جميع ما

(١) أبو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، نشر أبو الفيض ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

(٢) أبو البركات ، المعتبر في الحكمة ، حيدر اباد ، ١٣٥٨ ، ج ٣ ص ١٥٦-١٥٨ .

(٣) منها على سبيل المثال لا الحصر ، نهاية المرام ، ج ٣ ص ٣٣١ .

(٤) الآمدي ، سيف الدين ، غاية المرام في علم الكلام ، تحقيق حسن محمود عبد المطلب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٤-٢٠ .

(٥) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥٤٨-٥٥١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٥٤٩ .

في عالم الكون والفساد الى العقل الفعال؟^(١)، ان هذا يكشف عن عجزكم في تفسير أساس المشكلة ، ونعني بها كيف تصدر الكثرة .

مسألة الصدور أو الفيض : درسها ابن المطهر الحلي باستيعاب في كثير من كتبه : ينقل الحلي عن البعض قولهم : (أن ضدور الشيء عن غيره امر اعتباري يتعدد بتعدد ما إليه الاعتبار ، كما تسلب عن الواحد أمور كثيرة ، وكما يوصف بأمور كثيرة مع ان سلب أحدهما عنه مغاير لسلب الآخر ، واتصافه بأحدهما مغاير لاتصافه بالآخر .

ثم يعرض الحلي الجواب عن هذا القول فيذكر : ان سلب الشيء عن الشيء ، واتصاف الشيء بالشيء لا يتحقق عند شيء واحد لا غير ، فانه لا يلزم الواحد من حيث هو واحد ، بل يستدعي وجود أشياء حتى تلزم تلك الأمور لتلك الأشياء باعتبارات مختلفة .

ثم ينقل الحلي عن الفيضيين قولهم : لا يقال : الصدور لا يتحقق الا بعد تحقق شيء يصدر عنه لانا نقول : الصدور يطلق على معنيين : أحدهما : إضافي يعرض للعلة والمعلول من حيث يكونان معاً . والثاني : كون العلة بحيث يصدر عنها المعلول .

ولكن الحلي في كل هذا يقول (وهذا الجواب لا يخلو من ضعف)^(٢) . ويستمر ابن المطهر الحلي بفهم واضح للقضايا - وبمعرفة نادرة بدقائق الأمور - يناقش يرد ويحاكم ويشرح ويستفهم ، يسأل ويجيب ، بعقريّة غير خافية ، مما يدل على ان هذه المسألة نالت من النقاش المساحة الواسعة .
عند الرازي في كتابه "المباحث المشرقية " تفصيلات في هذا القول .

(١) فخر الدين الرازي ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، ص ١٠٥ ، ١٤٥-١٤٦ ،

الطوسي ، تلخيص المحصل ، حاشية ص ١٤٦ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ٥٠٨-٥٠٩ .

أنهم يقولون : "ان الواحد لا يصدر عنه أمران" لان مفهوم كون أحدهما صادراً عنه مغاير لمفهوم كون الآخر صادراً عنه ، فالمفهومان ان قوامه ، تكثر وان عرضاً له عاد الكلام^(١) .

ويجمل ابن المطهر الحلي هذه المسألة في ضوء طروحات الرازي ، فيقول : (المنقول عن بعض الناس ، استغناء المعلول بعد حدوثه عن علته ، حتى أنها لو عدت ما ضر وجوده ، ويجعلون خاصة الأثر إلى المؤثر إنما هي في حدوثه لا في وجوده ، ويتمثلون في هذا بالابن الباقي بعد الأب ، والبناء الباقي بعد البناء، والسخونة الباقية بعد النار .

ويجد الشيخ الحلي: إن هذا غلط فاحش ، فان المعلول يعد وجوده ممكن ، فلا بد له من مؤثر فيبينوا حاجته إلى المؤثر حالتي حدوثه وبقائه ، فانه يعد الحدث لو كان واجبا لذاته ، لم يكن حادثاً ولا ممكناً^(٢) .

ويرى الشيخ الحلي ان البحث (الواحد لا يصدر عنه إلا واحد) ، ساقط عنا لانا نسندهم الأشياء الكثيرة الى واجب الوجود تعالى من غير توسط امر ما من الامور^(٣) .

ولكن هؤلاء القوم لما اعتقدوا ان الواحد لا يصدر عنه الا الواحد ، وانهم وجدوا في العالم كثرة ، طلبوا لها عللاً كثيرة ، فقالوا : واجب الوجود واحد ، فلا يصدر عنه الا واحد ، والجسم ليس بواحد ، فلا يصدر عنه الجسم ، و أجزاء

(١) تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، ط ١ دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ج ١ ص ٥٨٨

-ابن المطهر الحلي ، إيضاح المقاصد من حكمة عين القواعد ، تصحيح علي تقي منزوي ، طهران ١٣٩٩ ، ص ١١٣ .

-ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ٥٠٨ ، ص ٥٤١ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية ، ص ٥٠٨ ، ص ٥٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

الجسم وان كانت بسائط لكن لا يمكن صدوره عنه ابتداء ، لزم مناقشتهم والوقوف على ارائهم، فأردف قائلاً: ثم ان الهيولي ، لو صدرت عنه ابتداء ، لكانت علة لما بعدها فتكون فاعلة وقابلة معاً .

ثم ان الصورة : مفتقرة في قوامها بالفعل الى الهيولي ، فهي مفتقرة في تأثيرها الى الهيولي ، ولو كانت علة لها لكانت غنية في تأثيرها فيها عنها ، وهو محال .

فالصادر عنه اذن جوهر مفارق الذات والفعل معاً ، وهو العقل^(١) .
ثم اظهر الحلي مطاعن لحجج هؤلاء ، بعد تنفيذها الواحدة تلو الأخرى فقال : الأول (الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد) .

ثم قولهم ثانياً : لو سلم لهم هذا ، أليس الإمكان والوجوب والتعقل عندكم جهات يمكن تكثر المعلولات باعتبارها ؟ فلم لا يجوز ان يكون لواجب الوجود نوع ما من الاعتبار العقلية بسبب تتكرر عنه الآثار؟.

وثالثها : في قولهم : (الجسم ليس بواحد) أو عندهم انه غير مركب من الجواهر الافراد ، فهو واحد ، فجاز صدوره عنه .

ورابعها : في قولهم (الهيولي قابلة فلا تكون فاعلة) ، لو سلمنا لكن القابل لا يكون علة تامة لمقبوله ، ويجوز ان يكون جزء العلة ، او شرطاً او اعتباراً يحصل له تكثر الاعتبار لواجب الوجود ويكون المؤثر هو الواجب^(٢)

وخامسها : في قولهم : (الصورة مفتقرة الى الهيولي فلا تكون علة لها) فان هذا الكلام يناقض مذهبهم ، فان الصورة جزء علة للهيولي ، فكيف جعلوها الآن مفتقرة في التأثير الى الهيولي^(٣)

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

(٢) الحلي، المصدر السابق ، ص ٥٤٢-٥٤٣ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥٤٢-٥٤٣ .

وسادسها: في قولهم : (النفس مفتقرة في التأثير الى البدن) فقد رد عليهم الحلي بقوله: (من مذهبكم ان النفس قد تفعل بغير آلة كما في جانب التعقل فلم لا يجوز ان تكون ههنا فاعلة بذاتها؟^(١) .

وقد رد الحلي قول الفيضيين (لو كانت (النفس) فاعلة لا باعتبار الآلة لكانت عقلاً) وهو امر غير صحيح (لان العقل ليس هو الذي يعقل لا باعتبار الآلة ، بل من خواص العقل هو التمام ، وعدم استقاداته الكمال المتجدد) والنفس على ما وصفتم ليست كذلك ، فجاز ان تكون مفارقة في العقل .

ثم يستكر الحلي على الفيضيين مذهبهم ذاك فهذه الحجة الأخيرة أقوى حججهم ومع هذا وجدنا كيف كان فسادها^(٢) .

واستمر العلامة الحلي في مناقشة هؤلاء القوم ، مستندا الى حصيلة ثرة من أفكار الإعلام الذين سبقوه ، ووقف على استدلالهم بقولهم: (حركة السماء إرادية و الصادر عن إرادة إنما يصدر عن تصور حسي او عقلي ، والحسي أما أن يكون الداعي إليه جذب ملائم وهو الداعي الشهواني ، او رفع منافر وهو الداعي الغضبي ، وهذان الداعيان يختصان بالأجسام المنفصلة القابلة للتغير من حال الملائمة إلى غيرها ، ثم الرجوع إلى الحالة الملائمة ، فتحصل له بسبب ذلك ، اللذة والالام ، والاجسام الفلكية غير قابلة لذلك^(٣) .

وأيضاً الصادر عن الشهوة والغضب ينتاهى ، ولا شيء من الحركات الفلكية بمتناه ، فهي إذن صادرة عن تصور عقلي ، ولا بلد لها من غاية .
وتلك الغاية إما أن تكون محصلة الذات ، أو معدومتها .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٣ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٣-٥٤٤ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

فان كان الثاني وجب ان يتحصل بالحركة ، والا لكان الطلب (لاشيء) وهو محال.

والحاصل من الحركة اما (الآين) أو (الوضع) أو (الكم) أو (الكيف) أو غير ذلك من كمالات الجسم^(١).

ويستمر الحلي في توضيح حجة القوم هذه، ويقف عند الكثير من وقائعه. ثم يبدأ بالرد عليها فيقول: وهذه الحجة سخيفة جداً^(٢).

أما أولاً : فلان الحق أن السماء أن كانت متحركة فهي متحركة بالعناية الإلهية.

و إما ثانياً : فلجواز ان يكون المطلوب من الحركة أمراً غير حاصل ولا يمكن حصوله . قولهم : يكون الطلب بطلب المحال ، قلنا : نعم . فان قالوا : ان تصوراتها حقيقة غير ظنية ولا تخيلية ولا وهمية طالبناهم بالبرهان المتعسر عليهم إقامته جداً .

و أما ثالثاً : فلان المشبه به لو كان هو الفلك العالي أو السافل فسلم قلتم : انه يجب التساوي في الحركة ؟ ولو سلم لكان كذب التالي ممنوعاً . وفي آخر اعتراضات الحلي على هذه الحجة من حجج القوم . قال وهناك اعتراضات آخر كثيرة ظاهرة تركناها لوضوحها^(٣).

ثم يقف الحلي على حجة أخرى للقوم يفصلها ، تمهيداً للرد عليها فيقول : قد يحتج القوم بحجة أخرى ، وهي (ان القوة المحركة للسماء قوة غير متناهية التحريك وان حركة السماء هي المستحفظة للزمان . والقوة الجسمانية متناهية التحريك ، فهي قوة غير جسمانية ، فهي إما نفس او عقل ، والنفس إنما تحرك

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٥-٥٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٩ .

(٣) ابن المطهر الحلي، المصدر نفسه ص ٥٤٧

جسمها لتخرج من القوة الى الفعل في كمالاتها فهي مفتقرة في التحريك الى شيء تكون كمالاتها موجودة بالفعل لتخرج تلك الكمالات النفسية من القوة الى الفعل ، وذلك الشيء هو العقل ، وتحريك النفس تحريك فاعلي، وتحريك العقل تحريك غائي^(١) .

وبعد ان يتم الحلي تثبيت حجة القوم كما هي ، يبدأ بتفكيرك مفاهيمها فيقول : إن هذه الحجة مختلة جداً : ويوضح أسباب اختلالها بفقرات فيقول:
اما أولاً : فلكونها مبنية على أصول فاسدة : من كون الزمان غير متناه ، وفي كون الزمان من لواحق الحركة ، وغير ذلك من الأصول التي تبين فسادها .
و أما ثانياً : فمن أيجابهم كون المحرك غير جسم بناءً منهم على ان القوة الجسمانية متناهية ... وهو خطأ ، لان عليها من واجب الوجود ارادات جزئية غير متناهية التحريك .

وأما ثالثاً : فلانا نقول : العقل إما أن يكون مباشراً للتحريك ، وهو ينافي قواعدهم ، فان لم يكن مباشراً للتحريك ، كان غاية في التحريك ، وبهذا عود إلى حجتهم المتوسطة ، وقد بينا خللها^(٢) .

ثم يتناول الحلي حجة أخرى من حجج القوم ، وبعد أن يضعها بين يدي الكتاب ، بتفاصيلها وشعبها يبادر إلى تفكيرك مفاهيمها ، للرد على هفواتها الواحدة تلو الأخرى . قال الحلي في استدلال القوم : ان الجسم لا يفعل الجسم ، ان للقوم في هذه المسألة حجتين^(٣) ، يفصلهما بالكامل ، ثم يقول : الحجة الاولى :

(١) الحلي ، المصدر السابق ، ص ٥٨٨

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٧-٥٤٩

(٣) ابن المظهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥٤٦ .

قال أهل نظرية الفيض (إن الحاوي لو كان علة للمحوي ، لقارنه و
إمكان وجود المحوي ، المقارن لإمكان (لوجوده) ، المقارن لإمكان (الخلاء)
فيكون الخلاء ممتنعاً بالغير . هذا خلف .

والمقارن للمحوي هو نفي ما يتصور فيه ، فإن المحوي من حيث هؤلاء
لا يتصور إلا مع ذلك النفي ، وذلك النفي لا يتصور إلا مع تصور المحوي من
حيث هو ملاء .

ثم يسرد الحلّي أسئلة المناقشين وأجوبة القوم على الاشتباهات حتّى
يخلص إلى القول : (إن هذا الحجة لا تخلو عن ضعف ، وذلك لأننا نقول :
الممكن المحوي بالنظر إلى الحاوي لا يخرج عن الإمكان ، فإن الإمكان من
الأوصاف اللازمة للممكن ولا تخص بحال دون حال ، وإمكان الكون يقارن إمكان
(لاكون الحادث) المقارن للخلاء .

فإن قالوا : إمكان الحاوي ههنا يمنع إمكان (لاكون المحوي)^(١) .

قلنا: فلم لا يكون الحاوي علة ويمنع إمكان (لاكون المحوي)^(٢) .

وقد يقال هاهنا: إن حركة الجسم المستقيم الحركة ، متقدمة على حركة
الهواء ، فإنه لولا حركة الجسم عن مكانه ، لما تحرك الهواء إلى ذلك المكان ،
فوجوب حركة الهواء متأخرة عن وجوب حركة الجسم .

وفي آخر شرح الحلّي لحجة القوم هذه . قال : وهذا الكلام أشبه
بالخطابة .

ثم أورد الحلّي حجتهم الثانية عن مقولة القوم (الجسم لا يفعل الجسم)

فقال :

(١) ابن المطهر الحلّي، المصدر السابق ، ص ٥٤٦-٥٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٧ .

الحجة الثانية : إن الجسم إنما يفعل بصورته ، لانه إنما يكون موجوداً بالفعل بصورته ولا يمكن ان يفعل بمادته^(١).

و أجاب الحلي عن هذه الحجة : ان الضعف فيها ظاهر ، فان الهيسولي وان كانت بانفرادها بالقوة، لكنها بالفعل مع الصورة ، ولا يلزم ان يكون للصورة مدخل في التأثير .

على ان قولهم : (الصورة انما تفعل بمشاركة الوضع) إنما التجئوا فيه إلى الاستقراء^(٢).

برز الشيخ ابن المطهر الحلي العديد من حجج اهل الصدور ، "أصحاب نظرية الفيض " كما مر بنا موقف الحلي عن بعضها ، ونفضل الوقوف عند حجتهم الرئيسية ، ويلخصها الحلي بقوله: قال أهل نظرية الفيض : قد ثبت أن واجب الوجود واحد ، وان الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فالصادر عنه عقل أول ، ثم يصدر عن ذلك العقل عقل آخر وفلك ، ثم عن ذلك العقل ، عقل آخر وفلك ، إلى ان ينتهي الى العقل الأخير وفلك القمر^(٣).

ويعترض أهل نظرية الفيض هنا على أنفسهم فيتساءلون :

العقل الصادر عن الأول ان كان واحداً ، استحال ان يكون مبدأ للكثرة ، وان كان كثيراً استحال ان يصدر عن الاول .

ويضعون الجواب فيقولون:

الواحد إنما يصدر عنه واحد إذا اتحدت جهة الصدور ، أما إذا تكثرت فلا استبعاد ، ويوضحون هذا فيقولون : ووجه التكثر ههنا ان العقل الاول : له

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٧-٥٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، الأسرار الخفية في العلوم العقلية ، ص ٥٤٨ .

هويه له ماهية تابعة له، في المعقولية وله وجود وهو تابع لها في المعقولية ،
والهوية تابعة له في الوجود ، فان الفاعل لو لم يفعل الوجود لم تكن ماهيته .
وإذا نظر إلى الماهية وجدها بالقياس الى الوجود ، عقل الإمكان ، وإذا
قيست بالنظر الى المبدأ الأول عقل الوجوب بالغير ، وإذا اعتبر الوجود من حيث
انه قائم بذاته ، لزمه ان يكون عاقلاً لذاته ، وإذا اعتبر بالقياس إلى الأول ، لزمه
ان يكون عاقلاً للأول .

فهذه ستة اعتبارات ، وجود ، وهوية ، و إمكان ، ووجوب ، وتعقل
للذات ، وتعقل للمبدأ واسم العقل يتناول هذه الأمور تضمناً والتزاماً .
والمعلول الأول من هذه الجهة واحد .

والهوية و الإمكان يشتركان في انهما حال في ذلك المعلول في ذاته من
حيث كونه بالقوة^(١) .

والوجود والتعقل للذات مشتركان في انهما حالة في ذاته من حيث كونه
بالفعل .

والوجوب والتعقل للمبدأ الأول يشتركان في انهما حالتا المستفاد من
مبدئه .

والأولى والثانية تشتركان في انهما حالة في ذاته ، والثالثة تمتاز عنهما
بأنها بالقياس إلى مبدئه^(٢) .

والحلي لما ارجع الاعتبارات الستة السابقة الى ثلاث حالات ، شرع في
بيان الفرق بين تلك الحالات الثلاث . ثم بعد ذلك قال : هذا الكلام في غاية
الضعف ، فانه يستحيل ان تكون مثل هذه الأمور التي لا تحقق لها أعيان مبادئ
لأمور موجودة . و أوضح بعد ذلك ضعفها و أسبابه .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٨-٥٤٩ .

(٢) ابن المطهر الحلي، المصدر السابق ، ص ٥٤٩ .

وقال وهذا الكلام في غاية الركاقة ، فان الهيولي والصورة جوهران ،
وعندهم لا حركة في الجوهر ، بل ان كانت حركة ففي العوارض^(١) . ثم اردف
بالقول : قولهم (القوى مشتركة فتستند الى مشترك) ضعيف لجواز تعليل
المتساويات بالمختلف على ان قولهم : (الأفلاك تشترك في طبيعة خاصة تقتضي
بواسطتها الحركة المستديرة لا يخلو من ضعف ، فان المقتضي للحركة الخاصة
هو المقتضي لاستدارتها ويستحيل ان يكون لفلك من الأفلاك نفسان إحداهما مشتركة
والأخرى مختصة .

وتناول الشيخ ابن المطهر الحلي حجة أخرى من حجج نظرية الفيض
تقول : (والصورة تفيض من العقل لكن بعد تخصيص للبعض دون البعض ،
مستفاد من استعدادات المواد الحاصلة بسبب التأثيرات السماوية ، أما التوسط
عنصر الماء المسخن بالنار او بغير توسط ، كالماء المسخن من أشعة
الكواكب)^(٢) .

ثم نقل العلامة الحلي عن الشيخ ابن سينا في كتابه الشفاء عن الكندي
الفيلسوف قوله : (ان السبب في الاختلاف القرب والبعد من الفلك ، فان القرب
منه يشتد تسخينه بسبب الحركة فيصير ناراً ، والبعد يشتد برده لبعده عنه فيصير
أرضاً ، والقريب من النار متسخن وهو الهواء ، والبعيد منها وهو الماء)^(٣) .
ويقول الحلي بعد هذا : ان هذا المذهب نسب الى السخافة ، فان هذه
الصورة حينئذ تكون أعراضاً ويكون الوجود لأول جسم مطلق غير متصور
بإحدى الصور .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

(٣) ابن سينا ، كتاب الشفاء و(الالهيات) ، ص ٤١٣ .

ويوضح الحلبي قول ابن سينا ، انه قال : (الأشبه ان يفيض عن المادة المشتركة إما أربعة أجرام ، او عن عدة منحصرة في أربع جمل ، عن كل واحد منها ما ينهيا لصورة جسم بسيط ، فاذا استعدت نالت الصورة من واهبها . ولكن الحلبي وجد في هذا نظر ، فان إفاضة الأفلاك إما ان تكون بالحركة او بدونها .

فعلى التقدير الأول يلزم ان يكون الوجود لجسم غير متصور بصورة نوعية ، ويلزم عليه ما ذكر على الاول .

وعلى التقدير الثاني جاز ان تستند الأعداد إلى العقول لا إلى الأجرام^(١) . ثم عالج الحلبي في آخر مناقشاته لنظرية الفيض ، حجة أخرى فقد نقل عنهم قولهم : (الأمزجة لاتستغني عن القوى السماوية ، فان الشمس تحاذي موضوعاً في الارض، فيضيء ذلك الموضع ويتسخن بسبب الإضاءة فيتصعد ويمتزج مع غيره ، ومع الامتزاج يستعد المركب لحصول نفس نباتية او حيوانية او ناطقة ، فتفيض عليها من واهب الوجود الصور، وعند الناطقة تقف الجواهر، وهي مجردة فانتهى الوجود الى المجرد لما ابتدأ منه .

فأول مراتب الوجود هو الواجب ، ثم يتلوه العقل على الترتيب الى ان ينتهي الى الأخير ثم تتلوه نفوس السماويات ، ثم تتلوه صورها ، ثم صور العناصر ، ثم هيولي الأفلاك ، ثم هيولي العناصر ، ثم تتلو هذه المراتب مراتب الوجود ، فأولها وجود الأجسام البسيطة من الفلك الأعلى الى الأرض ثم تتلوه الأجسام المعدنية، ثم النباتية ثم الحيوانية ، ثم الناطقة^(٢) .

فلم يعلق الحلبي على هذا غير جملة واحدة كانت وافية بالغرض قال : وهذا الكلام شبيه بالخطابة .

(١) ابن المطهر الحلبي ، الأسرار الخفية ، ص ٥٥٠-٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥١ .

ينقل العلامة الحلي في كتابه (نهج الحق وكشف الصدق)^(١)، ان بعض الأشاعرة ذهب إلى أن القدم وصف ثبوتي قائم بذات الله تعالى ، وهو ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه (تلخيص المحصل)^(٢) .

وذكر القاضي عبد الرحمن الأيجي : (انه قديم بنفسه لا بقدم زائد)^(٣)، وذكر الأيجي أيضاً ان عبد الله بن سعيد الكلبي ، قد اثبتّه بدليل وقال : (أن أراد به انه لا اول له سلبى ، او انه صفة لاجلها لا يختص بحيز ، كما فسرّه الشيخ ابو اسحق الاسفرايني (ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م) فذلك ، او غيرهما فالتصوير ثم التقرير)^(٤) .

ويقول الحلي أيضاً: (إن الكرامية ذهبت إلى: ان الحدوث وصف ثبوتي ، قائم بذات الحادث) .

فوجد الشيخ ان (كلا القولين باطل ، لان القديم لو كان موجوداً مغايراً للذات ، لكان اما قديماً او محدثاً .

وان كان قديماً كان له قدم آخر ويتسلسل . وان كان حادثاً كان الشيء موصوفاً بنقيضه ، وكان الله تعالى محلاً للحوادث ، وكان الله تعالى قبل حدوثه ليس بقديم .

واما الحدوث ، فان كان قديماً لزم قدم الحادث الذي هو شرطه ، وكان الشيء موصوفاً بنقيضه ، وان كان حادثاً تسلسل .

(١) ابن المطهر الحلي، ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) الطوسي تلخيص المحصل ، (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) للرازي ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٢٦ .

(٣) الأيجي ، القاضي عبد الرحمن ، المواقف ، ص ٢٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

وفي آخر كلامه في هذه المسألة قال الحلبي : (الحق ان القدم والحدوث من الألفاظ الاعتبارية^(١) .

قال الفضل بن روزبهان في رده على الحلبي : (ليس كون القدم وصفاً ثبوتياً مذهب الشيخ الاشعري ، وما اطلعت على قوله فيه .
إن قول الحلبي : (لو كان القدم وصفاً ثبوتياً ، فإما أن يكون قديماً فيكون له قدم آخر ويتسلسل) فالجواب عنه : انا لا نسلم لزوم التسلسل ، او قد يكون القدم بنفسه .

وايضاً جاز ان يكون قدم القدم امراً اعتبارياً ، فان وجود فرد من أفراد الطبيعة لا يستلزم وجود جميعها^(٢) .

لقد احصى العلامة الحلبي اكثر من اثنتين وعشرين شبهة للفلاسفة احتجوا بها لدعم اقوالهم في قدم العالم ، اجاب عن كل واحدة منها باسهاب وبفطنة ضمنها اكثر من ستين صفحة من كتابه (نهاية المرام في علم الكلام)^(٣) .
قال الحلبي : اعلم أن الفلاسفة ذهبوا إلى أن العالم قديم ، واحتجوا عليه بوجوه :

حجة الفلاسفة الأولى : العالم ان كان واجباً لذاته كان قديماً ، و ان كان ممكناً فلا بد له من مؤثر فمؤثره إن كان حادثاً لزم ان يكون له محدث فيكون من جملة العالم فإما أن يدور او يتسلسل او ينتهي إلى مؤثر قديم ، فنقول : إذا كان المؤثر قديماً وجب ان يكون اثره قديماً ، لان كل ما لا بد منه في مؤثرية المؤثر القديم في العالم إما ان يكون بتمامه حاصلاً في الأزل أو لا يكون ، فإن لم يحصل في الأزل كان حادثاً فله مؤثر ، ثم نقل الكلام إلى ذلك المؤثر فإما أن

(١) ابن المطهر الحلبي ، نهج الحق ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) ابن روزبهان ، أبطال الباطل ضمن كتاب دلائل الصدق ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) الحلبي ، نهاية المرام ، ج ٣ ص ١٣٤ - ١٩٤ .

يدور او يتسلسل او ينتهي إلى مؤثر قديم ، وان كان حاصلاً في الأزل وجب حصول الأثر ، لأنه إذا استجمع المؤثر جميع جهات المؤثرية فإما ان يجب حصول أثره أو لا ، والثاني محال ، والا لكان حصوله في وقت حصوله دون ما قبله وبعده من الأمور الجائزة فتخصصه بوقت حدوثه دون ما تقدم او تأخر ان كان لا لأمر لزم ترجيح أحد الأمور الجائزة بالوجود من غير مرجح ، وهو باطل بالضرورة ، و لانه يسد باب إثبات الصانع تعالى ، وان كان الامر لم يكن المؤثر التام حاصلاً في الأزل وقد فرضناه حاصلاً ، هذا خلف . وإذا^(١) ثبت قدم المؤثر التام في العالم وثبت ان قدم المؤثر التام يستدعي قدم أثره وجب القول بقدم العالم . وهذه السببة هي أقوى شبه القوم^(٢) .

والجواب عن الوجه الاول من وجوه حجج الفلاسفة .

قال في الرد على الوجه الاول : نمنع قدم الأثر لو كان المؤثر الجامع لجميع جهات المؤثرية أزلياً ، فان قدم الأثر انما يتبع قدم مؤثره لو كان المؤثر موجباً ، اما اذا كان مختاراً فلا ، فانه يجوز بل يجب ان يتأخر اثره عنه .
الوجه الثاني : العالم صحيح الوجود في الازل واذا كان صحيح الوجود في الازل كان واجب الوجود في الازل .

اما الصغرى ، فلانه لو لم يكن صحيحاً في الازل لكان ممتنعاً او واجباً ، فان كان الثاني فالمطلوب ، وان كان الاول لزم انقلاب الممتنع لذاته ممكناً لذاته ، وانقلاب الحقائق محال . ولانه لو جاز ذلك انتفت دلالة الحدوث على المؤثر لجواز ان يكون العالم محالاً في الازل ثم صار واجباً لذاته فيما لا يزال فيستغني عن المؤثر . ولان ذلك الحكم المتجدد ان كان لسبب فهو مسبوق بالامكان الذاتي فكان الامكان الذاتي مسبوقاً بالامكان الذاتي ، وهوة محال .

(١) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ٣ ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٣٦-١٣٧ .

واما الكبرى ، فلان صحيح الوجود في الازل لو كان معدوما في الازل لاستحال ان يوجد في الازل، لان الحادث في وقت معين لا يكون حدوثه في ذلك الوقت المعين موجبا حصوله في الاوقات الماضية ، لان الشيء يستحيل ان يتجدد له حصول في الزمان الماضي . فاذن لو لم يكن موجودا في الازل لم يصح ان يكون ازليا ، لكن العالم يصح ان يكون ازليا كما تقدم فيجب ان يكون ازليا^(١).

اجاب العلامة الحلي على حجة الفلاسفة الثانية فقال :

الوجه الثاني : المؤثر مستجمع لجميع جهات المؤثرية في الازل لكنه مختار والمختار يرجح احد مقدوريه على الآخر لا لمرجح ، كالهارب من السبع اذا عرض له طريقان متساويان من جميع الوجوه فيما يرجع الى مقصوده فانه يسلك احدهما دون الآخر لا لمرجح . والجائع اذا حضره رغيفان متساويان من كل وجه فانه يتناول احدهما من غير مرجح ، وان حضره واحد يتناول من بعض جوانبه دون بعض مع المساواة . والعطشان اذا حضره قدحان متساويان شرب احدهما من غير مرجح^(٢).

ورد العلامة الحلي على حجة القائلين بقدّم المادة، وهي حجتهم الثالثة

فقال:

الثالث : كل محدث فانه مسبوق بامكان عائد اليه على ما سبق وذلك الامكان يستدعي محلاً هو الهيولي، فان كانت الهيولي محدثة افتقرت الى هيولي اخرى وتسلسل . وان كانت قديمة وجب قدّم الصورة لما تقدم من استحالة انفكاك الهيولي عن الصورة ومجموع الهيولي والصورة هو الجسم ، فالجسم قديم^(٣).

(١) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام ، ج ٣ ص ١٣٧ .

(٢) الحلي ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٠ .

(٣) الحلي ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٠-١٥١ .

الوجه الثالث : العالم انما حدث في ذلك الوقت لان المؤثر مختار ،
والقادر انما يفعل احد مقدوريه دون الثاني ، لان ارادته اقتضت ترجيح ذلك
المقدور على غيره .

لا يقال : لماذا رجحت الارادة ذلك الشيء على غيره ؟

لانا نقول : هذا السؤال ساقط ، لان الارادة مرجحة ومخصصة لذاتها .
ولانها لو رجحت غيره لكان السؤال عائداً . وعلى هذا التقدير يلزم ان يكون
كون الارادة مرجحة معلة بعلة اخرى وهو محال ، لان كون الارادة مرجحة
صفة نفسية لها ، كما ان كون العلم بحيث يعلم به المعلوم امر ذاتي له ولما
استحال تعليل الصفات الذاتية استحال تعليل كون الارادة مرجحة .
والمعتمد في دفع السؤال اسناد الترجيح الى ذات الارادة لئلا يرد عليه

قول الرئيس .

لا يقال : هذا السؤال باطل لانه عائد في كل وقت .

لانا نقول : بل هو حق لانه عائد في كل وقت .

رد الفلاسفة الرابع : كل محدث فانه مسبوق بزمان ، لان عدمه سابق
على وجوده ، والا لكان قديماً ، وذلك السبق والتأخر ليس عبارة عن مجرد العدم
والوجود ، لان العدم قبل كالعدم بعد ، وليس القبل بعد ، فالقبليّة والبعديّة صفتان
وجوديتان فلهما موصوف موجود ، فقبل حدوث كل حادث لابد من شيء وجودي
يكون موصوفاً لذاته بالقبليّة حتى يكون العدم الحاصل فيه موصوفاً بكونه قبلاً
لذلك الحادث ، والشيء الذي يكون قبلاً لذاته هو الزمان ، فقبل كل زمان زمان لا
الى اول ، ويلزم من قدم الزمان قدم الحركة لانه من لوازمها ، ويلزم من قدم
الحركة قدم الجسم^(١) .

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٣٨-١٣٩ .

رد العلامة الحلي على الوجه الرابع : قالت الاشعرية : انه تعالى عالم وعلمه متعلق بجميع الاشياء واذا كان كذلك كان تعالى عالماً بان الاشياء توجد وانها لا توجد ووقوع ما علم الله تعالى انه لا يوجد محال ، وعدم وقوع ما علم انه يوجد محال ايضاً والارادة لا تتعلق بالمحال ، فلا جرم تعلقت الارادة بوقوع ما تعلق العلم بوقوعه وبعدم وقوع ما تعلق العلم بعدم وقوعه . ولما علم الله تعالى ان العالم يوجد في الوقت المعين اراد ايجاده فيه دون ما قبله وما بعده^(١) .

وذكر العلامة الحلي حجة خامسة للفلاسفة فقال :

قول الفلاسفة في الوجه الخامس : لو كان العالم محدثاً لكان محدثه اما ان يقال : انه كان قادراً ان يحدث العالم قبل الوقت الذي احدثه فيه بمدة متناهية او ما كان قادراً عليه ، والثاني محال ، لانه يلزم اما انتقال الخالق من القدرة الى العجز او انتقال المخلوق من الامتناع الى الامكان ، وهما محالان ، فثبت الاول ، وبمثله ثبت انه كان قادراً على ان يخلق ايضاً حوادث تنتهي الى الوقت الذي احدث العالم فيه بمقدار ضعف تلك المدة واذا ثبت هذا فاما ان يقال انه يمكن احداث ما ينتهي الى العالم بضعف تلك المدة مع احداث ما ينتهي اليه ايضاً بتلك حتى يكون ابتداءهما وانتهاءهما معاً او لا يكون ذلك ممكناً . والاول ضروري البطلان . والثاني يقتضي وجود زمان قبل حدوث العالم ، لان هناك امراً يتسع لقدر معين كسنة مثلاً ولا يتسع لسنتين وهناك ما يتسع لسنتين ولا يصير مستغرقاً لسنة ، وكل قابل للزيادة والنقصان والتقدير فهو امر وجودي مقداري وذلك هو الزمان ، فقد ثبت حصول الزمان قبل حدوث العالم ، واذا ثبت قدم الزمان ثبت قدم الحركة ، فثبت قدم الجسم .

لا يقال : التقدير الذي ذكرتموه يكشف عن امكان وجود زمانين احدهما اطول من صاحبه ، ولا يدل على وجودهما .

(١) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام ، ج ٣ ص ١٥١ .

لانا نقول : الامر التقديري يتغير عند تغير الفرض ، وما ذكرناه من وجود امر قبل العالم بحيث لا يتسع الا لحوادث سنة سواء وجد فرض فارض ام لم يوجد ، وامر اخر يتسع لحوادث سنتين ولا يصير مستغرقاً لحوادث سنة لا يتغير سواء وجد فرض ام لا ، فعلمنا ان التقدير الذي ذكرناه يكشف عن وجود هذه الامكانات المتقدرة بالمقادير المحدودة قبل وجود العالم لانه يكشف عن مجرد فرض ذهني واعتبار وهمي^(١) .

ويستمر العلامة الحلي بالرد على حجج الفلاسفة في قدم العالم ويقول في رده على حجتهم الخامسة :

الوجه الخامس : قالت المعتزلة : ان الله تعالى انما رجع ايجاد العالم في ذلك الوقت ، لان الایجاد احسان والاحسان افضل من تركه ، وانما اختص الایجاد بذلك الوقت لجواز ان يكون ايجاده في ذلك الوقت متضمناً لنوع مصلحة عائدة الى المكلف لو اوجده في وقت آخر لم تحصل تلك المصلحة ، وحينئذ يكون ايجاده في ذلك الوقت اولى من ايجاده في غيره . ولما دل الدليل على حدوث العالم ودل الدليل على ان اختصاصه بالحدوث في ذلك الوقت دون ما عدا انما يكون لاختصاص ذلك الوقت بمرجح ومخصص لا يوجد في غيره وجب علينا القطع بذلك وان كنا لا نقع على تفصيل تلك المصلحة^(٢) .

ثم يذكر العلامة الحلي حجة سادسة من حجج الفلاسفة ويجملها بالقول : حجة الفلاسفة في الوجه السادس : الله تعالى قديم ، فلو كان العالم محدثاً لكان الله تعالى متقدماً عليه بالضرورة ، والا لكان القديم محدثاً او المحدث قديماً ، واذا كان متقدماً عليه فاما بمدة او لا بمدة ، والثاني يستلزم احسد المحالين السابقين ، والاول اما ان تكون المدة متناهية ويلزم حدوث الله تعالى ، لان المتقدم

(١) ابن المطهر الحلي، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٣٩-١٤٠ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ٣ ص ١٥١-١٥٢ .

على الحادث بمدة متناهية يكون حادثاً بالضرورة ، او غير متناهية ويلزم قدم الزمان المستلزم لقدم الحركة المستلزم لقدم الجسم^(١).

ثم يرد عليهم الحلّي فيقول اما الوجه السادس : قال بعض المعتزلة : حدوث العالم قبل ان يحدثه الله تعالى محال فلهذا لم يحدثه الله تعالى فيه^(٢).

ويعرض الحلّي من الحجج الوجه السابع : العالم محال الوجود في الازل ، والا لكان اما متحركاً او ساكناً وهما محالان في الازل ، فاستحال وجود العالم في الازل .

ولان الفعل في الازل محال ، لان الفعل ما له اول والازل ما لا اول له والجمع بينهما محال . واذا كان ممتنعاً لم يصح ايجاده ازلاً فلهذا كان العالم حادثاً عن الله تعالى وامتنع كونه قديماً^(٣).

ويرد عليها بقوله: الوجه السابع : لو كان العالم مخدثاً لكان الله تعالى متقدماً عليه بقدم لا بداية له لانه قديم ، وذلك التقدم ليس عبارة عن وجود الباري تعالى وعدم العالم ، لان الله تعالى بمجرد هذا الاعتبار لا يكون قبل العالم ، فكونه متقدماً على العالم كيفية وجودية زائدة على وجوده تعالى وعدم العالم ، ولا بد لتلك الكيفية الثبوتية من شيء يتصف بها لذاته ، والذي يتصف بالقبلية والبعدية لذاته هو الزمان فتقدم الباري تعالى على العالم بالزمان ، فاذا لم تكن لتقدمه على العالم بداية وجب ان لا تكون للزمان بداية .

لا يقال : انه تعالى متقدم على العالم بازمنة لا بداية لها مقدرة لا محققة لانا نقول: المقدر في الذهن ان لم يكن له وجود في الخارج لم يكن الباري تعالى متقدماً على العالم اصلاً ، وان كان له وجود في الخارج حصل المقصود^(٤).

(١) الحلّي، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٢ .

(٣) الحلّي، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٢ .

ثم يعرض حجة الفلاسفة الثامنة كي يرد عليها فيقول على لسانهم :
الوجه الثامن: لو كان العالم محدثاً لصدق انه لم يكن في الازل موجوداً ،
وهذا سلب يكون مستمراً من الازل الى الابد ، فاما ان يكون المفهوم من ذلك ان
العالم ما كان حاصلًا في زمان وجودي يقضي ، او مفهومه انه كان موجوداً في
العدم الصرف ، فالباري تعالى ايضاً ما كان موجوداً في العدم الصرف فيلزم ان
يصدق عليه انه ما كان موجوداً في الازل ، لكن ذلك كاذب ، واذا بطل ذلك ثبت
ان المفهوم من قولنا : لم يكن العالم موجوداً في الازل أي ما كان موجوداً في
الازمنة الماضية ، ولما كان مفهوم قولنا: (لم يكن العالم موجوداً في الازل)
مستمراً من الازل الى الان لزم ان يكون استمرار الزمان من الازل الى الان
حاصلًا.

ثم يرد العلامة الحلي على حجة الفلاسفة الثامنة بسؤال استكاري فيقول:
عن الوجه الثامن : قبل العالم لا وقت ، فلا يصح ان يقال : لم لاحدث
العالم قبل ان يحدث؟ (١).

ثم عرض العلامة الحلي حجة اخرى من حجج الفلاسفة القائلين بقدم
العالم وهي الحجة التاسعة التي يرد عليها فيقول :

الوجه التاسع : لو لم يكن الزمان قديماً لم يتميز وقت عدم العالم عن
وقت وجوده ، ولو لم يتميز ذلك لاستحال القصد الى ايجاده ، لانه لما كان الجمع
بين وجوده وعدمه محالاً كانت صحة وجوده موقوفة على امتياز وقت وجوده
عن وقت عدمه ، فاذا لم يكن الوقتان متميزين استحال القصد الى اليجاد .
ووجد الحلي في هذه الحجة اموراً كثيرة تستوجب الرد ولهذا فقد
استوعب رده كثيراً نختصر منه التالي:

(١) الحلي، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٢ .

الوجه التاسع : تعارض قولكم باستحالة الترجيح من غير مرجح بامور
سبعة :

الامر الاول : الفلك عند الفلاسفة جسم متشابه الاجزاء فالنقط المفروضة
فيه متشابهة ، ثم ان بعضها يعين للقريبة دون البعض ، وحصلت دائرة
مخصوصة تعينت لكونها منطقة دون غيرها مع تساوي الجميع من غير مرجح ،
وكذا يتعين خط لان يكون محوراً دون سائر الخطوط المتساوية من غير مرجح .
الامر الثاني : حركة الفلك الاعلى على خلاف التوالي كما انه ممكن ،
فكذا حركته على التوالي ممكن ايضاً فاختصاصه بالحركة من جهة دون غيرها
مع تساويها ترجيح من غير مرجح .

الامر الثالث : جميع الحركات باسرها متساوية النسبة اليه ، ولا ريب ان
الحركات مختلفة بالسرعة والبطء ، فحصول سرعة معينة في حركة الفلك دون
غيرها يكون ترجيحاً من غير مرجح .

الامر الرابع : كل فلك من الافلاك له ثخن معين وحد محدود مع ان
حصوله على اكثر من ذلك الثخن او الحد ، او اقل ممكن ، فاختصاصه بذلك
الثخن المعين والقدر الخاص يكون ترجيحاً من غير مرجح .

الامر الخامس : الفلك بسيط متشابه الاجزاء من كل الوجوه فاختصاص
جانب منه بالنقرة التي تركز الكواكب فيها دون سائر الجوانب يكون ترجيحاً
للشيء على ما هو مثله من غير سبب .

الامر السادس : الفلك بسيط فاختصاص كل واحد من التداوير والاوراق
والحضيضات بجانب معين منه دون جانب مع تساوي سائر الجوانب ، والا لم
يكن بسيطاً ، ترجيح من غير مرجح .

الامر السابع : الفلك الممثل في كل كوكب له فلك ممثل يشمل على فلك
خارج المركز وعلى متمم ، فاختصاص جانب من متممات الافلاك الخارجة
المركز بالغلظ دون الجانب الاخر ترجيح من غير مرجح .

الامر الثامن : العالم عندكم قديم لكن لا شك في حدوث الاعراض والتراكيب فاختصاص حدوث كل واحد منها بالوقت المعين دون الوقت الذي حدث فيه مثله يكون ترجيحاً من غير مرجح ، فلزمكم في الصفات المحدثّة ما الزمتمونا في حدوث العالم .

الامر التاسع : اتصاف مادة كل عضو بصورته اما ان يكون لاستحقاق تلك المادة لتلك الصورة او لا يكون كذلك ، فان كان الاول لم يكن ذلك الاستحقاق للجسمية المشترك فيها بل الامر ورائها فيكون كل جزء من حامل ذلك الاستحقاق موصوفاً به والقوة القائمة بحامل ذلك الاستحقاق كذلك . فاما ان يكون تاثير القوة في ذلك الجسم تاثيراً متشابهاً ، والجسم الذي يكون متشابه الشكل هو الكرة ، فتكون اعضاء الحيوانات على شكل كرات مضموم بعضها الى بعض ، هذا خلف . او لا يكون تاثيرها فيها متشابهاً مع ان نسبتها الى جميع اجزاء الحامل على السوية فقد جوزتم في الموجب ان يترجح بعض آثاره على البعض مع استواء نسبتته الى الكل ، فان جوزتموه في الموجب فتجوزيه في القادر اولى . وان كان الثاني كان واهب الصورة قد خصص كل واحد من مواد الاعضاء بصورة مخصوصة مع ان نسبة جميع تلك المواد الى جميع الصور على السواء وذلك يقدح في اصل دليلكم .

قالت الفلاسفة : حاصل اجوبتكم كلها يرجع الى شيء واحد وهو انكم اخترتم ان كل ما لا بد منه في المؤثرية لم يكن حاصلًا في الازل .
اما اولاً : فلان الفعل لم يكن ممكناً في الازل فشرط جوازه ووجوده عن المؤثر انتفاء الازل ، وانتفاء الازل لم يكن ثابتاً في الازل ، فلا يكون شرط التأثير موجوداً ، فلا يكون كل ما لا بد منه في المؤثرية حاصلًا في الازل .
واما ثانياً : فلان شرط الوجود ترجيح القادر وذلك الترجيح لم يكن حاصلًا في الازل ، والا لوجد العالم في الازل ، فلم يكن كل ما لا بد منه في المؤثر حاصلًا في الازل .

واما ثالثاً : فلان الازلية اذا كانت مانعة من وجود العالم كان نفيها شرطاً في ايجاده ونفيها لم يكن حاصلأ في الازل ، فلم يكن ما لايد له في المؤثرية حاصلأ في الازل .

فظهر ان حاصل هذه الاجوبة كلها راجع الى احد القسمين اللذين ابطلناهما ، وهو ان كل ما لايد له في المؤثرية لم يكن حاصلأ في الازل .
واما رابعاً : فلان شرط حدوث العالم حضور وقته وقبل العالم لا وقت ، فلم يكن الشرط حاصلأ في الازل .

ونترك الحلّي ههنا ليجيب عن كل واحد على التفصيل^(١):

العاشر : لو كان العالم محدثاً لكان المؤثر فيه قادراً ، وبالتبالي باطل ، فالمقدم مثله والشرطية ستأتي في بيان القادر ، ويدل على بطلان التالي وجهان:
الاول : لو كان قادراً فاما ان يقدر على اليجاد في الازل او لا ، والاول محال ، لان معنى اليجاد الاخراج من العدم الى الوجود ، وذلك ينافي الازلية .
والثاني ايضاً محال ، لان عدم تمكنه من ذلك ليس لعدم المقتضي ، لانه اخراج له عن القادرية ولا لوجود المانع ، لان المانع ان كان واجباً لذاته امتنع زواله ، وان كان ممكناً فلا بد له من مؤثر ، فذلك المؤثر ان كان قادراً كان ذلك المانع حادثاً فلا يكون الامتناع ازلياً وقد فرض كذلك ، هذا خلف . وان كان موجبا لزماً من دوام الموجب دوام ذلك المانع فكان ينبغي ان لا يصح وجود العالم . فالقول بكون المؤثر قادراً يفضي الى هذه المحالات .

الثاني: القادر اذا اوجد الفعل فاما ان تبقى قادريته على ايجاد ذلك الفعل او لا تبقى ، والقسمان باطلان ، فالقول بكونه قادراً باطل .

(١) ابن المطهر الحلّي ، نهاية المرام في علم الكلام ، ج ٣ ص ١٤٢ .

اما بطلان بقاء تلك القادرية : انه كان قبل وجود الفعل قادراً على ايجاد ذلك الفعل فلو بقيت تلك القادرية لكان قادراً على ايجاد ذلك الفعل بعد وجوده فيكون ذلك ايجاداً للموجود ، وانه محال .

وبيان استحالة زوال تلك القادرية : ان قادرية الله تعالى على ايجاد ذلك الفعل كانت ثابتة في الازل الى الان ، والا كانت قادرية الله تعالى على لا ايجاد ذلك الفعل متجددتو وذلك باطل اتفاقاً ، فاذا وجد الفعل فلو لم تتعلق قدرته تعالى بذلك الفعل كان ذلك زوالاً لذلك التعلق الثابت من الازل الى الان فيكون ذلك عدماً للتقديم ، وهو محال^(١) .

ثم يمضي العلامة الحلي بايراد الحجج والرد عليها، ثم يفرع الرد ويذنب الاشارات حتى يستغرق اكثر من سبعين صفحة من الكتاب ، اختار الباحث منها ما هو ينسجم والبحث .

(١) ابن المطهر الحلي ، نهاية المرام ، ج ٣ ص ١٤١-١٤٢ .

المبحث الخامس

ابن المطهر الحلي صوفياً^(١)

بُنيت هذه الدراسة منذ اول بحث فيها على ان الفكر الفلسفي العربي الإسلامي مبني على أربعة أسس رئيسة ، اول هذه الأسس : كان (علم الكلام) ، وهو فلسفة الإسلام الخاصة ، ولد من وهج القرآن ، وجاء من صلبه ، فتى يافعاً لم يمر بطفولة وانبتق من رحمه علم " اصول الفقه " ، هدفه استنباط الأحكام الشرعية من ادلتها الأصلية ، ييسر على الناس مسائل عباداتهم وعلاقاتهم مع خالقهم ، وليوضح لهم "معاملاتهم" ، بينهم وبين حكامهم ومن جاورهم . من الناس ثم كانت الفلسفة العربية الإسلامية" ، بما هي فلسفة عربية إسلامية ، دون غيرها من الفلسفات ، تعيش في بيئة القرآن العربية ، وتستمد فكرها من حضارة الإسلام المميزة ، تحت خيمة وسعت كل الخيرين تحت كلمة سواء .

واخيراً "علم التصوف" بما هو علم لا ممارسات وطقوس، فكر الرجال المؤسسين منذ الشيخ معروف الكرخي ، والحارث المحاسبي وحتى آخر صوفي في عصرنا هذا .

والعلامة ابن المطهر الحلي عاش هذه العلوم الأربعة ، واستغرق فيها مفكراً ومتكلماً فقيهاً اصولياً ، فيلسوفاً عربياً مسلماً ، بل كان مؤسساً على راس القرن السابع والثامن الهجريين ، فضلاً عن كونه صوفياً زاهداً ، اتسم بما يتسم به التصوف السياسي الذي شاع في عصره ، والذي وضع أسسه الشيخ ابو حفص عمر السهروردي ، ذلك الشيخ الصوفي الجليل الذي عاش مع الخليفة

(١) عالج العلامة الحلي بعضاً من قضايا التصوف في كتابه "تهج الحق وكشف الصدق" ، وكانت لنا وقفة عند عرضها ومناقشتها وعلى الخصوص منها ما جاء في ج ٢ من ص ١٨٩ -

الناصر لدين الله سفيراً وموفداً ونائباً عن الخليفة يتوسط في حل مشاكل مستعصية ما كان يقوم بها غير الصوفي السهروردي .

الحلي في هذه المسيرة كان على خطأ هذا الفيلسوف الصوفي والسياسي المتمرس في القرن السابع، وامتداداً للقرن الثامن كان من قرون ازدهار التصوف ، فقد تصوف فيها بشكل او بآخر الحاكم والمحكوم ، ابن المدينة ومن عاش في الريف او من عاش في بطون الصحراء، ولتلك أسبابها شرحناها في المبحث الرابع من الفصل الثاني السابق .

ابن المطهر الحلي زاهد متصوف ، لم يمارس وجد الصوفية ولم يدخل في تفاصيل رياضتهم ، بل تخلق بخلقهم ، واتخذ من نكران الذات عندهم، والإيثار على أنفسهم مسلماً في حياته ، لم يبحث مسائل الحياة على سبيل التعصب مطلقاً ، كان يدعو أحيانا إلى حب الصحابة كلهم ، والتعامل مع المسلمين بما يستحقون كما شهد بذلك ابن حجر^(١) .

تميز التصوف في المجتمع الحلي و بصورة خاصة عصر ابن المطهر، بأمور لعل أهمها:

١- طابع الحرية الدينية والانفتاح ، بتعاون الحاكم مع المحكوم في أمور الدفاع عن الوطن و الأمة والشرعية ، والعمل على رد هجمات الأعداء الذين مكنهم زوال الدولة العربية الإسلامية - دولة بني العباس - من العمل بحرية لبث أفكارهم والعمل على مد نفوذهم ، فمال الناس جميعاً الى التصوف (الذي يقوم في حد ذاته مثلاً على التسامح في لعقيدة والتساهل في

(١) ابن حجر ، احمد بن محمد الشافعي ، (ت ٩٧٤-١٥٨٠) الدرر الكامنة في أعيان المئة

الثامنة ، ج ٢ ص ٧١ .

الواجبات الدينية^(١)، من أجل الحد من اذى الحركات القائمة والمتعددة المتعارضة.

كان الناس في الحلة قد وعوا مشاكل تلك الحقبة ومقدار التنافر والمعارك في أطراف الآمة ، فكان مجتمعاً أصولياً مقبولاً في كل شيء ابتداء من كبار قادته وأشرف مراجعه حتى العلامة ابن المطهر الحلي فمضى بهذا الوضع شوطاً ، تمتع الناس في ظله بشيء من الأمان ، المعتمد على الزهد في الحياة والالتفاف حول رموز وشخصيات كآل طاووس ، وال ابن المطهر الحلي .

٢- كانت أسرة آل طاووس في الحلة ، قادة سياسيين ، وعلى شريعة وأولياء وتوصوف كان منهم شرف الدين محمد بن طاووس ، نقيب العلويين أيام العباسيين ، وكان ضمن شهداء نكبة بغداد ، قتل يوم قتل التتار الخليفة المستعصم بالله عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)^(٢) . وكان منهم مجد الدين محمد بن الحسن بن طاووس ، وكان صوفياً زاهداً ، الذي حضر وكبار أهل الحلة الى هولاء وسألوه حقن دمائهم، وتروى عنه بهذه المناسبة حكايات^(٣)، ومات بعد أشهر من تلك السنة (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، ومنه (السيد النقيب الطاهر رضي الدين علي بن طاووس)

(ت ٦٦٤هـ/١٢٦٥م)^(٤)، ومنهم السيد نقيب العلويين (جمال الدين محمد بن طاووس) (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٦م)^(٥)، ومنهم السيد نقيب العلويين (غياث الدين عبد الكريم بن طاووس (٦٩٣هـ/١٢٩٤م)^(٦) .

(١) الشيباني، د. كامل مصطفى ، (النزعات الصوفية) ص ١٥٠ .

(٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٦٥ .

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٣٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤١٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٥١٩ .

هؤلاء القوم النقباء كانوا من قادة اهل الحلة في القرن السابع وعصر الحلي (أولياء ذوي كرامات أحياء واموات ، حتى صار قبر السيد احمد بن طاووس مزاراً مشهوراً)^(١) ، وليأمن اولياء الله الصوفيين الزهاد حتى (تخرج العامة والخاصة عن الحلف به كذباً خوفاً)^(٢) .

هؤلاء العبدة الزهاد المستجابو الدعوة كان لهم الأثر الكبير في دفع الناس في الحلة الى التصوف المقيد ، البعيد من تصوف الدراويش أصحاب المسابيح الطويلة ، والخرق البالية والعكازات المتهرئة والزهد الظاهري ، قريباً من تصوف ابي حفص الشيخ عمر السهروردي ، القريب من الله وشريعته ، البعيد عن تصوف أهل الشطح ، الذين لا يفقهون ما يقولون .

كان نقيب العلويين غياث الدين عبد الكريم بن طاووس من الأئمة الأولياء ومن الصوفية الكبار تلميذ العلامة ابن المطهر الحلي ، يجمع بين النسب العلوي والزهد الصوفي ، فقد قيل انه اخذ التصوف من عمه وأبيه وشيخه ابن المطهر الحلي ، وهم قادة الشريعة والحقيقة في الحلة^(٣) .

٣- ومما تميز به التصوف في مدينة الحلة عصر ابن المطهر ، أن أهلها لفرط ما بهم من تطلع الى الروحانيات ، مزجوا بين مشربين ، فهم في الوقت الذي كانوا يرفعون رموزهم وكبار قادتهم من متصوفي المدينة من حضيض المادة الى روحانيات المثل الأعلى في وقت عز فيه السمو الروحي .

(١) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ١٩ ، الشيباني ، د . كامل مصطفى ، التصوف ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩-٢٠ ، الشيباني ، المرجع السابق ، ص ١١٢-١١٣ .

(٣) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٣٦١ ، الشيباني ، الفكر الشيعي ، ص ١١٤ .

في هذا الوقت (كان أهل الحلة والكوفة والمسيب ، يجلبون الى بغداد الأطحمة ، فانتفع الناس بذلك ، وكانوا يتناعون بأثمانها الكتب النفيسة والصفير المطعم وغيره من الأثاث بأوهمي قيمة ، فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم^(١) .

٤- كان العلامة ابن المطهر الحلي تلميذا لكبار الصوفية من آل طاووس ، رضي الدين علي بن سعد الدين ابن طاووس الذي (كان من جملة عبده الزهاد والمستجابي الدعوة)^(٢) ، قال عنه الحلي (كان صاحب كرامات حكى لي بعضها ، وروى لي والذي رحمه الله البعض الآخر)^(٣) ، ولذا (فقد تورع عن الفتوى و ألف في الأدعية والأذكار)^(٤) ، على عادة الصوفية الكبار ، وقيل انه لقي الإمام المهدي (عليه السلام)^(٥) .

كما كان الحلي شيخاً وأستاذاً لآخر من آل طاووس صوفي كبير هو السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاووس ، وهذا الأمر يعني ان ابن المطهر الحلي قد عاش التصوف على ريادة في الحلة وهو صغير ، وعاش أستاذاً لقادته ومريديه ، فهو صوفي وان لم يلبس الخرقة^(٦) .

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٣٦١ .

(٢) الشيباني ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ١١٢ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، اجازته لبني زهرة ، نقلاً عن كتاب المجلسي ، بحار الانوار ، ج ٢٥ ص ٢٢ .

(٤) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٣٩٤ ، الشيباني ، الفكر الشيعي ، ص ١١٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٦١ ، ومن كرامات آل طاووس ماروى عن عبد الكريم بن احمد بن طاووس انه (اشتغل بالكتابة واستغنى عن المعلم في اربعين يوماً ، وعمره اذ ذاك أربع سنين ، وانه (حفظ القرآن في مدة يسيرة وله إحدى عشرة سنة) الخوانساري ، روضات الجنات ، ص ٣٦١ ، الشيباني ، المرجع السابق ، ص ١١٣-١١٤ .

(٦) العاملي ، السيد محسن ، اعيان الشيعة ، ج ٢٤ ص ٢٦١ ، الشيباني ، المرجع السابق ، ص ١١٥-١١٧ .

ولكل هذا لحقت الحلي كرامات آل طاووس فذكر أيضاً انه (لقي الإمام المهدي (عليه السلام) فنسخ له كتاباً ضخماً في ليلة واحدة)^(١).

لم يعرف عن ابن المطهر الحلي : انه اعتذر لأي من أصحاب الشطح الصوفي ، او انه غفر لهم اقوالهم تلك ، كما فعل غيره من السابقين او اللاحقين المعاصرين إليه ومنهم الطوسي الذي اعتذر عن اقوال الحلاج الشطحية ، وهفوات ابي يزيد البسطامي ، وعلى الخصوص في مقالتيهما (انا الحق) و (سبحاني ما اعظم شأنه) وقال الطوسي مبرراً: (ان أيا منهما لم يدع دعوى الالهية بل دعوى نفي أنيته ليثبت انية غيره وهو المطلق)^(٢).

هاجم ابن المطهر الحلي التصوف من الجهة التي اعتاد مهاجمتهم منها الفقهاء (الحلول والاتحاد وسقوط التكاليف والرقص والغناء والإباحية والمعطلة و أمثالهم ، وعمل على إخراجهم من التصوف .

وبحث ابن المطهر الحلي في كتابه (نهج الحق وكشف الصدق) موضوعات التصوف وتطرق الى العلم وجعل الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) رأساً لكل فروع المعرفة الصوفية ، وذكر (ان جميع الصوفية وارباب الإرشادات الحقيقية يستندون الخرقه اليه) و أكد الحلي ان الفتوة وقول رسول الله (عليه الصلاة والسلام) (لافتى الا علي ولا سيف الا ذو الفقار) راجعة اليه^(٣).

وحدة الوجود

-
- (١) الشيباني ، د . كامل ، الفكر الشيعي ، ص ٧٥ ، نقلاً عن كتاب قصص العلماء ص ٢٥٦ .
 - (٢) الشيباني ، المرجع السابق ، نقلاً عن طرائق الحقائق ج ١ ص ١٦٤-١٦٥ .
 - (٣) كتاب العلامة الحلي (نهج الحق وكشف الصدق) من كتب العقائد و الكلام الحافلة بالفضل المشحونة بالآراء المتعددة الاستدلالية (المقارنة ، الامر الذي نال من النقاش والرد كثيراً ومن اهم من رد عليه الفضل بن روزبهان بكتابه (ابطال الباطل واهمال كشف العاطل) ، ورد على الرد القاضي التستري (ق ١٠١٩ / ١٦١٠ م) بكتاب سماه (احقاق الحق) ، ثم ناقش الجميع الشيخ محمد حسني المظفر (ت ١٣٧٥ / ١٩٥٥ م) بكتاب سماه (دلائل الصدق لنهج الحق) ، مطبوع مع اصل كتاب الحلي ، وكتاب الفصل بعدة مجلدات، وهو مرجعنا بهذه الدراسة .

وجد ابن المطهر الحلي ان هذه النظرية تذهب بصاحبها الى القول ان الله تعالى يكره ان يتحد بغيره ، (و الضرورة قاضية ببطلان الاتحاد ، فانه لا يمكن صيرورة الشيئين شيئاً واحداً^(١) .

وقد عاب الحلي على جماعة من الصوفية من الجمهور الذين حكموا بانه تعالى يتحد بابدان العارفين ، كما فصل ذلك ابن عربي في كتابه (التجليات) الذي فصل فيه القول في (وحدة الوجود) او كما عرفناه في فصل سابق في كتابه (فصوص الحكم) ، ولكن ابن المطهر الحلي لم يقع في اين عربي ولا في مذهبه في (وحدة الوجود)^(٢) بل قال الحلي (تمادى بعضهم - ولم يذكر اسمه - وقال انه تعالى نفس الوجود ، وكل موجود هو الله تعالى) وقرر الحلي على وفق ذلك ان هذا القول هو (عين الكفر والالحاد)^(٣) .

وذهب الفضل بن روزبهان في كتابه (ابطال الباطل وإهمال كشف العاقل) عند رده على قول الحلي ذلك : ان مذهب الاشاعرة : انه تعالى لا يتحد بغيره لأمتناع اتحاد الاثنين .

واما ما نسبته الى الصوفية من القول بالاتحاد ، فان اراد به محققو الصوفية ابا يزيد البسطامي ، وسهل بن عبد الله التستري ، وابا القاسم الجنيد البغدادي ، والشيخ محمد السهروردي ، فهذه نسبة باطلة ، وافتراء محض وحاشاهم من ذلك ، بل صرحوا في عقائدهم ببطلان الاتحاد ، وانه منافي للعقل والشرع^(٤) .

وحاول الفضل بن روزبهان ان يفسر نظرية الوجود فقال : (إنها مسألة دقيقة لاتصل حوم فهمها اذهان مثل هذا الرجل (ابن المطهر الحلي) .

(١) ابن المطهر الحلي ، نهج الحق ، ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) الشيباني ، دامل ، الفكر الشيعي ، ص ١١٥ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩٥ .

(٤) الفضل بن روزبهان ، أبطال الباطل ، ج ٢ ص ١٩٧ .

وجملتها انهم يقولون : انه لا موجود الا الله • ويريدون به ان الوجود الحقيقي لله تعالى ، لانه من ذاته لا من غيره ، فهو الموجود في الحقيقة ، وكل ما كان موجودا غيره فوجوده من الله ، وهو في حد ذاته لا موجود ولا معدوم ، لانه ممكن ، وكل ممكن فان نسبة الوجود والعدم اليه على السواء ، فوجوده من الله ، فهو موجود بوجود ظلي هو من ظلال الوجود الحقيقي ، فالموجود حقيقة هو الله تعالى^(١) .

ووجد الشيخ محمد حسن المظفر ان ابن روزبهان لم يكن دقيقاً في طرحه، لان القوم في قولهم في وحدة الوجود (يريدون ان الوجود المطلق عين الواجب تعالى ، وان الممكنات تعينات له ، فيلزم منه نفي الماهية ، وان يكون وجود الممكنات من معينات وجود الباري ومصاديقه)^(٢) . ويؤكد ابن المطهر الحلي هذا الامر في كتابه (الاسرار الخفية) فيقول : (لانعني بالوحدة ههنا معنى وجودياً لما نعني في قولنا : (متصل واحد) بل نعني به انه لا تقع الشركة في ذاته)^(٣) .

ما في الجبة الا الله:

قال العلامة الحلي ان الله تعالى (ليس في جهة، والعقلاء كافة على ذلك)^(٤) خلافاً للمنصور بن الحسين الحلاج (ت ٣٠٩/٩٢١م) الذي قال : (ما في الجبة الا الله ، وخلافاً للكرامية حيث قالوا (انه تعالى في جهة فوق) .

(١) الفضل بن روزبهان ، أبطال الباطل ، ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المظفر ، الشيخ محمد حسن ، دلائل الصدق ونهج الحق ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) الحلي ، الاسرار الخفية...، ص ٥٢٢-٥٢٣ .

(٤) نهج الحق وكشف الصدق ، ج ٢ ص ١٨٩ .

ولم يعلموا ، كما يقول الحلي : (ان الضرورة قضت بان كل ما هو في جهته ، فاما ان يكون لا بثا فيها ، او متحركاً عنها ، فهو لا ينفك عن الحوادث ، و كل ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث^(١) .

وقد اختلف في العلاج (فمنهم من يبالغ في تعظيمه ، ومنهم من يكفره^(٢)) ، وقد اعتذر عن العلاج مفكرون كبار منهم الغزالي ، وحمل قوله (أنا الحق) قوله (ما في الجبهة الا الله) ، وحملها كلها على محامل حسنة ، واولها ، وقال هذا من فرط المحبة ، وشدة الوجد ، وجعل الغزالي هذا مثل قول القائل^(٣) .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا فإذا نحن روحان حللنا بدننا
أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

أما الكرامية في قولهم : (كونه تعالى في جهة الفوق على وجه الجسمية - باطل بلا خلاف لكن جرت العادة في الدعاء بالتوجه الى جهة الفوق ، وذلك لان البركات الالهية انما تنزل من السماء الى الارض فان اراد الكرامية هذا المعنى ، فهو صحيح ، وان ارادوا ما يلزم الاجسام من الكون في الجهة والخير ، فهو باطل^(٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٩-١٩٠ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٤٠-١٤١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ص ١٦٠-١٦٤ .

(٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤١-١٤٢ ، العلاج ، ديوان العلاج ، ص ٩٣ .
وقد اعتذر عن العلاج كما عرفنا الطوسي ، وتتابع المعتذرون حتى كان اخرهم المستشرق الفرنسي ماسينون .

(٤) الفضل ابن روريهان ، ابطال الباطل ، ج ٢ ص ١٩٠-١٩١ .

سبحاني ما اعظم شأنى^(١)

قول سائور ينقل عن ابي يزيد البسطامي ، طيفور بن عيسى (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م) وهو كلام (محبط بين الحلول والاتحاد ، دفعهم الى قول ذلك اعتقادهم باتحاد ذات الله بابواب العارفين ، او حلول ذاته فيهم ، او حلول صفته .

وقد حمل العلامة الحلي على القائلين بهذا وعنفهم قائلاً (انظر الى هؤلاء المشايخ كيف اعتقادهم في ربهم ، وتجويزهم عليه : تارة الحلول ، واخرى الاتحاد ، وعبادتهم الرقص والتصفيق والغناء)^(٢) .

ان الله تعالى لا يحل في غيره ، ويعمل الحلي ذلك بقوله : (من المعلوم القطعي ان الحال مفتقر الى المحل ، والضرورة قضت كل مفتقر الى الغير ممكن .

فلو كان الله تعالى حالاً في غيره لزم امكانه ، فلا يكون واجباً - وهذا) ثم يستكر الحلي اعمال بعض الصوفية الذين جوزوا عليه سبحانه الحلول في ابدان العارفين من الصوفية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٣) .

المعطة

ويروي العلامة الحلي عن بعض هذه الفرق فيقول: (شاهدت جماعة من الصوفية في حضرة مولانا الحسين صلوات الله عليه، وقد صلوا المغرب سوى شخص واحد منهم ، كان جالساً لم يصل ، ثم صلوا بعد ساعة العشاء سوى ذلك

(١) الفخر الرازي ، المسائل الخمسون ، المسألة ١٢ ، ص ٤١-٤٢ ، الطوسي ، تلخيص المحصل ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) ابن المطهر الحلي ، نهج الحق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٣) ابن المطهر الحلي ، نهج الحق ، المصدر السابق ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

الشخص ، فسألت بعضهم عن ترك صلاة ذلك الشخص ، فقال : وما حاجة هذا الى الصلاة وقد وصل ، أيجوز ان يجعل بينه وبين الله حاجبا ؟) .

فقال : (الصلاة حاجب بين العبد و الرب)

ثم يتكلم الحلبي بحرقة فيقول : (انظر أيها العاقل الى هؤلاء ، وعقائدهم في الله تعالى كما تقدم ، وعبادتهم كما سبق ، واعتذارهم في ترك الصلاة كما مر ، فهؤلاء اجهل الجهال)^(١) .

وقد وجد الفضل بن روزبهان في رده على الحلبي في هذه المسألة : ان هؤلاء الذين يعنيتهم الحلبي هم بعض من فرقة القلندرية الفسقة الذين يزورون مشهد الامام الحسين (عليه السلام) بايام المواسم والزيارات ، ولذا ليس من الحق تعميم ذلك على المشايخ المحققين امثال الشيخ عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية والشيخ الصوفي الجليل عمر السهروردي صاحب كتاب (عوارف المعارف)^(٢) .

هذا كان موقف الحلبي من التصوف ، ومن بعض فرق الصوفية في الفترة التي سبقته ، وعاصرته ، يناقش المبادئ ، ويعنف أصحاب الحلول والاتحاد وسقوط التكاليف واهل الرقص والغناء ، واهل السكر والغناء والغيبة عن الذات ، دون ان يتعرض الى أسماء الذوات العاملين بها او يجرح احداً من الناس ، فقد سمى على كل تلك الاعتبارات ، وتلك هي عادة المفكرين الكبار ، الذين يعدّون المسائل الثقافية العقلية امراً يمس النفس ويرتفع بمستواها الروحي . اما التطبيقات العملية والابتداع فهو الذي يجب تجنبه ، وهكذا نسب للعلامة ابن المطهر الحلبي شعر في الحب الإلهي ، تنبعث منه نفحة صوفية زهدية لا تنتمي الى الدروشة بحال ، ولا تنتمي الى اصحاب المسابح الطويلة ، والخرق البالية ،

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) الفضل بن روزبهان ، ابطال الباطل ، ج ٢ ص ٢١٠-٢١١ .

والعكازات المتهرئة والزهد الظاهري ، بل نموذج للتسامح الصوفي والايثار
والمحبة والمساواة بين الناس يقول الحلبي :

لي في محبته شهود اربع خفقان وشهود كل قضيته اثنان
قلبي واضطراب جوانحي وشحوب لوني واعتقال لساني^(١)

من الجدير ذكره هنا ان العلامة ابن المطهر الحلبي قد رصد بعض الغلاة
الخارجين عن الدين ممن يقول بالتناسخ ، ومن هؤلاء من جوز الانتقال من نفس
بدن انساني (الى بدن حيوان) وهذا يسمى المسخ .

ومنهم من جوز الانتقال الى جسم نباتي ، وهذا يسمى نسخاً .

ومنهم من جوز الانتقال الى الجماد وهذا يسمى رسخاً .

وقال الحلبي : (وقد صدر عن القوم حجج في أبطال التناسخ ، عددها
وفصل اباطيلها ورد عليها واحدة بعد الأخرى^(٢)).

ومن المرجح ان هذا لا يمت بصلة الى التصوف الإسلامي بكل أشكاله .

شيوخ التصوف ورواده على حد سواء كبار في علمهم، منزهون في
عقائدهم لان التصوف في حقيقته يسعى الى تنزيه الخالق وتجلي الربوبية ، بل
صرحوا كلهم في عقائدهم ببطلان الاتحاد والخلول والتناسخ وتعطيل الشريعة ،
وعدوا من يقوم بهذا منافٍ للعقل وللشرع ، فهم في فهمهم لواجب الوجود أهمل
محض التوحيد وحقيقة الإسلام ناشئة من أقوالهم ، ظاهرة على أعمالهم
وعقائدهم، هم حقا أهل التوحيد والتمجيد^(٣).

(١) الشيباني ، د . كامل مصطفى ، الفكر الشيعي ، ص ١١٨ ، نقلاص عن الانوار النعمانية
ص ٣٨١ .

(٢) الحلبي ، الاسرار الخفية ... ، ص ٦٩ .

(٣) الفضل بن روزهان ، ابطال الباطل ، ج ٢ ص ١٩٧ .

في الآن

قد نقلنا عن المتكلمين أن الآن جزء من الزمان ، كما أن الجوهر الفرد جزء من الجسم ، والبحث ههنا على رأي نفاة الجوهر .

فنعول :- يقال الآن بحسب المجاز للزمان القصير جداً وبحسب الحقيقة للذي يقع فصلاً متوهماً يقع بين زمانين ، ولا وجود له إلا في التوهم و إلا لزم انقطاع الزمان .

قالوا : وهو محال ، لأن القطع إما أن يكون في ابتدائه ، فلا قبل لذلك الزمان ، فلم يسبقه عدمه ، وإما أن يكون في انتهائه فلا بعد له فلا يتأخر عنه عدمه

ونحن لما جوزنا وجود قبلات و بعديات لا بالزمان ، سقطت هذه الحجة عندنا

قالوا : فالآن إنما يوجد وجوداً متوهماً إما بأن يفرضه فارض .
وإما بوصول حركة حداً ما غير منقسم كمبدأ طلوع أو غروب ، فهذا هو الآن الذي يقع في زماني الماضي والمستقبل بحسب العرض وقد يتوهم الآن على معنى آخر فإننا قد نتوهم منتقلاً في المسافة والزمان ، فالمنتقل يفعل بنقلته سيلاناً هو الحركة بمعنى القطع ويلزمها الحركة بمعنى التوسط ، ولأن الحركة بهذا المعنى هي الفاعلة الأولى وهي غير منقسمة ، كذلك يوجد في المسافة جزء ما يتحرك عند المتحرك ، بمعنى التوسط ، وفي الزمان إن ما يتحرك فيه المتحرك ، الحركة بمعنى التوسط أيضاً ، وكان هذا الآن يفعل بسيلانه الزمان كما أن الحركة بمعنى التوسط كانت فاعلة بسيلانها الحركة بمعنى القطع فان المتحرك بمعنى التوسط لا يوجد معه خط المسافة فإنه قد قطعه ، ولا الزمان فقد سبق ، وإنما يوجد له في كل واحد طرفه ، فيوجد له من الزمان الآن ومن خط المسافة

(١) في المطبوع على الزمان .

الحد الذي هو فيه إما نقطة أو خط وهذا الكلام في غاية السقوط . فإنه كيف يصبح ثبات الآن واستمراره حتى يفعل الزمان ؟

قالوا :- ولا يمكن وجود آتات متعاقبة والإلزام وجود أجزاء لا تتجزأ وكذلك لا يمكن أن تكون للآن أجزاء وإلا لكان بعضها مترتباً على البعض فيكون بينها زمان .

وأشكل هاهنا فقيل: عدم الآن، إما أن يقع دفعه، فتتألى الأتات وإما أن يقع على التدريج فيلزم انقسام الآن .

قال الشيخ :- هذه القسمة غير حاصرة، فإن هاهنا قسماً آخر وهو أن يكون عدمه في جميع الزمان الذي بعده ، فلو قيل ليس الكلام في استمرار عدمه بل في ابتدائه قبل ابتداء عدمه وهو وجوده ، ولا استبعاد في أن يكون الشيء في زمان في طرفه بخلافه كالمتحرك والساكن، فإنه حاصل في جميع الزمان، وليس بحاصل في طرفه .

وتحقيق هذا الموضع أن نقول : المتقابلان إذ كانا في قوة المتناقضين، استحال خلو الزمان وطرفه عنهما معاً ، فإذا كان في الزمان أحدهما جاز أن يكون في الآن الآخر كالمتحرك وغير المتحرك ، والمماس وغير المماس ، والموجود والمعدوم . فإذا كان الشيء تشابه حاله في أي آن أخذت من زمان وجوده ولا يحتاج إلى مطابقة مدة، فإنه يكون موجوداً في الآن كالمماس والملافة والترتيب وغيرها من الهيئات القارة . {٢٠٠}

وإن كان لا يصح وجوده في الآن بل يفتر وجوده إلى مطابقة مدة، فإنه لا يكون موجوداً في الآن بل في الزمان الثاني، كالحركة والمفارقة والملافة مماسة^(١)، وهذا القسم على أمرين :-

(١) في المطبوع وفي المماس .

أحدهما : يجوز أن يتشابه حاله في أنات من زمانه دون أنات^(١) وقوعه
المبتدأ . ومنه ما لا يجوز ، أما الأول فكاللاماسة^(٢) التي هي المبانة فإنها
متشابه بالنسبة الى جميع الأنات التي تفرض في زمان وجودها، لكنها لما استحال
وجودها دون الحركة استحال وقوعها في الآن المبتدأ . ويشبه أن تكون الحركة
بمعنى التوسط من هذا القبيل .

وأما الثاني : فالحركة بمعنى القطع، فإنها لا تتشابه أحوالها في جميع
الأنات المفروضة في الزمان. فقد اشترك هذان القسمان في أن الزمان المفروض
يوجد فيه ما يخالف الموجود في الآن الفاضل . ويتميز الثاني عن الأول ، بأن
الثاني لا تتشابه أحواله في الأنات ، و الأول تتشابه .

فالحاصل من هذا ان الوقوع لا دفعه إن عني ما يشتمل هذين الأمرين
أخترنا أن يكون عدم الآن من هذا القبيل، ولا يلزم أن يكون زمانياً . وإن عني به
هذا الأخير من القسمين منعنا القسمة بإبداء الأول من هذين .
وإن لم يكن المتقابلان في قوة المتناقضين ، أمكن خلو الزمان وطرفه
منهما . وهو ظاهر .

قيل هاهنا: حصول الشيء أو عدمه على التدريج غير معقول ، فإن
الجزء الأول من الزمان إن لم يحصل فيهما شيء ، لم يكن الحصول في جميع
ذلك الزمان

وإن حصل فإما أن يكون الحاصل هو الذي يتحصل في الجزء الثاني
، فيكون ذلك الشيء في الجزء الأول موجوداً معدوماً معاً . هذا خلف .

(١) في المطبوع كلمة "دون أنات ساقطة".

(٢) في المطبوع كاللماسة .

وإن كان غيره ، لم يكن ذلك الشيء الحاصل في ذلك الزمان واحداً بل أشياء كثيرة حاصلة في جميع أجزاء ذلك الزمان ، فإذن عدم الآن إنما يحصل في آن ويستمر فيلزم تتالي الآتات .

أجاب عن هذا بعض المحققين: بأن معنى الحصول على التدرج هو حصول الشيء الذي له هوية اتصالية لا يمكن أن تتحصل إلا في زمان ، كالحركة^(١)، ولا يلزم من ذلك أن يكون حصولها حصول أشياء كثيرة في أجزاء ذلك الزمان . لأنها من حيث هويتها الاتصالية ليست بملتزمة عن أشياء كثيرة، {٢٠١} بل هي شيء واحد من شأنه قبول الانقسام إلى أجزاء ، فهي قبل عروض القسمة شيء واحد منطبق على ذلك الزمان . فهذا هو الحصول التدريجي.

ويقابله مالا يحصل على التدرج ، بل إما في طرف زمان فقط كموافاة حد ، وإما في الزمان لا بالمعنى الأول ، بل بمعنى أن لا يوجد في ذلك الزمان آن الا ويكون ذلك الشيء حاصلاً فيه . وهذا ينقسم إلى ما يوجد في الآن الذي هو طرفه كما كان موجوداً فيه كالتربيع مثلاً ، وإلى مالا يكون كاللاوصول ، كالحركة بمعنى التوسط . فإن جميع ذلك مما يحصل في زمان وفي طرفه أو فيه دون طرفه.

سر : معية الشئيين^(٢) بالزمان غير معية أحدهما للزمان ، فإن تلك تفتقر إلى أمر ثالث هو الزمان بخلاف هذه ، والكلام في هذا كالكلام في المتقدم والمتأخر .

((والقديم))^(٣) قد يفسر بما يستطال زمان وجوده ، وهذا على سبيل المجاز ، وبحسب الحقيقة يقال للذي ليس لزمان وجوده أول .

(١) في المطبوع " في زمان الحركة " .

(٢) في المطبوع " معية الشيء في الزمان " .

(٣) القوسان من عندنا .

قيل: ولا يجوز تفسيره بأنه الذي لا أول لوجوده ، فإن الوجود لا أول له ولا آخر . وإنما يعرضان للزمان ، فإن كل ما يكون له أول وآخر فيبينهما^(١) اختلاف معقولي^(٢) - كالجنس والنوع- أو مقداري أو عددي ، وليس للوجود شيء من ذلك بذاته .

وكذلك ((الحدث))^(٣) ما يكون لزمان وجوده ابتداء ، فالأمور التي ليست بزمانية لا تكون قديمة ولا محدثة كواجب الوجود والزمان نفسه ، وإذا اعتبرت نسبة واجب الوجود أو غيره من الثوابت إلى الثوابت كانت هي السرمد. وإن اعتبرت إلى غير الثابت كانت هي الدهر.

ودوام الوجود في الماضي هو الأزل ودوامه في المستقبل هو الأبد. والدوام المطلق هو الدهر.

والزمان كمعلول للدهر ، والدهر كمعلول للسرمد^(٤) فإنه لولا دوام نسبة المجردات إلى مبدئها ما وجدت الأجسام ، فضلاً عن حركتها . ولولا دوام نسبة الزمان إلى مبدأ الزمان، ما وجد الزمان . ونحن لا نستصوب هذا الكلام .

واعلم أنه قد يقال الآن لكل فصل مشترك بين زمانين ، ولو في أقسام الماضي أو المستقبل .

وقد يفهم منه طرف الزمان وإن لم يدل على اشتراك ، بل هو صالح لأن يجعل طرفاً في الوهم ، فاصلاً غير واصل، وأن لا يمكن أن يكون إلا واصلاً، لكنه قد عرف بنظر آخر . ويقال: آن ، ويفهم منه زمان قريب من الآن

(١) في س قضية

(٢) في س ، معقول وفي المطبوع معنوي.

(٣) بين القوسين إضافة من س .

(٤) في المطبوع كمقدار للدهر ، والدهر كمقدار للسرمد.

جداً ، وإذا قالوا : وجد الشيء بغتة عنوا به نسبة الأمر إلى الزمان غير مشعور به، قصيراً بعد أن^(١) لا يكون الأمر متوقعاً .

ويقال: دفعة لما وجد في آن، أو لما لم يوجد قليلاً قليلاً . والمتقدم في الماضي يدل على ما هو أبعد من الآن الحاضر والمتأخر على ما يقابله ، وفي المستقبل بالعكس منهما .

(١) في س ، بعد الآن.

الخاتمة

لعل موضوع هذه الدراسة (الفكر الفلسفي في القرن السابع)، دراسة في كتاب "الأسرار الخفية في العلوم العقلية" للشيخ الحسن بن المطهر الحلي ، على وفق الرؤية التي تحدثت عنها الأطروحة ، والمزيج الفكري الذي اختطته ، إنما هو امتداد لدراسة (الفلسفة العربية الإسلامية) منذ نشأتها الأولى في بغداد ، امتداداً حتى القرن السابع الهجري، يوم شكلت قاعدة ومرتكزا لكل تقلسف ظهر فيما بعد ، سواء أكان مشرقياً أم مغربياً ، عربياً إسلامياً ، أم لاتينياً أوريبياً ...

ويخطئ خطأ كبيراً من وجدها قد انتهت مع الغزالي في المشرق ، أو مع ابن رشد في المغرب ، بل هي قائمة مستمرة ، تعددت مراكزها في أقطار الإسلام كافة ، وتمركزت خطاباتنا في كل محفل فكري ، على امتداد الزمان ، وتعدد المكان.

الفلسفة العربية الإسلامية التي تعدها في القرن السابع الهجري، مفكرون أعلام تمحورت عليها كتب الشيخ فخر الدين الرازي ، وسديد الدين بن عزيزة بن محفوظ ، والشيخ الأمدي، والشيخ ميثم البحراني، والمحقق الحلي ، والشيخ ابن تيمية ، والشيخ نصير الدين الطوسي، وعز الدولة بن كمونة ، والشيخ عمر السهروردي ، وابن الفارض، وابن عربي، وغيرهم كثير ، يفوقون العد ولا يبلغهم الحصر ...

فلسفة هذا- شكلها- ومصنفات أولئك الأعلام، بغزارتها وموضوعيتها، تلك- مضمونها- جعل منها قبلة للدارسين ، وحقلاً مزهراً للطلالين ..

هذه الفلسفة ولا ريب ، فلسفة قامت على أسس قرآنية أصولية كلامية ، غلفها التصوف الإسلامي بشيء من كراماته ، وحوّت في داخل بنيانها كل ما هو خارج عنها ، ولكنها صبغته بصبغتها المؤمنة ، وهو الأمر الذي وجده الباحثون

شاخصا في تعامل هذه الفلسفة مع أصول سابقة عليها ،وعلى الخصوص مع الفلاسفة اليونانيين، وفي المقدمة منهم: أفلاطون وأرسطو وافلوطين وغيرهم.

حاول الفخر الرازي ،وتلميذه الأمدى، ونصير الدين الطوسي ،حتى وصل الأمر إلى ابن المطهر الحلي ،والقاضي عبد الرحمن الأيجي ، و بما حباهم الله من عقل واسع ، أن يلبسوا الفلسفة اليونانية لباسهم الديني والعقدي ، وان يعطوها صفة الفلسفة العربية الإسلامية ، شكلا ومضمونا ،على وفق ما فعل سلفهم الصالح منذ الكندي حتى ابن سينا وصولاً الى الغزالي، أي إن " الفلسفة العربية الإسلامية" كُتبت وبيئت هؤلاء الفلاسفة الإغريق، للعقل العربي الإسلامي، رؤية ومنهجاً كونياً، يجوب العالم ، وميتافيزيقياً وطبيعياً وأخلاقياً وسياسياً تطمئن لها النفوس ، بل واستندت هذه "الفلسفة العربية الإسلامية" على أصول تلك الفلسفة الغربية، في دفاعها عن أصول الدين الإسلامي ، ضد منتقسيها من الزنادقة والملاحدة وأمثالهم من المناهضين ...

وفي ضوء ذلك بالإمكان استنتاج جملة أمور منها :

١ . في التاريخ السياسي :

أ . من خلال جملة أسباب، ومختلف الوثائق، تجمعت بين ثنايا هذه الأطروحة ، سواء منها التي كانت على ساحات المسائل السياسية أم العسكرية خاصة ، أم التي كانت على ساحات الفكر العربي الإسلامي عامة .. ظهر واضحا وجليا : أن القرن السابع الهجري ، كان من أخطر القرون التي شهدتها الأمة ، بل كان أصعبها أحداثا ، وأخطرها أهدافا ، وأسوأها نتائج وتبعات

كان القرن السابع الهجري ، نقطة تحول نحو الهاوية ، التي لما تزل قائمة، لم تستفك الشعوب من صدمتها ، ومما لحق بعدها من كوارث متعاقبة ، نعيشها حتى الساعة ، بل وكان من ذيلها الذي نرى ...

ب . الأمر الآخر الذي تلمسته الدراسة ، وصار واضحاً بين يديها : أن المخاطر والتحديات التي واجهت الأمة العربية الإسلامية في القرن السابع الهجري، هي نفسها تواجه الأمة الآن ، بصيغة أو بأخرى - وإن اتخذت أشكالاً وأنماطاً متعددة - بها حاجة إلى مزيد من التدقيق ، لاستنباط العبر وتلمس الطريق ...

الغزو والاحتلال اللذان مارسهما المغول ، وعلى الخصوص خلال الفترة (٦١٦ هـ - ٦٥٦ هـ) أعادوا من جديد يهددان الأمة ، بعينان بثوابتها ، بحجة وبدونها ...

الذي أثلج الصدر ، وأزال الغم ، أن القنلة الغزاة المغول عام (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) سرعان ما انقلبوا على أنفسهم ، بعد أن بدت لهم سوءتهم ، فكفروا عن ذنوبهم ، وغسلوا أدران أعمالهم ، حين دخل نور الإسلام إلى قلوبهم ، يوم وعوا الطريق فسلكوا أرحبه ، وعادوا إلى عقولهم فتلمسوا الحقائق ، فصاروا من دعاة الإسلام ومن حماة ، وكان لهم الفضل في نشره بين أهلهم وفي ديارهم ... أما المحتلون هذه الأيام ، فما زال نور الإسلام بعيداً عنهم ... والله في خلقه شؤون .

ج . الخليفة الناصر لدين الله ، رجل دولة ، قدير ناضج ، لم يماثله أحد من خلفاء بني العباس من قبل ومن بعد غير الخليفة المنصور . . . الخليفة الناصر ، يتسم بالشجاعة والدهاء السياسي ، جسور له من الخطط في الحفاظ على الدولة ، واستقرار الأمة ، ما لم يفتن لها الحكام ألا متأخراً ، وعلى وجه الخصوص في الربع الأخير من القرن العشرين ، وما زال نظام الخليفة الناصر يسود العالم ، ولكن بصيغ غير إنسانية على خلاف ما كانت على عهد الخليفة العباسي ...

كان الخليفة الناصر لدين الله من المتحمسين لنظام الفتوة وعسكرة الشعب ونظام الكشافة وتدريب الجموع ، وهذا النظام هو حركة عسكرية دينية

منظمة وملتزمة ، هدفها الدفاع عن الإسلام ودولته ، بصيغ جديدة ، أكثر إيجابية ونفع من تنظيمات الجيوش الظاهرة التنظيم ...

جنود هذا النظام ، رجال البريد ، بعيدون عن عيون الناس ، قرييون من أفعال الأعداء ، والتمكن من محققها قبل وقوعها ...

وتأسيا على ذلك ، فإن الخليفة الناصر لدين الله غير مسؤول عن النكسة أو النكبة والسقوط التي لحقت بدولة بني العباس ... بل كان العكس صحيحا . .
والمسؤولون هم : ابنه الخليفة الظاهر وحفيده الخليفة المستنصر بالله ، وحفيد ابنه الخليفة الشهيد المستعصم بالله ، لأسباب بها حاجة لإعادة النظر والدراسة والتدقيق ...

د- حال الأمة ومنذ أربعين سنة يشبه إلى حد كبير ، حال الأمة منذ (٦١٦ حتى ٦٥٦ هجرية) ، تعيش مأساة الوزير ابن العلقمي ، وحماس قائد الجيش الدويدار الصغير ، وحمل الخليفة المستعصم ، الثقل ، الذي لم يعد له ، جعل الأمة لقمة سائغة بيد الغزاة ... مع أن بيوت الغزاة كانت أوهى من بيوت العنكبوت ، منهارة من الداخل ...
وفارس الأمة في غفوة ...

٢ . في الفكر الفلسفي :

أ . اعتمدت هذه الأطروحة على مقولة سيق للباحث الأخذ بها : أن الفكر العربي الإسلامي بعامته ، وفي القرن السابع الهجري منه على وجه الخصوص ، قد قام على أربعة أسس متينة وركائز ثابتة - استوجبها مستجدات الصراع العقيدي ، منذ البواكير والنشأة وحتى ذلك القرن ، استدعتها الضرورة الملحة لإشباع حاجات الجمع المسلم الذي دخل في دين الله .

فكان أول هذه الأسس وأكثرها مسؤولية هو (علم الكلام) ، الذي انبثق من وهج القرآن الكريم ، فتي شابا لم يمر بطفولة .

وانفلقت من ذات العلم المؤسس علوم هي ، "علم أصول الفقه" و"الفلسفة العربية الإسلامية" و"علم التصوف" ...

وعلى هذا لا يمكن دراسة الفكر العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري، بعيداً عن مكوناته، أو النظر إلى كل منها بصورة مستقلة ، لتداخلها جميعاً واتصالها الوثيق فيما بينها .

جرت القواعد الكلامية، المفاهيم الفلسفية ، إلى مضامينها، بنفس القدر الذي تكيف الخطاب الفلسفي بموازين علم الكلام ، وبعلم التصوف حتى صار التصوف في القرن السابع الهجري لا يبتعد عن المنطلقات الفلسفية كثيراً، بعد أن وجد في العقل طريقاً يوصله إلى الله كما هو الوجد ونحوه ...

ب . الفكر الفلسفي الذي اعتمدته هذه الأطروحة ، ليس مغلقاً، ليس محجوباً، كما أراده أفلاطون في جمهوريته ، بعيداً عن الأرض قريباً من السماء ، بل هو المفكر بعامة، المتأمل، الذي يزن المفاهيم برجاسة عقله ، ويفسر مستلزمات الحياة بما وسع فكره، ويقرر الصالح منها بسلامة منهجه ...

ج . هذه الأطروحة اعتمدت خطاب (الفلسفة العربية الإسلامية) ، ولم تتكلم عن فكر عربي بدون ربطه بالإسلام ، أو بفكر إسلامي دون ربطه بالعربي كل منهما بمفرده، لا يصيب كبد الحقيقة، ويبقى بعيداً عن التعبير عنهما معاً ، فهما بالتأكيد صورة واحدة لشجرة وارفة ، وهذا لا يعني أن " الفلسفة العربية الإسلامية " قد انغلقت على أهل الديانات السماوية الأخرى ، أو نسخت أفكار المسلمين من أصحاب اللغات غير العربية ... كلا...

" الفلسفة العربية الإسلامية " لا تهضم حق الفكر الآخر ، بل هذه جمعها أصل أصيل من مكونات "الفلسفة العربية الإسلامية" ، وركن متين من أركانها المعروفة ، واسم متمم لأسمائها، وأساس رصين في وحدتها الحضارية الممتدة عبر الزمن ...

فهي إذا جزء متمم للعقلانية العربية الإسلامية بعامّة، تضمها خيمة الحضارة العربية الإسلامية ...

د. علم الكلام في القرن السابع الهجري، وكنتيجة طبيعية لتطور الصراع الفكري والعقدي مع أهل الحجاج والمحاجة ، اتخذ صورة فلسفية واضحة، تهدف إلى وضع أساس عقلي، لعقائده الموروثة ، ثم استقر نهائياً على قواعد فلسفية ،ومفاهيم عقلية، وأدوات علمية، كما هو حال المنطق والفيزياء .

بدأت أوائل هذا القرن مع فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) ، صيغاً متقدمة تحدد العلاقة الجديدة بين الدين والفكر الفلسفي ، وبين الوحي والعقل ، قلما نجد لها نظيراً في غير دائرة الفكر الفلسفي العربي الإسلامي ... هذه الظواهر صارت واضحة تمام الوضوح في كتابات الآمدي والطوسي والعلامة الحلبي، حتى تابع المسيرة بعدهم الشيخ عبد الرحمن الايجي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م)

في كتابه " المواقف" على الخصوص .

هـ. ظل علماء أصول الفقه على تقصيرهم السابق - فمنهم من استمر في منع الاجتهاد في استنباط الأحكام ، وظل بعيداً يهمل على كتب السلف الصالح " رضي الله عنهم " ، وعلى كتاب العبادات من أصول الفقه دون غيره . والذين فتحوا باب الاجتهاد ، ظل اجتهادهم مقتصرًا على كتاب العبادات أيضاً ، ينظمون العلاقة بين العبد وربّه ، وكان الله سبحانه وتعالى يتربص الدوائر بالعباد كحاكم مستبد . .

وإلى جانب ذلك ، نسي هؤلاء كتاب المعاملات من "أصول الفقه"،الذي ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، ومتابعة شؤون الرعية مع الحكام ، إلا من كان منهم بارعاً في الزلفى ، بين يدي السلاطين ...

أما مسائل الكتاب الثالث في علم "أصول الفقه" وتعنى به (أصول فقه الخلافة الإمامة والأمانة) ، فقد ظل يراوح بمكانه والذي ظهر كان في خدمة الحكام ...

في حين أن علم "أصول الفقه" ، هو علم استنباط الشرائع والقوانين والأحكام بكل مستجداتها ، عبر كل مكان وعبر كل زمان ... حتى جاء من يقول لهم : اقعّدوا فلم تعد شريعتكم المورّد الأول في التشريع ... وكفى الله القاعدين شر القتال ...

هـ . كان علم التصوف هو السيد في القرن السابع الهجري ، في كل موارد ، وعلى مستوى كل فرقة ... لقد تصوف الرئيس والقائد والوزير والتابع ، ولا أظن ذلك قربي أو ترفاً إلى الله ، بل لقد قتلت النفوس من الداخل فساد مبدأ التواكل .

٣ . في العلامة الحلي :

وجدت الأطروحة ابن المطهر الحلي : عالماً ، فقيهاً ، متكلماً ، أصولياً ، فيلسوفاً ، صوفياً ، موسوعة قل نظيرها ، وباستيعاب عال لعلوم عصره ، فكان القائد والمرجع ، والقُدوة ...

قرأ الحلي بإمعان، ما وصل إليه من الفلاسفة اليونان ، وتشبعت أفكاره ، واختزنت ذاكرته ما وجده عندهم ، ولكنه كان أقرب إلى المدرسة الأفلوطينية الحديثة، منه إلى غيرها من المدارس اليونانية ...

قرأ الحلي أفكار المتكلمين المسلمين الأول ، العلاف ، النظام ، متكلمي مدرسة الاعتزال البغدادية، درس الأشعري وعلق على أفكاره كثيراً ، ووقف على أفكار الغزالي ومن جاء بعده ، كان معجباً بفخر الدين الرازي ، وسماه من المحققين المتأخرين ...

قرأ الحلبي أفكار الفلاسفة العرب المسلمين ، من الكندي والفارابي ، وسبر أغوار أفكار ابن سينا وأبي البركات البغدادي ، وابن رشد ، وتحمس الحكمة الإشرافية ودخل منها إلى التصوف ...

ولكن الحلبي لم يكن قريبا من أي منهم، قدر قربه من ابن سينا ، فقد انغمس في قراءة كتبه الفلسفية ، و "كشف الخفي عن كتاب الشفاء" ، " حاكم بن شراح الإشارات" ، ولكنه لم يكن سينويا صغيرا ، لأن الوسط الروحي الذي عاش فيه، والرجال الأعلام من عائلته ، شيوخ الفقه، وعلماء السنة الشريفة ، في مدينة الحلة ، وكذلك منصبه الديني ، أضافت إليه خصوصية أفردته عن سابقيه

٤ . في كتابه "الأسرار الخفية في العلوم العقلية"

أ . لعلنا لا نجانب الحقيقة أن نذكر : أن أوضح الأفكار التي أنتجها الفكر العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري ، هي الأفكار الفلسفية التي ضمها كتاب " الأسرار الخفية في العلوم العقلية" ، والباحث وقد عاش مخطوطة هذا الكتاب منذ عام ١٩٧٣ ، وسجد في محرابها كثيرا ، لمس هذا عن قرب، ليس هنا مورد ذكرها ...

ب . كتاب "الأسرار الخفية في العلوم العقلية" ، كان قد استقصى فيه مؤلفه ابن المطهر الحلبي آراء وأسرار الفكر الفلسفي العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري ، بوب تلك الأمور الفكرية تحت عنوان موحد وهو كلمة (سر) ومجموع تلك (الأسرار) ، كان الحلبي قد وضع يده على خلاصة أفكار عصره ، نقدها، صفاها ، شذبهها، جعل لها أبوابا، ومخارج، ومفاهيم، إلا يدخلها ألا من كان بها وبشعابها خبير .

التوصيات

١ . مهرجان لابن المطهر الحلي:

ستحل بتاريخ ٢١ / محرم / ١٤٢٦ ، العام القادم ، المصادف ليوم الاثنين ٢ / آذار / ٢٠٠٥ م الذكرى المئوية السابعة على وفاة العلامة ابن المطهر الحلي ، ويتمنى الباحث على الجهات ذات العلاقة ((وزارة الثقافة ، جامعات القطر كافة ، المحافل الدينية ، الحوزات العلمية)) ، العمل على تنظيم احتفال يليق بالمناسبة ، وإعداد منهاج حافل، يشارك فيه العلماء وذوو الفضل، كما عملت الدولة عام ١٩٦٢ م مهرجانا للكندي . وكما عملت الجهات الثقافية احتفالا مناسبا لحجة الإسلام الغزالي ، في مثل هذه المناسبة، وشاركت في إحيائه الجامعات السورية والمصرية وجمع من العلماء ٠٠٠ وكما عملت الكثير من جامعات العالم والجامعات العربية والإسلامية وبيت الحكمة ببغداد عام ١٩٩٥ م، مهرجانات للفيلسوف المغربي ابن رشد بمناسبة مرور سبعة قرون على وفاته ... وبذلك الاحتفال نكون قد أكرمنا العلم والعلماء .

٢ . استقصاء آراء مدرسة الحلي

للعلامة ابن المطهر الحلي وأرائه الفلسفية كيان شامخ ، وثوابت متميزة ، ومدرسة فلسفية واضحة المعالم ، ولكنها في مجملها مدرسة منسية .
يقرأ الباحثون الحلي فقيها، متكلما ، أصولياً، محدثاً، ولم يدرس فيلسوفاً، مع أنه من رواد "الفلسفة العربية الإسلامية" في القرن السابع الهجري .
إن استقصاء آراء هذه المدرسة ، وفرزها عما لحق بها وقيام الباحثين والكتاب بتحديد أبعادها ، وتحقيق ما يمكن من مخطوطات كتابها ، سيمكنهم ولا ريب من الاسترسال في الكتابة عن الفلسفة ، وتدوين تاريخها، بصورة متكاملة ومتسلسلة، من العلاف والنظام مفكرين كباراً، إلى الكندي فيلسوفاً ، و انتهاء بجمال الدين الأفغاني ، ومحمد إقبال ، وعشرات غيرهم ... هذا كون هذه المهمة ضرورة علمية وإنجازا فلسفيا ومستمسكا ماديا ، يدحض الكثير من الأوهام، التي صارت كالحقائق عند البعض من المعاصرين ...

المراجع

❖ آدم منتر

- (١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، جزءان ، نقله الى العربية د. محمد عبد الهادي ابو ريده ، ط١ ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .

❖ ابراهيم مذكور

- (٢) في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيق ، جزءان القاهرة ١٩٦٨
الالوسي ، د. حسام محيي الدين .
- (٣) (حوار بين الفلاسفة والمتكلمين) ط١ / بغداد ١٩٦٧ .
- (٤) (الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم) ط١ ، بيروت ١٩٨٠ .
- (٥) (دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي) ط١ ، (المؤسسة العامة للدراسات والنشر بيروت / ١٩٨٠ .
- (٦) (فلسفة الكندي ، آراء القدامى والمحدثين فيه) ، ط١ دار الطليعة بيروت ١٩٨٥
- (٧) (من الميثولوجيا الى الفلسفة) ط٣ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٥ .
- (٨) (الفلاسفة العرب ونظرية تطور الطبيعة) بحث في مجلة افاق عربية ، بغداد ، العدد ٥١ / ١٩٨٥ .
- (٩) (الفلسفة والانسان) ، ط١ ، مطبعة دار الحكمة ، بغداد ١٩٩٠ .
- ❖ الاعسم، د. عبد الامير
- (١٠) (رسائل منطقيه في الحدود للفلاسفة العرب) ، دار المناهل بيروت ١٩٩٣ .
- (١١) (ابن رشد والعالم) ضمن الجزء الاول من بحوث الندوة العربية لذكرى

وفاة ابن رشد في بغداد / ١٩٩٨) .

❖ احمد امين :

(١٢) (ضحى الاسلام) ثلاث اجزاء ، ط ٦ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر
القاهرة ١٩٦١ .

احمد سليم سعدان

(١٣) (مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام) الكويت سلسلة كتب عالم
المعرفة ، ١٩٨٨ .

❖ اسماعيل باشا بن محمد بن مير سليم البغدادي :

(١٤) (ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون
(مجلدان ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .

(١٥) (هدية العارفين ، اسماء المؤلفين واثار المصنفين في كشف الظنون) ،
دار الفكر .

❖ اسماعيل مظهر :

(١٦) (تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره) دار الكاتب العربي ، بيروت
(بلا تاريخ) .

❖ امير علي مؤلف كتاب (روح الاسلام) :

(١٧) (مختصر تاريخ العرب) نقله الى العربية عفيف بعلبكي / بيروت ، دار
العلم للملايين ١٩٦١ .

❖ ابو زهرة ، الشيخ محمد ابو زهرة :

(١٨) (الامام الصادق) - حياته وعصره - اراءه الفقهية - القاهرة - دار
الثقافة العربية .

(١٩) (الامام ابو حنيفة) ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ١٩٤٧ .

(٢٠) (الامام الشافعي) ، ط ٢ ، دار الحماشي للطباعة / القاهرة ١٩٤٨ .

❖ ابو العلاء عفيفي، الدكتور .

(٢١) الملامتية والصوفية، دار الشعب، القاهرة/ ١٩٤٥.

(٢٢) التصوف والثورة الروحية...، بيروت، بلا تاريخ.

❖ بارتولد ، و :

(٢٣) (تاريخ الحضارة الاسلامية) نقله من التركية الى العربية حمزه

طاهر، مطبعة المعارف، مصر ١٩٤٢ .

❖ البحراني، الشيخ يوسف بن احمد، (ت ١١٨٦ / ١٧٧٢ م).

(٢٤) لؤلؤة البحرين...، مطبعة النعمان، النجف ، بلا تاريخ.

❖ بدري محمد فهد :

(٢٥) (العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري) مطبعة الارشاد ، بغداد ،

حزيران ١٩٦٧ .

(٢٦) العراق في العصر العباسي المتأخر، بغداد / ١٩٨٧.

❖ بدوي ، د. عبد الرحمن

(٢٧) ربيع الفكر اليوناني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٨م

(٢٨) خريف الفكر اليوناني ، القاهرة ١٩٥٩م

(٢٩) مذاهب الإسلاميين، بيروت / ١٩٧١.

❖ برو كلمان ، كارل :

(٣٠) (تاريخ الادب العربي) ترجمة د. عبد الحميد النجار ، مطبعة دار

المعارف ، مصر ١٩٦٢ .

❖ الجابري / علي حسين :

(٣١) (العقل والعقلانية في مدرسة بغداد الفلسفية) مجلة المورد / العدد

٨ / ٣ / مجلد ١٧ بغداد ١٩٨٨ ، ص (٣٢-٦٦).

(٣٢) (بيت الحكمة البغدادي ، الانجاز الفلسفي بين اليوم والامس) ضمن

كتاب (بيت الحكمة) بغداد كانون الثاني ١٩٩٧ .

- ٣٣) فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، بغداد / ١٩٩٣.
- ٣٤) العرب بين منطقي الحوار والصراع، دار الشؤون الثقافية، بغداد / ١٩٩٦.

❖ الجابري : محمد عابد

- ٣٥) (نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي) الدار البيضاء ١٩٨٣ .

- ٣٦) (المنهجية في الادب والعلوم الانسانية) ، الدار البيضاء ١٩٨٦ .
- ٣٧) التراث ومشكلة المنهج (مجلة المستقبل العربي ، العدد ٨٣ / كانون الثاني ١٩٨٦ .

- ٣٨) (قضايا في الفكر والمعاصرة) بيروت ، حزيران ١٩٩٧ .

- ٣٩) بنية العقل العربي، ط٩، بيروت / ١٩٩٧.

- ٤٠) تكوين العقل العربي، ط٧، بيروت / ١٩٩٨.

❖ جب هاملتون :

- ٤١) (دراسات في حضارة الاسلام) ترجمة الدكتور احسان عباس والدكتور

محمد يوسف نجم مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ .

❖ جرجي زيدان :

- ٤٢) (تاريخ التمدن الاسلامي) ، صدر عن دار الهلال ، راجعه وعلق عليه

الدكتور حسين مؤنس .

❖ جولد تسهير ، اجناس :

- ٤٣) (العقيدة والشرعية في الاسلام) ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى

واخرون، ط٢، مصر ١٩٤٦ .

❖ الجميلي، د. رشيد عبد الله.

- ٤٤) محاضرات في الفكر السياسي، معهد التاريخ العربي، بغداد / ٢٠٠٣.

- ٤٥) حملة هولاكو على العراق، مجلة المورد، ج٨، العدد ٤، سنة ١٩٧٩.

❖ جوستاف فون :

(٤٦) (حضارة الاسلام) ترجمة عبد العزيز توفيق واخرون ، دار مصر للطباعة .

❖ حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله ، كاتب حلبى :

(٤٧) (كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون) مجلدان ، بيروت دار الفكر ١٩٨٢

❖ حسين امين،الدكتور.

(٤٨) العراق في العصر السلجوقي، بغداد / ١٩٦٥.

❖ حسين ، الدكتور علي صافي.

(٤٩) الادب الصوفي في القرن السابع الهجري، القاهرة / ١٩٧٢.

❖ حمدي، حافظ احمد.

(٥٠) الدولة الخوارزمية والمغول، بغداد / ١٩٨٦.

❖ الحيدري ، محمد تقي :

(٥١) (اصول الفقه) النجف ١٩٥٦ .

❖ خصباك، الدكتور جعفر حسين.

(٥٢) العراق في عهد المغول، بغداد / ١٩٨٦.

❖ الدوري ، عبد العزيز :

(٥٣) (مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي) دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ .

(٥٤) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد / ١٩٤٥.

❖ دوزي ، رينهارت :

(٥٥) (تكملة المعاجم العربية) ترجمة محمد سليم النعيمي ، مراجعة جمال

الخياط الجزء الثامن - حرف ف-ق-، دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٩٧.

❖ دي بور ، ت ج :

(٥٦) (تاريخ الفلسفة في الاسلام) ، ترجمة عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة

❖ ديكارت :

(٥٧) (مبادئ الفلسفة) ترجمة عثمان امين ، القاهرة ١٩٦٥ .

❖ رشدي محمد عرسان عليان :

(٥٨) (العقل عند الشيعة الامامية) ، مطبعة دار السلام ، بغداد ١٩٥٣ .

❖ رشيد الجميلي :

(٥٩) (حركة الترجمة في الشرق في القرنين الثالث والرابع) بغداد ، ١٩٩٢ .

❖ روزنثال ، فرانز :

(٦٠) (الموسوعة الفلسفية) ، موسكو ١٩٨٥ .

❖ الزركان، دكتور محمد صالح.

(٦١) فخر الدين الرازي، القاهرة ، دار الفكر ، بلا تاريخ.

❖ زكي نجيب محمود :

(٦٢) (نافذة على فلسفة العصر) الكويت ١٩٨٢ .

(٦٣) (تجديد الفكر العربي) بيروت ١٩٨٤ .

❖ سليمان دنيا :

(٦٤) (تاريخ الفلسفة اليونانية) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، مصر

١٩٣٦ .

❖ سوسه ، احمد :

(٦٥) (دليل خارطة بغداد المفصل) بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد ،

مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٦ .

(٦٦) (فيضانات بغداد في التاريخ) مطبعة الاديب ، بغداد ١٩٦٥ .

❖ الشبيبي ، الشيخ محمد رضا :

(٦٧) (مؤرخ العراق ابن الفوطي) ج ١ مطبعة التفيض بغداد ١٩٥٠ ، ج ٢

مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٨ .

❖ الشيباني ، كامل مصطفى :

(٦٨) (الصلة بين التصوف والتشيع) جزءان ، بغداد ١٩٦٣ - ١٩٦٤ .

(٦٩) (الفكر الشيعي والنزعات الصوفية) مكتبة النهضة ، بغداد / ١٩٦٦ .

❖ شوقي ضيف :

(٧٠) (المدارس النحوية) القاهرة ١٩٦٤ .

❖ صالح احمد العلي :

(٧١) (مقدمة كتاب بغداد مدينة السلام) باريس / ١٩٧٧ .

❖ صالح مهدي الهاشم :

(٧٢) (ن والقلم وما يسطرون) مجلة البلاغ / العدد الثاني ، ايار / ١٩٧٠ ،

ص ٤٢ - ٤٧ .

(٧٣) (مقدمة كتاب الاسرار الخفية في العلوم العقلية) ، بيروت ١٩٧٥ .

(٧٤) (الثقافة ، المدنية ، الحضارة) مجلة الاديب المعاصر ، بغداد ١٩٩٩ .

(٧٥) (الخطاب النقدي واشكالية الديمقراطية) ضمن بحوث الندوة الفلسفية

الثانية / الجامعة الاردنية ٢٢-٢٤ / شباط / ٢٠٠٠ .

(٧٦) (الترجمة وروادها في بيت الحكمة، ضمن كتاب بيت الحكمة

العباسي...بغداد، ٢٠٠١.

(٧٧) مدرسة بغداد الفلسفية، عمان، دار الكرمل، ٢٠٠٠ .

(٧٨) شك الفيلسوف الغزالي، المؤتمر الفلسفي الثالث، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢ .

(٧٩) لماذا فلسفة التاريخ؟ دراسة مستقبلية، مجلة اتجاه، بيروت، ٢٠٠١ .

(٨٠) الفكر الفلسفي في القرن الثالث، دراسة في الاصول والاتباع، رسالة

ماجستير، ٢٠٠٠.

❖ الطهراني، الشيخ محسن اغا يزرك.

(٨١) الذريعة الى تصانيف الشيعة، طهران، اخراج علي تقي، عدة اجزاء.

(٨٢) الانوار الساطعة في المائة السابعة، تحقيق علي تقي، بيروت / ١٩٧٢.

❖ طيب تيزيني :

(٨٣) (فيما بين الفلسفة والتراث) ، الفصل الخامس عشر من كتاب الفلسفة العربية .

(٨٤) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت .

❖ عبد الستار الراوي :

(٨٥) (ثورة العقل ، دراسة فلسفية في فكر معتزلة بغداد) بغداد / ١٩٨٢ .

(٨٦) (فلسفة العقل ، رؤية نقدية للنظرية الاعتزالية) ، دار الحرية ، بغداد / ١٩٨٤ .

(٨٧) (مقدمات مستقبلية في فكر ابن رشد) ضمن الجزء الاول في كتاب الندوة العربية ١٩٩٨ .

❖ عبد الجبار ناجي :

(٨٨) (بيت الحكمة رؤية تاريخية) ، ضمن كتاب (بيت الحكمة ... الماضي والحاضر) ، بغداد كانون الثاني / ١٩٩٧ .

❖ عبد الله نعمه :

(٨٩) (فلاسفة الشيعة / حياتهم واراؤهم) ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (بلا تاريخ) .

❖ عبد الحميد العلوجي وكوركيس عواد :

(٩٠) (جمهرة المراجع البغدادية) / بغداد / ١٩٦٢ .

❖ عبد الكريم زيدان :

(٩١) (المدخل لدراسة الشريعة) ، بغداد ١٩٦٤ .

❖ عبد المنعم ماجد :

(٩٢) (تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى) ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٢ .

❖ عبد الهادي ابو ريده :

- ٩٣ (النظام) القاهرة ١٩٥٤ .
- ٩٤ مقدمة كتاب دي بور (تاريخ الفلسفة في الاسلام) القاهرة ١٩٥٧ .
- ❖ عبد الوهاب عزام :
- ٩٥ (التصوف وفريد الدين عزام) / مصر ١٩٤٥ .
- ❖ العبيدي، حسن مجيد.
- ٩٦ العلوم الطبيعية في فلسفة ابن رشد، بيروت / ١٩٩٥.
- ٩٧ نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، بغداد / ١٩٨٧.
- ٩٨ املاءات الدكتور العبيدي، بغداد / ٢٠٠٤.
- ❖ العقاد ، عباس محمود :
- ٩٩ (الفلسفة القرآنية) ، صيدا - بيروت .
- ❖ عرفان عبد الحميد :
- ١٠٠ (الفلسفة في الاسلام) ، بغداد ١٩٨٤ .
- ١٠١ دراسات في الفكر الاسلامي.
- ❖ فروخ، د. عمر.
- ١٠٢ تأريخ العلوم عند العرب، بيروت / ١٩٧٠.
- ❖ القزاز ، محمد صالح داود.
- ١٠٣ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير، النجف / ١٩٧٥.
- ❖ المامقاني، الشيخ عبد الله .
- ١٠٤ تنقيح المقال في احوال الرجال، المطبعة المرتضوية، النجف / ١٩٩٣.
- ❖ محمد مصطفى حلمي :
- ١٠٥ (الحياة الروحية في الاسلام) القاهرة ١٩٤٥ .
- ❖ محمد يوسف موسى :
- ١٠٦ (مقدمة كتاب العقيدة والشرعية) لجولد تسهير ، القاهرة ١٩٤٦ .
- ١٠٧ (تاريخ الفقه الاسلامي) القاهرة ١٩٥٨ .

❖ المظفر / محمد رضا :

(١٠٨) (اصول الفقة) ثلاثة اجزاء ، النجف ١٩٦٨ .

❖ محفوظ، د. حسين علي محفوظ.

(١٠٩) البريد في التراث، مركز احياء التراث، بغداد / ١٩٩٨.

(١١٠) املاءات الدكتور حسين علي محفوظ، بغداد / ٢٠٠٣.

❖ مهدي المخزومي :

(١١١) (مدرسة الكوفة النحوية) بغداد ١٩٦٠ .

❖ محمود قاسم ، الدكتور.

(١١٢) محي الدين ابن عربي ، القاهرة / ١٩٧٢.

❖ مصطفى جواد، الدكتور.

(١١٣) من التراث العربي، بغداد / ١٩٧٥.

❖ مصطفى عبد الرزاق، الدكتور.

(١١٤) (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية) ، القاهرة ١٩٤٧ .

❖ ناجي التكريتي ، الدكتور.

(١١٥) (مدرسة بغداد الفلسفية) ، ضمن كتاب (حضارة العراق) ، ج ٨ ،

بغداد ١٩٨٥

❖ النبال، د. محمد.

(١١٦) الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي، تونس / ١٩٧١.

❖ النشار ، د.علي سامي :

(١١٧) (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) القاهرة ١٩٦٦

❖ نصر، د. سيد حسين.

(١١٨) ثلاث حكماء مسلمين، ترجمة صلاح الصاوي، دار النهار ، بيروت /

١٩٧١.

❖ يوسف كرم :

(١١٩) تاريخ الفلسفة اليونانية (القاهرة ١٩٥٣ .

❖ هنري كوريان :

(١٢٠) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة نصير مروه وحسن قبّيس، لبنان ١٩٦٦ .

المصادر

❖ الأشعري ، عبد الوهاب

(١) الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق د. طه عبد الباقي سرور، بيروت/١٩٦٦.

❖ الامدي، ابو الحسن سيف الدين (ت ١٢٣٤/٦٣١ م).

(٢) غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبد المطلب، القاهرة /١٩٧١.

(٣) المبين في شرح الفاظ الحكماء والنكلمين، تحقيق الدكتور عبد الامير الاعسم ، بغداد / ١٩٨٥، ضمن كتاب المصطلح الفلسفي عند العرب.

❖ الايجي، القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن احمد،(ت١٣٥٧/٧٥٣م).

(٤) كتاب المواقف في علم الكلام/ نشره عالم الكتب، بيروت / ١٩٧٩.

❖ ابن الأثير ، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

(٥) الكامل في التاريخ ، (بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

❖ ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس ، احمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠م).

(٦) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، دار الفكر (بيروت ١٩٥٧ م).

❖ ابن ابي الحديد ، عز الدين ابو حامد عبد الحميد بن عبد الله المعتزلي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م).

(٧) شرح نهج البلاغة ، بتحقيق ابي الفضل ابراهيم ، (القاهرة ١٩٥٩ م).

❖ ابن بطوطه ، ابو عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).

(٨) رحلة ابن بطوطه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار)

(القاهرة ١٩٦٧) .

- ❖ ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، (ت ١٣٤١-٤٩ / ١٣٢٨) .
- (٩) الفتاوى ، ترتيب عبد الرحمن العاصي، الطبعة الاولى ، الرياض ، ١٩٦١ .
- (١٠) نقض المنطق، تقديم ونشر ، عبد العزيز التوكيل، القاهرة، ١٩٥١ .
- (١١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، دار الهلال، القاهرة ١٩٨١ .
- (١٢) الرد على المنطقيين ، نشر عبد الصمد شرف الدين المكتبي، المطبعة القيمة، بمباي الهند، ١٩٤٩ .
- (١٣) منهاج السنة النبوية ، دار الكتب العلمية بيروت، بلا ت .
- (١٤) الرسالة التدمرية، ضمن مجموعة نفائس، تحقيق : محمد حامد الفقي، بلا
- ❖ ابن حزم ، ابو محمد علي بن محمد الظاهري (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣ م) .
- (١٥) الفصل في الملل والهواء والنحل ، (مصر ١٩٢٨ م) .
- ❖ ابن حنبل ، ابو عبدالله احمد بن محمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥ م) .
- (١٦) المسند، تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ❖ ابن جبير، ابو الحسن بن محمد الأندلسي (٦١٤هـ / ١٢١٧ م) .
- (١٧) رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، (القاهرة ١٩٥٥ م) .
- ❖ ابن جعفر، قدامة ، ابو الفرج قدامة البغدادي ، (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨ م) .
- (١٨) كتاب الخراج و صناعة الكتابة ، شرح و تحقيق : الدكتور محمد حسين الزبيدي ، (بغداد ١٩٨٧ م) .
- ❖ ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١ م) .
- (١٩) صفة الصفوة ، نشر وتحقيق (دار المعارف للطباعة والنشر ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م) .
- (٢٠) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المطبوع ابتداءً من الجزء الخامس و لغاية العاشر (بغداد ١٩٩١ م) .

❖ ابن خلدون ، ابو يزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م).

(٢١) مقدمة ابن خلدون ، المكتبة التجارية القاهرة .

❖ ابن خلكان شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م).

(٢٢) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، بتحقيق د. احسان عباس ، (بيروت دار صادر ١٩٧٧).

❖ ابن داود، تقي الدين الحسن ابن علي الحلبي (ولد ٦٤٧ / ١٢٤٩ م).

(٢٣) كتاب الرجال، طهران / ١٩٦٣.

❖ ابن رشد ، القاضي ابو الوليد محمد ابن احمد (ت ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م).

(٢٤) تفسير ما بعد الطبيعة ، (أربع أجزاء) نشره بويج ، بيروت ١٩٦٤ م

(٢٥) السماع الطبيعي ، (ضمن رسائل ابن رشد) حيدر اباد ١٣٦٥ هـ

(٢٦) السماء والعالم ، (ضمن رسائل ابن رشد) حيدر اباد ١٣٦٥ هـ

(٢٧) تهافت التهافت ، نشره بويج ، ١٩٣٠ م

❖ ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م).

(٢٨) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، ١٩٦٦

❖ ابن عبد الحق البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن، (ت ٧٣٩/١٣٣٨ م).

(٢٩) مرصد الاطلاع، تحقيق علي محمد بنجاوي، دار المعارف، بيروت/ ط ١/ ١٩٥٤ .

❖ ابن عتبة، جمال الدين احمد بن علي الحسيني، (ت ٨٢٨/١٤٢٥ م).

(٣٠) عمدة الطالب في انساب بني طالب ،النجف/ ١٩٦١.

❖ ابن عربي، الشيخ محي الدين (ت ٦٣٨/١٢٤٠ م).

(٣١) اصطلاحات الصوفية، تحقيق نضلة الجبوري، بغداد / ١٩٩٨.

- (٣٢) فصوص الحكم، ط٢، تحقيق الدكتور ابو العلاء عفيفي، موصل/١٩٨٩.
- (٣٣) الفتوحات المكية، تحقيق الدكتور عثمان يحيى، القاهرة/١٩٨٧.
- (٣٤) تفسير ابن عربي، القاهرة/١٩٦٥.
- ❖ ابن سينا، ابو علي حسين بن عبد الله، (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)...
- (٣٥) الإشارات و التنبيهات، طهران ١٣٧٧هـ...
- (٣٦) النجاة، طبع محي الدين صبري الكردي، القاهرة ١١٣٨هـ
- (٣٧) الشفاء (الإلهيات، تحقيق سعيد زايد، القاهرة ١٩٦٠م)
- (٣٨) تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ
- (٣٩) عيون الحكمة تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٥٤م
- (٤٠) شرح مقالة اللام ضمن أر سطو عند العرب، تحقيق عبد الرحمن بدوي،
ج١، القاهرة، ١٩٤٧م
- (٤١) الرسالة العرشية، مجموعة الرسائل حيدر آباد ١٣٥٣هـ
- (٤٢) الشفاء (الطبيعات)، تحقيق محمود قاسم، القاهرة ١٩٦٩م
- (٤٣) الشفاء، النفس نشرة براغ ١٩٥٩م
- (٤٤) رسالة اضحوية في الميعاد، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة ١٩٩٤م
- ❖ ابن الفوطي، عبد الرزاق ابن احمد (ت ١٣٢٣/٧٢٣ م).
- (٤٥) الحوادث الجامعة، (المنسوب له خطأ)، تحقيق الدكتور بشار عواد
والدكتور عماد عبد السلام، دار المغرب الإسلامي/ ١٩٩٧.
- ❖ أبن الفقيه الهمذاني، ابو بكر احمد بن محمد (ت ٢٨٩هـ / ٩٠٢م).
- (٤٦) بغداد مدينة السلام، تحقيق احمد صالح العلي (دار الطليعة باريس
١٩٧٧).
- ❖ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م).
- (٤٧) عيون الأنباء، مصر ١٩٢٥م / ١٣٣٤هـ.
- ❖ ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤هـ /

١٣٧٣م).

(٤٨) البداية والنهاية في التاريخ ، (القاهرة ١٩٣٢) .

❖ ابن المطهر الحلي، جمال الدين الحسن بن يوسف (ت ٧٢٦هـ — / ١٣٢٦م).

(٤٩) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، قم، بلا تاريخ.

(٥٠) الجوهر النضيد في شرح التجريد ، طهران ١٩٦٠م.

(٥١) انوار الملكوت في شرح البياقوت ، تصحيح محمد نجم زنجاني ، قم ، ١٤٠٢ هـ .

(٥٢) منتهى المطلب في تحقيق المذهب، ايران، مشهد، نشر مجمع البحوث الاسلامية، ١٤١٢ هـ .

(٥٣) نهاية المرام في علم الكلام، تحقيق فاضل العرفان، قم/ ١٤١٩ هـ .

(٥٤) نهج الحق وكشف الصدق، ضمن كتاب الشيخ المظفر ، (دلائل الصدق .)

(٥٥) الاسرار الخفية في العلوم العقلية، تحقيق الدكتور حسام الالوسي و صالح مهدي هاشم، بيروت/ ١٩٧٥ .

(٥٦) اجوبة المسائل المهنية، ايران / ١٣١١ .

(٥٧) خلاصة الرجال، النخف/ ١٣٨١، تحقيق السيد محمد بحر العلوم.

(٥٨) ارشاد الازهان في احكام الايمان، طهران/ ١٣١٦ .

(٥٩) تذكرة الفقهاء، ج ١، طهران/ ١٢٧٢، طهران/ ١٣٤٩، ج ٧، النجف/ ١٣٧٤ .

❖ ابن منظور ، جمال الدين محمد الخزرجي (ت ٧١١ هـ / ١٣١١م).

(٦٠) لسان العرب ، (بيروت ، دار الفكر ١٩٥٤ - ١٩٥٥) .

❖ ابن النديم، ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب الوراق (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥م).

(٦١) الفهرست ، تحقيق رضا — تجدد (طهران ١٩٧١م).

❖ ابو البركات البغدادي ، هبة الله ابن ملكة (ت ٥٤٧هـ / ١١٥٢م).

٦٢) المعنبر في الحكمة (٣ اجزاء، المنطقيات، الطبيعيات، الالهيات) حيدر اباد
١٣٥٧م

❖ أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ - ٧٦٧م)

٦٣) الفقه الأكبر . ملحق كتاب الشرح، مصر ١٣٢٣/١٩٠٥

❖ ابو حيان التوحيدى ، (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م).

٦٤) الأمتاع و المؤانسة، (القاهرة ١٩٥٣م).

❖ أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين القرش (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م).

٦٥) الأغاني ، طبعته دار التوجيه اللبناني عن طبعة بولاق ٢١
جزءاً/بيروت.

❖ اخوان الصفا و خلان الوفا (قريباً من ٣٥٢هـ / ٩٦٣م).

٦٦) الرسائل ، القاهرة ١٩٢٨م

❖ أفلاطون ، الفيلسوف (ت ٣٤٨ ق.م)

٦٧) محاور طيماوس ، ترجمة الأب بربرة ، دمشق ، بدون تأريخ

٦٨) محاورات افلاطون فيدون ، ترجمة د.زكي نجيب محمود ، القاهرة

١٩٦٣م

❖ أرسطو ، الفيلسوف والمعلم الاول ولده ٣٨٥-٣٢٢ ق.م

٦٩) في السماء والآثار العلوية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦١م

٧٠) النفس ، ترجمة احمد فؤاد الاهواني ، القاهرة ١٩٦٢م

❖ أفلوطين ، الشيخ اليوناني الفيلسوف (٢٧٠م)

٧١) اثولوجيا ارسطوطاليس ، نشرة ديتريشي ، لبيزج ١٨٨٢م .

❖ الحنبلي، احمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦/٤٧١م)

٧٢) شفاء القلوب في مناقب بني العرب، تحقيق د. ناظم رشيد، بغداد/

١٩٧٨.

❖ الأشعري ، ابو الحسن على بن اسماعيل (٣٢٤هـ / ٩٣٤م).

- (٧٣) مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين ، القاهرة ١٩٥٠م.
- ❖ البلاذري ، أبو جعفر احمد بن يحيى البغدادي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
- (٧٤) أنساب الأشراف ، القدس ١٩٣٦م.
- ❖ البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م).
- (٧٥) الفرق بين الفرق (القاهرة/ ١٩٤٧م).
- ❖ جابر بن حيان الصوفي الكوفي (ت حوالي ١٩٧هـ/ ٨١٢م)
- (٧٦) مختارات رسائل جابر بن حيان ، تحقيق : بول كراوسي، القاهرة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.
- (٧٧) مصنفات في علم الكيمياء ، بعناية المستشرق الفرنسي إرك هولي ماير ، باريس ١٩٢٨م.
- ❖ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٨٩م).
- (٧٨) البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٨٥م.
- (٧٩) البخلاء ، بيروت دار صادر .
- ❖ الخطيب البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر بن خالد (٤٣٦هـ/ ١٠٧٠م).
- (٨٠) تاريخ بغداد ، (دمشق ١٩٢٧م).
- ❖ الذهبي ، شمس الدين محمد بن عثمان، (ت ١٣٤٧/٧٤٨ م).
- (٨١) سير اعلام النبلاء، ج ٢٣، تحقيق د. بشار عواد وآخرون...
- ❖ الرازي ، ابو بكر زكريا (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٥م).
- (٨٢) رسائل الرازي الفلسفية ، تحقيق بول كراوس، القاهرة ١٩٣٩م
- ❖ الرازي ، فخر الدين ابو عبد الله محمد بن الحسين (ت ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)
- (٨٣) المباحث المشرقيين ، الجزء الثاني ، طهران ١٩٦٦م
- (٨٤) محصل افكار المتقدمين والمتأخرين ، القاهرة ١٩٢٣م
- (٨٥) معالم اصول الدين ، على هامش كتاب المحصل
- (٨٦) الاربعين في اصول الدين ، على هامش كتاب المحصل

- ٨٧) لباب الاشارات القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٠هـ
- ❖ الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م).
- ٨٨) معجم الادياء ، دار احياء التراث العربي ، بيروت عن نسخة دار المأمون بالقاهرة .
- ❖ الخوارزمي ، ابو عبدالله محمد بن يوسف ، (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م).
- ٨٩) مفاتيح العلوم ، بيروت طبعة الأوفسيت.
- ❖ رشيد الدين فضل الله، (ت ٧١٨/١٣١٨ م).
- ٩٠) جامع التواريخ، مراجعة د. يحيى الخشاب، القاهرة، بلا تأريخ.
- ❖ سبط ابن الجوزي، ابو المظفر يوسف البغدادي، (ت ٦٥٤/١٢٥٦ م).
- ٩١) مرآة الزمان وتاريخ....، حيدر اباد، ١٩٥٨، القسم الثاني ج ٨.
- ❖ السهرودي ، ابو حفص عمر بن محمد، (ت ٦٣٢/١٢٣٥ م).
- ٩٢) عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦.
- ❖ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت ٩١١هـ / ١٥٠٥ م).
- ٩٣) تاريخ الخلفاء ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢م.
- ❖ الشافعي ، محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)
- ٩٤) الرسالة في اصول الفقة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مصر ١٩٤٠م.
- ❖ الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٥ م).
- ٩٥) الملل والنحل، على هامش كتاب الفصل بين الملل والنحل، نشر مكتبة المنتبي، ومؤسسة الخانجي، بلا تأريخ.
- ❖ الصابي ، ابو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م).
- ٩٦) الوزراء ، تحقيق عبد الستار احمد قراح(دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨م).

- ٩٧) رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، (بغداد ١٩٦٤م).
- ❖ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ / ٩٢٣م).
- ٩٨) تأريخ الرسل والملوك ، بالأوفسيت على طبعة ليدن الاوربية .
- ❖ الطوسي ، أبو جعفر محمد بن الحسن ، (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م).
- ٩٩) كتاب الرجال ، بتحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم (النجف ١٣٨١).
- ١٠٠) كتاب الفهرس ، بتحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم (النجف ١٣٨٠).
- ❖ الطوسي ، نصير الدين محمد (ت ٦٧٣ / ١٢٨٥ م)
- ١٠١) شرح الاشارات والتتبهات ، طهران/١٩٧٧.
- ١٠٢) تلخيص المحصل على هامش كتاب محصل الرازي .
- ١٠٣) تجريد الاعتقاد، قم ، بلا تاريخ.
- ❖ العاملي، محمد بن الحسن ،(ت ١٦٨٦/١٩٧م).
- ١٠٤) اهل الامل في علماء جبل عامل، طهران /١٩٠٢م.
- ❖ الفضل بن روزبهان.
- ١٠٥) ابطال نهج الباطل...، ضمن كتاب المظفر (دلائل الصدق).
- ❖ الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد ، (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م).
- ١٠٦) تهافت الفلاسفة ، (بيروت ١٩٦٢م).
- ١٠٧) مقاصد الفلاسفة ، تحقيق سليمان الدنيا ، القاهرة ١٩٦١م
- ١٠٨) المعارف العقلية ، تحقيق عبد الكريم العثمان ، دمشق ١٩٢٨م
- ١٠٩) الأربعين في اصول الدين ، القاهرة ١٣٤٤هـ
- ١١٠) احياء علوم الدين ، (القاهرة ١٩٣٩م).
- ١١١) المنقذ من الضلال ، تحقيق جميل صليبيبا، ط ٩، بيروت / ١٩٨٠
- ❖ الفارابي ، ابو نصر محمد بن محمد (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م)
- ١١٢) السياسات المدنية ، حيد اباد ١٣٤١هـ
- ١١٣) اراء اهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، بيروت ١٩٥٩م

- (١١٤) مسائل متفرقة ، حيد اباد ، ١٣٤٤هـ
- (١١٥) عيون المسائل ، نشره ديدش ١٨٩٠م
- (١١٦) التعليقات ، حيدر اباد ، ١٣٤٦هـ
- (١١٧) احصاء العلوم،تحقيق د. عثمان امين، القاهرة/ ١٩٦٨ .
- ❖ القاضي ، ابو القاسم صاعد بن احمد الأندلس ، (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م).
- (١١٨) طبقات الأمم ، مصر مطبعة السعادة (بلا تاريخ).
- ❖ القشيري ، ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن، (ت ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م).
- (١١٩) الرسالة القشيرية ، (القاهرة ١٩٤٨م).
- ❖ القفطي،الوزير جمال الدين ، ابو الحسن علي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)
- (١٢٠) انباء العلماء باخبار الحكماء ، دار الاثار ، بيروت .
- ❖ الكشي، ابو عمرو محمد بن عمر بن عبدالعزيز (القرن الرابع الهجري)
- (١٢١) الرجال ، بتحقيق احمد الحسيني (كربلا بلا تاريخ).
- ❖ الكندي ، يعقوب بن اسحق ، (ت ٢٥٢هـ / ٨٦٦م).
- (١٢٢) رسائل الكندي ، تحقيق د. محمد عبد الهادي ابو رية (القاهرة ١٩٦٥م).
- ❖ المحاسبي،الحارث بن أسد الصوفي (ت ٢٤٣هـ / ٨٣٦م).
- (١٢٣) الرعاية لحقوق الله ، تحقيق : د.عبد المنعم محمود ، القاهرة (بلا تاريخ).
- ❖ المسعودي ، ابو الحسن على ابن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م).
- (١٢٤) مروج الذهب و معادن الجواهر ، تحقيق محمد محي الدين ، القاهرة ، ١٩٦٥.
- ❖ المفيد ابو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م).
- (١٢٥) الأرشاد ، اخراج كاظم الموسوي ، طهران ١٣٧٧هـ...
- ❖ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الأخباري (ت ٢٨٤هـ / ٨٧٩م).
- (١٢٦) تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨هـ / ١٩٢٩م).

المحتويات

الصفحة

الموضوع

٣

المقدمة

الفصل الأول

الدولة العربية الإسلامية / دراسة في التاريخ السياسي

١٧

الخلافة العباسية من الكبوة إلى النهوض

الفصل الثاني

٣٧

الدولة العربية الإسلامية من النهوض الى الكبوة والسقوط

الفصل الثالث

٧٥

الغزو المغولي للعراق

الفصل الرابع

١١٧

المبحث الاول : علم الكلام

١٣١

المبحث الثاني : الشيخ فخر الدين الرازي

١٣٨

المبحث الثالث : الشيخ سديد الدين بن محفوظ ابن عزيزة

١٤٢

المبحث الرابع : الشيخ سيف الدين الامدي

١٥٥

المبحث الخامس : القاضي الشيخ عبد الرحمن الايجي

الفصل الخامس

- المبحث الأول : علم أصول الفقه ١٧٣
- المبحث الثاني : المحقق الحلي ١٧٩
- المبحث الثالث : الشيخ هيثم البحراني ١٩٠
- المبحث الرابع : الشيخ تقي الدين احمد بن تيمية ١٩٩

الفصل السادس

- المبحث الاول : الفلسفة العربية الإسلامية. ٢٢١
- المبحث الثاني : نصير الدين بن الطوسي ٢٤٠
- المبحث الثالث : سعد بن منصور ابن كمونة ٢٥٨

الفصل السابع

- المبحث الأول : التصوف العربي الإسلامي في القرن السابع ٢٨٧
- المبحث الثاني : ابو حفص الشيخ عمر السهروردي ٣١٤
- المبحث الثالث : الشيخ عمر ابن الفارض ٣٢١
- المبحث الرابع : الشيخ محيي الدين ابن عربي ٣٢٦

الفصل الثامن

- المبحث الأول : ابن المطهر الحلي متكلماً ٣٣٨
- المبحث الثاني : المنطق في فكر العلامة الحلي ٣٥٣
- المبحث الثالث : أصالة الفلسفة الطبيعية في فكر الحلي ٣٨٣
- المبحث الرابع : أصالة الفلسفة الإلهية في فكر الحلي ٤٢٤
- المبحث الخامس : ابن المطهر الحلي صوفياً ٤٥٨
- الخاتمة ٤٧٧
- المراجع و المصادر ٤٨٦

المصري
للطباعة

ت : ٢/٣٧٢٤١٧٨٦

موبايل : ٠١٢/٢٢٧٤٩٤٧٥ - ٠١١/٤٢٢٩٩١٧١

E-mail: Dar_Elmasry@yahoo.com

